الرهان

لانطون تشيكوف الروسي

(١٨٦٠ — ١٩٠٤)

يعدُّ تشيكوف من اعظم كتّاب الاقاصيص في العالم . ولد سنة ١٨٦٠ في جنوب روسيا . ودرس فنّ الطب في جامعة موسكو ونال شهادة طبيب سنة ١٨٨٤ . ولكنّهُ لم يزاول هذه الصناعة قط بل تفرّغ للكتابة . وقد وجد في العلوم التي تضلّع منها في الجامعة خير معوان على البراعة في فنّ اليراعة . فبلغ من معرفة اطوار الناس وعاداتهم مبلغاً فائق الوصف ومنقطع النظير . واجاد تمثيلها في قصصهِ الكثيرة إجادة خلبت اذهان القرّاء ودلّت على ما أُوتيهُ من قوّة البلاغة وشدة الذكاء . وقد توفي في اليوم الثاني من شهر يوليو سنة ١٩٠٤ ودُفن في موسكو

وفي القصة الآتية بيان ما يؤدّي اليهِ الرهان البسيط من النتائج السيئة والعواقب الوخيمة

القصة

في احدى ليالي الخريف المظلمة اخذ الكنتي الصيرفيّ يتمشّى في مكتبهِ جيئةً وذهاباً . وقد استعاد في ذهنهِ ذكر الليلة الساهرة التي احياها في بيتهِ منذ خمس عشرة سنة ودعا اليها نخبة اهل الفضل والجاه . وكان من جملة الأُمور التي بحثوا فيها وجعلوها موضوع سمرهم عقوبة القتل او الحكم على القاتل بالموت . فاستهجن معظمهم هذهِ العقوبة وعدّوها منافية للدين والادب وقالوا بوجوب الغائها واستبدال السجن المؤبد بها . فتصدّى لهم الصيرفيُّ ربُّ الدعوة وقال :

« لستُ بموافق على هذا الرأي . ومع اني لم اجرّب الحكم بالموت ولا اختبرتُ السجن المؤبّد أرى ورأيي قرين الصواب ان العقوبة الاولى [الحكم بالموت] اقرب من العقوبة الثانية [السجن المؤبد] الى مراعاة حرمة الدين وقواعد الادب . لان الموت يصرم حبل الحياة باسرع ما يستطاع . واما السجن المؤبد فهو عبارة عن قتل تدريجيّ . فايّ القاتلين ارأف وأرفق ؟ أذلك الذي ينزع الحياة في بضع ثوانٍ ام الذي يستنزفها كلّ يوم بلا انقطاع مدة سنين طويلة ؟ »

فقال واحد من المدعوين :

« عندي ان الجريمتين كلتيهما مخالفتان للدين ومغايرتان للادب . لان غرضهما واحد وهو إطفاء شعلة الحياة . والحكومة اية كانت ليست الله . فلا يحقُّ لها اخذ مالا تستطيع ردَّهُ اذا شاءت »

وكان بينهم محامٍ في الثانية والعشرين من العمر . وقد سئل ان يبدي رأيهُ في هذه المسألة فأجاب :

« أرى ان العقوبتين كلتيهما فظيعتان ومناقضتان لقواعد الادب . ولكنني لو خُيرت فيهما لاخترتُ من فوري الثانية (السجن المؤبد) وفضلتها على الاولى . لانَّ الحياة ، على اي وجهٍ كان ، خير من عدمها »

وحمي وطيس الحوار في هذا الموضوع واتسعت مسافة الخلف بين المتحاورين . وكان ربُّ الدعوة في ذلك الحين في عنفوان الشباب وعلى جانب عظيم من النزق وسرعة الغضب . فضرب المائدة بيدهِ والتفت الى المحامي وقال لهُ باسان المغيظ المحنق :—

« ذلك كذب وبهتان ؛ واني اراهنك على مليوني ريال ان استطعتَ الصبر على الاقامة في السجن خمس سنوات فقط »

— « اذا كنتَ في قولك هذا جادًّا غير هازلٍ فاني مستعدٌّ للمراهنة لا على خمس سنين فقط بل على خمس عشرة سنة

فصاح الصيرفيُّ :

« خمس عشرة سنة ! اتفقنا . اشهدوا ايها السادة »

وقال لهُ المحامي :

« نعم اتفقنا على مسمع ومرأى من هؤلاءِ السادة . فانت تُغامر بمليوني الريال وأنا اخاطر بحياتي »

وهكذا تمَّ ذلك الرهان الغريب الباعث على المزءِ والسخرية . وكان الصيرفيُّ في ذلك الحين من ارباب الثروة الكبيرة واصحاب الملايين الكثيرة . لكنهُ كان تقنًا شكساً سريع التقلُّب . وفيما هم جالسون لتناول العشاءِ قال للمحامي :

« خلِّ عنك الغرور ايها الشابّ وارعوِ عن غيِّك قبل فوات الوقت . لا يهمني دفع مليوني ريال . ولكن من المحقق عندي انك لا تستطيع الاقامة في السجن

اكثر من ثلث او اربع سنوات تذهب من حياتك سدًى .ولا تنس ايُّها الفتى المنكود الحظ ان السجن الاختياريّ اشدّ وطأة على النفس من السجن الاضطراريّ . ولقد أعذر من أنذر والسلام »

***

والآن كان هذا الصيرفيُّ يروح ويجيء في مكتبهِ ذاكراً كل ما حدث في تلك الليلة وقائلاً في نفسهِ :

« لماذا أقدمتُ على هذا الرهان ؟ وما الفائدة منهُ ؟ هذا المحامي يخسر خمس عشرة سنة من حياتهِ وانا اضيع مليوني ريال باطلاً . وهل في هذا وذاك ما يقنع الناس بان العقوبة بالموت شرّ او خير من عقاب السجن المؤبد ؟ لا . لا ؟ هذا كلّهُ باطلٌ وغرور. أتيتهُ مندفعاً بعامل الزهو والخيلاء واتاهُ المحامي منساقاً بشهوة الطمع وحبّ المال»

ثم تذكّر ما حدث بعد تلك الليلة . اذ ترتّب على المحامي ان يقيم في غرفةٍ في حديقة بيت الصيرفيّ تحت اشدّ مراقبة ويكون في اثناءِ مدة سجنهِ محروماً حتى حقّ اجتياز العتبة لمشاهدة احد من الناس او سماع الاصوات البشرية او تسلّم الرسائل والصحف . وكان مأذوناً لهُ ان يكون عندهُ آلة موسيقية وان يطالع الكتب ويكتب ما شاء من الرسائل ويشرب خمراً ويدخن تبغاً . وبموجب الاتفاق كان يحق لهُ ان يكتب على ورقة ما يحتاج اليهِ مما سبق ذكرهُ ويلقيها من نافذة صغيرة ، انشئت في غرفتهِ لهذه الغاية ، من غير ان يفوه بكلمة . وكان في الاتفاق نصٌّ صريح على اتخاذ الوسائط الضرورية لاستيفاءِ شروط السجن كلها في هذه الغرفة . وتحتم على المحامي ان يقيم محبوساً فيها خمس عشرة سنة كاملة من منتصف اليوم الرابع عشر من شهر نوفمبر سنة ١٨٧٠ الى منتصفهِ سنة ١٨٨٥ . واقل محاولة منهُ للإخلال في الشروط المتفق عليها والخروج من سجنهِ ولو دقيقة واحدة قبل الوقت المعين تسوّغ للصيرفيّ نقض العهد وعدم دفع مليوني الريال

***

ومن مطالعة المذكرات القصيرة التي كان المحامي يكتبها ويلقي بها من نافذة محبسهِ اتّضح انهُ قضى سنتهُ الاولى في ما لا مزيد عليهِ من السآمة والضجر.وكان صوت

الى الاعماق واتيت ما شئت من خوارق الآيات والمعجزات واضرمت النار في مدن غادرتها رماداً ونشرت ديانات جديدة جعلت الناس كلهم لها عبّاداً . ومن كتبكم هذه جمعت حكمة الاولين والآخرين فصرت احكم انسان تحت الشمس

« والآن اقول اني ازدري كتبكم هذه واحتقر الحكمة العالمية والبركات الارضية . فكل شيء في العالم باطل — ظلهُ زائل ولونهُ حائل . وهو احيل من ضباب واخدع من سراب . أراكم تزهون وتفتخرون بما أُوتيتم من حكمة وثروة وجاه وجمال ولكن هذه كلها وغيرها من اباطيل الارض لا تدفع عنكم يد الموت حين تمتدُّ اليكم وتمدُّ مطار الفناء عليكم

« انكم في غرور وضلال بل في جنون ما بعدهُ من جنون . تؤثرون الغيّ على الهدى والكذب على الصدق والحرام على الحلال والسماجة على الجمال وتستبدلون الخبيث بالطيب والطالح بالصالح

« ولكي أريكم بالفعل شدة احتقاري لما تعلقون قلوبكم عليهِ وتوجهون كل اهتمامكم في هذه الحياة اليهِ ارفض المليونين اللذين راهنت عليهما والآن انظر اليهما بعين الازدراء . ولكي احول دون استحقاقي لهما عزمتُ على الخروج من سجني قبل الوقت المعيَّن بخمس دقائق فأخلّ بشروط الاتفاق واحرم المبلغ المتفق عليهِ »

***

ولما فرغ الصيرفيّ من تلاوة الصحيفة وضعها على المائدة وقبّل المحامي في رأسهِ واوغل في البكاءِ والنحيب . وما ابطأ ان غادر الغرفة راجعاً الى بيتهِ وقلبهُ مثقلٌ بالغمّ ومفعمٌ بالشعور العميق بفرط سفالتهِ ونذالتهِ . واضطجع في سريرهِ يحاول النوم فلم يستطعهُ وقضى بقية ليلهِ في اكتئاب وانتحاب نادماً على ما اتاهُ من اعمال الخساسة والدناءة . وقبيل الفجر ران عليهِ الكرى فغرق في لجتهِ الى ظهر اليوم التالي حين جاءهُ الحارس مهرولاً واخبرهُ بانهُ رأى الرجل المقيم في الغرفة التي في جناح الحديقة وقد وثب من النافذة الى الحديقة ثم خرج من البوابة وذهب . فخفّ الصيرفيّ الى جناح الحديقة ومعهُ خدامهُ وقرّر فرار السجين بشهادة الخدَّام . ولكي يجتنب قال الناس وقيلهم في هذا الموضوع اخذ الصحيفة التي كانت لا تزال على المائدة واقفل عليها في خزانتهِ

ترجمة : اسعد خليل داغر

فانتظر خمس دقائق والسجين باقٍ ساكتاً لا يُبدي حراكاً . لانهُ كان قد ارتاض في هذه السنين الطويلة على جلوس خال من الحركة كانهُ فيهِ قطعة من جماد . ونقر الصيرفيُّ باصبعهِ على زجاج النافذة فلم يسمع جواباً ولا رأى في السجين اقلَّ حركة. واذ ذاك عمد الى الباب ففك ختمهُ وادار المفتاح فيهِ فارتفع لانفتاحهِ صريف ظنهُ كافياً لتنبيهِ الحامي ان كان غافلاً او لايقاظهِ ان كان نائماً ولكنهُ ما لبث ان رأى ظنهُ في غير محلهِ وصحت عزيمتهُ على الدخول

دخل فرأى بجانب المائدة رجلاً ليس كغيرهِ من الرجال . ذا جسد هزيل نحيل لم يبق منهُ سوى عظم ذاوٍ ذابل عليهِ جلد متغضن متكمش وهو اصفر الوجه غائر الخدين اعجف اليدين مقوَّس الظهر وقد وخط الشيب شعر رأسهِ ولحيتهِ الجعد الطويل وامامهُ صحيفة مكتوبة بخطٍّ دقيق انيق . فحدَّق الصيرفيُّ اليهِ وقال في نفسهِ : —

« انهُ نائم نوماً عميقاً . ولعلهُ يرى مليوني الريال في حلمهِ وينعم بعدّها — فما عليَّ سوى ان احملهُ واضعهُ في فراشهِ واغمي وجههُ بالمخدة فتخمد بقية انفاسهِ . ولا اوجس خوف اتهامي بقتلهِ لان الفتك بهِ على هذا الوجه سيخفى حتى على امهر الاطباء . ولكنني اروم ان اطلع اوَّلاً على ما كتبهُ

ثم تناول الصحيفة وتلا فيها ما يأتي : —

« غداً الساعة الثانية عشرة تُفكُّ قيود سجني وتردُّ اليَّ حرية الخروج من حبسي والاختلاط ببني جنسي . ولكنني قبل مغادرة هذه الغرفة ومشاهدة ضياء الشمس ارى من الضروري ان اخاطبكم يا اهل العالم بهذه الكلمات . فبضمير صالح نقيّ وامام الله الذي يراني أُصرّح لكم اني احتقر الحرية والحياة والصحة وكل ما تفاخر كتبكم بعدّهِ من بركات هذا العالم

« خمس عشرة سنة قضيتها في الدرس الدقيق والتأمل العميق في هذه الحياة الدنيا . نعم اني لم ارَ فيها الارض ولا الناس . ولكنني في كتبكم حصلت على كلّ ما يستطاب اقتطافهُ ويستعذب ارتشافهُ ونلت كل ما تطرب الآذان بسماعهِ وتقرّ العيون بمشاهدتهِ ووقفت على اسرار الطبيعة وخفايا العلوم والفنون وجولت في الارض برّاً وبحراً وكشفت المجاهل في مفاوز الارض وما كان منها تحت الماء وفوق الهواء وعرفت ما اعتاصت معرفتهُ حتى على كبار الفلاسفة والحكماء . في كتبكم صعدت الى الاعالي وهبطت

ان استبدل بالعهد الجديد تاريخ الاديان وعلم الفقه (اللاهوت)

***

وفي السنتين الاخيرتين من سجنه كان يطالع ما تقع يده عليه إتفاقاً من الكتب بلا تحرٍ ولا اختيار . ولما اوشكت مدة سجنه ان تنتهي قال الصيرفيُّ في نفسه :

« في الساعة الثانية عشرة غداً يُقضى الامر ويحق للمحامي ان يخرج من سجنه. وبموجب الاتفاق يترتب عليَّ ان ادفع اليه مليوني ريال .واذا دفعت هذا المبلغ الباهظ بتُّ فقيراً معدماً لا املك درهماً»

كان منذ خمس عشرة سنة ربَّ ملايين كثيرة . ولكنهُ كان في هذه المدة قد انبعث في المضاربات والمراهنات وخسر فيها مقادير كبيرة من المال واصبح عرضة للهواجس والمخاوف

وعند افتكاره بدنوّ الساعة الرهيبة تبرّم وتأمل وقبض رأسهُ بين يديه وقال بلهجة القانط اليائس :

« يا لهُ من رهان مشؤوم ملعون ! وهذا المحامي العتلّ الزنيم لماذا لم يمت ويرحني من هذا العذاب الاليم ؟ عما قليل يبتزّ مني آخر درهم املكهُ فيتزوّج ويعيش في رغد ورخاء وسرور وصفاء ويغادرني افقر من ابن المذلّق اتجرّع غصص الضنك والشقاء! لا — لا — إن هذا فوق طاقتي ولا يسعني احتمالهُ . وخير وسيلة للتخلص من هذا الضيق الخانق ان يموت المحامي . اذن لا بدَّ من موته »

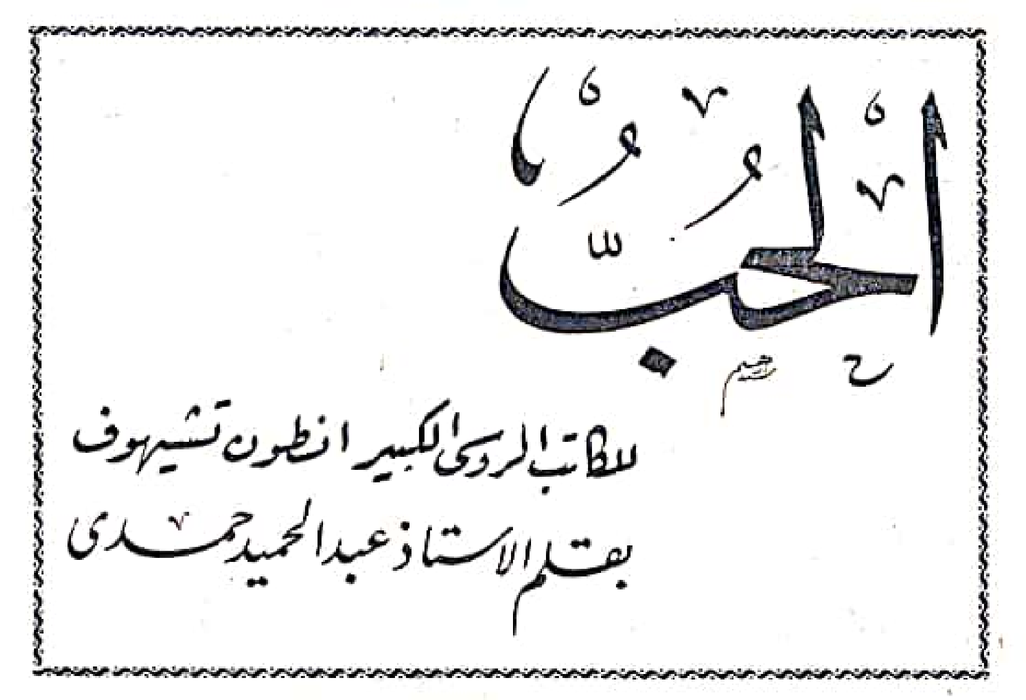
وكانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل والصيرفيُّ حليف سهاد لم تذق فيه عيناه طعم الرقاد . وكان ظلُّ السكوت مخيماً على بيته وجميع من فيه غارقون في لجة الكرى . فتناول مفتاح الباب المقفل منذ خمس عشرة سنة ولبس معطفهُ وخرج . وكان البرد قارساً والظلام دامساً . فسرى في الحديقة متلمساً طريقهُ بيديه كالاعمى حتى وصل الى جناحها حيث غرفة السجين وأهاب بالحارس مرتين فلم يكن من مجيب لانهُ كان متثقلاً بنوم عميق في المطبخ . ولما وصل الى باب الغرفة أشعل عود ثقاب ونظر فرأى الختم باقياً عليه كما كان منذ يوم إقفاله . وأطلَّ من النافذة الصغيرة وعلى ضياء شمعة ضئيل ابصر المحامي جالساً على كرسي بجانب المائدة وظهرهُ الى النافذة وشعر رأسه متدلٍّ على كتفيه وجانبيه والكتب منثورة حولهُ

إيقاعه على البيانو يُسمع نهاراً وليلاً بلا انقطاع . وقد أبى قبول الخمر والتبغ في هذه السنة ، قائلاً عنها في مذكرته « ان رشف المسكر يهيج الشهوات التي هي اكبر اعداء السجين . ولا شيء ادعى الى التبرم والانزعاج من شرب الراح على انفراد بلا نديم ولا سمير . وكفى التبغ ضرراً ان دخانهُ يفسد هواء الغرفة ويجعلهُ غير صالح للاستنشاق » . وكانت الكتب التي أُرسلت اليه في هذه السنة مما يصلح للتفكهة والتسلية وقضاء اوقات الفراغ كالقصص على اختلاف انواعها

وفي السنة الثانية انقطع صوت البيانو ولجَّ المحامي في طلب كتب الادب . وفي السنة الخامسة استأنف الإيقاع على البيانو وارسل يطلب الخمر . وروى الذين راقبوهُ في هذه السنة انهُ اقتصر فيها على قضاء وقته في الاكل والشرب والاضطجاع في سريره . وكان يكثر من التثاؤب ومعاتبة نفسه بلسان الغيظ والحنق . اما الكتب فهجرها ولم يعد الى مطالعتها . وكان يجلس في بعض الليالي للكتابة ويقضي فيها وقتاً طويلاً وفي الصباح يمزّق كلَّ ما كتبهُ . وسمعوهُ غير مرة يُعول ويبكي

وفي منتصف السنة السادسة شرع يبذل اقصى الجهد في تعلّم اللغات والفلسفة والتاريخ وابدى في ذلك رغبة تفوق الوصف حتى شغل وقت الصيرفي كلهُ باعداد الكتب التي احتاج اليها . وفي اربع سنين بلغ عددها ، ست مئة مجلد . وفي ذات يوم بعث الى الصيرفي بكتاب يقول لهُ فيه : « سجّاني العزيز . اني اكتب اليك هذه الاسطر في ست لغات . فارجو التفضل بعرضها على من يعرفون هذه اللغات . وان لم يجدوا فيها غلطة قطّ فتفضل باطلاق بندقية في الحديقة ومن صوتها اعلم ان تعبي لم يذهب باطلاً . فالنوابغ في جميع الازمنة والامكنة تكلموا بألسنة مختلفة لكنَّ نار العبقرية التي تأججت في صدورهم كانت واحدة . آه . ليتك تستطيع ان تعلم مبلغ الغبطة التي أنعم بها الآن بعدما تمكنت من معرفة لغاتهم وفهم افكارهم ! » وقد اجاب الصيرفيُّ طلبهُ وامر باطلاق بندقية في الحديقة

وبعد السنة العاشرة جلس المحامي كالصنم امام مائدة الكتابة وأمعن في مطالعة العهد الجديد من الكتاب المقدس . فتعجَّب الصيرفيُّ من رجل يعي في ذهنه خلاصة العلوم والمعارف التي جمعها في اربع سنوات من قراءة ستمئة مجلد ثم يقضي بعد ذلك نحو سنة في مطالعة كتاب صغير الحجم سهل الفهم كالعهد الجديد . ولم يعمّ بعد ذلك



« الساعة الثالثة صباحاً ، وليلة إبريل الهادئة الصافية تطل عليّ من نوافذ غرفتي ، غامزة لي بنجومها ، في رقة وفي لطف ، وما أستطيع أن أنام فاني لجد سعيد !

« وإن كياني كله من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ليفيض بشعور غريب لايدرك العقل كنهه ، ولست بقادر على أن أحلل هذا الشعور — في ساعتي هذه — فوقتي لايتسع لهذا التحليل ، وإني لكسول مغرق في الكسل ؛ ثم إن هناك إلى جانب ذلك ... ألا بعداً للتحليل ! وهل من الميسور أن يفسر الرجل شعوره وهو يهوى على قمة رأسه ساقطاً من فوق قبة ناقوس ؟ أو هل يستطيع الرجل أن يفسر شعوره في اللحظة التي علم فيها أنه قد ربح مائتي ألف من الروبلات ؟ أو يكون مثل هذا الرجل في حال تسمح له بالتحليل ؟ »

***

هذه هي ، على التقريب ، الكلمات التي بدأت بها خطاب غرامي إلى «ساشا» وهي فتاة في التاسعة عشرة من عمرها وقعت في أشراك حبها . لقد بدأت كتابة هذا الخطاب خمس مرات ، وكنت في كل مرة أمزق الورق وأمحو صفحات كاملة وأعيد كتابتها ، ولقد قضيت في كتابته من الوقت ما يكفي لكتابة قصة كاملة وتهذيبها . ولم يك ذلك لأنني حاولت أن أزيد الخطاب طولا أو أن أبالغ في تنميقه وإذكاء نار حماسته ، ولكن لأني أردت أن أطيل إلى غير نهاية زمن الكتابة بينما أنا جالس في هدوء مكتبي أناجي نفسي بأحلام يومي ، وليلة الربيع الجميلة مطلة عليّ من خلال نوافذي ، ولقد كنت أرى في ثنايا الأسطر طيفاً محبباً إلى نفسي ، وخيل إليّ أن على المائدة التي أنا جالس عليها أرواحاً هي مثلي في سذاجة سعادتها ، وفي غفلتها ، وفي ابتساماتها الهنية . ولقد مضيت أكتب في استمرار ، ناظراً إلى يدي التي ما زالت تتوجع في لذة حيث ضغطتها يد « ساشا » في آخر مرة التقيت بها . ولما حولت عيني عن يدي تخيلت منظر الشعرية [1] الخضراء على الباب الصغير . فمن خلال هذه الشعرية نظرت « ساشا » محدقة إليّ بعد أن ألقيت إليها بكلمة الوداع ، وعند ما كنت أودعها لم أكن أفكر في شيء ، ولم يكن مستولياً عليّ غير شعور الاعجاب بقوامها إعجاب كل رجل محترم بامرأة جميلة . ولما رأيت من خلال فتحات الشعرية عينيها

(١) الشعرية شبكة من الاخشاب الدقيقة توضع في الطاقة أو غيرها لحجب النظر من الخارج إلى الداخل .

الواسعتين تحدقان بى علمت ، فجأة كما لو كان قد أوحى إلى ، أننى وقعت فى شرك الغرام ، وأن الأمر كله قد سوّى بينى وبينها ، وأن كل شئ قد استقر بالفعل فلم يبق علىّ ما أعمله غير إتمام اجراءات شكلية معينة .

وإنه لمن بواعث الابتهاج أيضاً أن يختم الانسان خطاب غرام ، وأن يلبس فى بطء قبعته ومعطفه ، وأن يغادر البيت في هدوء ، حاملا هذا الكنز النفيس إلى صندوق البريد . والسماء فى هذه الساعة خالية من النجوم التى اختفت وحل محلها ، من جهة الشرق ، خيط أبيض طويل ، تقطعه فى أكثر من ناحية ، سحب تعلو سطوح البيوت الصغيرة الحقيرة ، ومن هذا الخيط غمرت السماء كلها بضوء خفيف باهت . . والبلدة نائمة ولكن عربات الماء قد خرجت إلى الطرقات ، وفى ناحية بعيدة يدوى فى الجو صفير أحد المصانع لإيقاظ النائمين من العمال . وإنك لعلى يقين من أن تجد إلى جانب صندوق البريد المبلل قليلا بندى الليل ، هيكل أحد البوابين الضخم على كتفيه رداء من جلد الماعز وفي يده عصا يستند إليها ، وهو أشبه ما يكون بالتمثال الجامد لايتحرك ، وما هو بالنائم ولا بالصاحى ولكنه بين الحالتين .

ولو عرفت صناديق البريد كيف يلجأ إليها الناس فى أغلب الأوقات لتعرّف ماينتهى إليهمصيرهم لما رضيت بما يبدو عليها من سيماء التواضع . ولقد كنت على كل حال أقبل فى أكثر المرات صندوق بريدى ، وكنت كلما نظرت إليه ذكرت أن مصلحة البريد هى أعظم النعم التى حظي بها الانسان .

وإنى لأرجو أى إنسان وقع يوماً فى شرك الغرام أن يذكر كيف يسرع الانسان إلى بيته ، بعد إلقائه خطاب غرامه إلى حبيبته فى صندوق البريد ، وكيف يسرع فى الدخول إلى سريره وفي جذب اللحاف حتى يغطى وجهه ، معتقداً الاعتقاد كله أنه متى استيقظ من النوم فى الصباح فستغمره ذكريات اليوم السابق ، وسينظر نظرة تفيض فرحاً وسروراً إلى النافذة حيث يندفع ضياء النهار من خلال ستائرها فى قوة وحماسة .

وإليك الواقع ... فى منتصف نهار اليوم التالى جاءتني خادم « ساشا » تحمل الرد الآتى : « تأكد أننى مفروحة إذا تفضلت وحضرت عندنا اليوم وسأنتظرك . حبيتك س »

ولم تكن فى الرسالة أية علامة من علامات الترقيم ، وهذا الاهمال فى الكتابة ، والخطأ فى كتابة كلمة فرحة ، وما فى الكتاب كله من ضعف فى الانشاء ، وحتى الظروف الطويل الضيق الذى وضعته فيه ، كل هذا ملأ نفسى بشعور من الحنان . ولقد رأيت فى ثنايا خطها المفرطح الحى خيال مشيتها وطريقتها فى رفع حاجبيها إذا ضحكت ، وحركة شفتيها ولكن نفسى لم تقنع بما تضمنه كتابها . . . وأول ما آخذه عليها أن كتب الغرام الشعرية لا يرد عليها بهذا الأسلوب ، وإنى لأتساءل بعدذلك لماذا تدعوني إلى زيارة بيتها حيث أبقى تحت رحمة أن تتفضل أمها الرشيقة أو إخوتها أو أقاربها المساكين بتركنا منفردين فى الغرفة ؟ فمثل هذا الخاطر لن يدخل رؤوسهم أبداً ، وليس أبغض إلى الانسان من أن يكبح جماح عواطفه لسبب واحد بسيط هو الحياء من تطفل امرأة عجوز نصف صماء أو طفلة صغيرة توجه إليه من الأسئلة المضجرة ما لا يرى معدى من الاجابة عليه . . . لهذا بعثت مع خادم « ساشا » جواباً على رسالتها سألتها فيه أن تتخير أحد الميادين

أو المتنزهات فتضرب لي فيه موعد اللقاء ، ولقد قوبل اقتراحى بالرضا في غير تردد ، فقد ضربت على الوتر الحساس كما يقول المثل .

وفيما بين الساعتين الرابعة والخامسة من مساء ذلك اليوم اتخذت طريقى إلى أقصى حدود المتنزه العام وأكثر نواحيه ازدحاماً بالأشجار وأكثفها نباتاً . ولم يك فى المتنزه كله مخلوق واحد ، ولعله كان من الأنسب أن يضرب الموعد فى مكان أقرب كأحد الشوارع الكبرى أو تحت إحدى مظلات الحدائق الصغيرة ، ولكن النساء لا يردن أن تكون أعمالهن فيما يتصل بالخيال والغرام بين بين ، فهن يجرين وراء خيالهن الشعرى إلى آخر المدى — فاذا ضربن موعد اللقاء ضربنه فى أبعد الأدغال وأوعرها طريقاً ، حيث يتعرض الانسان لخطر الاصطدام بشرير خشن أو سكير معربد .

ولما وصلت إلى المكان الذى تخيرته ساشا وجدتها واقفة وقد ولت ظهرها نحوى ، وكان فى مقدورى أن أقرأ فى ذلك الظهر كثيراً من الأسرار الشيطانية ؛ ولقد خيل إلي أن ظهرها ، وخلف عنقها ودثارها ، والنقط السوداء على ردائها ، كل ذلك يقول : صه ! ... كانت الفتاة مرتدية لباساً بسيطاً من القطن ألقت فوقه دثاراً خفيفاً ، ولتبالغ فى إحاطة نفسها بجو من الأسرار غطت وجهها بنقاب أبيض ولكى لا أفسد أثر هذا المظهر السحرى تقدمت منها مشياً على طرف قدمي ، وتكلمت فى صوت أدنى إلى الهمس منه إلى الصوت المسموع

ومما أتذكره الآن أنني لم أكن — إلى حد ما — بيت القصيد فى هذه المقابلة إذا نحن تناولناها بشيء من التفصيل ، فلم يكن اهتمام ساشا بالمقابلة فى ذاتها كاهتمامها بما يحيط المقابلة من الأسرار الشعرية الخيالية ، فقبلاتى وصمت الأشجار المظلمة والمواثيق التى أقطعها على نفسى . . . فلم تمر دقيقة نسيت فيها نفسها ، أو غلبها شيء على ما تفكر فيه ، أو سمحت للمعنى السرى البادئ على وجهها أن يفارقه . والحق أنه لو كان فى مكانى فى تلك اللحظة إنسان سواى كائنا من كان لما كانت فى حضرته بأقل شعوراً بالسعادة منها فى حضرتى . وكيف يستطيع الانسان فى ظرف كهذا الظرف أن يعرف إذا كان محبوباً أو غير محبوب ؟ وكيف يستطيع أن يعرف إذا كان الحب هو « الشئ الحقيقي » أو لا ؟

ولقد أخذت « ساشا » من المتنزه إلى بيتى . وليس حضور المرأة التى يحبها الانسان إلى بيته — وهو أعزب — بأقل في نفسه أثراً من الخمر أو الموسيقى . والمألوف فى موقف كهذا أن يبدأ الانسان بالكلام فى المستقبل ، وهو إذا تكلم فى هذه الناحية لم يقف عند حد فيما يبدى من ثقة واعتزاز بالنفس ، وانك عندئذ لتضع المشروعات وترسم الخطط وتتكلم فى حماسة عن رتبة القائد وإن لم تكن قد وصلت بعد إلى رتبة الملازم ، وفى الجملة أنك لتهذى بمثل هذا السخف الضارب إلى العلاء ، حتى ليتطلب تصديق سامعك لما تقول أن يكون مغرماً بك إلى أقصى حدود الغرام وأن يكون كذلك جاهلا إلى أقصى حدود الجهل . ومن حسن حظ الرجال أن النساء اللواتى يحببن تعميهن عواطفهن دائما عن رؤية الحقائق فلا يعرفن شيئاً من شئون الحياة . وإنهن لبعيدات جداً عن أن يكذبن ما يسمعن ، وإنهن ليشعرن فعلا بشيء من الرهبة المقدسة فتهرب الدماء من وجوههن ، وتفيض نفوسهن احتراماً ويتعلقن فى شره بالكلمات البادية الحماقة والجنون . ولقد أصغت إلي «ساشا» فى تنبه شديد

ولكنني لم ألبث أن تبينت على وجهها أثر التفكير الشارد . فهي لم تفهم شيئاً مما قلت لها ، ولم يكن المستقبل الذي تحدثت عنه ليهمها إلا من وجهته الظاهرة فقط . ولقد كنت أضيع وقتي في عرض خطتي ومشروعاتي عليها . فقد كان همها كله منصرفا إلى معرفة أية الغرف ستكون غرفتها ، وأي نوع من أنواع الورق ستغطي به جدران هذه الغرفة ، ولماذا فضلت البيان [1] المرتفع على البيان الضخم الذي يشغل حيزاً كبيراً من الغرف . . وهكذا . وفحصت في دقة جميع الأشياء الصغيرة الموضوعة على المائدة ، ونظرت إلى الصور الفوتوغرافية وشمت القناني ونزعت طوابع البريد القديمة عن المظروفات قائلة إنها تحتاج اليها لأمر ما .

وقالت وقد تجهم وجهها :

« أرجو أن تجمع لي الطوابع القديمة ! ومن فضلك لا تنس ذلك »

ثم وجدت على قاعدة النافذة بندقة فكسرتها بصوت عال وأكلتها .

ونظرت إلى خزانة الكتب وقالت :

« لماذا لا تلصق بطاقات صغيرة على ظهر كتبك؟ »

« لماذا ؟ »

« أوه . . لكي يحمل كل كتاب رقمه . . .

ثم أين أضع كتبي؟ فإن لي أنا أيضاً كتباً كما تعلم »

فسألتها :

« أي نوع من الكتب عندك ؟ »

فرفعت ساشا حاجبيها وفكرت لحظة ثم قالت:

« جميع الأنواع . »

ولو أنه خطر لي أن أسألها عن نوع تفكيرها وما تعتنق من المذاهب وعن الاهداف التي ترمى إليها لما كان هناك من شك في أن ترفع حاجبيها وتفكر لحظة ثم تقول كما قالت أولا :

« جميع الأنواع »

ثم أوصلت ساشا إلى بيتها وصرت أزورها وأغادر دارها في انتظام ، وقد تمت الاجراءات الرسمية للخطبة ، ووقفت موقف الانتظار حتى يحين يوم الإكليل . ولو سمح لي القارىء أن أحكم على الأمور بمجرد تجاربي الشخصية لقلت إن « الخطبة » من الأمور الموحشة جداً ، فالإنسان في أثنائها يكون أبعد جداً من أن يكون زوجاً أو أن يكون شخصاً غريباً لا علاقة له على الاطلاق بالخطيبة . فليس الرجل في هذه الحال بالزوج ولا بالرجل الغريب ، فقد ترك إحدى ضفتي النهر ولم يصل إلى الضفة الثانية ، فلا هو بالمتزوج ولا من الممكن أن يسمى أعزب .

وصرت — في كل يوم — إذا وجدت لدى فترة فراغ من العمل قصدت إلى دار خطيبتي . وكنت كلما قصدت إليها حملت معي مقداراً عظيما من الآمال والرغبات والنيات والاقتراحات والعبارات المختارة . وكنت دائماً أتصور ، لشدة ما أشعر به من الضيق والكآبة ، أن الخادمة لا تكاد تفتح الباب حتى أغوص إلى عنقي في بحر من السعادة المنعشة . ولكن الأمور كانت دائماً تنقلب إلى العكس من ذلك في الواقع . ففي كل مرة قصدت إلى زيارة خطيبتي وجدت أن أسرتها وكل من يحويه الدار مشتغلين بأمر « الجهاز » السخيف . (وعلى فكرة أقول إنهم كانوا منهمكين بالعمل في الجهاز منذ شهرين انهماكاً شديداً فجهزوا أشياء تقدر بأقل من مائتي روبل) . . . وهناك يشم الإنسان رائحة المكاوى ، ودهن الشموع ودخانها . وترتطم قدمه

(١) استعملت كلمة البيان بكسر الباء منذ سنوات تعريباً لكلمة بيانو

بكرات الخيط وتحطمها . وكانت الغرفتان الرئيسيتان مشحونتين بالوسائد المصنوعة من التيل وغيره من الأقمشة الناعمة . من بين هذه الوسائد أطل رأس (ساشا) الصغير وبين أسنانها خيط معلق ، ورحب جميع من فى الدار من المشتغلين « بالجهاز » بصيحات السرور والابتهاج ، ولكنهم لم يلبثوا أن أدخلونى إلى غرفة الاستقبال حتى لا أعطل عملهم وحتى لا أرى ما لا يجوز أن يراه غير الأزواج . ولقد اضطررت ، وإن كان ذلك لا يتفق وشعورى ، أن أجلس فى غرفة الاستقبال متحدثاً مع بيمنيوفنا إحدى قريبات ساشا الفقيرات . وكان القلق والانفعال باديين على ساشا فكانت تمر بى مسرعة ما بين لحظة وأخرى حاملة فى يدها بعض أدوات التطريز أو غيرها من الأشياء التى تضايقنى ، وتقول مجيبة على نظراتى المتوسلة السائلة :

« صبراً ، صبراً ، فلن أغيب عنك أكثر من دقيقة ، ولكن انظر كيف أتلفت اللعينة استيبانيدا مشد لباس الزفاف ! »

وبعد أن أنتظر عبثا أن تفى بما تفضلت به من وعد ، يضيق صدرى وتثور أعصابى وأترك البيت لأتجول فى الطرقات مصطحبا عصاى الجديدة التى ابتعتها منذ عهد قريب

وكنت قد تقت مرة إلى اصطحاب خطيبتى فى نزهة على الأقدام أو فى عربة ، فلما وصلت إلى دارها وجدتها واقفة بالفعل مع أمها فى ردهة الدار تعبث بمظلتها مستعدة للخروج . ولقد بادرتنى بقولها :

« أوه . . إننا خارجتان إلى السوق فلا بد من أن نبتاع كمية أخرى من الكشمير ، وأن نغير هذه القبعة »

ولقد شعرت عندئذ كأن صدمة قوية قد أصابت مقدم رأسى . فلقد كنت مضطراً أن أصحب السيدتين إلى السوق ، وإنه لما يهد أعصابى ويضايق صدرى أن أصغى إلى النساء وهن يبتعن شيئاً من الحوانيت ، فيساومن البائع المتنبه محاولات أن يغلبنه . ولقد كنت أخجل عندما أرى ساشا بعد أن تقلب كمية هائلة من البضائع وبعد أن تنزل بالثمن إلى النهاية الصغرى ، تخرج من الحانوت دون أن تشترى شيئاً على الاطلاق ، أو تطلب من التاجر أن يقطع لها من القماش مالا يزيد ثمنه على نصف روبل

وإذ خرجت خطيبتى وأمها من الحانوت أخذتا وقد بدت على وجهيهما علامات الغضب والجهد ، تتناقشان فى أنهما قد أخطأتا فابتاعتا نوعاً ليس هو المطلوب ، لأن الوردات فى القماش الجديد شديدة السمرة أو ما إلى ذلك

نعم إن فترة الخطبة لمن أثقل الفترات وأجلبها للضيق ، وإنه ليسرنى أن قد انتهت هذه الفترة بسلام والآن أنا متزوج . وهذا هو المساء قد أقبل ، وأنا جالس فى مكتبى أقرأ أحد الكتب ، وقد جلست ساشا ورائى على الصفة تمضغ شيئاً فى فمها فى صوت مرتفع ، وإن بى لحاجة إلى قدح من البيرة فأقول :

« ابحثى يا ساشا عن فتاحة القنانى ، فقد تجدينها فى مكان ما هنا »

فتهب ساشا من مكانها وتفتش مبعثرة رزمتين أو ثلاثا من الورق ، وتسقط علبة الكبريت على الأرض ، ودون أن تجد الفتاحة تعود فتجلس صامتة لا تنبس بحرف . . .

وتمضى خمس دقائق ثم عشر . . وتبدأ أعصابى تثور من العطش والغضب ، فأقول ثانية :

« أرجو يا ساشا أن تبحثى عن الفتاحة »

فتثب ساشا مرة أخرى وتعود إلى بعثرة الأوراق

القريبة مني ، فيؤثر فى صوت مضغها واحتكاك الورق تأثير السكاكين إذا حكت بعضها ببعض لإرهافها . فأقوم من مكانى وأبحث بنفسى عن الفتاحة فأجدها آخر الأمر ، وأفتح زجاجة البيرة . فتجلس ساشا بجوار المائدة وتبدأ تحدثنى فى موضوع طويل لا ينتهى . فأقول :

« يحسن أن تقرأي شيئاً يا « ساشا »

فتتناول كتاباً وتجلس فى مواجهتى وتبدأ تحرك شفتيها . . . فأنظر إلى جبهتها الصغيرة وشفتيها المتحركتين وأستغرق فى التفكير . فأقول في نفسي :

« لقد قاربت العشرين من عمرها ... فلو قارنها الانسان بفتى فى سنها من الطبقة المثقفة فيا لعظم الفارق الذى يجده بينهما ! فسيجد الفتى على شيء من العلم والمبادئ والذكاء »

ولكننى لا ألبث أن أغتفر هذا الفارق اغتفارى جبينها المائل وشفتيها المتحركتين . وإنى لأذكر أننى فى الأيام الماضية ، يوم لم أكن واقعا تحت سلطان الحب ، كنت أنفر من المرأة إذا رأيت بقعة على جوربها ، أو إذا سمعت منها كلمة بلهاء ، أو لأنها لا تحسن تنظيف أسنانها ، والآن أرانى أغتفر كل شيء ! المضغ ، والعبث بالأوراق عند التفتيش عن الفتاحة ، وعدم اتساق الملابس ، والكلام الطويل فيما لا فائدة منه . أغفر ذلك كله على غير شعور أو إرادة منى ودون أن أحمل إرادتى أى مجهود فى سبيل ذلك . كأنما أغلاط ساشا هى أغلاطي الشخصية. وهناك كثير من الأشياء التي كانت في الماضي تزعجنى وتثيرنى قد أصبحت اليوم تبعث إلى نفسى الحنان والاشفاق ، بل إنها لتغمرنى أحياناً بعواطف الغرام .

وتفسير هذا التسامح فى كل شيء منطو في حب ساشا ، ولكن ما هو تفسير الحب نفسه ؟ الحق أننى لا أستطيع أن أفسر الحب .

ترجمة عبد الحميد حمدى

قصة بلا نهاية

للكاتب الروسى أنطون تشيخوف

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدى

منذ سنوات عديدة ، وفى الساعة الثانية صباحا اندفعت طاهيتى إلى مكتبي — على غير انتظار — باهتة اللون مضطربة ، وخبرتنى أن السيدة ميمونيه العجوز ، مالكة البيت المجاور لبيتى جالسة فى المطبخ.

وقالت الطاهية وهى تلهث :

« وهى ترجو يا سيدي أن تذهب إليها ، فقد أصاب السوء نزيل دارها ... فقد أطلق على نفسه الرصاص ، أو هو قد شنق نفسه »

فقلت :

«وماذا أستطيع أن أفعل .. فلتذهب إلى الطبيب أو إلى البوليس ! »

قالت الطاهية :

« وكيف تستطيع هى أن تبحث عن طبيب ! إنها لا تقدر على التنفس إلا فى عناء وجهد ، ولقد تجمعت منكمشة تحت الموقد . . فهى هالعة لا تملك أعصابها .. فمن الإحسان أن تذهب إليها يا سيدى»

فارتديت معطفى وقبعتى وقصدت إلى بيت السيدة ميمونيه . وكان الباب الخارجى الذى اتجهت إليه مفتوحاً ، فوقفت بجواره لحظة متردداً فيما أفعل ، ثم تخطيت عتبته داخلاً إلى فنائه غير باحث عن جرس البواب .. وفى الظلام تحت السقيفة المتهدمة وجدت الباب الداخلى غير موصد ، ففتحته ومررت إلى المدخل فلم أر أى بصيص من الضوء ، فقد كان الظلام حالكا . وفى ذلك الظلام شممت رائحة بخور يملأ الجو.

وبينا أتحسس طريقى للخروج من المدخل صدمت كوعى بشىء مصنوع من الحديد ، وتعثرت فى الظلام بمائدة لم أتبين نوعها فكادت تسقط على الأرض . واهتديت آخر الأمر إلى الباب المغطى بقماش من الصوف الخشن ، فاجتزته إلى ردهة صغيرة

وما أكتب الساعة قصة خيالية ؛ وأبعد ما أفكر فيه هو إثارة مخاوف القارىء ، ولكن الصورة التى وقع عليها نظرى وقد تخطيت عتبة الباب ، صورة شبحية لا تستطيع غير يد الموت رسمها . فلقد كان فى مواجهتى مباشرة باب يؤدى إلى غرفة انتظار صغيرة . وكان فى الغرفة ثلاث شمعات من النوع الرخيص موضوعة فى صف واحد ، تلقى ضوءاً ضئيلا على الجدران المغطاة بورق رصاصى باهت اللون . وفى وسط الغرفة مائدتان وضع عليهما نعش . على جانب رأسه شمعتان لايكاد يكفى ضوؤهما لإظهار معالم وجه أصفر قاتم نصف مفتوح الفم مدبب الأنف . وقد لفت الجثة بقماش من الموسلين فى غير نظام ، من الرأس إلى أطراف القدمين ، وقد برزت من بين هذا الكفن يدان صفراوان جامدتان قابضتان على صليبين من

الشمع . وكانت أركان الغرفة الصغيرة المظلمة القابضة للنفس ، والأياقين القائمة وراء النعش ، والنعش نفسه ، وفى الجملة كل شىء فى الغرفة ، غير بصيص الضوء الخفيف ، كان ساكناً سكون الموت ، كأنها القبر

فقلت فى نفسى وقد ألجمتنى هذه الصورة غير المنتظرة من صور الموت :

« ما أعجب هذا ! ولماذا هذه العجلة ؟ إن نزيل هذه الدار لم يكد ينتهى — على ماعلمت — من شنق نفسه أو من إطلاق الرصاص عليها . . وهذا نعشه قد أعد بالفعل ! »

والتفت حولى فرأيت إلى الشمال باباً نصفه من الزجاج ، ورأيت إلى اليمين مشجباً مائلاً علق عليه معطف رث من الفراء

وسمعت أنين إنسان يقول :

« الماء . . . »

وجاء الأنين من جهة الشمال من وراء الباب الزجاجى ، ففتحت ذلك الباب ودخلت إلى الغرفة الصغيرة ذات النافذة الوحيدة التى تسرب من خلالها ضوء خفيف منبعث من مصباح الطريق

فقلت متسائلا :

« أيوجد أحد هنا ؟ »

ودون إنتظار للجواب أشعلت عوداً من الثقاب وهاك ما رأيت على ضوئه : رأيت رجلا جالساً عند قدمى فوق الأرض الملطخة بالدماء . ولو أن خطوتى كانت أوسع لوطأته قدماى ؛ وكانت ساقاه ممدودتين إلى الأمام وكفاه تضغطان الأرض ، باذلاً بهذه الحركة جهده لرفع وجهه الجميل وقد غطاه شحوب وسط لحيته حالكة السواد ؛ وقد قرأت فى عينيه الكبيرتين اللتين رفعهما نحوى صورة معجزة الوصف من الفزع والألم والتوسل ؛ وكان العرق المتحدر من جبينه ، والمعنى البادي على وجهه ، وارتجاف يديه اللتين اتكأ عليهما ، وتنفسه الثقيل ، وأسنانه المتقلصة ؛ كان ذلك كله ناطقاً بأنه يعانى من الألم مالا تحتمله القوة البشرية . ورأيت المسدس ملقى على مقربة منه وسط بركة من الدم

فلما انطفأ عود الثقاب سمعت صوتاً خافتاً ينادينى :

« لا تذهب ، وستجد شمعة فوق المائدة »

فأشعلت الشمعة ووقفت وسط الغرفة لا أدرى ما أنا فاعل بعد . وقفت أنظر إلى الرجل الجالس على الأرض وقد خيل إلى أننى رأيته من قبل

وقال الرجل هامساً : الألم فوق ما أحتمل ... وليس بى من القوة ما يمكننى من إطلاق الرصاص على نفسى مرة أخرى . وهذا عجز فى الارادة غير مفهوم »

فطرحت معطفى عن كتفى وانحنيت على الرجل الجريح أعنى بأمره ... فحملته كالطفل بين ساعدىّ وأرقدته على الصفة المغطاة بالجلد الأمريكى ، وخلعت عنه ملابسه فى عناية ورفق ، وقد ارتجف برداً عند ما عريته . ولكن الجرح الذى رأيته لم يكن ليتفق مع رجفته ولا مع الذي بدا على وجهه من معانى الألم . فقد كان جرحاً صغيراً ، وقد مرت الرصاصة بين الضلعين الخامس والسادس فى الجانب الأيسر فلم تزد على أن قطعت الجلد واللحم ، وقد وجدت الرصاصة نفسها مستقرة فى طيات بطانة سترته بالقرب من الجيب الخلفي . فوقفت النزيف بخير ما استطعت من الوسائل ؛ واصطنعت له ضمادة وقتية من قماش إحدى الوسائد ومنشفة ومنديلين

وقدمت له قدحاً من الماء ثم غطيته بمعطف الفرو المعلق على الشجب ، ولم ينبس أحدنا بكلمة واحدة فى أثناء هذه العملية . فقد مضيت فى عملى بينما هو راقد لا يتحرك ينظر إلي بعينين مسبلتين كأنما هو يشعر بالخجل من فشله فى الانتحار ومن التعب الذي سببه لى .

ولما انتهيت من تضميد جرحه قلت له :

« والآن أرجو أن تسكن فى مكانك فلا تتحرك ، حتي أذهب إلى الصيدلية فأحضر بعض الشيء »

فأمسك بكمى وفتح عينيه الواسعتين وقال :

« ليس ثمت ما يدعو إلى ذهابك »

وقرأت فى عيني الرجل معانى الفزع ، ولقد كان خائفاً من ذهابي ، ثم عاد يقول :

« نعم ليس هناك ما يدعو إلى ذهابك ، فابق هنا خمس دقائق أخرى . . أو عشراً . إذا لم يكن فى ذلك ما يضايقك . أرجو يا سيدى أن تبقى إلى جانبي »

وكان وهو يرجونى يرتجف وأسنانه تصطك . فأجبته إلى ما أراد وجلست على حافة الصفة . ومرت عشر دقائق فى سكون تام ، فقد جلست صامتاً أنظر حولى إلى الغرفة التى جاء بي القدر إليها على غير انتظار . فياله من منظر ينم عن الفقر المدقع ! فهذا الرجل ذو الوجه النسائي الجميل واللحية الكثة المعنى بها ، لم يكن حوله من المتاع ما يمكن أن يحسده عليه أفقر العمال : صفة مغطاة بالجلد الأمريكى الممزق ، وكرسي رخيص قذر ، ومائدة مغطاة بقطع من الورق ، ولوحة قديمة معلقة على الجدار . . . هذا هو كل ما رأيت . أما جو الغرفة فكان رطباً قابضاً وقال الجريح وعيناه مغمضتان :

« ما أشد الريح ! وما أقسى صفيرها ! »

فقلت :

« نعم إنها شديدة . . . والآن يخيل إلى أننى أعرفك » ألم يكن لك دور فى المرسحية الخاصة التى مثلت بدار الجنرال لوهاتشف فى السنة الماضية ؟ »

ففتح عينيه وسأل متعجلا :

« وماذا فى هذا ؟ »

وكأنما قد غشت عينيه سحابة قاتمة

فقلت :

— « إنى على التحقيق قد رأيتك هناك . أليس اسمك فاسيليف ؟ »

— « إذا صح ذلك فماذا وراءه ؟ إنه لن يحسن من حالى أن تعرفنى »

— « لا ولكنه مجرد سؤال »

وأطبق فاسيليف عينيه ، وكأنما هو قد امتعض فأدار وجهه إلى ظهر الصفة . وقال متمتما :

« لست أفهم معنى لهفتك . ولعلك تسألني بعد ذلك عن السبب الذى دفعنى إلى الانتحار ! »

وقبل أن تمضى دقيقة واحدة أدار وجهه إلى مرة أخرى وفتح عينيه وقال فى لهجة باكية :

« أرجو أن تغفر لي لهجتى . ولكنك ستقرنى على أننى مصيب ! فليس من الكرم أن تسأل محكوما عليه كيف دخل السجن ، ولا أن تسأل منتحراً لماذا أطلق الرصاص على نفسه . . . نعم ليس ذلك من الكرم ولا من الرقة . . . أن يشفي الانسان لهفته البليدة على حساب أعصاب إنسان آخر ! »

فقلت للرجل متلطفاً :

« ليس هناك ما يدعوك لأن تثير أعصابك . . . فلم يخطر لي قط أن أسألك عن تصرفاتك »

« لقد أوشكت أن تسألني ... وهذا ما يعمله الناس دائماً ، ولو انه ليس هنـاك من فائدة فى السؤال . على انى لو أخبرتك لما صدقت أو لما فهمت ... ويجب أن أعترف انى أنا نفسى لا أفهم من الأمر شيئاً ... هناك عبارات تستعمل فى إدارة البوليس وفى الصحف مثل قولهم : « الفشل فى الحب » و « الفقر المدقع » ولـكن الأسباب غير معروفة . . . غير معروفة لى أنا وغير معروفة لك أو لإدارات الصحف حيث يتبجحون بأن يكتبوا « يوميات منتحر » والله وحده هو الذى يعرف حالة نفس الانسان الذى يقتل نفسه ، ولـكن الناس لا يعرفون شيئاً من ذلك »

فقلت :

« كل هذا حسن ، ولـكنك فى حالك هذه يجب أن تلزم السكون فلا تتكلم »

ولـكن لم يكن من الميسور أن أمنع جريحى من الـكلام ، فقد أسند رأسه إلى كفه ، ومضى فى الحديث بلهجة أستاذ عظيم فقال :

« لن يستطيع الانسان أبداً أن يفهم العوامل النفسية التي تحمل المنتحر على ارتكاب جريمتـه ! وكيف يستطيع الانسان أن يتكلم عن الأسباب ؟ فقد يدفعنى اليوم سبب من الأسباب إلى اختطاف مسدس وإطلاقه على نفسى ، بينما هذا السبب نفسه لا يحملنى غداً على التضحية ببيضة فاسدة ، فالأمر كله متعلق فى الغالب بالحالة الخاصة التي يكون عليها الانسان فى اللحظة المعينة ... ولأضرب المثل بنفسى ؛ فمن نصف ساعة مضت كنت أرغب رغبة ملحة فى الموت . أما الآن وقد أشعلت الشمعة وأنت جالس إلى جانبي فانني لا أنكر حتى في ساعة الموت ، فلتفسر لى هذا التغير إذا استطعت ! هل تحسنت أحوالى ؟ أم هل بعثت امرأتي من الموت فانتفضت ناهضة من نعشها الذى ترقد فيه على بضع خطوات من هذا المكان ؟ أم ترى هو تأثير الضوء فى نفسى وحضور شخص غريب إلى جانبي ؟ »

فأجبت لمجرد أن أقول شيئاً :

« لا شك فى أن للضوء تأثيراً ؛ وتأثيره فى التركيب العضوى للانسان ... »

فقاطعنى بقوله :

« إننا نسلم بتأثير الضوء ... ولـكنك تعلم أن هناك أناساً ينتحرون على ضوء الشموع . ! وإنه ليكون من الشائن حقاً لأبطال رواياتك أن يستطيع شيء تافه كالشمعة تغيير مجرى مآسيهم مثل هذا التغيير المفاجئ ... وربما أمكن تفسير كل هذا السخف ، ولـكن لسنا نحن الذين نستطيع تفسيره ؛ ومن العبث أن يسأل الانسان أسئلة ما ، أو أن يقدم معلومات ما فيها لا يفهمه ... »

قلت :

« عفواً . . . ولـكننى أستطيع ، مما يبدو على وجهك ، أن أحكم بأنك فى هـذه الساعة . . . تصطنع ما تقول »

فاجفل فاسيلييف وقال :

« نعم هذا جائز جداً ! فإننى بطبيعتى « أبله مغرور » ! فيحسن أن تفسر لي ذلك إن كنت واثقاً بقوتك في قراءة الوجوه ! فمن نصف ساعة أطلقت

الرصاص على نفسي . . . وفى هـذه الساعة تراني أصطنع ما أقول . . فسر لي هذا إن استطعت . . »

نطق فاسيلييف بهذه الكلمات الأخيرة فى صوت خافت متداع ، فقد أنهكه التعب ، ثم رقد صامتاً . ومرت فترة سكون . فتدققت النظر فى وجهه ، وقد علته صفرة الموت ، وبدا لى كأنما شعلة الحياة قد انطفأت فى نفسه ، وأن مظاهر الألم الذى أحس به الرجل « الأبله المغرور » كانت هي وحـدها التى أظهرته فى صورة من لا يزال حياً . . وكان من المؤلم أن ينظر الانسان إلى هذا الوجه . . . ولكن ما هو شأن فاسيلييف نفسه الذي مازال يحتفظ من القوة ما يمكنه من الجدل ، ومن الاصطناع إن لم أكن مخطئاً ؟ »

ورفع الفتى نفسه فجأة على مرفقه وقال :

« أنت هنا . . أما زلت إلى جانبي ؟ بالله ! أصغ إلى هذا ! »

فأصغيت وكان المطر ينهمر على النافذة المظلمة ولا ينقطع لحظة واحدة ، وكانت الريح تهب عنيفة مولولة ، ولقد سمعت السيدة ميمونيه تقرأ فى الغرفة المجاورة هذه الكلمات فى صوت خافت متعب :

« وسأكون أشد بياضاً من الثلج وستسمع أذناي نغمات السرور والفرح »

ولم تكن نبرات السيدة ميمونيه لترتفع أو تنخفض فهى تقرأ هذه الكلمات الجافة على وتيرة واحدة مملة

وأدار فاسيلييف عينيه الجازعتين نحوى وقال هامساً :

« أليس ذلك مما يدعو إلى الانشراح ؟ ! يالله مما يري الانسان ومما يسمع ! ولو كان من الميسور أن نطبق هذا المرج على قواعد الموسيقى لأمكن كما يقول هملت :

« أن نلعن الجاهل وأن نغمر حواس البصر والسمع بأسباب المتع »

وما كان أجدرنى عندئذ بأن أفهم هذا النوع من الموسيقى ! وكم كنت أستطيع أن أشعر بما فيه من جمال ! ولكن قل لى فى أى ساعة نحن ؟ »

قلت :

« نحن الآن فى الساعة الثانية والدقيقة الخامسة والخمسين »

قال :

« إذن لا يزال الصباح بعيداً . وفى الصباح تشييع الجنازة . وقد وضع لها برنامج لطيف ! وسيتبع الانسان النعش وسط الوحل والمطر . ولا يرى فى طريقه غير السماء الملبدة بالغيوم وغير المناظر الكريهة وفتيان الدير والحانات النائية والوعول النافرة . . . وتغرق سراويل الانسان فى الطين إلى الركب . . . والشوارع التى لا نهاية لها . . ويمر الوقت فى بطء كأنه الأبدية . . . والرجال الغلاظ القلوب . . . وفى وسط الأحجار نجد حجراً . . ! »

وصمت لحظة ثم قال فجأة :

« هل مضى عليك وقت طويل منذ رأيت الجنرال لوهاتشيف لآخر مرة ؟ »

« لم أره منذ الصيف »

« إنه مغرم بالتنقل ، ولكنه عجوز ضئيل الجسم

ظريف . أوَ مازلت تكتب القصص ؟ »

« نعم أكتب قليلا »

فقال الرجل :

« آه ! أتذكر كيف كنت أمرح كالأخرق الأبله ، كالحمار الجامح فى تلك القطع التمثيلية عند ما كنت أتودد إلى زينا ؟ لقد كان ذلك سخفا منى ولكنه كان جميلا ، وكان فكها . . . وإن مجرد ذكراه لتبعث أنفاساً من الربيع .. والآن ! ما أقسى تغير المنظر ! هاك موضوعا تكتب فيه ! ولكن لا تحاول أن تكتب « يوميات منتحر » فهذا فضلا عن خشونته تقليد لشيء سابق . فلنستخرج من هذا الموضوع شيئاً اجتماعياً فكها »

فقلت :

« أراك مرة أخرى . . . تصطنع ما تقول ، فليس فى موقفك هذا شيء فكه »

فاستوى فاسيلييف جالساً وقد ترقرق الدمع فى عينيه ، وبدا على وجهه الباهت معنى الحزن العميق وارتجف فكه وهو يقول :

« ليس فيه شيء مضحك ؟ تقول ليس فيه شيء مضحك ؟ »

ثم توقف لحظة عن الكلام وعاد يقول :

« إنك تضحك من غش الكتبة الغشاشين والزوجات الخائنات ، ولكنك لن تجد كاتباً غشاشاً ولا زوجة خادعة قد غشا إنسانا بمثل ما غشنى القدر ! لقد خدعت بما لم يخدع بمثله قط أحد المودعين أموالهم المصارف أو أحد الأزواج المغفلين ! فتأمل إلى أى حد قد خدعني الحظ ! فلقد شهدت بعينى رأسك أننى فى العام الماضى لم أكن أعرف ما أفعل بنفسى من فرط السعادة . والآن هأنذا أمام عينيك ... »

وغاص رأس فاسيلييف فى الوسادة وضحك ثم مضى يقول :

« ليس من الممكن أن يتصور الانسان ما هو أشد من هذا التغير حماقة وسخفاً . فالفصل الأول يحتوي على : الربيع والحب وشهر العسل ، شهر العسل حقاً . والفصل الثانى : البحث عن عمل ومكتب الرهون والشحوب والصيدلية . . والغوص غداً فى الأوحال فى الطريق إلي المقبرة »

ثم ضحك مرة أخرى . فشعرت بضيق شديد وصممت على الخروج من ذلك المكان . فقلت :

« أرجوك ثانية أن ترقد هادئاً وسأذهب إلى الصيدلية »

فلم يجبنى ، فارتديت معطفي وخرجت من الغرفة ، وعند اجتيازي الممر نظرت إلى النعش والسيدة ميمونيه تقرأ عليه . وحددت النظر عبثاً فلم أتمكن من أن أتعرف فى وجه زينا الأصفر القاتم ذلك الوجه الفتان المملوء حياة ، الذى رأيته فى اجتماع دار الجنرال لوهاتشيف

فقلت فى نفسى :

« طريق الانتقال . . »

وعلى هذا غادرت البيت غير ناس أن آخذ المسدس معى ، وذهبت إلى الصيدلية . ولكن كان يجب ألا أذهب ، فقد وجدت ، بعد عودتي فاسيلييف راقداً فوق الصفة فى حال إغماء ، وقد

انتزعت الضمادات بعنف عن الجرح فانفتح وسال منه الدم من جديد ، وقد أشرق الصباح قبل أن أتمكن من إفاقة الجريح ورد الصواب إليه ، وكان يهذى فى أحلامه ، مرتجفاً ينظر فى أرجاء الغرفة بعينين لاتبصران ، حتى أقبل النهار وسمعنا صوت القسيس يتلو الصلاة مسرعاً على رأس الميتة

ولما ملئت غرفة فاسيلييف بالعجائز وفتيات الدير ونقل النعش من مكانه وحمل إلى الفناء الخارجى نصحت للفتى بأن يلزم البيت ، ولكنه لم يستمع إلى نصحى على الرغم من ظلمة الجو وانهمار المطر ومما يعانى هو من ألم . وسار وراء النعش عارى الرأس صامتاً طوال الطريق إلى المقبرة ، ولم يكن ليستطيع نقل قدم عن قدم إلا بجهد شديد ، وكان مابين فترة وأخرى يضغط جنبه الجريح بكف عصبية متقلصة ؛ وكان المعنى المادى على وجهه يدل على فقدان الشعور . ولم يحدث ، غير مرة واحدة عندما أيقظته من سباته بسؤال تافه ، أن حول نظره عن الأرض والسور الداكن ، فرأيت فى عينيه لحظة بريق الغضب الحزين

وقرأ على لوحة الارشاد كلمات :

« مل إلى اليمين » مكتوبة خطأ من ناحية الهجاء

فقال :

« يالهم من جهلة أميين ، فليأخذهم الشيطان ! »

ولقد صحبته من المقبرة إلى البيت

* * *

مضى عام واحد على هذه الليلة ، ولم يكد فاسيلييف يبلى النعلين اللتين غاص بهما فى الوحل وراء نعش امرأته

وفى هذه اللحظة التى أختتم فيها هذه القصة يجلس فاسيلييف فى غرفة استقبالى يعزف على البيانو ويرى السيدات كيف تغني الفتيات الريفيات أغاني الحب ، والسيدات يضحكن مما يرينه ، وهو أيضاً يضحك ممتعاً نفسه بما يحيط به من مظاهر السرور

وإنى لأدعوه للحضور إلى غرفة مكتبي ، فيبدو عليه أثر الامتعاض لحرمانه ذلك الاجتماع الهنيء ، ويقبل على فيقف أمامي وقفة الرجل الذي ليس لديه من الوقت مايضيعه فى حضرتى . وإنى لأعطيه هذه القصة وأسأله أن يقرأها . وإذ كان دائما يتفضل بالخضوع لسلطاني فانه يتنهد تنهد القارئ الكسول ويجلس على كرسي كبير ثم يبدأ القراءة . فلا يلبث أن يقول وهو يبتسم :

« تباً لذلك كله .. يالها من أهوال ! »

ولكنه كلما أمعن في القراءة ازداد وجهه تجهماً ، وأخيراً تحت تأثير الذكريات الموجعة يصفر لونه اصفراراً مروعاً ، ويهم واقفاً ويستمر فى القراءة وهو واقف ، حتى إذا انتهى من القراءة خطر فى الغرفة من ركن إلى ركن .

وإنى لأسأله :

« كيف تنتهى هذه القصة ؟ »

فيقول متسائلا بدوره :

« كيف تنتهى ؟ . . . . »

ثم ينظر إلى الغرفة ، وإلى ، وإلى نفسه ... فيرى رداءه الجديد المصنوع على أحدث طراز ، ويسمع ضحكات السيدات فى الغرفة المجاورة و.. يرتمى على أحد الكراسى ويبدأ يضحك كما ضحك فى تلك الليلة ثم يقول :

« ألم أكن على حق عند ما قلت لك إن الأمر كله عبث ؟ يالله ! لقد كان على أن أحمل أثقالا تقصم ظهر الفيل ، والشيطان يعلم مبلغ ماقاسيت من ألم .. وليس في الوجود من إنسان كان يستطيع أن يحتمل

من الآلام فوق ما احتملت فيا أظن ، فأين هى آثار ذلك كله ؟ إن الأمر ليدعو إلى الدهشة . لقد كدت أظن أن الأثر الذى تتركه الآلام القاسية في نفس الإنسان لا يمكن أن يمحى وتطمس معالمه وأنه لابد باق أبداً . ومع ذلك أرى هذا الأثر يبلى بأسهل مما يبلى النعلان الرخيصتان ، ولم يبق منه شيء ولو تافهاً ضئيلاً ، حتى ليخيل إلى أننى لم أتألم قط فى ذلك الحين ، بل لكأننى كنت أرقص رقصة المازوركا . إن كل ما فى الوجود زائل ، وهذا الزوال نفسه عبث باطل ! وإنه لميدان واسع للروائى الاجتماعى ! فلتضع لقصتك ، يا صديق ، خاتمة فكهة ! »

وهنا وصل إلى سمعى صوت السيدات القلقات ينادين على بطل قصتى :

« بيتور نيكولايفتش ، ألا تأتى فى الحال ؟ »

فيجيب الرجل « المغرور الأبله » وهو يسوى رباط رقبته :

« فى هذه الدقيقة »

ثم يتم حديثه معى فيقول :

« إن كل شيء عبث يدعو إلى الأسف يا صديق . نعم عبث يدعو إلى الأسف ، ولكن ماذا يستطيع الانسان أن يفعل ؟ إن كل شيء زائل ، وإنى لأشكر — على كل حال — لأمنا الطبيعة عملها فى تحويل المادة . ولو أننا احتفظنا بذكرى موجعة لما ينتابنا من آلام الأسنان ومن جميع الأهوال التى لابد أن يقاسيها كل واحد منا ، ولو أن كل هذه الأمور كانت باقية أبدية لقضينا نحن الفانين المساكين أسوأ الأوقات فى هذه الحياة الزائلة »

وإنى لأنظر إلى وجهه الباسم فاذكر ما كانت تفيض به عيناه منذ عام من معانى اليأس والفزع عند ما كان ينظر إلى النافذة المظلمة . وإنى لأراه وهو يلبس دوره العادى فى تمثيل الحدث الذكي اللبق ، مستعداً لأن يعرض أمامي نظرياته البليدة كنظرية « تحويل المادة » وأذكر فى الوقت نفسه جلسته فى وسط بقع الدماء رافعاً إلىّ عينيه الذابلتين المتوسلتين.

واني لأسأل نفسى فى صوت عال :

« كيف تنتهي هذه القصة ؟ »

فيصفر فاسيليف ويسوى رباط رقبته ويسير متجها إلى غرفة الاستقبال فأنظر إليه محنقاً . ولسبب ما آسف على ما شهدت من آلامه الماضية ، آسف على كل ما شعرت به أنا نفسى نحو ذلك الرجل فى تلك الليلة الفظيعة الهائلة وأنه ليخيل إلى كأننى قد فقدت شيئاً ...

عبد الحميد حمدى

فاوست

للكاتب الروسي تشيركوف

بقلم الأستاذ كامل محمود حبيب

استيقظ كل من في الدار وإيفان ميها لوفتش في فراشه لا يجد القوة على النهوض ، فيتكئ على وسادة ينفث دخان سجائره وفي نفسه القلق والاضطراب لأنه لا يشعر بالرضا ولا يحس في نفسه بالقناعة ؛ فهو قد برم بحياة تدفعه دائماً إلى أن يسرع في كل ما يعمل صباحاً : في ارتداء ملابسه وترتيب شعره وتناول طعام الافطار ؛ ليطير إلى عمله في المصرف ...

لقد سمع إيفان — وهو في مكانه — زوجته تأمر ابنه : « إذهب فأيقظ أباك ! » واندفع الطفل إلى أبيه : « أبي ، ألا زلت نائماً ؟ » فأجاب الأب في غلظة وجفاء : « لا ، لا ! »

وعلى المائدة جلس إيفان وقد غمره الكسل والفتور ، وأثقلته أفكار سوداء تضطرب في خياله فما استطاع أن يقول شيئاً ولا أن ينظر إلى أحد ؛ فراحت المرأة ترمقه في أسى وحسرة وهي تقول لنفسها : « لعله خسر كل ما معه في الندي فهو لا يجد مالا ! »

لقد دأب إيفان على أن ينطلق إلى عمله في العاشرة من كل صباح ويعود في الرابعة مساء ، وقد أنهكه العمل وأضناه الجوع ، فيجلس إلى غدائه يلتهمه في شراهة ونهم ؛ ثم يدلف إلى حجرة المطالعة فيستلقي على أريكة هناك ويذهب في سبات عميق يغط غطيطا يزعج الأطفال ويبعث في نفوسهم الرعب ؛ وكانت المربية تتخذ من هذا الصوت المنكر أداة تخيف بها الأطفال وتضطرهم أن يركنوا إلى الهدوء والسكون إن هم صاحوا أو تشاجروا ، فتقول لهم : « أفتسمعون صوت الدب النائم في الحجرة سأغريه بكم إن لم تمسكوا ... » ويهب الرجل في الثامنة فيصيح بصوته الأجش : « لماذا لم توقظوني ؟ » فتجيب الزوجة في خضوع : « لقد فعلنا مرات ومرات فما زدت على أن قلت : نعم ، نعم ! » ثم هو يجلس إلى نضد يقرأ صحيفته وزوجته كزينيا بافلوفنا تصب الشاي ، وأما ماريا بيتروفنا في الناحية الأخرى من النضد تداعب طفلا ، وقد هدأ المكان إلا من بعض أوامر يقذف بها الرجل في وجه زوجته المسكينة ... ثم ينطلق إلى الندي يلعب الورق فلا يعود إلا في الثانية بعد نصف الليل ، وقد نام الجميع سوى حماته ماريا تنتظره لدى الباب فتحييه تحية جافة تشيع في جنباتها أنات الألم والحزن ...

ما كانت الزوجة لتنتظر زوجها ، وما كانت تألم لغطيطه ، ولا تأسى على غيبته ، أما الحماة فكانت لا تستطيع أن تكتم بعض ما يؤلمها من شذوذ الرجل وقسوته فتندفع إلى الزوجة تسر إليها بحديث تنفس به عن نفسها : « حقاً ، إنه زوج ظريف ؛ إن كل

ما تستمتعين به منه هو قميصه المعلق على المشجب ! »
فتصرخ الزوجة فى وجهها في غضب وغيظ :
« لا يا أماه ، هـذا هو دأب كل زوج ... ! » ثم
تدلف إلى حجرة الاستقبال وهى تترنم :

من وراء الأفق أرض جميلة ...

* * *

اعتاد إيفان وزوجته وأمها أن يستقبلوا الزائرين
مرتين كل شهر ؛ وهم جماعة قضوا أعمارهم فى مناصب
الحكومة ، فى هدوء الدواوين ، وخمود الوظيفة ؛ لم
تصقلهم الحياة ولا حنكتهم التجارب ففيهم الغباء
وفيهم الركود ... فكانوا يجلسون إلى إيفان وزوجته
يتحدثون عن حياتهم المنزلية ، وعن أطفالهم ، ثم
عن الجو ؛ وماريا تعد الشاي والمربى والكعك ...
ثم يتدافعون — وقد شربوا الشاى — إلى المائدة
الخضراء يلعبون الورق ويدخنون ريثما تهيئ الزوجة
وأمها طعام العشاء ، والخمود يستولى عليهم رويداً
رويداً ... ثم ينطلقون جميعاً إلى الطعام والشراب فى
صخب ولجب ، وقد استخفهم الطرب ، ودب فيهم
النشاط والمرح ، فيجلس إليهم إيفان يقص قصة
زواجه من كزينيا وقد عبثت برأسه الخمر « لقـد
أحب كل منا صاحبه حباً يكاد ينشق له القلب وأنا
ما أزال — حتى الساعة — أذكر لقاءنا فى حديقتهم
الجميلة فى ضوء القمر ، فنجلس ساعات فى كن هناك ،
وقد نامت عين الرقيب والواشي . لقد كان قلبي يدق
دقات عنيفة متوالية ... » وكزينيا على خطوة منه
يتصاعد دم الخجل إلى وجنتيها وتشير إليه بطرف
العين أن أمسك ، وهو يغضى لا يعنيه ما يبدو على
وجهها من سمات الألم والحياء ...

ثم ... ثم ينتهى العشاء ومن بعـده الشاى
وينسل الزائرون لا يخلفون من ورائهم إلا سحب
الدخان منعقدة فى سماء الحجرة وإلا صحاف الطعام
وفناجين الشاى وزجاجات الخمر فارغة متناثرة هنـا
وهناك ، وإلا بقايا الدخائن ملقاة في نواحى المكان ؛
ثم يسود الدار سكون عميق وكزينيا على كرسى فى
ركن تحس فى مفاصلها ألم الاجهاد والتعب ؛ وأمها
تجول فى أرجاء الحجرات تفتح النوافذ وتلتقط بقايا
السجائر من أصص الزرع ، غضبي مغيظة : « أما كان
يقنعهم أن أنثر (الطقاطيق) على المناضد فينصرفون
عنها إلى الأصص ؟ » ثم تندفع تنظم ما تشعث ؛
وإيفان يضطرب بين الحجرات وقد أمضه ما رأى
وهو يقول فى غضب : « لقد نامت الدواب على نهر
الفولجا ، أما نحن ... » ثم يستلقى على فراشه ينتظر
زوجتـه فى قلق ... ويناديها فى قـوة ، فما يسمع
سوى عويل طفل يرتفع فى الناحية الأخرى وزوجته
تهدهده ، وحين ينفد صبره يجذب الغطاء وينطوى
إلى نفسه وقد أدار وجهه إلى الحائط ...

وكانوا هم يخرجون إلى دار أحد أصدقائهم مرة
أو مرتين فى الشهر ليشهدوا مثل هـذه الضوضاء
ومثل هذا الاضطراب . . .

* * *

ومرت الأيام جرداء ممحلة ، فبدت الحياة فى
عينى كزينيا جافة قاسية لا لذة فيها ولا متعة ؛ مظلمة
لا نور فيها ولا سلوة ؛ وسُلِّط عليها الملل والضيق
فانطوت على شعور غريب فيه الضجر والقلق . ماذا

تستطيع أن تفعل وهى في سجن من دارها وسجن من أولادها ؟ أفتستطيع أن تجد مهرباً مما هى فيه ؟ وترقرقت العبرات فى عينيها ...

واستشعرت الأسى والألم فى نفسها حين بدا لها أن سجنها يكاد يضمها بين جدرانه فيقضقض عظامها ويفرى جلدها . إنهـا ترى الناس يغدون ويروحون فى نشاط ومرح ، فيهم الأناقة والذكاء والخفة ؛ أما هى . . . أما هى فقـد استولى عليها الفتور والخمول ، وبدا عليها التشعث والغباء من طول ما اعتزلت الناس

وجلست الزوجة إلى الشباك وخيالها يحلق فى متاهات لا يجد الهداية .. وارتدت إليها ذكريات الطفولة الجميلة ، وأيامها الباسمة ، وحياتها المشرقة ؛ حين كانت ترى العالم كله يضطرب فى قلبها وتضطرب معه آمال كبار تتراءى لهـا من وراء الأفق فيها السعادة ... سعادة الحب فتبسم فى رضا واطمئنان ، وهى تنتظر المستقبل الجميل .

ولـكن ... ولـكن ها هى الحقيقة مرة لذاعة ، إن العالم كله الذى عاش فى قلبها سنين لم يبق منه سوى شارع ضيق قذر قصير ، فى أحد طرفيه دكان البدال وهم له مدينون ، وفى الطرف الآخر الدار حيث تطوى هى أيامها لا تجد إلا الأطفال وصراخ الأطفال ، وعويل الأطفال ، وإلا عملها فى الدار ، وإلا جماعة من العجائز يلعبون الورق بين الحين والحين فى ضجة وضوضاء وإلا الزوج العنيد يشاكس زوجته ويذلها فى غلظة وفظاظة ، لا يرعى حقها ولا يعنى بأمرها ؛ ثم زوجة تنفر من زوجها وتضيق به ذرعاً ، وهى لا تستطيع أن تجهر ببعض ما يتسعر فى قلبها فتكتمه على مضض . أما الحب ؛ أما السعادة فى الحب والزواج فخيالات لفتها الأيام لتنشر مكانها ما تكابد فى دار زوجها من هم ونكد ...

واصطرعت فى نفسها خواطر مؤلمة كادت تعصف بعقلها ، غير أن شبحاً بدأ فى الظلام يقترب منهـا رويداً رويداً يجذبها من أخيلتها ... إنه هو إيفان ميها لوفتش فى قميصه الأبيض جاء يلقى بنفسه على كرسى إلى جانبها ، وراح يتثاءب ويقول : « لقد أكلت طعاماً شهياً ونمت نوماً هادئاً ، ولـكن فيم تفكرين ؟ » قالت : « لا شىء ... لقد كنت أفكر ... إن هـذه الحياة جافة يا إيفان ! » قال : « أفيكون لك ثلاثة أطفال ثم تزعمين أن حياتك جافة ؟ » قالت : « إنها مملة لأنها على نمط واحد ! » فقال الرجل بغيظ وهو يلوح بيده فى الفضاء كأنما ينحى عنه شيئاً يريد أن يلصق به : « أفتعيشين عمرك مضطربة كئيبة ؟ » ثم انطوى وخلفها إلى أحزانها تبسم فى حسرة ثم تنزو بها نزوات الألم فتجهش إلى البكاء ...

وصاح إيفان - بعد حين - « ما هذا ... ؟ » ثم نادى زوجتـه يطلب ماء ، غير أن الحماة اندفعت إليه وفى قلبهـا شهوة الانتقام وهى تصيح : « ما هذا ؟ ما ذا صنعت ؟ ما ذا صنعت ؟ » قال : « لا شىء ، إننى لا أستطيع أن أفهم ابنتك ولا ما تريده ! » قالت وهى تضطرب : « ما ذا ؟ ما ذا صنعت ، ما ذا قلت ؟ » قال : « لاشىء ، إنها

انفجرت ضاحكة على حين بغتة ثم راحت تبكى ! »
قالت : « لا ، أنا لا أصدق ، هذا عبث ، لابد أن تكون جرّحتها ! » قال الرجل فى حدة : « لقد قلتُ إن شيئاً لم يكن ... ! » ثم انطلق ... انطلق إلى الندىّ يلعب الورق ...

وزاغ بصر المرأة فراحت تذرع الأرض وهى تضطرب وفى نفسها الغيظ والغضب ، ثم جلست إلى ابنتها تحدثها : « لقد تخاصمتما ، فلماذا ؟ ماذا فرط منه ؟ » قالت الزوجة : « لا ، لاشىء ! » قالت الأم : « لعله امتهنك وأغضبك ! » قالت الزوجة : « لا » قالت الأم وقد هدأت من ثورتها فبدا الحنان فى رنات صوتها : « ياعزيزتى لا تكتمى عنى شيئاً ، أنا أعرف أنه أنانى ، فلا تثيرى غضبه » قالت الزوجة ومن عينيها تتدفق العبرات : « حقاً ، حقاً ! ثم إنه غبي ! » وثارت ثائرة الأم فقالت فى شدة : « إن امرأة تحدثت عن زوجها هذا الحديث فما بعده سوى الشر المستطير ! » وراحت تدفع عن الزوج فى لباقة وذلاقة : « إن زوجاً يند إيفان لم يخلق بعد . أفلا تعتبرين بسواك ؟ إن زوجة كابيتا لينا المسكينة تحمل أثقالها وأثقال زوجها فى صبر وصمت ، ثم هي لا تسب زوجها ولا تحقره . إن بعض ما أنت فيه هو السعادة ياابنتى ... ! » غير أنها لم تظفر بكلمة واحدة فانطوت على همها تنتظر الزوج ...

* * *

وعاد إيفان يدق الباب فى عنف ، فقالت ماريا لنفسها وهى تفتح الباب : « لعله سكران ! » ثم قالت تحدثه فى لطف وهى تشير إلى المائدة : « ها هو طعامك » فما أجاب الرجل ، وما ألحت المرأة ... وأخذ إيفان يطوّف مايطوف فى حجرات الدار كأنما يريد أن يُشعر كل من فى الدار أنه السيد الآمر ؛ وبعد لأى دلف إلى حجرة المطالعة ليستلقي على أريكة هناك ، وأرادت ماريا أن ينزل عن رأيه فلا ينام فى حجرة المطالعة فلم تفلح ...

وكان الكلب (نورما) يطمئن إلى إيفان ويهفو نحوه ، لأنه كان يحبوه بعطفه وحنانه ؛ والآن — حين رأى سيده يدخل حجرة المطالعة وحين سمع ما كان بينه وبين ماريا — انطلق إليه فى هدوء يداعبه كأنه يريد أن ينزع عنه بعض ما أحزنه ؛ وراح هو يداعب كلبه فى مرح ونشاط ، ونادت ماريا من خارج الحجرة : « نورما ، نورما ! » ولكن الكلب لم يأبه ؛ وتردد الصوت : « نورما ، نورما ! » ففزع إيفان عن مكانه وأغلق الباب فى شدة وعنف فأسكت الحماة عن النداء ، وذهبت فى انكسار إلى فراشها وهى تحدث نفسها : « أفينام مع الكلب ؟ هذه هى ثالثة الأثافي ! »

* * *

لقد كانت حياة ضنكاً ، فيها الاضطراب والقلق ، وفيها القسوة والشدة ، تشتد قسوتها فى العشرين من الشهر حين يتقاضي إيفان مرتبه الشهرى ويجلس يحسب ديونه وهى تربو على مرتبه ، وهو يرى مصيبته في امرأتين قيّد هو بهما وهما تسعيان للحرية ولا تصلحان لتدبير شئون الدار ؛ ثم يقلب صفحات دفاتره وهو يقول: « لاضير ، إنهما يريدان

الحرية » فتجيب الزوجة : « وماذا بين الحرية وبين هذا ؟ » فيقول هو : « إن الشيطان يعرف لماذا يعلمونكن الجغرافيا والجبر والحساب وحساب المثلثات والهندسة ! ماذا يفيد كل هذا وأنتن لا تستطعن أن تنظمن حياة رجل ؟ لعلكن تتعلمن هذه العلوم لتطالبن بالحرية فى إصرار وإلحاح ! » فتقول ماريا : « إننا ولا ريب نستطيع أن نوازن بين دخلك وحاجاتنا إن أنت اطمأننت إلى الدار فلم تذهب إلى النديّ » فيقول هو : « وأنى إذن أجد المال ؟ أأزيفه ؟ » وهكذا يتنازعون بينهم أمرهم ، ويؤنب أحدهم الآخر ثم يستشعرون جميعاً الخزى والعار فى حديثهم ، ثم.. ثم تمر الأيام والخمود يستولى على نفس الزوجة ويدب فيها الفتور والكسل فينمحي من عينيها بريق الغبطة والسرور ، وتبدو وهى فى حركاتها واهنة ضعيفة كأنها فى تشعثها وهزالها عجوز شمطاء تدب إلى القبر وهى ما تزال فى أيام الصبا

على المرء أن يسعى جهده إلى الراحة والاستجمام بعد العمل المضنى ، ليبدأ عملاً جديداً فى قوة وفتوة . وكان إيفان يرى الاستجمام فى كؤوس من الخمر تذهله عن متاعبه حيناً ثم هو يقول : « يجب أن يطرح الإنسان عن نفسه بعض ما يثقلها ليجد النشاط والقوة » أما كزينيا فكانت لا ترى الراحة إلا فى الملهى وقد حُرمته زماناً ، فهى دائماً تطلب إلى زوجها أن يصحبها إليه فينطوى عنها وهو يذكرها بزيارتها للأوبرا فى سانت بطرسبرج حين كانا عروسين منذ سنوات تسع ثم يتركها فى سجنها ليذهب هو إلى النديّ

***

وظهرت رواية (فاوست) على مسرح المدينة . فانطلق إيفان إلى المسرح يحجز له ولزوجته كرسيين ، وارتد يقول وهو يلقى بالتذكرتين على المنضدة وعلى وجهه سمات الغضب : « سنذهب الليلة إلى الملهى ، لنرى (فاوست) ! وصرخت الزوجة فى حبور وقد تدفق دم الشباب فى وجنتيها : « فاوست ، فاوست ! »

وانطلقت كزينيا ترتدى ملابسها وتصفف شعرها وإيفان ينظر إليها وينتقد كل ما تعمل . إنه يريدها جميلة جذابة يفخر بها وبجمالها ، وكانت هي أيضاً تريد أن تبدو أمام الناس خلابة آسرة ثم ... ثم انطلقا جنباً إلى جنب صامتين لا يشعران بالمرح ولا السرور ، وذراعاً فى ذراع ويود كل منهما لو سحب ذراعه من ذراع صاحبه ...

ودلفا معاً إلى بهو المسرح والموسيقى تعزف الألحان الأولى وإيفان يمشى الخيلاء وإلى جانبه كزينيا مطأطئة ذاهلة كأنها تساق إلى المقصلة ... وأطفئت الأنوار ، ورفعت الأستار ، وبدا فاوست فى ملابس رمادية وقبعة كبيرة ولحية بيضاء طويلة ، يغنى :

عبثا ، عبثا ما أحاول أن أعثر عليه بطول السهر والكد .

وكزينيا فى مكانها جامدة لا تحركها الأغاريد وتشجيها الموسيقى ، ثم بدا ميفستوفليس أحمر قانياً يتلهب ، يعلن أنه يستطيع أن يأتي بكل شىء حتى

الشباب والمال . وتراءى إلى كزينيا اليوم العشرين من الشهر وما فيه من عراك وشجار ، ودوّى فى مسمعيها صوت إيفان : « الحرية ، الحرية ! » وحين ارتدت إلى ما يمثل أمامها كان فاوست قد خلع لحيته وملابسه ليبدو شاباً أنيقاً جذاباً يبتسم ويغنى :

أيها الشباب ، هات مرحك اللانهائى . . .

ثم هو يقفز فى نشوة وطرب ، والزوجة جالسة تأسى على شبابها المفقود ، ثم زفرت زفرة عميقة وهى ترمق زوجها وقد مال رأسه فى صلف ، وعلى وجهه الحليق الناعم وشاربه المفتول سمات الجد والحزم

وانتهى الفصل الأول فخرجا معاً إلى المقصف وإيفان يزعجه أن يرى شعر زوجته لم يرتب كما يريد هو ، وأن يخيل إليه أن وجهها ليس طرياً ناعماً كوجوه النساء حوله ، وأن عينيها قد انطفأ ما كان ينبعث منهما من أشعة آسرة ؛ ثم هى فاترة خاملة والنسوة من حوله يمرحن فى خفة وطرب

ورجعا فى صمت وكل يعيش فى عالمه هو ، لا يعنيه ما يضطرب فى نفس صاحبه ؛ وكانت الأنوار الكهربائية تنعكس على ثياب السيدات فتزيد البهو رونقاً وجلالاً ، والمكان يعج بأصوات الناس ، وكزينيا ترى فيما حولها أسباب حزنها وألمها ، فلم ترفع بصرها لترى فى البهو أشياء حرمتها زماناً ، ولكنها انطوت على آلام فى نفسها مبرحة وإلى جانبها زوجها لا يسرى عنها بعض ما يضطرب فى خيالها . وحين ابتدأ الفصل الثانى اطمأنت هى إلى ما ترى فنفضت عنها ما يمضها وما يحزنها ، ونسيت الغضب والتهكم والديون و . . . وما ران على حياتها من ألم وضيق ، فبدت روحها صافية طروباً ؛ واندمل جرح فى قلبها نكأته الحياة المرة التى تعيشها

وفى الفصل الثالث طارت خواطر كزينيا بعيداً عما حولها إلى ضوء القمر ، إلى الحديقة الغناء ، إلى أيام الحب والسعادة ... السعادة التى راحت تنمو فى خيالها رويداً رويداً حتى غمرتها إلا غلالة صفيقة من حزن ؛ وهى ترى مرغريت الجميلة الجذابة فى غدائرها الذهبية اللامعة تجثو عند قدمى حبيبها الشاب فاوست تستعطفه فى سذاجة وصفاء ؛ ثم سارت إلى جانبه تحت ضوء القمر الجميل وفى نفسها الخوف والأمل وهى تغنى أغانى الطرب تناجى بها الكواكب اللامعة ، وتنشر أمامها أسرار سعادتها ، والليل هادئ والحديقة ناعسة ، ورنات صوتها العذب الساحر تشق طريقها إلى السماء كأنها تسبيحات عابد يتهجد فى غسق الليل

لقد لمست فتاة المسرح كل قلب فأثارت الشجون وهزت أفئدة الذين خانتهم السعادة فألقت بهم فى قرارة البؤس ، فوجم الجميع وبدا المكان هادئاً . . . واضطربت كزينيا حين رأت مرغريت تمثل دوراً مثلته هى حين تغلغل فى قلبها حب إيفان

ورن فى جنبات البهو صوت ميفستوفليس يضحك فى تهكم « ها ، ها ، ها ! » وفى صوته القسوة والخشونة ، وراع كزينيا أن يجذبها هذا الصوت الأجش من أحلامها فبدت مغيظة محنقة

وإلى جانبها زوجها إيفان يقول فى هدوء : « لا بأس ، لا بأس ! » وألقت السيدة على زوجها نظرة خافتة ثم أرسلت أنة عميقة حين تراءى لها أن الرجل الجالس إلى جانبها كان هو فاوست حين كانت هى مرغريت... ثم جاءت الغلطة الأخيرة ... الزواج ... لقد تزوجت منه لتشيد صرح سعادتها فهدمت حياتها وهناءتها

ودوى هتاف الاستحسان حين أسدلت الأستار ثم رفعت مرة أخرى فاذا فاوست ومرغريت وميفستوفليس يداً فى يد يبتسمون للجمع الحاشد ؛ ثم هم يبددون من رأس كزينيا أخيلة كانت قد سيطرت عليها حين خيل إليها أن ما ترى حقيقة لا مرية فيها

ونادت كزينيا زوجها : « تعال ، يا فانيا ! » ثم انطلقا إلى المقصف يشربان الشاى ويأكلان البرتقال ، وقال إيفان وهو يقدم إلى زوجته برتقالة : « أنا ظمآن ! » وأحس هو أن قلبه قد نفض عنه ما علق به من بغض وكراهية فقال : « أهذه البرتقالة حامضة ؟ » قالت الزوجة فى رقة : « لا ، إنها جميلة حلوة ! » وأكلت الزوجة البرتقالة وهى ترقب الرجال حولها وتحدث نفسها : « ليس فيهم من يشبه زوجى ، كلهم يذهبون إلى الندى ، ولكن زوجى خيرهم » ثم قالت لزوجها : « كيف وجدت مرغريت ، يا فانيا ؟ » قال : « لا بأس ، ولكن ألمافوستر تفوقها » قالت : « أفسمعت ألما ؟ » قال : « أفلا تذكرين ؟ لقد سمعناها سوياً فى سانت بطرسبرج » قالت : « لقد كان ذلك منذ أمد بعيد » قال : « طبعاً ، لقد رأيتها مراراً ، وأستطيع أن أراها مرات كثيرة ، إن الحياة تنعكس كما لو كانت فى مرآة » ثم انحنى يهمس فى أذن زوجته فى رقة ولطف : « أفتذكرين . . . هناك فى الحديقة ! »

وشاع الخجل فى وجه الزوجة حين ذكرت كزينيا وإيفان حبيبين يتلاقيان على ميعاد فى حديقة الدار ثم همست فى أذن زوجها : « كأنه حلم ! » وجاء صديق يحييهما : « كيف حالكما ؟ » فأجابه الزوج : « إننا لا نجد ما يحزننا ، فالحمد لله ! وأنت ؟ » قال الصديق : « لا بأس ، شكراً لك ، إنى أرى كزينيا تبدو أنيقة جميلة » فملأها الغرور والكبرياء ثم قالت : « عجيب أن أسمع منك هذا وأنا أرى أننى أفقد جمالى رويداً رويداً » وردد إيفان بصره فى زوجته وهو يحدث نفسه : « حقاً إنها جميلة جذابة » ، ثم قال فى كبرياء وصلف : « إن فوق مكتبى رسماً لها حين كنا خطيبين أفرأيته ؟ لقد كانت أجمل من مرغريت ! »

وفى الفصل الأخير اضطربت فى رأس إيفان خواطر : لقد تراءى له أن زوجته ستلاقى ما لقيت مرغريت فتدفقت الشفقة والرحمة فى قلبه ... لقد كان هو فاوست فى وقت ما وكانت هى مرغريت . أما الآن ، أما الآن ...

***

الدار وهى تبدو فى عينيه سجناً مظلماً ؛ والأرض الحجرية ؛ والقش المتراكم فوق السقف ؛ والمرأة المسكينة التى تلمس القسوة والفظاظة فى زوجها فتخضع وتستكين وهى لا تستطيع أن ترد عن نفسها بعض ما يضنيها ؛ ثم الماضى الجميل وقد

أترعت أيامه باللذاذات والسعادة ؛ كل أولئك ارتد في خيال إيفان فجأة فأنّ أنّة كادت تتقطع لها نياط قلبه ، ثم نظر إلى زوجته فرآها واجمة حزينة والعبرات تترقرق في محاجرها فآلمه ما رأى واستقر في نفسه أنه هو الجاني . وعادت إليه أول ذكريات حبه حين جلس إلى التي أحب يترنم وقد نشر الظلام مسوحه على الحديقة في وسط هذا العالم الصاخب ...

ومن حولها البلابل تسجع والسماء صافية

وغادرا الملهى وهما يحسان أن حملاً ثقيلا قد انحط عن قلبيهما فعادا حبيبين كما كانا منذ سنوات وسنوات ... وطارا إلى الدار وإيفان يطوق زوجته بذراعه كأنه يخشى أن يفقدها ، وهي تخفي وجهها في فراء معطفها وعيناها تلمعان من بين الفراء الكثيف والقبعة البيضاء الكبيرة ... واندفع يجول في أنحاء الدار مرحاً مسروراً وهو يغني :

دعيني أحدّق في هذا الوجه الذي أمامي . . .

فقالت ماريا : « كلْ ثم حدّق كيف شئت ! »

وجلس الثلاثة يتناولون الشاي ويتحدثون في هدوء واطمئنان وإيفان يستشعر في نفسه السرور واللذة ، ويحدق في زوجته وقد أبدلت ثياباً بثياب فبدت في صورة ملائكية رائعة جذّابة . . . ثم انطلقت إلى أولادها تنظر إليهم — وهم نيام — في حنان وشفقة وقد خيل إليها أن هؤلاء هم الملائكة الصغار الذين حملوا روح مرغريت إلى جنة الخلد .

وداف إليها إيفان فبدا له أنه يقف بإزاء فتاته الأولى حين كان قلبه يتمنى أن تكون له . . . له وحده ، فقال : « إنك تشبهين مرغريت في سجنها » وغضتْ كزينيا من بصرها وقد ابتسم قلبها لأن صدى صوت أيام الشباب الجميلة رنّ في أرجائه ؛ ثم راح يودعها وهو يقبلها : « نعمت بنوم هادىء يا مرغريت » فقالت هي في حياء : « حرستك العناية الإلهية يا فاوست ! »

وانطلق إيفان إلى حجرة نومه يخلع ملابسه في بطء وتلكأ وهو يغني :

لكم السعادة يامن تعيشون في رضى وقناعة ... !

كامل محمود حبيب



لم يكن (إيفان ديمتريش) ميسوراً فى حياته ولا معسوراً ، ولا كان ربّ ثراء يعيش منه فى نعيم ، ولا أخا فاقة يشكو العوز والفقر ؛ وإنما كان يحيا حياة رضيّة هانئة براتب سنوىّ قدره ألف ومائتا روبل . ولم يكن طموحاً بعيد الأحلام بل كان قانعاً بحظه من دنياه راضياً بقسمته منها

ولقد كان جالساً بعد العشاء على الأريكة يتصفح جريدته ويطالع أنباءها عند ماقالت له زوجه وهي ترفع السماط عن المائدة :

— لقد فاتنى أن أقرأ الجريدة اليوم ، فانظر يا إيفان فلعلّ الأرقام الرابحة منشورة بها فأجابها :

— إنها لمنشورة ، ولكن ألم يذهب عن بالكِ أن تدفعى بدل الضمان يا ماشا قبل ميعاد السحب ؟ ثم انظرى ، ألم تفقديه ؟ !

— لا لم أفقده ، ولقد سدّدت قيمة الضمان يوم الثلاثاء المنصرم

— مارقم السهم الذى تحملين ؟

— رقم السباق ٩٤٩٩ ورقم السهم ٢٦

— حسن ، سنرى ، ٩٤٩٩ و ٢٦

لم يكن إيفان يعتقد أن المرء قد يؤاتيه حسن الطالع فيربح فى النصيب ، ولم يكن ليعتبر هـذا النوع من الأمل إلا ضرباً من الوهم الباطل ، وهو لو كان فى ساعة غير هذه الساعة لما أعار قائمة السحب اهتمامه قط . أما وقد كان فى فترة فراغ ، وكانت الصحيفة بين يديه ، فلا بأس إن هو راجعها ؛ ومن يدري ؟ فقد يسهو الدهر مرة فى العمر عن الزراية به ، وقد يبسم القدر بسمةً واحدة في الحياة ، وقد يكون هذه المرة من أولى الحظ ، فليرَ إذن ولتتبع عيناه جدول الأرقام من أعلاه إلى أسفله واضعاً سبابته تحت كل رقم حتى لا يفوته التدقيق يا للسعد !

لقد برز الرقم ٩٤٩٩ فى السطر الثاني من الجدول ، ولقد خُيل إليه أن أرقامه ترقص أمام ناظريه ساخرةً من ارتيابه وشكّه ، هازئةً به وبضعف يقينه وثقته ؛ فأخذته النشوة واستحوذ عليه السرور ؛ ولقد ترك الجريدة تسقط من يديه على ركبتيه دون أن يتحقق صحة ماقرأ ، ودون أن يدقق فيما إذا كان الرقم الذى ذكرته له زوجه مغلوطاً فيه ؛ فقد أحسّ بطراوة منعشة تلج لها صدره ، وبنشوة مثيرة عذبة انتشى لها وطرب

وتمتمت شفتاه بصوت خفيض :

— ماشا ! الرقم ٩٤٩٩ مدرج فى الأرقام الرابحة

وحدقت زوجه فى محياه ، فأدركت من أمائر الدهشة والذهول البادية عليه أنه جادّ فى قوله ، فسرت الدهشة إليها أيضاً وعراها هي الأخرى الذهول ، فسألته وقد امتقع لونها وتركت السماط المطوى يسقط على المائدة :

— الـ ٩٤٩٩ ؟ !

— نعم يا ماشا ، الـ ٩٤٩٩

— ورقم السهم أيضاً يا إيفان ؟ !

وكأنما كان إيفان فى غيبوبة فأفاق ، وتذكر أن ٩٤٩٩ لم يكن الا رقم السباق وأن عليه أن يرى رقم السهم كذلك ، فتمتم : — آه ! نعم علينا أن نرى رقم السهم أيضاً فلنراجع الجدول إذن ، ولكن... لحظة من فضلك يا ماشا ، حسبنا لذة الآن وجود رقم السباق فى جدول الربح ، أتفهمين ؟ !

قال ذلك وهو ينظر إلى قرينته ، وقد بحلت على ثغره بسمة عريضة بلهاء كأنه طفل غرير أراه أحد الناس شيئاً يبهر النظر

وبسمت امرأته كذلك ، فلقد كان الأمر لها كما كان له لذيذاً عذباً ، وإن كانت لم تتيقن بعد من معرفة رقم السهم المجدود

وهزتهما الأحلام وهدهدتهما الأمانى ، أحلام وأمان ممكنة التحقيق ، فيا للذة المسكرة !

وقال إيفان بعد صمت طويل :

— لقد ظهر رقم السباق فمن المحتمل إذن أن نكون قد ربحنا . إنه محض احتمال ، إلا أنه مستحب وكأنما عيل صبر زوجته اللجوج فقالت له :

— حسن : لقد آن لك أن تنظر الآن ؟

— دقيقة واحدة فقط ، أتسمحين ؟ إن لدينا من الوقت متسعاً نبتلى فيه بالاخفاق ، ونجابه الحقيقة المرّة إن كنا مخدوعين ، فلم لا ننعم بهذه اللذة السانحة ؟ وصمت لحظة ثم استطرد : وقد تكون أبدية ، فمن يدرى ؟

إن الرقم فى أعلى الجدول وفى السطر الثانى فقيمة الربح إذن خمسة وسبعون ألفاً من الروبلات وليس هذا بالمبلغ القليل ، أجل إنه لثروة !

وألقى على الجريدة نظرة فاحصة كأنما شاء أن يعلم إن كان الرقم ٢٦ موجوداً فيها أم غير موجود ، إلا أنه لم يلبث أن استرجعها دون أن يجلو حقيقة الأمر ، فلقد عز عليه أن يفقد هذه اللذة التى لم يشعر فى حياته بمثلها . وما هي إلا لحظة حتى تابع القول :

هيه يا ماشا ، التفتي إلىّ . أية سعادة تلك التى ستغمرنا بفيضها الساحر إن كنا قد ربحنا حقاً ؟

فضحكت وضحك معها ثم راحا معاً يتأملان طويلاً فى صمت وهدوء . فاحتمال اقبال السعادة عليهما بوجهها المتألق الضاحى بلبلهما وألقاهما فى قلق واضطراب ، فذهلا عن نفسيهما واستسلما للخيال الممتع حتى لم تعد الدنيا لديهما إلا صفحة بيضاء خط عليها بأحرف بارزة كبيرة العددان ٩٤٩٩ و ٧٥٠٠٠

ونهض إيفان من جلسته وجريدته فى يده وراح يتخطر بقامته المشوقة وقد بدت على محياه دلائل التفكير العميق ولم يلبث أن وقف وقال :

— أجل يا ماشا ، أي سرور سيغمرنا إن كنا قد ربحنا حقاً ، وأية حياة جديدة تلك التي سنحياها ، وأي انقلاب سيتناول شؤوننا كافة ؟ إن السهم لك وحدك لا ينازعك فيه منازع ولكن حبذا لو كان لي ؟ إذاً لكنت اشتريت قبل كل شيء عقاراً بخمسة وعشرين ألفاً ، ولبذلت عشرة آلاف لشراء أثاث جديد لمنزلنا ، ولوفاء ما على من دين قليل ، وللسياحة في بلاد الله الواسعة ؛ وأما الأربعون ألفاً الباقية فأضعها في المصرف

فأجابته امرأته وقد جلست ويداها على ركبتيها :

— أحسنت يازوجي العزيز ، فالعقار لابد من شرائه ، على أن يكون في أنحاء (ثولا) أو في أرباض (الأورول) فنحن لا نملك منزلاً نقضي فيه فصل الصيف القائظ ، والعقار عدا ذلك ستدر علينا أرضه الخيرات

وتراكمت في مخيلته اللوحات والصور ، وكل واحدة أفتن من الأخرى وأعلق بالقلب ، وتخيل نفسه فيها جميعاً يأكل من الأطعمة أشهاها وأهنأها ؛ ويعيش على هواه أرغد عيش وأترفه ، معافى الجسم ، قوي البنية ، مرتاح الضمير ، قرير البال

وتخيل نفسه وقد أخذه الحر الشديد ، غير أنه ما شكا ولا تبرم ، فالمرطبات أمامه والمبردات المنعشة رهن إشارته ، وهو إذ تناول منها ما شاء يرى أن يستلقي على ظهره على الرمل المنثور فوق ضفة الجدول الرقراق أو في الحديقة الوارفة الفينانة ، وقد صحا الجو واعتل النسيم ، وعلى مقربة منه ولداه الصغيران يلعبان معاً على الرمال ويحفران فيها حفراً صغيرة يملآنها بالماء ، أو يلهوان في أرجاء الحديقة الفيحاء ويلتقطان منها بعض الحشرات من بين الحشائش المخضلة الندية

على هذه الصور الفاتنة غفا إيفان على مهل غير آبه لشئ ولا عابئ بأحد ، وقد شعر من صميم فؤاده بلذة ما بعدها لذة ، وأحس أنه يستطيع أن يفعل ما يحلو له ويطيب ، فهو إذن لن يذهب إلى مكتبه لا غداً ولا بعد غد ، ويرى ليصد عنه النعاس إذا أخذ بمعاقد أجفانه أن يتعهد أصص الورود والرياحين ، أو أن يتجول في قلب الغابة اللفاء يفتش في حناياها عن الذي يحب ؛ أو أن يقف على ضفة النهر ينعم بمرأى البؤساء وهم يتصيدون الأسماك

هذا في الصباح ؛ أما في المساء ، عند ما تلم الشمس ذوائبها النورانية من حواشي الأفق فلا أشهى لديه من الاستحمام في النهر ، وإنه ليرى نفسه وقد دلف إليه متأبطاً منشفته فما يكاد يصل حتى ينزع ثيابه عنه بتؤدة وبطء ثم يدغدغ صدره العاري بكلتا يديه ما يشاء له أن يفعل . وبعدئذ يلقي بنفسه في الماء حيث ترتج الأسماك الصغيرة وتهتز ، وحيث تتموج الحشائش المائية وتتمايل مع هبات النسيم الرخي ، فيستحم ساعة أو بعض ساعة متنعماً وحده دون الناس أجمعين ، ثم لا يرى بداً من أن يستجم قليلا وأن يتناول أثناء فترة استراحته شيئاً من الزبدة مع الشاي والكعك ، وما إن ينتهي من

هذا حتى يكون قد آن أوان التنزه في هدأة المساء الرائق ، أو التسلي بلعب الورق مع الصحب والجيران

كان إيڤان يسبح من خياله الرحب في بحر لجيّ عندما قالت له امرأته وقد كانت في غمرة الأحلام مثله :

— أجل إننا لنحسن صنعاً بشراء عقار يا إيڤان.

قالت هذا وصمتت وعيناها عالقتان بالهدف البعيد فما يشك رائيها ساعتئذ في أنّ الأحلام تسكرها هي الأخرى

وكأنما لم يسمع إيڤان ما قالت فما التفت إليها لأنه كان لم يزل يتخيل

وإنه ليرى نفسه في الخريف ، والخريف فصل حبيب إلى فؤاده ، فهذه السماء مربدة الأفق مكفهرة الأديم ، وهذه الأمسيات كالحة باسرة ، والتنزه في هذه الفترة من الزمن متعة . فها هو ذا يخرج إلى الحديقة وقد عبثت بأزهارها أيدي الرياح الهوج ؛ وها هي ذي أوراقها الصفراء مبعثرة ها هنا وها هنا كأنها الضحايا أو أشلاء الشهداء في معترك الشرف فما يتمشى قليلا حتى تنفحه النسمات ؛ وما إن تسرى البرودة في عروقه وتتمشى في مفاصله حتى يهرع عائداً إلى منزله فيتناول كأساً من (الفودكا) يدفئ بها أحشاءه ويتلمظ لقمة أو لقمتين من الخيار المكبوس مع الشمرة أو الفطر الأحمر ثم يجرع كأساً أخرى . . .

وهنا يعدو ولداه عائدين من البستان ومعهما قليل من اللفت والجزر تنث منه رائحة الأرض الرطبة

ويستلقى بعدئذ على الأريكة ويطالع على مهل جريدة مصورة ، حتى إذا خدرت أعصاب عينيه واستولى عليه النعاس غطى وجهه بجريدته واستسلم إلى الكرى الهادئ المطمئن بعد أن يكون قد جاء من فك لهأزرار صدريته وخلع نعليه

وهكذا مضى إيفان في تصوراته ، وانتقل به خياله من الخريف الحزين إلى الشتاء المنتحب الباكي فإذا به يرى السماء ممطرة أبداً لا ينقطع لها معين ، ولا ينضب لها ميزاب ، والأشجار معراة من كساها الحالية النضرة ترتعش أمام صفعات الرياح القرة الباردة ، والدواجن في المزرعة قد لجأت إلى أوكانها من رذاذ المطر المنهمر خائفة حزينة ، والناس قد أووا إلى منازلهم فلا متنزه يؤم ولا حديقة تقصد ، ويرى نفسه هو قد اضطرته الطبيعة الغضبي أن يبقى في المنزل كسواه ، فيذرع الغرفة بخطواته المتزنة ذهاباً وإياباً طول النهار ، وأن يتطلع بين الفينة والأخرى بقلق وضجر لا حد لهما خلال النوافذ الزجاجية التي خددها المطر إلى حين

وهنا وقف إيفان فجأة كأنما انقطع تيار خياله الجامح وقال :

أتدرين يا ماشا ؟ ! إني سأغترب

ثم صمت لحظة تخيل فيها نفسه يتنعم بلذة الهجرة في أواخر الخريف وهو يتنقل كالطائر من بلد إلى بلد زائراً فرنسا فإيطاليا فالهند ؛ وإنها لرحلة ممتعة شائقة ما في ذلك ريب

— وأنا أيضاً سأغترب يا إيفان » قالت امرأته بنبرة جازمة ثم استطردت :

أما حان أن تنظر رقم السهم ؟

— دقيقة واحدة إذا تفضلت ، أرجو أن تنتظرى

وراح يتهادى فى الغرفة مفكراً ، وقد سهم وجهه وقطب أساريره ، ويتساءل عما إذا كانت امرأته تعنى حقاً ما تقول وأنها ستغترب معه !

فخير له وأجدى عليه أن يسافر بمفرده من دونها، أو برفقة غانيات رعناوات إن لم يكن للرفقة من بد ، غانيات خفيفات لا هم عندهن ولا غم ولا يعشن إلا للساعة التى هن فيها ؛ أما السفر مع امرأة لا تفكر طول الطريق إلا فى أولادها ولا تتكلم إلا عنهم متأوهة تارة متدللة أخرى ، تحاسبه على كل بارة ، فهذا ما يكرهه ويجتويه

وتمثلت له زوجه فى عربة القطار المكتظة بالرزم والسلال والطرود تتأوه ولا يدرى أحد لماذا، وتشكو الصداع لداع ولغير داع ، وتتذمر من كثرة النفقات، وتتبرم من غلاء الحاجات ، وترغمه فى المحطات أن يهرع ليبتاع لها «سندوتشاً» وليأتيها بالماء ؛ لأن حضرتها لا تريد أن تتناول غداءها فى المطعم لبهظ الأسعار، وهذا ما لا يرغب فيه . إذن خير لها وله أن تبقى فى منزلها لا تبرحه وان تطلق له حريته ، فالسياحة لم يخلق لها الشحيح الضنين ، وما عسى يستطيع البخيل أن يرى من متع يا ترى ؟؟

ثم إنها عدا ذلك كله ستلازم غرفتها فى الفندق الذى سينزلان فيه

وستحتفظ به حيالها لا يفارقها وهذا ما لا طاقة له به ولا قدرة له على احتماله

وألقى على امرأته نظرة فاحصة عجلى ، فاذا به يراها لأول مرة فى حياته ، قبيحة المنظر ، دميمة الوجه ؛ قد دهمتها بوادر الكبر ، وظهر عليها أثر السنين ، وتفوح منها ـ فوق هذه العيوب ـ رائحة المطبخ الذى قلما تفارقه ؛ فى حين أنه هو مازال فى إبان الصبا وشرخ الشباب أليق مايكون بالزواج ثانية من خير فتاة

وقال إيفان فى نفسه : إن هذا لمن سفساف القول ولا طائل لى فيه ؛ وإن هذه حقيقة لا أجحدها ولا أنكرها ، ولكن لماذا تريد هذه الملعونة أن تغترب ؟ وماذا تفهم من السياحة والأسفار من تكون (نابل) و (كلين) لديها سواء ؟ !

إنى لأشعر منذ الآن أنه لن يكون لها من عمل إلا مضايقتى وإرهاقى ، وإنى سأكون تحت حكمها لا أعصى لها أمراً . وإنى عدا ذلك ، أدرى الناس بها فى كيفية الاحتفاظ بالدراهم والحرص عليها ؛ فهى ستضمها — شأن أكثر النساء — فى صناديق من حديد وراء عشرات الأقفال المحكمة ، وستخبئها عنى وتحصى على الفلس الواحد ، فى حين أنها ستكون سمحة الكف جوادة مع أهلها وذوى قرباها

وهنا تذكر إيفان أهل زوجته وأنسباءها ، وكيف أنهم سيفدون إلى دارها متى علموا بالربح يستجدونها فى إلحاح المتسولين وهم يتسمون بعذوبة ورقة ؛ والله أعلم أى لؤم تخفى تلك البسمات ، وأى رياء ؟ ! ...

يا لهم من ذرية سافلة دنيئة ، ومن نسل لا خير فيه ، إذا أعطوا ألحفوا فى طلب المزيد ، وإن ردوا نشطت ألسنتهم تغتاب وتقدح ما شاء لها الاغتياب والقدح ، وتمنوا لرادهم كل أذية وبلاء

وتمثل له أهله ، فإذا به يراهم صفيقى الوجوه فى

حين أنه كان — لساعة خلت — يرى تلك الوجوه ذاتها تفيض بالوداعة ، وتتألق بالحياء والبشر فتمتم : « ياللحشرات ! »

لقد بدت له وجوه أحب الناس لديه وأدناهم إليه بغيضة مكروهة ، وغلى صدره بالحنق عليهم جميعاً ، وتمنى على الله في سره لو لم يوجدوا

وتدنى سروره ، فلقد شابه الكدر ، وعرت جسمه رعشة اشمئزاز من أولئك الأهل المرائين المتسترين تحت ألف نقاب ، ومن تلك الزوجة المقترة حتى على نفسها التي لا تدرك للمال لذة إلا بكنزه في صناديق من حديد وراء ألف قفل

وتوارت البسمة التي كانت تعلو محياه منذ حين فكلحت منه الأسارير وأصبح لا ينظر إلى زوجته إلا شزراً . وهي ، هي كذلك انتابها منه ما انتابه منها ، فبدا لها بغيضاً ممقوتاً وهو الذي كان بالأمس مطمح آمالها ومحط أمانيها ، فراحت ترمقه بكثير من الحقد ؛ فإن لهاهي كما له أحلام مذهبة الحواشي ، ولها آراء تعجب بها هي على الأقل إن لم يعجب بها سواها ، ولها خطوط ومشروعات كلها رائعة جميلة ، ولم لا ؟ أيكون زوجها المأفون هذا خيراً منها ؟ !

لا وألف لا ! وإنها لتعلم العلم اليقين فيماذا يفكر زوجها ، وماذا يتراءى له ، وإنها أدرى الناس به وأخبرهم بطباعه . إنه سيكون أول من يمد رجليه على ظهرها وأول من يتبسط على حسابها هي ، ولقد كانت بنظراتها — التي تعني أنه من الجميل أن يحلم المرء على كيس سواه — تنطق بما عي لسانها عن بيانه . ولقد فهم الزوج معنى تلك النظرات الشزراء وأدرك ما يجول بخاطرها عنه ، وقرأ في تلك الملامح المغضنة ما أبدته ضغائن القلب الحقود ،

فاحتدم غيظه واشتد حنقه ؛ وسرعان ما فتح الصحيفة وألقى على الصفحة الرابعة منها نظرة خاطفة وأعلن لهما ، حبا في مناوأتها فقط ، بصوت الفائز الفخور :

— « السباق ٩٤٩٩ والرقم ٤٦ لا ٢٦ » وصمت على مضض

لقد شاء أن يثير حفيظتها ، وأن يحنقها فتم له ما أراد ، إلا أنه تأثر هو كذلك واستاء . فالأحلام الذهبية تلاشت واضمحلت ، وهوت قصور الأماني إلى الحضيض هويا ، فتمثل المنزل لهما حالكا قاتماً حقيراً ، وظهر لهما أن العشاء الذي فرغا من تناوله منذ حين لم يكن لذيذاً شهياً ، ولقد شعرا معاً بوطأته على معدتيهما

وتراءت لهما هذه الأمسية طويلة ما تنتهي ، ومملة غاية الملل !

فيا للأجواء المربدة القاتمة وإن لم يكن بها اربداد ولا قتام !

ومشى إيفان مهتاج الأعصاب ثائر النفس وتخطى الردهة بخطى المسرع العجلان وصوته الحانق يجلجل في أرجائها ، فتتجاوب منه الأصداء :

— ما هذا ؟ لا أدري ما أدعوه وربي ؛ فأينما أمش لا أر إلا قصاصات الأوراق ، وأتعثر بالأشياء المبعثرة هنا وهناك ، وفي كل زاوية بل في كل موضع لا تقع العين إلا على فتات الخبز وقشور البيض ، أمزبلة هذا أم منزل ؟؟

يجب أن أنأى عن هذا الجو الموبوء وأن أهجر هذا المحيط الملعون ، سأذهب ، وليحملني الشيطان ، فأشنق نفسي على أول شجرة أقع عليها في سبيلي

ترجمة جورج سلستي

(٤)



كان البيطري « إيڤان » والأستاذ « بوركين » عائدين من القنص عندما دهمهما الليل فى ذلك السهل الفسيح الأفيح فلم يريا بداً من أن يلتجئا إلى هرى من أهراء القرية القديمة القائمة فى أقصى البلاد لقضاء ليلتهما فيه

وإيڤان كان يقطن فى ضاحية المدينة وقد ذهب للصيد ترويحاً لنفسه وتنشيطاً لبنيته ، وأما الأستاذ بوركين فقد كان يصطاف كل عام عند صديقه الكونت ب . ويتصرف فى تلك الناحية على هواه كما يتصرف فى منزله بين أهله ومحبيه

ولم يجد النوم إلى عيونهما سبيلاً ، فجلس إيڤان وهو كهل ناحل الجسم حيال الباب المغمور بآراد القمر وأضوائه يدخن غليونه على مهل ، واستلقى بوركين في الداخل على أكوام الهشيم يرى ولا يُرى وتجاذبا أطراف الحديث ، وحديث الوحدة طويل ماينتهى ، وقصَّ كل منهما على رفيقه قصصاً شتى فيها الشائق الممتع وفيها التافه الممل ؛ وتحدث إيڤان فيما تحدث عن امرأة تدعى « ماڤرا » وقال عنها إنها حازمة نشيطة ، وإنها ليست بالحمقاء ولا الساذجة على ما فى عاداتها من شذوذ وفى أخلاقها من نشوز ؛ وإنها لم تبرح القرية قط فهى لم تر المدينة إذن ولا أبصرت القطار ، وإنها منذ عشر سنوات حتى الآن لم تخرج من منزلها إلا ليلاً ، وأما نهارها فتقضيه جالسة حيال الموقد ...

إلا أن بوركين لم يدهشه الحديث عن «ماڤرا» هذه ولم يجد فى أطوارها ما يستحق الاستغراب فقال مقاطعاً صديقه :

— وماذا ترى فى الأمر من غرابة ؟! إن حب العزلة من طبيعة الكثيرين ، وإن بعض الناس كالسراطين لا ترغب عن التنسك بديلا ، أو كالحلازين تستطيب أبداً التخبؤ فى أحجارها !

ولماذا التبسط فى الذيول والحواشي وعندى من جوهر الأمر ما يغني عنها جميعاً ؟

فلئن كانت « ماڤرا » قد شاقتك أطوارها فماذا عساك تقول فيمن بزها فى غرابة الأطوار بمراحل، وفاقها فى شذوذها فوق ما تستطيع أن تتخيل ؟ !

فبالأمس القريب قضى زميلي بيليكوف نحبه فوارى التراب بموته فذاً من أفذاذ الخلق الناشز والطبع الغريب . ولقد كان رحمة الله عليه حيياً إلى أبعد حدود الحياء ، ولا إخال إلا أنك سمعت الناس يتحدثون عنه ، فاسمه ملء الأفواه ، وذكره ملء الأسماع ؛ وشهرته هذه لم تكن لعلوّ كعبه فى العلوم والآداب فحسب ، بل لغرابة أطواره ، وشذوذ

عاداته . فقد كان لا يخرج من منزله إلا لابساً معطفه وحاملاً مظلته ومنتعلاً « كوتشوكه » الواقي سواء لديه أكان الطقس ممطراً أم صحواً ، وسيان عنده بسمت السماء وهش الأفق أم تجهّما واربدّ منهما الأديم

ولا تسل ياصديق عن تعلقه بالأغطية وشغفه بالأغماد فلقد كان لمظلته غلافها ، ولساعته واقية من الجلد الأشهب ، ولموساه الصغير الذي لا يفارقه غمد يحفظها فيه ، ولكل شيء عنده غطاؤه حتى كان يخيل لعارفيه أن لوجهه كذلك وشاحاً يلقيه عليه أو ستاراً يحتجب وراءه

وقد كان يضع على عينيه نظارتين كثيفتين ويرتدى تحت معطفه صدرة من الصوف ، ويضع فى أذنيه قطناً ، ويأبى كلما ركب عربة إلا أن يُنشر غطاؤها ويبسط

والخلاصة أنه كان يتجنب الناس ما أمكنه الأمر وينأى عنهم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، فرغبته فى الانزواء ملحة قاهرة ، وكان يود لو يستطيع أن يتخذ لنفسه غمداً يقيه من العوارض الطارئة والمؤثرات الخارجية

فالحقيقة كانت ترهقه ، والاحساس بالوجود يرمضه ، والكائنات تثير مخاوفه وتقض عليه مضجعه وتجعله فى قلق دائم وحزن مقيم

فلقد كان يكره الحاضر ويجتويه ، ويمتدح الماضى ويطريه ؛ وكان غير الموجود حبيباً إلى قلبه والموجود بغيضاً لديه ، ولم يكن ليجد فيه إلا ما يزيد هلعه ويكثر مخاوفه

واللغات القديمة التى كان يدرسها وينصب على آدابها ويتضلع فى فنونها كانت له « ككوتشوكه» ومظلته ومعطفه التى كان يلوذ بها جميعاً تهرباً من حقيقة الحياة

وما أكثر ما كان يردد هذه العبارة المأثورة بصوت رقيق عذب :

— « يا لليونانية من لغة جميلة رنانة الألفاظ ! »

ثم كان يطبق عينيه ويرفع سبابته ويردف عبارته هذه بلفظة (انتروبوث) [1]

والأنكى من ذلك كله أنه كان يحاول وهو الذكى أن يبلد من توقد ذهنه ، كأنما كان يضن على فكره أن يظل طليقاً ، ويأبى إلا أن يجعل له حجاباً صفيقاً !

وما أشد ما كانت الفُرص المدرسية ممقوتة لديه ! فقد كان لا يراها إلا مدعاة لإثارة الشك والارتياب ، وما أكثر ما كان يشك صاحبنا ويرتاب ! وكان يحس إحساساً قوياً أن الفرص مغلّفة بغموض لا يأنس إليه فكره وإبهام لا يرتاح إليه ضميره

وحتى الرخص كانت بغيضة لديه ، وعندما كان يُرخّص لأحد ما فى المدينة بانشاء مسرح للتمثيل أو يؤذن له بتأسيس دار للمطالعة أو فتح ردهة للهو كان يهز رأسه الصغير ويقول بصوت خفيض : « إن هذا حسن ما في ذلك ريب ؛ وإن فى هذا العمل لمنتهى الكمال ولكن على ألا يقع ما نحاذره ونخشاه ! »

ثم إن نقض العهود والنكث بالوعود والمخالفات على شتى أنواعها ، سواء أكانت متعلقة به أم بسواه كانت تبليه باضطراب الخاطر وانحلال القوى

ولقد كان يسوءه أن يتأخر أحد زملائه الأساتذة عن تأدية فرض من فروض الدين ،

(١) لفظة يونانية معناها رجل

ويحزنه أن تسرى شائعة هزؤ عن أحد الطلبة ، ويؤسفه أن يلتقى أحدٌ بإحدى الناظرات عائدةً متأخرة مساء برفقة أحد الضباط . ولشد ما كان يتأثر من هذه الشؤون وأمثالها إذا قُدّر لها أن تحدث ، ويتمتم وشفتاه ترتجفان حنقاً : « على ألا يقع ما نحاذره ونخشاه ! »

أما فى الاجتماعات التهذيبية العامة فقد كان كعادته يرهقنا جميعاً بتحفظه واحتراسه ، بريبته وحذره ، بتصورات أقلّ مايقال فيها انها تصورات (رجل ذى غمدْ !) . وإن قيل له إن الطلبة كانوا يسيئون التصرّف ولا يحسنون السلوك ، أو أنهم يضجون فى صفوفهم ويصخبون كان يردّد عبارته المأثورة :

« آه ! على ألاّ يتصل الخبر بالادارة وعلى ألاّ يحدث شىْ ، وإنما لو طرد (بتروف) من الصف الثانى أو (ايكوروف) من الصف الرابع لكان أحسن »

وبعد فماذا تظن ياصديق بمن كان لا يفتأ يتأوّه من غير سبب ويشكو من غير داع ؟ ومن تحسب من الناس كان عالةً علينا جميعاً ، ومن كان وجهه الصغير الشاحب شؤماً على رائيه ؟ وكنا مع ذلك كله نذعن جميعاً لإرادته ولا نعصى له رغبةً ولا أمراً ؟!!

وما قولك فى أن الأساتذة كانوا يمنحون بتروف وايكوروف أسوأ العلامات فى دروسهما مداراة لشعوره ، وأن هذين التلميذين قد طُردا أخيراً من المدرسة من غير جريرة ولا ذنب نزولاً عند رغبته وإكراماً لخاطره

وياليت هذا كل مافى الأمر ياصديق ، إذن لخفّت البلوى وتضوّلَ المصاب ، ولكن هناك لنكد الطالع وسوئه ما هو آلم للنفس وأنكى

فقد كان رحمه الله يأبى إلاّ أن يزورنا فى منازلنا على كرهه للزيارات وبغضه لها ، ويأبى إلا أن يفدحنا بطلعته المشؤومة فى دورنا كأنما لم يكن يكفيه طول ماينكبنا بها أثناء ساعات التدريس ، لأنه كان يعتقد أن زيارة الزملاء فرض لامناص له من إدائه ، وواجب لابدّ من القيام به لمن يشاء أن يحتفظ بالعلاقات الوديّة وصلات الاخوة به . وكان يبقى جالساً صامتاً لايتكلم ، إلا إذا أكره على الكلام أو اضطر إليه اضطراراً ؛ ويظل يحدّق فى شىء ما لا يحيد عنه نظره كأنما جاء للتأمل والصمت الطويل ، ويبقى كذلك ساعة أو ساعتين ثم يذهب لشأنه ويمضى لطيّته !

قلت لك إننا كنا نحن زملاءه نجاريه فى رأيه ونداری إحساسه وشعوره كثيراً ؛ وكان رئيس المدرسة نفسه يجاريه فى رأيه كذلك ويداريه مثلنا

لقد كنا جميعاً من أولى التفكير الحر ، التفكير العميق البعيد الغور ، مثقفين التثقيف العالى على أيدى (تورغنيف) و (تشدرين) وأضرابهما من كبار الكتاب والفلاسفة ، إلا أن الذى كان يهز المدرسة منا هزاً ، ويقيمها دون سواه ويقعدها ، هو هذا الذى لم يكن ليتخلى قط عن معطفه ومظلته « وكوتشوكه » الواقى . ماذا قلت ؟ المدرسة ؟! إن المدرسة ليست بالتى تذكر ، فقد كان هذا القزم الهجين يسيطر حتى على المدينة بأسرها ، فكثيراً ما استنكفت سيداتنا من تمثيل الروايات على مسرح المدينة كعادتهن كل سبت من أجله ، وحتى كاهن الرعية كان يتجنب أن يفطر أثناء الصوم ، أو يلعب

بالورق أمامه ؛ وهكذا ظل الناس جميعاً خلال العشر أو الخمس عشرة سنة التي قضاها بيننا يرهبونه ويخشونه في كل شيء

وهنا سعل إيفان ليقطع على بوركين حديثه ، ثم أشعل غليونه بعود ثقاب وحدج القمر بنظرة طويلة ثم قال وهو يمط كلماته مطاً :

« عجبت والله من هذا الذي تحدثني عنه ياصاح ، رجال من ذوى النظر الثاقب والرأي الحصيف ، رجال تثقفوا بثقافة تورغنيف وتشدرين وأمثالهما من قادة الفكر والرأي يخضعون هذا الخضوع المهين ، ويتحملون هذا الذل الشائن ، ويقبلون هذا كله دون أن يتبرموا ؟ ! »

تابع بوركين حديثه : كان « وبيليكوف » يقطن في البناية التي أقطنها أنا ، وكنا على سطح درج واحد ، منزلى أمام منزله وبابه تجاه بابي ، وكثيراً ما كنا نتلاقى ، فمن الطبيعي إذن ، وأنا جاره وزميله ، أن أكون أدرى الناس بحياته الخاصة ، فمنده من الأقفاص والمزالج والأقفال وكل ماله صلة بالحماية والأمن والتقييد والحصر والتحظير والمنع مالا يحصى ؛ فلقد كان كثير الخوف والحذر ، ترعبه في الليل أقل حركة ، وتفزعه أخف نأمة ، فلا ينام إلا وقد خبأ رأسه تحت لحافه غير عابئ بالدفء الذي يرهقه ، ولا بغاز أنفاسه الزوافر الذي يكاد يخنقه ، في حين تكون فيه الريح عاصفة مدوية ، ويكون صاحبنا الجزع الرعديد يرجف تحت غطائه ! فلقد كان هذا الذي يخشاه الناس في نهاره يخشى كل شيء في ليله ، يخشى أن يحدث ما يذهب بقلبه ويطير بلبه ، يخشى عصف الريح بالمدخنة ودوى الصوت وهزة الباب ، يخشى أن يدهم اللصوص منزله ، وأن يروّعوه بسلاحهم ، يخشى من خادمه الطاعن في السن (أفاناسي) أن يزحف إليه ويذبحه . فإذا غفا واستسلمت مقلتاه للكرى جاشت بمخيلته الأحلام تروعه وتخيفه ، وكثيراً ما كان يفيق من سباته مضطرباً مذعوراً . وهكذا كان يقضى المسكين لياليه التي كان يراها على قصرها طويلة ما تنتهى إلا بشق النفس ؛ حتى إذا حانت الساعة السابعة مشى إلى المدرسة مسرع الخطى عجلان لا يلوى على شيء ، شاحب اللون ، مضطرب الفكر ، قلق الروح ، حزين النفس ، مكمد الأسارير ، لا تعلو سيماه بسمة ولا بِشر ، وكان يقول لي كلما رأى التلامذة يضجون في صفوفهم ويصخبون : « إن هذا لمخيف ! » وكنت أعلم العلم اليقين أن هذه العبارة التي كانت في ظاهرها تعنى ضجيج الطلبة وصخبهم لم تكن في جوهرها إلا شكاة نفسه المعذبة التي عبر بها عما كان يشعر به من ضنك وعنت .

ثم أتستطيع أن تتصور ، والحالة كما وصفت ، أن أستاذ اليونانية هذا الذي أحدثك عنه ، أن هذا (الرجل ذا الغمد) كان على وشك الزواج وأهبته ؟!

فالتفت إيفان بحركة عصبية سريعة وقال :

— « أجداً ما تقول أم مزاحاً يا هذا ؟ ! »

— نعم مهما يكن في الأمر من عجب ، فإن الحقيقة ما أقول ، وإن صاحبنا كان على أهبة الزواج حقاً وهاك جلية الأمر :

عُين السيد « كفالنكو ميخائيل سافتش » أستاذاً جديداً للتاريخ والجغرافيا في مدرستنا ووصل إلينا حضرته مصحوباً بأخته « ڤارنكا » وكفالنكو

هذا على حداثة سنه طويل النجاد أسمر البشرة أجش الصوت ، إذا تكلم حسبت صوته خارجاً من « برميل » لا من حنجرة . أما أخته ڤارنكا فكانت فى الثلاثين من عمرها هيفاء ممشوقة القوام نجلاء العينين وطفاء الأهداب وردية الخدين دقيقة الملاحظة فطنة إلى حد بعيد ، مرحة كثيرة الصخب ، تغنى من غير ملل أغانى شعبية ، وتقهقه بين الفينة والفينة قهقهة عالية مدوية

وكانت المعرفة الأولى التى توثقت فيها صلات الود بين الأستاذ الجديد وأخته وبيننا فى حفلة ساهرة راقصة أقامها الرئيس فى عيده

ومن عباب ذلك المحيط المتزمت الرصين ، ووسط الأساتذة الجفاة المولين الذين كانوا كأنما اضطروا للبقاء هناك اضطراراً ، انبثقت لنا أفروديت جديدة ساحرة فملأت المكان الذى كان لولاها فارغاً ما فى ذلك ريب ؛ فكانت تارة تضحك ويداها على خاصرتيها ضحكات ساحرة فاتنة ، وطوراً تغنى وهى ترقص بخفة واتزان بصوت رقيق عذب أغانى عاطفية جميلة مسكرة ، وكانت أبلغ أغانيها فى نفوسنا أثراً أغنية : « الريح تعصف » وأشدها تلاعباً بالعواطف تلك القصيدة الباكية التى أنشدتها من قلب محروق ، وسكبت فيها من العذوبة والسحر ما شاء لها الصوت الجميل والفن الرفيع ، فأسكرتنا بها جميعاً بما فينا « بيليكوف » وربما كانت هى المرة الأولى التى ظهر فيها أمامنا طلق المحيا باسم الثغر

وجلس حيالها ، وقال لها وهو يبتسم بصوت حاول جهده أن يجعله ناعماً لطيفاً :

— « إن اللغة الروسية تذكرنا بعذوبتها وجرس ألفاظها باللغة اليونانية القديمة ! »

فألقت عليه نظرة عطف وابتسمت ، وراقته بسمتها فراح ينظر إلى شعرها الناعم المسترسل ، ووجهها الوسيم الصبوح ، وثغرها الباسم المفتر ، وخصرها الدقيق ، وقدها الرشيق نظرات كلها إعجاب وافتتان

وكأنما علمت أى هوى صادفته فى نفسه فمالت إليه وحنت عليه وراحت تحدثه بدل وفخر عما تملكه من عقار وعما تنتجه المزرعة التى تملكها فى (جادياتش) — حيث تسكن والدتها — من خضار وبقول وحبوب ، وعما يحفل به بستانها الثرى من أشجار مثمرة وجنى شهى

واسترعى انتباهنا حديثهما لا سيما وليس فينا جميعاً من كان يحسب أن بيليكوف يستطيع أن يلفت نظر غادة بطلعته أو بحديثه

وأوحى لنا مرآهما خاطرة فذة كانت امرأة الرئيس أسبقنا إلى تبيانها فتمتمت :

« جميل والله أن نعقد له عليها ، فهى فتاة تخطت عتبة الثلاثين وهو قد تجاوز الأربعين وإخال أنها تقبله عريسا » وصمتت . ولم يتصد أحد منا للبحث فى هذا الموضوع الشائك مع قرينة الرئيس ؛ ولئن يكن قد خطر فى بالنا تزويجه فليس معنى ذلك أن نبحث الأمر جديًّا ، وكلنا يعلم حق العلم رأى صاحبنا فى النساء والزواج ؛ وكيف تريد أن نخوض فى هذا البحث ولم يكن ليدور فى خلد أحد منا أن رجلاً لا يرتدى إلا ثياب الشتاء فى إبان الصيف ويتحصن لدى نومه خوفاً من طوارئ وهمية ، يستطيع أن يحب ويهوى

وكيف تريد أن نبحث فى أمر زواجه وليس فينا جميعاً من يعتقد أن هذا القزم الجبان أهل للزواج ؟

ولقد خُيِّل إلينا للوهلة الأولى أن قرينة الرئيس هازلة فيما تقول فاذا بنا نراها جادّة كل الجدّ ؛ على أن هذا لم يَحُلْ قط دون اعتبارنا كل قول فى هذا الصدد هراء فى هراء وكل بحث فيه من باب التندّر كأكثر الأحاديث التى تتداولها الألسن فى مثل هذه الحفلات الساهرة تزجية للوقت ودفعاً للسأم .

وانقضت الحفلة وبودّ صاحبنا ألا تنقضى ، وانفرط عقد الحضور وبودّه أن يبقى منتظراً حتى الصباح . فلقد أحسّ للمرة الأولى فى حياته بنشوة علوية لم يسبق له أن شعر بمثلها قط ؛ وأستطيع أن أؤكد لك ياصديقى أنه لم ينم ليلته تلك ، وأنه قضاها وهو يعيد فى ذاكرته ما دار بين فارنكا وبينه من حديث ، ويتصور كيف كانت تبتسم له وتدل عليه .

ولم يخف علينا هذا الميل الذى بدأ يشعر به ولا فاتنا إدراك الرغبة التي تتأجج فى حناياه للاجتماع بالفتاة ؛ فكان أن تلطفت امرأة المراقب ودعته هو وفارنكا لحضور رواية تمثل على مسرح المدينة فقبلا الدعوة بسرور ، وكانت هي فى ثوبها الزاهر الأنيق ووجهها الطافح بشراً وإيناساً فاتنة أخاذة . وأما هو فقد جلس حيالها متجمماً كأنما قد سحب من منزله بالكثيفة[1] سحباً . ولم يمض ردح من الزمن يسير حتى أقمت أنا حفلة زاهية زاهرة ودعوت إليها نزولاً على الحاح السيدات صاحبنا وفتاته . وهكذا بدأت الأمور فى سيرها الطبيعي . والذى كان يبدو لنا أن الفتاة لاتمارض فى الزواج من بيليكوف فيما لو عرضناه عليها ، لأنها تعلم العلم اليقين أن وقت الخيار والانتخاب قد تصرّم وفات ، وأن زمن الفتوة الذى كانت فيه تشمخ بأنفها على طالبي يدها من الشباب قد انقضى ؛ أضف إلى هذا رغبتها الملحّة فى النجاة من هذا الجحيم الذى تعيش فيه مع أخيها . فلقد كانا يتنازعان لأتفه الأمور ويتشاجران دون ما سبب ، ويختلفان على لاشيء . فالطباع لم تكن متآلفة ، والأخلاق لم تكن متجانسة . وهكذا كانا أبداً فى نفور ، وحياة كهذه كانت تقلقها وترمضها ، وكان كل ماتأمل أن يكون لها منزل خاص تنعم فيه مع زوج رضيّ الخلق ، ومن حق من كانت فى عمرها أن تكون لها هذه الأحلام والأمانى

لهذه الأسباب التى أبنتُها كنا نعتقد أنها تقبل ببيليكوف زوجاً وإن لم تَرَ فيه ماتفضله به على سواه .

وكان يشوقه أن يراها وأن يجتمع بها من حين إلى حين إلا أنه كان فى زياراته لها كما كان فى زياراته لنا ، ما إن يأخذ مكانه حتى يعتريه الوجوم فيبقى صامتاً لا ينبس ببنت شفة

وملتْ فارنكا هذه الحالة المستهجنة فيه فراحت تداويها بالهشّ له والبشّ فى وجهه ، وكثيراً ما كانت تغنى له أغنية « الريح تعصف » أو سواها من الأغانى التى يستسيغها ويستعذبها . أو تجلس بالقرب منه تنظر إليه بعينيها النجلاوين السوداوين نظرات صافية إن خلت من حب ما خلت من عطف ولكنه ما زال كما كان ؛ وما برح — على ما يضطرم فى نفسه من ميول وأهواء ، وبالرغم من هذا التشجيع الذى يلاقيه والأنس الذى تغمره به — فاتراً حيياً ، ذلك لأنه كان يتهيب إبداء ما يكنه قلبه لها من

(١) الكثيفة ما تدعوها العامة كلابة

أحاسيس ويرى فى مطارحة أحاديث الوجد نوعاً من التهتك والغزل الأثيم ؛ غير أن أترابه ومعارفه ذكوراً وإناثاً كانوا كلما اجتمعوا به يلقون فى روعه أنه مخطىء فيما يذهب إليه ، وأن الحب سنة الله فى خلائقه وما فى الهوى المشروع إثم ولا حرج ، وأن الزواج خير له وأجدى عليه ، وأنه وقد عدا سني الشباب وتخطى زمن الصبا لم يبق له من الحياة كلها إلا أن تزف إليه تلك التى يصبو إليها ويهفو ؛ وأنها هى — والحق يقال — حسناء تجمع إلى الحسن والجمال خير الخلال وأطيب الخصال ، وأنها مغرية شائقة مرحة تجلو عن القلب المعنى همه وأساه ، وأنها إلى ذلك كله ابنة مستشار فى الدولة ولها من الأطيان والمقتنيات بائنة لا بأس بها ...

كان لعباراتنا فى نفسه ما نرجو من بغيا ، ولكلماتنا فى ذهنه ما نأمل من تأثير ، فقرر فعلاً أن عليه أن يتأهل

وهكذا يا صديقى انقلب المزاح جداً — وكم من جد جره اللعب — وأهدت إليه فارنكا رسمها الحبيب فقبله شاكراً ممتناً وأطـره ، ووضعه على منضدته يتأمل فيه كلما خلا إلى نفسه .

— كان عليكم إذن وقد أقنعتموه بالزواج ، أن تقنعوه كذلك بضرورة تغيير ما هجن من عاداته فينهج نهجاً عادلاً صائباً دون أن يستهدف لسخرية الناس وهزئهم

— أعترف لك يا إيفان أن هـذا الأمر عسير حقاً . وما إخال أنه كان باستطاعتنا نحن أوفى قدرة سوانا أن يجادله فى هذا الشأن دون أن يلحق بنا سخطه وغضبه . ولماذا ناتى بأنفسنا فى مأزق حرج نحن فى غنى عن زجها فيه ؟

ومضت الأيام تترى ، كان فى خلالها يتردد على منزل كفالنكو فيبقى أثناء زياراته ـ شأنه فيما مضى ـ جامداً لا يتحرك . وقد كنا نحسب أن الحب كفيل بتقويم ما فيه من أَوَدٍ ، وأن الهوى سيطلق روحه من إسار الأسى والـكآبة ، فإذا بالأمر على النقيض مما كنا نأمل ، وأصبحنا لا نراه إلا ساهماً مطرقاً حزيناً ، وإذا بجسمه أبداً فى نحول كأنما كان يزداد يوماً بعد يوم إمعاناً فى التلاشى طى غمده الصفيق

وكان يأتى إلىّ فى بعض الأحايين يحدثنى عن الحياة العائلية وعن فارنكا كفالنكو ؛ ولقد قال لى مرة وهو يبتسم فى حياء بسمة حائرة مرتبكة : إنها — أى فارنكا — تروقه وتعجبه وإنه يعلم أن كل شخص سيتزوج يوماً ما ، ولكن أمر الزواج خطير ، ولقد وافاه بسرعة غريبة دون أن يتخذ له أهبتـه ودون أن يفكر فيه التفكير الشامل الواف ، ثم سألنى قائلاً :

— ألا ترى مثلى أن علىّ أن أفكر لأجل مستقبلى ؟ فأجبته : تفكر فى ماذا يا عزيزى ؟ تزوج وينقضى الأمر

قال : لا ، إن الزواج لأشد خطورة مما تظن . وعلىّ أن أفكر فى الواجبات المقبلة وفى التبعة التى ستلقى على عاتقى كى لا أقع فيما أحاذره وأخشاه . وهذا ما يقلقنى ويمضنى وينفى عن جفنىّ الكرى . فلقد بتّ لا أنام إلا لماما

إن لهـا كما لأخيها أسلوباً فى إدراك الأمور مضحكا . ثم إنها حامزة الفؤاد حادة الطبع ، وأخشى أن تكون حياتى معها كحياتها مع أخيها شجاراً دائماً ونزاعاً ما ينقضى

وهكذا كان يزن الأمور ويمحصها ويحسب للمستقبل العتيد ألف حساب . والغريب أنه كان يتنزه — مع ذلك كله — هو والآنسة ڤارنكا كل مساء تقريباً ، ظناً منه أن ذلك واجب يتحتم عليه القيام به ولا مندوحة له عنه

ويجب ألا أنسى أن أقول لك إن كوفالنكو استسمج بيليكوف وكرهه للوهلة الأولى التي وقعت فيها عليه عينه ، وكان يأنف حتى من ذكر اسمه . وكثيراً ما كان يقول لنا عندما كان يذكر اسمه في أحاديثنا عَرَضاً : « أنا لا أفهم كيف تستطيعون أن تحتملوا هذا المأفون الواشي فيما بينكم ولا كيف تقدرون أن تعيشوا هنا في هذا الجو الخانق ؟ تدعون أنكم سادة وأنكم أساتذة وإن أنتم إلا طلاب رُتب وهواة مناصب ، تعيشون في خنوع من مداراة هذا الدعيّ اللئيم . واسمحوا لي أن أقول لكم إنه ما هذا بمعهد علمي وإنما هو تجمع متدينين موبوء !

لا يا زملائي الكرام ، لن أبقى معكم إلا ردحاً من الزمن يسيراً وأعتزل بعده منصبي عندكم وأعود إلى مزرعتي أثقف الأميين فيها وألهو — كلما سنحت لي الفرصة — بالصيد ، وأعيش حراً طليقاً بعيداً عن المداجاة والرياء والتزلف ؛ سأنأى عنكم عما قريب وأما أنتم فستبقون هنا مع يهوذا الخائن ، ألا ليته يموت ! »

ولا أزال أذكر يا صديقي ساعة جاء إلي في ثورة نفسانية هائلة كان بها أشبه بالأسد الطمين منه بالرجل الرزين . وقال وهو يضحك تارة ضحكاً هادئاً متزناً ، وطوراً ضحكاً موجعاً كئيباً :

« ماله عندي حتى يأتي إلى منزلي ؟ ! قل له بالله عليك إنني أكرهه ، وإنني لا أريد أن أبصر له في بيتي وجهاً بعد اليوم »

ولهذا كنا نتحاشى القول أمامه إنه سيكون صهره العتيد ! بل كنا نتحاشى ذكر اسمه أمامه . ولما قالت له امرأة المراقب في ساعة من ساعات اللهو البريء إنه قد حان له أن يزوّج أخته من رجل جد ووقور يحترمه الناس ويجلونه ، امتعض وامتقع لونه وتجهمت أساريره ودمدم[1] :

« إن هذا لا يعنيني . وما تعودت يا سيدي أن أبحث فيما لا يتعلق بي ، ولا أحب أن أزج نفسي في شؤون سواي ... »

والآن أصخ لما حدث :

لا أدري أي ماجن دعّابة رسم صورة بيليكوف (بكوتشوكه) وسرواله المرفوع ومظلته المفتوحة وڤارنكا تتأبط ذراعه ، وكتب تحت الرسم : « الأنتروبوس » العاشق

وكان الرسام موفّقاً في رسمه إلى حدّ بعيد . ولا ريب في أنه قضى وقتاً طويلاً فيه حتى استطاع أن يبعث إلى كل أستاذ بنسخة منه . وقد تلقى بيليكوف نسخته كذلك ، ولا تسل عما كان له في نفسه من أثر بليغ

وكان اليوم التالي الموعد المضروب لاصطحاب التلامذة للتنزه ؛ فخرجنا أنا وبيليكوف من منزلنا معاً ، وكانت أمائر الإعياء والقلق بادية على محياه الشاحب الهزيل بأجلى مظاهرها . فابتدرني قبل أن أحييه بهذه العبارة المقتضبة التي هي في حقيقتها

(١) دمدم فلان على فلان : كلمه مغضبا

شكوى صارخة لما كان يعانيه من ألم نفسانى مرهق :

— ألا ما أردأ الناس وأخبثهم !

عبارة كان لها فى نفسى صداها البعيد فاستدرت رثائى له وشفقتى عليه

ورحنا نمشى الهوينى فى صمت ...

— فلنسر فى الطليعة !

نداء رنّ فى مسامعنا رنين البوق ، فالتفتنا فاذا بنا نرى ، أو تدرى من ؟ ! كوفالنكو ممتطياً دراجته ووراءه أخته على دراجتها أيضاً ، وقد صاحت به ، وهى تلهث إعياء ، ليتابع تسياره ؛ واندفع كلاهما كالسهم المارق

وأدرت طرفى إلى رفيق ، فاذا بى أراه قد سُمِّر فى مكانه ، ووقف مشدوها فاغر الفم جاحظ العينين كأنه التمثال المنحوت ، ولم يلبث أن قال فى يأس :

هلا تلطفت فأسعفتنى ؟ ! ما هـذا الذى أرى ؟ أغشاوة على ناظرى يا ترى أم غشاوة على خاطري ؟!

قلت : لا هذه ولا تلك ؛ هوّن عليك ، فما فى الأمر ما ينافى الأدب ، وليمرحا على هواهما فما هذا بضائرهما .

فقال وقد أدهشته رزانتى وهدوئى :

أأنت تقول هذا القول ؟ أيجدر بالأساتذة أم يليق بالآنسات أن يمتطوا الدراجات فى عرض الشوارع ؟

ولم يشأ أن أناقشه فى الأمر أو أناظره فيه ، وآثر أن يعود من حيث أتى ، موزّع الفكر مضطرب الجنان

وفى الغد كان لا يزال شـديد التأثر ، وكان يفرك يديه بعضهما ببعض وهو يرتجف كمن عرته البرداء ، ولم يطلْ به الوقت حتى أحس أنه لم يعد يستطيع البقاء ، فترك صفه — ولم يسبق له أن ترك الصف منذ أن زاول مهنة التدريس حتى تلك الساعة — ومضى إلى بيته

وعنـد الأصيل لبس ثيابه الشتوية مع أن الطقس كان دافئاً كأيام الصيف ، وذهب يبطء لزيارة كوفالنكو ، وكانت فارنكا قد خرجت من المنزل وبقى أخوها وحده فيه

« أرجو منك أن تتفضل وتجلس » هكذا قال كوفالنكو ببرودة ظاهرة وقد قطّب جبينه ، وكان قد أفاق من رقاده منـذ بضع دقائق ، إذ كانت عادته أن ينام بعد الغداء ، وكان على أسوأ ما يكون خلقاً ومزاجاً

واستهل بيليكوف حديثه بعد عشر دقائق قضاها فى الصمت والتأمل فقال :

« ماجئت إليك لألقى عن قلبى بعض اعباء الهم الفادح الذى يرهقه ويضنيـه فحسب ، بل لأكشف لك عن رأيى فيك الذى أرجو ألا تحمله منى على غير محمل النصح والارشاد ، فأنت لاتزال فى مطلع الصبا واما أنا فكهل ، وأنت حديث العهد بالأستاذية ، وأما أنا فأستاذ منذ خمس عشرة سنة ، فحرى بى إذن أن أكون أبعد منك نظراً وأوسع إدراكا ؛ وقد كنت ولم أزل منذ أن بدأت أشعر بمعنى الوجود حتى الساعة مثال اللياقة والأدب في شؤونى كافة »

وظل كوفالنكو جالساً بوجهه الباسر الكالح صامتاً لا يحير ، وانتظر بيليكوف قليلا ثم استأنف حديثه الهادئ بصوت لابسته نبرات الحزن :

« ولقد رأيتك أمس ممتطياً دراجة ، وركوب الدراجات من شأن الأولاد ، وإن هذه ألهية لا يليق بمهذب الشبيبة ومثقفها أن يلهو بها

— ولماذا يا سيدى ؟

— أو يحتاج هذا إلى إيضاح باميخائيل وعهدى بك ذكي الفؤاد ؟ لئن ركب الأستاذ الدراجة فما يبق للأولاد إذن أن يفعلوا إلا أن يمشوا على رؤوسهم ؟ ثم ...

— ثم ماذا ؟

ثم إنى لم أصدق عيني عند ما رأيت أختك وراءك على دراجتها ، وليس أقبح من أن يرى المرء آنسة أو امرأة على ذلك الشكل المعيب

— والخلاصة ؟ ماذا تبتغي ؟

— لا أبتغى إلا أن ألفت نظرك إلى تجنب ما يشين سمعتك . فأنت حدث والمستقبل أمامك ، وعليك أن تسلك سبيل الرشاد كما ينبغى للرجل الحكيم العاقل أن يفعل . فأنت تتنزه كثيراً فى الشوارع ، وتحمل معك فى غدواتك وروحاتك كتباً الله أعلم ما تكون ، وتلبس حللاً هى أدنى إلى التأنق الأرعن منها إلى اللباس المحتشم ؛ وجاءت الدراجة ثالثة الأثافى ... » فاحمر وجه كوفالنكو غضباً وصاح به :

— أما أن نمتطى الدراجة أنا وأختى فهـذا لا يعنى أحداً سوانا ، وإنى لألقى بمن يتعرض لشؤوني أو لشؤون عائلتى فى جهنم ! والآن إليك عنى أيها المأفون . أغرب من أمامى فما تعودت ، وأنا الشريف ، أن أخاطب رجلاً مثلك . أغرب عن وجهى فأنا أمقت الواشين وأجتويهم

فقام بيليكوف مضطرباً ولبس معطفه والتأثر يهزه هزاً ، فقد كانت تلك هى المرة الأولى التى أهين فيها في حياته ، وسمع كلاماً جارحاً ماساً بكرامته ، وقال وهو يفتح الباب ليخرج :

« لك أن تقول ما تشاء ، ولكن أرى من واجبي أن أنذرك قبل أن أبارح منزلك . فربما يكون قد سمع حوارنا أحد من الناس ، وخوفاً من أن ينقله إلى المراقب العام مشوهاً أرى أن أنقله إليـه بنفسي دون تحريف »

فاحتدم كوفالنكو غضباً وصاح به :

« تنقل الأحاديث أيها الواشى اللعين ؟ » وتقدم منه فأمسك من الوراء بعنقه وقال: « إذهب وانقل هذا إلى المراقب أيضاً » ودفعه وهو يركله برجله على قفاه فراح يتدهور من أعلى الدرج حتى أسفله

وقام المسكين مرضوض الجسم يتلمس فى وجهه وذراعيه مواضع الألم

إلا أنه فى اللحظة التى كان يتدحرج فيها على العتبات كانت ڤارنكا وسيدتان أخريان قد وصلن فوقفن معاً يراقبنه ، وكان هذا وحده عليه شراً من كل أمر سواه ، وكان خيراً فى نظره أن يدق عنقه وتتكسر ساقاه من أن يكون أضحوكة فى عين من يهوي . والآن ستدرى المدينة بأسرها بأمره وسيتصل الخبر بالمراقب العام ، وقد يرسمونه فى أوضاع ساخرة شتى — فيالنكد الطالع — وهم إن فعلوا فسيتقدم إلى الإدارة بالاستقالة من منصبه من غير بد

وعند ما نهض عرفته ڤارنكا ولم تتمالك لما رأت سحنته المنقبضة المضحكة ومعطفه المتسخ الغضين[1] أن أرسلتها ضحكة رنَّ صداها فى البناء كله

وهذه القهقهة الساخرة قلبت أحلامه رأساً على عقب وطوحت بهنائه المزعوم ، فاسودت الدنيا فى عينيه واحلولكت مرائيها ، فلم يعد يسمع ولم يعد يرى . وما بلغ منزله حتى هرع تواً إلى رسم ڤارنكا

(١) المتجعد

فانتزعه من إطاره ومزقه نتفاً وألقى به فى النار ، ثم خلع عنه ثيابه ورقد فى سريره محرور الجسم منهوك القوى ولم يقم منه بعد ذاك

وبعد مضى ثلاثة أيام أتى إلىّ طاهيه « أفاناسى » يستشيرنى فى استقدام الطبيب لأن سيده على ما يرى مدنف عليل ، فلم أر بداً من عيادته ، وقد وجدته نائماً وراء كلّته ، مغطى بلحافه حتى الرأس ؛ وطرحت عليه بعض الأسئلة فلم يكن ليرد إلا بلا أو بنعم ؛ وكان « أفاناسى » الطاهى يروح ويجيء حيال السرير مكتئب النفس محزون الفؤاد

وكانت حالته تزداد سوءاً يوماً بعد يوم ، وقلما اغتمضت عيناه فى لياليه السود لطوارق أوهامه ومروعات أحلامه ؛ وبعد شهر ذاق خلاله هذا البائس المحزون من صنوف الألم وضروب العذاب ما صهر جسده الواهى وأذاب جسمه المنهوك ، وقع القدر ونفذ المحذور وأسلم صاحبنا الروح

أما هيأته وهو مسجى فى نعشه فقد كانت تنم عن العذوبة والطمأنينة كأنما كانت تنبىء عن السرور الذى شمله بوضعه أخيراً فى « غمده » وبلوغه الهدف الذى طالما حن له ، ولنيله المأرب الذى طالما سعى إليه

وسرنا — الأساتذة والطلبة — جميعاً وراء نعشه في موكب مهيب . وأبت السماء فى ذلك اليوم إلا مشاطرتنا ما كنا فيه من أسى على الفقيد الراحل فاربد أديمها واكفهر ، ولم تلبث أن بكت بدمعها الهاطل المدرار

وهكذا اضطررنا أن نرتدى معاطفنا ونحمل مظلاتنا وننتعل « كوتشوكنا » الواقى كأنما آثرنا ألا نتبع إلا ذوقه ولا نمشى الا على هواه حتى فى يومه الأخير . وأحسب أننى فى غنى عن إعلامك يا إيفان أن فارنكا كانت الوحيدة التى مشت فى جنازته خاشعة مطرقة بكل ما فى الخشوع والإطراق من معنى ، وأنها ذرفت عند ما واروا جثمانه الثرى بضع قطرات من دمعها السخين . وأما نحن الآخرين فقد عدنا من دفنه ولا أكتمك وعلى وجوهنا أمائر الحزن ، لا أسى عليه ، بل لأننا كنا نأبى أن تظهر على وجوهنا دلائل السرور ؛ وموت رجل كبيليكوف مسرة لقلوب من نكبوا بطلعته المشؤومة إبان حياته

لقد دفناه ، ولكن كم وكم بقى علينا أن ندفن من أمثاله ؟ إن الأرض ملأى بنظرائه ، وإننا عند ما نعيش فى بؤس فإنما نعيش فى (غمد) ، وعند ما نحيا فى محيط ضيق خانق ، أو عند ما نقضي حياتنا من غير جدوى ولا نفع ، أو نسف فى القول ولا نسمع إلا كل لغو لا طائل فيه ، أو نزجى أوقات الفراغ فى لعب النرد أو الورق ، فإنما نعيش فى (غمد) أليس كذلك ؟

— بلى ياصديقى ، ولكن أن نسمع الكذب ولا نسفه قائله ، وأن نرى الواشى ونجله الاجلال كله ، وأن نحتمل الذل الشائن ، ونرضى ونحن الأباة بالهون ، ونداري من لا يستحق أن نصفعه ، من أجل رتبة لا قيمة لها ومنصب لا أهمية له ، مما لا يشرفنا . وللموت عندى خير من مثل هذه الحياة وأعذب

— هذا أمر آخر يا إيفان ، والآن فلننم ودخل الأستاذ فاستلقى على الهشيم ، ولم يلبث بعد بضع دقائق أن غفا ، وأما إيفان فقد خرج وجلس حيال الباب يدخن غليونه

جورج سلستى

ليلة هائلة

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب السيد جورج سلستي

— « تريدون مني أن أحدثكم عن أشد ليالي هولاً ، كأنكم تعلمون أني قضيت في سني الصبا والشباب ليالي مروعة ، أو كأنكم تحسبون أن لي مغامرات جنونية تأسر وقائعها القلوب ، وتستحوذ على المشاعر ، في حين أني — ولا أكتمكم — لم أكن في يوم من أيام حياتي فارساً ولا مغامراً ، وسجل حياتي ياسادة خلو من روائع البطولة ؛ وليس لدي من الأحاديث التي ترغبون فيها ما أفخر به وآتيه ، إلا أني لا أرى بداً من أن أنزل عند رغبتكم الملحة وإن لم أكن في قصتي ذلك المقدام الذي تروعكم جرأته ؛ وإن يكن فيها ما لا يزال يهز نفسي ويكبت روحي »

وصمت « إيفان بتروفتش » لحظة تدفقت عليه فيها خيالات تلك الليلة الليلاء التي عانى فيها من ضروب الوجل والرعب مايشيب لها رأس الوليد ؛ ثم قال بلهجة منفعلة :

« أعود بكم القهقرى إلى ليلة عيد الميلاد من العام ١٨٨٣ ، إلى تلك الليلة التي ما برحت ماثلة أمام عيني برغم تقادم العهد ومرور الزمن ، والتي لا أزال حتى الساعة أذكر وقائعها كأنها جرت أمس ؛ فإن من الوقائع يا سادة ما ينطبع في الذهن فلا يمحوه كر الأيام ولا تعاقب الليالي

كان الظلام دامساً والهـواء بارداً قراً والضباب الكثيف يغمر الأرض بحلته السوداء القاتمة عند ما كنت عائداً إلى غرفتي بعد نصف الليل من سهرة قضيتها وبعض الأتراب في مناجاة الأرواح عند صديق لي حميم تغمده الله برحمته صباح اليوم

وطريقي إلى غرفتي في حي « يقظة المقابر » موحشة تبعث الرهبـة حتى في القلب الجسور ؛ وقد كان علي أن أجتاز منعطفات وممرات لا عد لها تحت ستار الظلام الدجي

وكانت الأنوار في الشوارع مطفأة على غير عادة فما كان يستطيع عابر السبيل مثلي أن يهتدى إلا بالتعبيث [1] فكنت أسير وئيد الخطى واجف القلب كمن يسير في مأتم . فالكآبة الخرساء كانت تسود مني الحواس واليأس القاتل كان يملك مني المشاعر . وأفكاري قاتمة كأنما أمدها الظلام الحالك بسواده

فقد كان تأثير جلسة مناجاة الأرواح شديداً علي ، وكان صوت (سبينوزا) الذي وفقنا إلى استدعاء روحه ومناجاته ما يزال يرن في مسمعي ، وعبارته الأخيرة التي أنذرني فيهـا بدنو الأجل ونصحني بالتوبة واستغفار الخالق عن مآثمي وخطاياي كانت تدوي في أذني دوياً يمض مني الروح

أجل ياسادة كنت أتحسس طريقي في سيري

(١) طلب الشيء في الظلمة باليد من غير أن يبصر

الوئيد وعلى صدري كابوس من الهمّ جدُّ مرهق . وكان يخيَّل إلى أن أرواح الموتى تملأ رحاب الطرق وأن جموعها تلحقُ بي وتقفو أثري . وكنت أحسب لدى كل خطوةٍ كنتُ أخطوها أنني سأجد شبحاً من أشباح العمالقة واقفاً لي بالمرصاد ليمسك بي من خناقي بيده الحديدية

إن الموت محتوم ولا مفرّ منه ، ولكن النفس البشرية يعزّ عليها أن تتلاشى حتى ولو كانت من الموت على قاب قوسين ، فكيف بي حينذاك وأنا فتى رطب العود غيساني الشباب

فقد كنتُ أسير مرتعد الفرائص من الخوف ولكني كنت أشجع نفسي وأهيب بها لتتخطى السبيل من غير وجل ؛ وكنت أشعر أني أدفع بخطاي دفعاً ليكون لي من وطئها الثقيل على الأرض صدى آنس به في ذلك الظلام الحالك الرهيب

وأمطرت السماء فكانت ضغثاً على إبالة

وصعّد إيفان زفرة محرقة ، ثم تناول الكأس عن يمينه وجرع قليلاً من الماء ثم تابع :

« إنّ هذا الخوف الذى كان يسربلني من قمة رأسي إلى أخمص قدمي ، هذا الخوف الذى لا يحدّه بيان ولا يلمّ به تعبير ، والذى ما إخالكم تفقهون له معنى لأنكم — لحسن طالعكم — لم تذوقوه ولم تشعروا به لم يكن ليفارقني قطّ حتى ولا بعد أن صعدت إلى غرفتي في الطابق الرابع من منزل « ترويوف » مستطار اللب مبلّل الثياب

فتحت الباب ودخلت وكان الظلام الدامس سائداً مأواي الحقير

واشتدت العاصفة فانفتحت ميازيب السماء كأفواه القِرَب ، وجُنّت الريح فراحت تجأر بصوتها المدوى المخيف ، وتصفع مصاريع الشبابيك صفعاً لا رحمة فيه ولا عطف . وتعصف في المدفأة فيسمع لها أنين كحشرجة المحتضر ، فقلت في نفسي والبسمة المصطنعة تتحير على ثغرى : إن كان عليّ أن أصدق (سبينوزا) فإنني وقد نجوت من الموت على قارعة الطريق لن أنجو منه هنا ، وإنني سألاقي وجه ربي في هذه الليلة الثائرة الغضبى ، وأسلم الروح بين عويل الرياح الهوجاء وبكاء السماء . وتخطيت العتبة وأنا أرسم إشارة الصليب على وجهي ، ثم أشعلت عدداً من الثقاب ورحت أجوس بنظراتي التائهة أنحاء الغرفة وإذا بي أرى منظراً مرعباً مخيفاً لم أكن أتوقع أن أراه قط ، منظراً ما إن لمحته حتى انهلع له قلبي من الرعب وقفّ[1] له شعر رأسي ، فصرخت بملء فيّ وألقيت بنفسي من باب غرفتي كالمخبول ورحت أقفز الدرج قفزاً من غير وعي . ولا أدري يا سادة كيف أني لم أقع وكيف لم يكسر رأسي ويدق عنقي ، وأرجو ألا تسألوني كيف رحت أركض في الشوارع تحت وابل المطر المنهمر ركضا وأنا الذى كنت أسير فيها قبل بضع دقائق متعيّثاً أتلمس سبيلي فيها كالعميان . ألا ليت الريح اجتاحت بتيارها عود ثقابي ، أو ليتها أطفأته على الأقل ، إذن لما كنت على ما أرجح لمحت شيئاً ولما انهلع قلبي وذهب الرعب بصوابي . فقد برز لي في نصف الغرفة نعش كستنائي اللون مدّت حواليه قطعة من الديباج المزركش بالأستبرق ، وتدلّى على غطائه صليب معلق بشريطة وردية من الدمقس المحلى بالشذور

إن في الوجود أشياء تكفي رائيها لمحة خاطفة حتى تنطبع في ذهنه بكل دقائقها ، وهذا ما جرى لي يا سادة من مرأى ذلك التابوت . فقد ألممت بنظرة واحدة عجلى بذلك المنظر وحواشيه ، فقد كان

(١) قف الشعر وقف ذعرا

النعش لجسم معتدل القامة ، وثبت لدى من قبضتيه البرنزيتين ومن الديباج المجلل به والشريطة الحريرية المزركشة التي تتدلى عليه أنه صنع خاصة لفتاة من أهل الغنى واليسار »

وقامت إحدى الحاضرات فرفعت ذؤابة القنديل قليلاً ثم عادت إلى مكانها فاستطرد حديثه :

« ما كان لى أن أخشى لو أنى دخلت فرأيت كلْباً كلِباً أو لصاً سارقاً ؛ ولا كان لى أن أتعجب لو أنى دخلت فوجدت النار تلتهم الغرفة بما فيها ، أو وجدت السقف قد تداعى والجدران قد انهارت فهذا كله أمر طبيعي معقول لا غرابة فيه ؛ أما أن أجد تابوتاً فى منزلى ، تابوتاً ثميناً لفتاة ذات ثراء فى غرفة وضيعة لموظف صغير — فما لا يخطر فى بالى قط ، وهو مما يستدعى الدهشة حقاً ، بل مما يهول المرء ويرعبه !

فمن أين هبط هذا النعش ؟ ومن ذا الذى أتى به إلى غرفتى الموصدة أثناء غيابى ومفتاحها لا يدرى أحد أين أضعه إلا خُلّص صحبي وأترابى ؟ ولكن ليس من المنطق فى شيء أن يضع فسيمو ودى وولائى نعشاً فى غرفتى ! أتكون الأرواح قد جاءت به إليها يا ترى فيكون (سبينوزا) إذ ذاك غير مخطئ فى قوله لى ساعة أنذرنى بدنو الأجل ؟! يا للفجيعة إذن ! ويا للهول ! أتكون ساعتى قد حانت وأنا فى مطلع الصبا ومستهل الشباب ؟ حنانيك اللهمّ وغفرانك !

تلك كانت الأفكار التى ساورت مخيلتى ياسادة . ولقد كان لى أن أظن أن التابوت قد أتى به خطأ إلى غرفتى أحد موظفى دوائر الجنائز ، فقد يغلط أحدهم فى الطابق أو يخطئ الباب المقصود ، ولكن من منا يجهل أن حاملى النعوش لا يغادرون الدار

قبل أن يتقاضوا أجرهم من صاحبها المرزأ الفجوع أو قبل أن ينفحهم على الأقل بحذيّا [١] ؟!

وهكذا صرت فى بحر لجى من الظنون والأوهام ، وأشكل علىّ الأمر حتى بت أعتقد أنه أحد اثنين لا ثالث لهما : فهو إما جناية أو أعجوبة ، وإن يكن عصر العجائب قد انطوى بعد أن توفى الله السيد المسيح

ما كنت لأومن بمناجاة الأرواح وأحسب أنى لن أومن بصحتها ما عشت وإن يكن فيها ما لم أوفق إلى إدراكه حتى اليوم . ولكنّ مصادفة من طراز التي وقعت لى تميل حتى بلب الحليم الرزين إلى الناحية الروحية الرمزية ، هذا إن لم تجعله يعتنق مذهبها ويعتقد به بالرغم منه

ولكن مالنا ولهذا الآن ، فلنعد إلى ما كنا فيه : فقد ظللت ياسادة أسابق الريح فى الشوارع المظلمة تحت وابل الأمطار وأنا أحسب لخوفى ورعبى أن الجثة التى تخيلت وجودها فى نعش منزلى قد نفضت عنها الأكفان فهى تلحق بى وتركض ورائى حتى بلغتُ الساحة العامة واهي القوى مضعضع الجسم مضطرب الروح ، فوقفت لحظةً ومعطفى المبلول تلعب بأذياله الريح ، ووجهى الأصفر الشاحب يلطمه رذاذ المطر ، والبرد القارس يهزنى حتى العظام . ووقفتُ لحظة أستجمع فيها قواي ، فقد كان علىّ أن أبيت فى مكان ما فأتقى هول العاصفة ، ولكن أين ؟ أفى منزلى ؟ وأنا الذى أخذ الأين والكلال مأخذيهما منه هرباً من ذلك المنزل المسكون ؟! أأنكب نفسى بالتابوت أو بالجثة التى قد تكون فيه مرةً أخرى وقد هُدّت قواي لأنجومنهما وأبتعد عن رؤيتهما ؟! أأخلو وحدى بنعش ؟! إنّ هذا ليذهب بالبقية الباقية من عقلى . هذا إذا كان قد تبقى لى منه شيء

(١) حذيا كثريا : الهدية أو الحلوان « البقشيش »

بل إن هـذا لميتني ما في ذلك ريب ، ولـكن بقائى فى الشارع تحت المطر الواكف يقرسني البرد بزمهريره فما لا أريده ولا طاقة لى على احتماله

وتذكرت ، وأنا فى غمرة اليأس ، أن لى فى «حى الأموات[1]» القريب صديقاً يدعى (أبو كيف) — وهو الذى انتحر منذ عهد قريب بطلق من مسدسه كما تعلمون — فرأيت أن ألجأ إليه لأقضى ليلتى عنده »

وتناول إيفان منـديله ومسح العرق البارد المرفض عن محياه ثم قال بعد أن زفر زفرةً حرّى :

« لقد أبى سوء الطالع إلا أن ينكبنى ياسادة بملازمته إياى فى ليلتى تلك . فقد أممتُ منزل صديق وكلى أمل بلقائه فإذا بي أذهب فلا أجد أحداً . ولم أر بداً وقد عولت ألاّ أبرحه إلى مكان آخر ، من أن ألتمس المفتاح في الكوة التى اعتاد صديق أن يخبئه فيها . وقد أحسست لـما عثرت يدى عليه بلذة تثلج لها صدرى ، وتيقنت وأنا أفتح الباب أن الفرج قد وافانى بوجهه الباسم الطلق ، وأنى واجد من غير بدّ فى غرفة صـديق الراحة التى عدمتها وحرمت منها هزيعين من الليل كاملين ، فدخلت دخول الواثق المطمئن وأنا أنضو عنى معطفى المبتل

كان الظلام الحالك باسطاً أرديته ، وكانت الريح تدوى أبداً بلحنها المونس الفاجع ، وفى إحدى الزوايا جدجد يشق هدأة الدجى بغناء مستهجن يطلقه على وتيرة واحدة مملة ، وكانت النواقيس فى كنيسة « الـكرملين » تعلن للملأ بدقاتها الموزونة صلاة السحر ، وكان كل مافى الطبيعة الثائرة يبعث على الرهبة والجلال . وأنا برغم ما كنت بدأت أشعر به من الطمأنينة ، كنت أحس فى أعماق بحزن شديد يغلّـف روحى وبيأس قوى يضغط على صدرى

وارتطمت قدمي وأنا أتقدم فى صحن الغرفة بشىءٍ حسبته للوهلة الأولى أريكة ، فألقيت عليه معطفى وقبعتى . وبينما كنت أحاول أن أتخـذ مجلسى عليه كان عود الثقاب الذى رحت أشعله قد أنار جوانب الغرفة ، وما لحت (أريكتى) هذه على ضوئه الباهت حتى أرسلتها صيحة مدوية ملؤها الرعب اهتزت لها أرجاء الغرفة من غير ريب ، ورحت كالهائم المخبول المروّع أقفز درجات المنزل قفزا

فإن ما حسبته أريكة لم يكن إلا نعشاً . أجل ياسادة ، لقد أبصرته حقاً ولم تخطىء عيناى فى مرآه فقد كان ضعف تابوت غرفتى حجماً ولونه قاتماً يونس رائيه ! فمن أتى به إلى هناك ولماذا ؟ أيكون فى الأمر جناية يا ترى ؟ وكيف جرى ذلك فى غرفتين غرفة صديق وغرفتى معاً ؟ ومن لى بمن يجلو حقيقة الأمر ، ويطلعنى على تفاصيل هذا السر الغامض المبهم ؟ ! أيكون على عينى غشاوة تربنى فى كلّ ما أرى مأوى الموت الرهيب ؟ ! أتكون جلسة مناجاة الأرواح قد أنهكت أعصابى وانتابنى من جرّائها رُدَاعٌ[1] أليم استحال معه كل شيء فى نظرى توابيت ؟ ! أم أننى قد جُننتُ ؟ ! »

وما مرّ ذكر الجنون فى خاطرى حتى وضعت رأسى بين يدى ، ورحت أفكر بما تبقى لى من عقل وتمتمت شفتاى من غير إرادتى :

« أأكون قد أصبحت مجنوناً ؟ ألا رحماك يا الله ! »

وكادت رأسى تنفجر ، وكانت ركبتاى تصطـكان من شدة الذعر والبرد معاً ، وجسدى

(١) أحد أحياء موسكو

(١) الرداع : وجع الجسد أجمع

كله يرتجف ، والريح العاتية القرّة تخترق برودتها عظامي ، والمطر يتدفق من ميازيب السماء كالينابيع ؛ وكنت من غير معطف ولا قبعة ، فمعطفي وقبعتي تركتهما على تابوت غرفة صديق ، ويستحيل عليّ أن أعود لآتي بهما فالرعب قد شلّ أعضائي كلها وشدّد الذعر ضغطه على صدري ، وأطبق على أضلاعي ، وتصبب العرق البارد من وجهي !

ما ذا كان عليّ أن أعمل يا سادة ، لقد بتُّ مجنوناً ، أو نصف مجنون على الأقل ، وفقد عقلي الراجح توازنه ، وأصبحت مختل الشعور . وغدوت عدا ذلك عرضة للبرداء

وكأن ربي وربكم شاء ألا يتخلى عن عبده في هذه المرّة ، فألهمني في موقفي الحرج هذا أن ألجأ إلى صديقي الحميم الطبيب (بوغوستوف) الذي لم يكن منزله عن « حي الأموات » ببعيد ، وكان يسكن في الطابق العلوي من إحدى بنايات أحد مستشاري الدولة ، وكان حضرة صديقي الطبيب هذا قد حضر معي جلسة مناجاة الأرواح اللعينة ، فهرعت إليه آملاً أن ألقى عنده الراحة — ضالتي المنشودة — فإذا بأملي يخيب ، وإذا بي عنده أنكب برزء جديد تحملته أعصابي المنهوكة المضعضعة ؛ فقد سمعت وأنا أصعد درج منزله جلبة وضوضاء ، ووطء قدمي مهرول راكض ، ولطم أبواب ، وقعقعة مخيفة ؛ ثم لم ألبث أن سمعت صوتاً شبيهاً بزئير الأسد الطعين وصوتاً صارخاً :

« إليّ ، إليّ ، النجدة ! الغوث ! » ثم رأيت بعد ثانية واحدة شخصاً مجللاً بثيابه السوداء ينحدر على الدرج خائفاً مرتاعاً ، فناديته وقد عرفت فيه صنوي الحبيب :

— بوغستوف ، ما بك ؟

ووصل إليّ مرتعد الفرائص ، شاحب اللون ، مستطار اللب ، زائغ النظر ؛ فأمسك بذراعيّ وسأل بصوت أبح :

أهذا أنت يا إيفان ؟ أتكون أنت إيفان حقاً ؟ إنك لست شاحب السحنة فحسب ، ولكنك — أعني يا إلهي — بطل من أبطال الأساطير المروعة أو جن ، أو ميت نفض عنه الأكفان وخرج من ضريحه !

فقلت له :

— وأنت يا أخي مالك مضطرباً قلقاً ؟ وما بال وجهك قد تغيرت منه الأسارير وتبدلت فيه الملامح؟ إنك لتخيف رائيك حقاً يا (بوغوستوف)

— آه ! دعني بربك يا أخي أستنشق الهواء ، وأستشعر الدعة والاطمئنان حيالك ، وإنني جد سعيد بمرآك هذا إن كنت حقاً أنت الذي أرى ، وإن أنت لم تكن وهماً لحواسي ومشاعري . لك الله يا جلسة مناجاة الأرواح من لعينة !

وأطلق من صدره المجهود زفرة ملتهبة ثم قال :

« لقد قلبت تلك الجلسة أعصابي إلى حد ... آه ! أرجو ألا تعتبرني مجنوناً يا إيفان ... إلى حد ... تأمل يا هذا ... إنني عند ما دخلت المنزل وجدت في البهو ... نعشاً ... أجل نعشاً ! »

وكدت ياسادة أكذّب أذنيّ فيما سمعتا لو لم استعده حديثه ولو لم أرغب إليه أن يكرر قوله ليَثبُتَ لي أن ما رآه تابوتٌ حقيقيّ لاريب فيه

وجلس على العتبة وأجلسني معه وأمسك رأسي بكلتا يديه وقال :

« أجل يا إيفان ، لقد رأيت نعشاً ، نعشاً حقيقياً » ثم صمت لحظة كأنه راح يستجمع خلالها قواه أو شتيت أفكاره ثم استطرد :

أنا لست بالجبان ولا الرعديد ، وإنّ الشيطان نفسه ليرتعب ياصاح إذا عثر على نعش بعد جلسة مناجاة أرواح !

ووجدتُ من بيان صديقي الطبيب حافزاً لي على القول فرحتُ أقص عليه متلمثا تارةً وطوراً مبيناً قصة النعشين اللذين نكبتُ برؤيتهما ورحنا على الأثر يحدق كلانا في وجه رفيقه تحديقة الواله المشدوه ويمزه [1] ليستوثق من وجوده ، ثم قال الطبيب :

كلانا نحسّ ، فلسنا نائمين إذن ، ولا كنا في غمرة الأحلام ، وليس (تابوتي) ولا (تابوتك) من صنع الوهم وعمل الخيال ولكنها الحقيقة الراهنة فما العمل الآن ياصديق ؟

وبقينا ردحاً من الزمن جالسين على العتبة يقرسنا البرد ، تائهين في عالم الرجم والحدس نتساءل عن سرّ وضع التوابيت في الغرف الثلاث . وعزمنا أخيراً أن نطرح عن نفسينا عبء الوجَل والرعب، وقرّرنا أن نوقظ الحاجب وأن نستدعيه لندخل وإياه غرفة الطبيب . وهكذا فعلنا ، وقد رأينا لدى دخولنا نعشاً مزيناً بالحرير ، مموّهاً بماء الذهب

ورسم الحاجب إشارة الصليب

قال الطبيب بصوت راجف النبرات : « علينا الآن أن نعرف إذا كان النعش مأهولاً أم خالياً »

وبعد تردّدٍ طويل في أيّنا يُقدم على فتحه ، انحنى الطبيب نفسه وهو يصرّ بأسنانه فرقاً وجزعاً ورفع الغطاء دفعةً واحدة ، وإذا بنا نرى عوضاً عن الجثة التي كنا نترقب أن نراها فيه كتاباً هذا نصه :

عزيزي بوغوستوف

إنك تعلم ، على ما أظن ، أن أحوال عمي المالية قد ساءت كثيراً في الآونة الأخيرة ، وإنه في هذه الأزمة الخانقــة غارق في ديونه وأن لا سبيل إلى وفائها الآن

وبمـا أن السلطة ستحجز غداً على مقتنياته ، (وهو كما لا يخفى عليك خير صانعي التوابيت في البلد وأحذقهم في مهنته) قررنا نحن أقاربه الأدنين في الاجتماع العائلي الذي عقدناه أمس أن ننقذ شرف عائلتنا وسمعتنا من النكبة الواقعة ، وارتأينا أن نخفي أثمن التوابيت وأجلها عند من نعتقد فيهم الاخلاص والوفاء

وهاأنذا ، بناء على هذا الاعتقاد ، أبعث إليك كما أبعث إلى كل أخ محب كريم تابوتاً للاحتفاظ به أسبوعاً على أكثر تقدير معتمداً على ما فيك وفي خُلّص الصحب من كرم ونبل

محبك : ايفان تشيلوستين

وتنفسنا الصعداء بعـد قراءته كـكل متعب مكدود ألقى عن عاتقه عبئاً كان يبهظه ويرهق قواه

هذه هي ياسادة أشأم ليلة عرفتها في حياتي وقد وجب عليّ بعدها أن أعالج لدى الأطباء ثلاثة أشهر متوالية لتهدئة أعصابي وإعادتها إلى ما كانت عليه

أما صديقنا صانع التوابيت فقد نال بغيته وأنقذ سمعته وهو الآن يدير بنفسه محلاً لتجهيز الموتى يبيع فيه رخاماً وتماثيل وغير ذلك مما له علاقة بالتجنيز ، إلا أن أشغاله لنكد الطالع ليست على ما يرام

ولهذا ياسادة أخشى عند ما أعود كل مساء إلى منزلي ، أن أجد فيه حيال سريري تمثالاً من الرخام الناصع أو نعشاً مزيناً

جورج سلستي

---

(١) مزه : قرصه بأطراف الأصابع



قصة كمان

للقصصى الروسى أنطون تشيكوف
بقلم الأديب السيد جورج سلستى

النهار ساكن مسجور ونسمات الأصيل منعشة محببة ، والشمس المتكئة على أريكة الأفق النارية تبعث بأشعتها المتألقة فاترة وسنى ، والموسيقار الكهل « سميتشكوف » يدلف على محاذاة الشاطىء اللازوردى وئيد الخطى ، وعلى ظهره المجهود من وقر السنين كمانه الضخم فى كنته [1] الحالية ؛ كمان قد يكون عبءاً على سواه إن راح يحمله ، أما هو فلا يشكو من حمله ولا يتبرم لا لأنه مورد رزقه الأوحد فحسب ، بل لأنه حبيب إليه بعد أن نأى عنه خلصاؤه ومحبوه ، وسميره فى الليالى السود عند ما يبرح به الهم وتجتاحه الذكريات الأليمة المرة ذكريات العهد السرى الغابر ، وذكريات اليوم البغيض الحاضر ؛ ذكريات الأمس البعيد أيام كان من صباه الأنيق فى نعيم تغمره شتى الهناءات ، وأيام كانت السعادة تظله بفيئها الوريف الفينان ؛ أما اليوم فقد انقلبت به الحال ، وبات نضو بؤس وأخا فاقة ؛ أناخ عليه الشقاء بكلكل موهٍ يصهر العافية ويذيب القوى ، وهجرته زوجته التي كان يحسبها فيما مضى أخت الملائكة الأطهار وشقيقة الحور لما كانت تحبوه من عطف وتمنحه من حب ، فإذا بها لدى أول كارثة ألمت به من كوارث الدهر أول من تنكر له واجتواه ، وفرت مع عشيق لها متخلية عنه أحوج ما يكون إلى عطفها وحبها وحنانها ؛ فنقم منذ ذاك الحين على الحياة وأضاع ثقته بالناس جميعاً ، وخلا إلى كمانه يبثه شكاة قلبه المعذب المفؤود ، ويندب على نغمات أوتاره أحلامه الذهبية التي صوحها خريف العمر ، وطوحت بها أيدى الحدثان ؛ ويحيا فى منزل وضيع منعزل عيشة الزاهدين المتقشفين لا يختلط

الكاتب الروسى الكبير أنطون تشيكوف

(١) الكنة بالكسر : البيت ووقاء كل شىء وستره

بالناس إلا مضطراً ، ولا يعاشرهم إلا مكرهاً عند ما يدعوه أحد النبلاء للعزف فى حفلة تقام أو فى مأدبة تودب ، وهو لو يستطيع اعتزلهم جميعاً وعاش فى صومعة كالنساك المتعبدين ، بعيداً عن التزلف والرياء والخيانة والغدر

وإنه الآن مدعوٌ إلى قصر الأمير « بوبولوف » مع جوقة موسيقية فى السهرة الراقصة التى سيقيمها رب القصر احتفالا بعقد خطبة الأميرة ابنته . وهاهو ذا قد خرج من منزله ميمماً قصر الأمير مختاراً ضفة النهر المشوشبة سبيلا ؛ إلا أن روعة الأصيل أخذته وصرفته عن نفسه ، وسحر الماء الهادىء المنساب بدعة وسكون فتنه ، وخريره الموزون المؤبد الترديد ملك عليه مشاعره ، وأحس وهو الكلف بالطبيعة ، الهائم بجمالها الساحر الأخاذ رغبة ملحة تدعوه للاستمتاع بالماء القانئ ، وقد سكبت عليه ذكاء أشعتها العسجدية وحدثته نفسه بالاستحمام ، فإن لديه من الوقت متسعاً يستطيع خلاله أن ينعم ما شاء وأن يتملى من متعة السباحة ما طاب له التملى ؛ وقرر تلبية نداء نفسه ، فما هي إلا هنيهة حتى كان قد نضا عنه ثيابه وتركها على الضفة فوق كمانه الضخم وألقى بنفسه فى الماء الرقراق وراح يتغلغل بين تضاعيف التبجَ السرىّ ، ويسبح هانئاً مسروراً كأنما ألقى عن صدره ما جثم عليه من همّ . وها هو ذا يغمره فيض الإحساس بالجمال الشعرى المونق فيبتسم بسمة الطفل الغرير .

— يا الله !

هتافٌ خفيض انفرجت عنه شفتاه بدهشة واستغراب لا حدّ لها . فقد أبصر على الضفة فتاة جالسة القرفصاء وبيدها قصبة ذات شصّ تصطاد بها صغار الأسماك، فعرته لدى رؤيتها قشعريرة سرت فى أعضائه كلها سريان الكهرباء فى أسلاكها ؛ فقد كان يحسب نفسه بمنأى عن عيون الناس ومنجاة منهم فإذا به يرى فتاة ، إلا أنه ما لبث أن حمد الله لدن حدّق فيها وأدرك أنها غافية

واستولى عليه شعور لذيذ مبهم لم يدرك كنهه ولا معناه ؛ وأحسّ بنشوة علوية قرت لها نفسه ، واهتزت لها جوارحه

يا للمعنى الحريب !

لقد بدأ يحس حرارة الحرمان ، على طول العهد بعدم الإحساس بها ؛ ويشعر بفراغ روحى كبير وهو الذى كان يخيل إليه أنه لن يفتتن بعد بأنثى ؛ فقد أثارت هذه الغادة الغافية ما لم تثره فى نفسه غافية ولا مستيقظة !

وحدثته نفسه أن يوقظها إلا أنه عدل عن فكرته هذه خشية أن تروعها رؤيته ، ورؤيته على كل حال ليست بالتى ترضى !!

وتنهد من فؤاد ملتاع وتمتم :

— « لقد أوشك ميعاد ذهابى إلى قصر الأمير أن يحين فوداعاً أيتها المجهولة الرائعة الحسن » وراح يسبح بهدوء ، حتى إذا دنا من الضفة وألقى عليها نظرته الجامعة الأخيرة خطر له أن يترك لها ذكرى من مجهول ، ذكرى ممن رآها ولم تره ومن قد لا تراه ، وسرعان ما نفذ فكرته ، وجمع من زهر الحقل ونبات الماء طاقة كبيرة علقها بالشص فراحت تطوف على سطح الماء يحملها التيار الجميل ؛ وصعد مرة أخرى على الضفة ليلبس ثيابه ويذهب إلى شأنه

ولكنه وقف على الضفة مأخوذ اللب مسلوب الفكر ، وسمّر فى مكانه والهاً مشدوهاً ثم دمدم سميتشكوف ووقف ذاهلاً بين الحيرة والحنق فإن ثيابه سرقت كلها ولم يترك له السارق إلا القبعة والكمان !

لم يكن فقدان ثيابه خسارة فى نظره على ما هو عليه من ضيق ذات اليد ، ولكن الأمر الهام لديه هو وجوده فى قصر الأمير فى الوعد المضروب

وجلس على كنّة كأنه يفكر فى وسيلة تخرجه من هذا المأزق الحرج الذى زجه فيه بعض الأشرار الملاعين !

وغمره يأس شديد وحزن ممض ، ومسه صداع أحس معه بتلاشى القوى وفقدان الحلم ؛ وظل على هذه الحال ردحاً من الوقت حتى أمده الله برحمته وألهمه أن يتخذ الجسر القريب ملجأ يختبى تحته وراء العوسج والعليق ، حتى إذا ما أدركه الليل انسل تحت جناحه الدجوجى إلى أقرب بيت يراه واستنجد بساكنيه ليتداركوه بما يستتر به حتى يبلغ منزله

وبناء على هذا الخاطر وضع سميتشكوف قبعته الطويلة على رأسه وحمل كمانه على ظهره ومشى نحو الجسر المقصود ، وهو يجيل أنظاره هنا وهناك خوفاً من أن تقع عليه عين

والآن يا قارئى دعنا نترك صاحبنا مستسلماً إلى همّه لحظات قلائل ولنعد إلى غادة الشاطىء لنرى ما حل بها :

لما أفاقت من غفوتها كانت الشمس قد جنحت للمغيب ولم يبق لها لتتوارى وراء الشفق البعيد إلا مرحلة تقطعها بخطى المكدود الوانى ، فرأت أن الوقت قد حان لتعود إلى المنزل ، ونظرت فى الماء فلم تر عوّامتها طافيةً على سطحه فسحبت القصبة فاذا بالخيط يمتد ، غير أن العوّامة لم تبنْ والشصّ لم يظهر له أثر ، فطاقة الزهر لما رُبت من الماء ثقلت فانحدرت بالشصّ إلى القاع

وخيل إليها أن الشصّ عالق بشىء ما فعليها إذن أن تغطس فى الماء لتخلصه

ورفعت عينيها الجليلتين إلى الأفق البعيد فرأت الشمس تلملم ذوائبها من رحاب الآفاق ، فعزّ عليها كثيراً أن يدركها المساء قبل أن تحصل على صنّارتها فما كان منها إلا أن نضت عنها ثيابها في مثل خطف البرق ، وغطست فى الماء حتى كتفيها العاجيتين وراحت تسعى لحل صنارتها من طاقة الزهر وتسريح الخيط المتعقد

ووفقت إلى مبتغاها بعد لأى فخرجت من النهر سعيدة تتألق ملامحها بالسرور ، وتفيض عيناها بالبشر الوادع ، ولكن سرعان ما اضمحلت بسماتها واغاثت ، وتبدل بشرها بالجهامة والتقطيب

فلقد أبى سوء الطالع إلا أن ينكبها بما نكب به الموسيقار الكهل من قبلها فسرقت ثيابها ولم يترك لها السارق ما تأتزر به . فراحت تعول وتنتحب وتندب حظها المنكود

وأدركت أن البكاء لا يجديها فتيلا ، وأن من الواجب عليها أن تفكر فى أمرها لا أن ترتقب رحمة الأقدار وقالت فى نفسها :

« ليس لى إلا أن ألتجىء إلى هذا الجسر القريب

حتى إذا اشتد الظلام هرعتُ إلى بيت « أغافيا » القريب وأرسلتها لتأتيني بثياب من المنزل »

وهكذا انسلّت سريعة الخطى بين العشب الطويل حتى بلغت الجسر ، ولم تكد تخطو تحته خطوتين حتى لمحت رجلاً عارياً منتصباً أمامها كالمارد بصدره الأزبّ وذوائب شعره المدلاة على منكبيه تحت قبعته الطويلة السوداء ، فقفّ شعرها فرقاً منه وجزعاً وصرخت صرخة واحدة وارتمت على الأرض مغمًى عليها

ولم يكن « سميتشكوف » بأقلّ منها خوفاً وقد حسبها لأول وهلة جنيّـة قذف بها القـدَر لتضليله وإغوائه

ثم قال لنفسه : أجل ! ولم لا تكون جنيةً هذه السـاحرة التي هبطت عليّ عارية ؟ وإن لم تكن كذلك فما معنى ظهور فتاة لها هذا الجمال الفاتن والحسن الرائع على هذه الصورة المخجلة أمام الناس ؟ وكيف جاءت إلى هذا المـكان دون سواه إن لم تكن موفدة لإغوائي ؟

وبينا كانت هذه الأفكار وأمثالها تصطرع في رأسه كانت الغادة الجميلة قد ثابت إلى رشـدها وأفاقت من غيبوبتها فقالت له وهي ترتعد فرقاً :

— « لا تقتلني ! ارحمني بربّك وأشفق على صباي . أضرع إليك ألا تمسّني بسوء ؛ أنا الأميرة جيولوف ياسيدي ؛ سيغدق أهلي عليك المـال بلا حساب إن رأفت بي ؛ إن أولاد السوء قد اغتنموا فرصة غوصي في النهر واختلسوا ثيابي جميعاً »

فأحنى سميتشكوف هامتـه وراح يحدّق في الأرض ، وأدرك أن هذه التي حسبها جنيّـةً لم تكن إلا فتاته الغافية التي وقف في النهر يتملّى من وضاءة حسنها ، فأفرخ روعه واطمأن باله ، ثم قال لها بلهجة كلها ضراعة وتوسل :

— « آه يا آنسة ، لقد رزئتِ بما رزئتُ به أنا من قبلك ، وألمّ بك ما ألمّ بي من خطب ، وإخال أن الذين سرقوا ثيابي هم أنفسهم الذين تطاولوا إلى سرقة ثيابك حتى أصبحنا في البلوى سواء . ورفع نظره إليها فرآها مطرقة حياءً منه وخجلاً فاستطرد قائلاً : « أرى يا آنسة أن وجودي أمامك على هذا الشكل المعيب قد حرمك متعة تسريح النظر ، وأن الأسباب ذاتهـا التي تحول دون ذهابك من هنا تحول بين الذهاب وبيني ، فهل تريدين أن أضعك في كِـنّة الكمان فتنجي من رؤيتي وتحتجبي عن ناظري ؟ »

ومد يده قبل أن ينتظر جوابها وأخرج الآلة الموسيقية من مكمنها وتقدم منها ، وقد فتح فوهة الكنة بكلتا يديه ، فانزلجت فيها وهي متجمعة على نفسها ، ثم راح يربط الفوهة والبسمة العريضة على ثغره ، لأن الله ــ على حسبانه ــ قد حباه هذا العقل الراجح الذي أنقذه من ورطة ما كان لينجو منها لولاه ! ثم قال سميتشكوف : « الآن يا آنستي لتقر عيناك ولتطمئن نفسك ، فسأحملك عند ما يجن الليل إلى أهلك ثم أعود إلى هنا فآخذ كماني ! »

وعند ما مد الظلام رواقه على الكائنات كان الموسيقار الكهل يدلف نحو قصر الأمير وعلى ظهره حمله المحبوب ، ولم ينس أن عليه أن يتجه أولا إلى أقرب بيت ليستعير من ساكنيه ثياباً يرتديها ثم يمشي لطيته

وهكذا راح يسير في الاتجاه الذي رغب فيه متئد الخطى يستعيد في ذاكرته ذكريات المسـاء

فيعبس تارة ويبتسم أخرى ، فما يشك رائيه — لو قيض لأحد أن يراه حينذاك — فى أنه مخبول !

وقد يكون الخبال مسه فعلاً فإن ما وقع له لفوق مايستطيع أن يحتمل عقله المضطرب الضعيف . وأقول عقله الضعيف وأنا واثق مما أقول ، فان زوجته التي لازمته زمناً طويلاً وبلت فيه أخلاقه وخبرت طباعه لم تهجره عن عبث ، ولم تتخل عنه طمعاً فى المال الوافر والشباب الريان كما يدعى

ولقد كان مغتبطاً بحمله مسروراً ؛ وإنها لنعمى أن يحمل كهل مهجور أميرة عذراء فاتنة المحاسن !! وكانت الأحلام تهدهده على ما كان فيه من حال زرية وعري معيب ، ويأمل أن يرفعه آل بوبولوف من حضيض الضعة والمهانة إلى أوج العز والنعيم لهذه اليد البيضاء التي يسديها إلى وحيدتهم وأحب الناس إليهم ، وقد تمتمت شفتاه وهو يكاد يرزح تحت عبئه الحبيب :

« سبحانك اللهم ! ما ضربت بيسارك إلا تلقيت بيمينك ! ».

ولاح له عن بعد شبحان خُيّلا إليه فى البدء وهمين من أوهام النظر الخاطئ والفكر الشريد ؛ إلا أنه لم يلبث أن تثبّت من حقيقتهما لدن أنعم فيهما النظر ، ورأى أن كلا منهما متأبط رزمة ما شك فى أنها الثياب المسروقة ، فوضع للتوّ حمله عن منكبه برفق وصرخ بملء فيه :

— « مكانكما ! »

وركض وراءهما بكل ما تسعفه قواه ، ولكنهما أطلقا سيقانهما للريح لما رأيا من يلحق بهما ، فراحا وهيهات أن يدركا

أما الأميرة البائسة فقد ظلت فى كنة الكمان دون حراك تنتابها شتى الآلام النفسانية اللاعجة ؛ ولقد سمعت نداء الموسيقار ووقع قدميه الثقيلتين حين هرول راكضاً ، فلعنت فى سرها الساعة التي أتت فيها لصيد السمك ، والوقت الذي أذعنت فيه لرأى ذلك المخبول ، ورضيت أن تودع فى هذا الوقاء الذي كادت تختنق فيه ؛ فكانت تحصى الدقائق آملة أن تصل إلى القصر بين كل لحظة وأخرى فإذا بحاملها الأحمق يلقى بها على قارعة الطريق دون أن يفكر فيها

ولقد حدثتها نفسها بتمزيق الوقاء بأسنانها والخروج منه إلى الهواء الطلق تملأ منه رئتيها ، وتتلفع بعد ذاك بقطع الوقاء وتسرع إلى قصرها ، وكادت تهم بذلك فعلاً لولا أنها سمعت لغطاً فقبعت فى مكانها واستكانت

وكان القادمون رفاق سميتشكوف وهم فى طريقهم إلى قصر الأمير . فلما أبصروا الكنة فى سبيلهم وقفوا حيالها حائرين دهشين

قال أحدهم : « كان يا رفاق » ولكنه آلة زميلنا سميتشكوف ، فماذا جرى له ياترى حتى تركها هنا ... ؟

— ربما كان المسكين نشوان لعبت بلبه سورة الخمر فرمى بها على قارعة الطريق من غير أن يعى !

— فلنحملها معنا إذن ولنسد إليه جميلاً . قال الثالث هذا وتقدم من الكنة فحملها على ظهره وتابعوا سراهم ؛ وإن هى إلا بضع خطوات مشوها حتى بدأ حاملها يتبرم بها ويشكو من ثقلها :

— « يا للشيطان اللعين ! »

— « ماذا ألمّ بك ؟ »

— « إنها ثقيلة فوق ما تتخيلون ، فوالله ، لو كنت إياه لأبيت أن أعزف على هذه الآلة الضخمة

فإن حملها وحده لا يعادله أجر ولا بدل »

— « إنه السعى وراء الرزق يا صاح ، يرغم المرء على احتمال المكاره »

— « إني لأوثر الانتحار على اكتساب القوت عن سبيل هذا (الكمان) الثقيل الفادح »

وما زال هذا يتذمر وذاك يرفه عنه بالحديث ، وذلك يهون الأمر عليه حتى بلغوا القصر ، فوضعوا (الكمان) على منبر الموسيقى فى محله المعهود ، ودخلوا قاعة الطعام ، فإذا بالثريات تتلألأ مصابيحها وتتألق أنوارها ، وإذا بالمائدة قد صفت عليها كؤوس الشراب ، وآنية الطعام ، وطاقات الزهر ؛ وإذا فى صحن الصالة خاطب الأميرة ، وهو مستشار فى المحكمة العليا وأحد أركان غرفة المواصلات فى الدولة ، يزجى وقته بالتحدث إلى الكونت «شكاليكوف» عن الفن الموسيقى الجميل ويقول :

— « لقد عرفت بنفسى فى مدينة نابولى يا حضرة الكونت عازفاً على الكمان الكبير كان يمده سامعيه بأنغام هى السحر ، وكان يأتى بالمعجزات حقاً فى توقيعه الجميل وعزفه الفريد

وقد كان بكمانه الكبير الضخم يكرر لحنين معاً بسرعة مدهشة تأخذ بمجامع القلوب ، ولقد عزف عليه حتى الـ « فالس ستروس » وحمل سامعيه إلى الملأ الأعلى ، وأسكرهم جميعاً وترنحت منهم الأعطاف كالشاربين الثملين

قال الكونت : « حسبك وإني لأستميحك عذراً إن أنا هزئت بقولك ، فإنه ليفوق حد التصديق ! »

— « أنا لا أغالى فى القول ، وليس من شأنى الهزل فى موضع الجد يا حضرة الكونت ؛ وإنى لأؤكد لك أن ذلك الموسيقار المغنى قد لعب أمامى على كمانه نخبة من أناشيد «ليست» طربت لها كثيراً حتى أننى رغبت إليه لفرط إعجابي بها أن يلقننى أنشودة منها ففعل ، وأنا الآن أجيد عزفها بعض الإجادة »

— هيه ! نخبة من أناشيد « ليست » . إنك تمزح فى قولك الآن وتهزل من غير ريب .

— لا وربك . ثم قال المستشار بلهجة ملؤها الحزم والجد : تعال معى أبرهن لك على صدق ما أقول . هلم بنا إلى منبر الموسيقى لترى بعينيك وتسمع بأذنيك . إنى لأعجب كثيراً لهذه المكابرة تبدو منك يا حضرة الكونت . ومشيا معاً إلى المنبر حتى إذا بلغاه راحا يفكان رباط وقاء الكمان ... و .... آه ! .... يا للكمان الحى ! !

* * *

ليطلق القارىء الكريم لخياله العنان هنا ، فاني أترك له أمر الحكم على مآل الحوار الموسيقى بين النبيلين ، وأدع له أمر البت فيه بعد هذه المفاجأة اللذيذة العذبة ! ولنعد إلى سميتشكوف :

فقد ظل المسكين يعدو وراء السارقين حتى وهنت قواه وكلت رجلاه . ولما أيقن أنه لن يستطيع إدراكهما عاد يلهث من الإعياء إلى حيث ترك وديعته الغالية .

ولشد ما التاع إذ لم يجد لها أثراً ولشد ما اغتم واكتأب إذ راح يفكر فى طالعه المنكود وجده العاثر ؛ أتفر زوجته مع عشيقها على مرأى منه

ومسمع ، ولا يثأر لنفسه المكلومة ، ولا لكرامته المثلومة ؟ أتسرق ثيابه ويرى سارقيها ، ولا يستطيع أن يقبض عليهم لتقتصّ العدالة منهم ؟ أتكون الأميرة الفاتنة فى كنة كانه ، ويحملها على ظهره المتعب المكدود ، ويمشى بها على الجادّة عارى الجسم ويتركها تفلت من يديه دون أن ينال رضاها ويكتسب ودّها ، ويفقد ما أمّل نيله على يديها من مال هو فى أشد الحاجة إليه فى أيامه السود ؟!

ومشى يحدّق فى جوانب الطريق بعينين زائغتين ، وتقدم إلى الأمام مسافة طويلة وهو يعلم حق العلم أن قدميه لم تطآها منذ أمد بعيد . وعاد القهقرى حتى تجاوز كلّ مدى خُيّل إليه أنها قد تكون فيه ، ثم رجع إلى الجسر منهوك القوى يفتش هنا وهناك عن ضالته ... ولكن من غير جدوى

وانتصف الليل !

ووقف تحت الجسر وقد أسند رأسه إلى جداره وغرق من أفكاره القاتمة فى لجة بعيدة الغور !

وخدرت أعصابه حتى لم يعد يشعر بالوجود ولا يحس بالحياة . وجمد بصره كمن طرأ عليه بغتة طارئ روعه ، ولم يلبث أن نزع قبعته الطويلة السوداء عن رأسه بحركة عصبية ، وأمسك شعره بكلتا يديه وجعل يشده كمن أصيب فى عقله بمس ؛ ثم بدأ يلكض [1] صدغيه بكل ما أوتى من قوى وانفجر بعد ذلك كالطفل الرضيع يبكى بكاء مرًّا ويقول بصوت خنقه النشيج :

« يالى من مخبول ! أأتحسر على ثيابى التى فقدتها أم على المال الذى كنت آمل أن أحصل عليه وأنا مجرم أثيم ؟؟

أجل إننى لمجرم قاتل . فالأميرة قد اختنقت ، ما فى ذلك ريب فى ذلك الوقاء الصفيق اللعين . لقد قتلتها بيدى فالويل لى ! »

وصمت لحظة تمثلت له فيها جثة الأميرة الملائكية الحسن ملقاة حيال الطريق تنوشها عقبان الجو ، وتتخاطف لحمها كواسر الوحش ، فشق ذلك عليه واربدّ محياه ، وانتفخت أوداجه ثم ضرب برأسه الجدار مرتين أو ثلاثا ، وقهقه بملء فيه قهقهة صدعت بأصدائها هدأة الليل الساجى !

وكأنما أفاق بعد برهة من سورته فرمق السماء بنظرات شزراء وقال يحدث نفسه : « سأراها ، سأبحث عنها فى كل زاوية وفى كل شارع حتى أجدها »

وخرج من تحت الجسر وراح يبحث عنها فى كل مكان ولكن من دون طائل ، حتى إذا أوشك الفجر أن ينبلج عاد إلى مكمنه بين العليق والعوسج منهك المفاصل مضعضع العزم وارتمى على الأرض وهو يقول :

— « سأغادر مكانى هذا بعد المساء المقبل وسأبحث عنها الليل بطوله ، وإن لم أعثر عليها أعدت الكرة فى المساء الذى يليه إلى أن أوفق إلى مبتغاى »

وحتى الآن يتحدث الفلاحون المقيمون فى تلك الأنحاء عن رجل عار يجلل الشعر جسمه كله مقيم تحت الجسر الصغير ، وكثيراً ما يسمعه عابرو السبيل معولا يتحسر على عزيز مفقود !

جورج ملسى

(١) يضربه بجمع الكف

غرام

للكاتب الروسي انطون تشيكوف

بقلم الأديب السيد جورج سلستي

حفلت المائدة بالطلي الممتع من الأحاديث ، كما حفلت باللذّ الشهي من أصناف الطعام ، وأندر المدعون إندارا لذيذا عذبا ، فلقد شاقهم جميعا أن يفتنوا في أحاديثهم ففعلوا ما شاء لهم ظرفهم وأدبهم كأنما كان واحدهم يسمى لبيذ نده في طلاوة القول وحلاوة النكتة ، فأتوا بالبديع المستطرف من الملح ، وجاءوا بالسائغ المستحب من النوادر ؛ فرنت الضحكات بريشة ناعمة تنبيء سامعها عما شمل مرسليها من سرور ، واستحوذ عليهم من مرح ، وظلوا كذلك ردحا من الزمن غير يسير يتطارحون روائع الطرف حتى أطل عليهم « نيجانور » لشأن من شئون الخدمة ، فاذا « بأليوكين » يغير الحديث لدى مرآه ويبدل مجرى القول ، ويتخذ من هذا النادل موضوعا لما يضطرم في نفسه من ميول وأهواء ، وإذا به يقص على مدعويه أن لنيجانور هذا قصة غرام رائعة ، وإن الفاتنة « بلاجيا » كانت ولم تزل صبة به مغرمة ، وكان ولم يزل هائما بها كلفا ؛ وأبدى تعجبه كيف تتعشق فتاة على حسن مونق وقد رشيق كبلاجيا

شابا ليس من جمال الخلق وحسن الخلق في كثير ولا قليل كنيجانور ، لأنه أبدا باسر الوجه كالح الأسارير ، ذو عينين صغيرتين وقسمات لا وسامة فيها ولا انسجام ، ولأنه سكير قلما يصحو من نشوة الصهباء أو ينجو من سورة الخمر ، ولأنه فظ الطبع غليظه كثيرا ما ينهال على حبيبته بالضرب كلما أغضبته في قول أو أحنقته في عمل ، ويكيل لها الشتائم لكل بادرة منها لا تروقه ويقذعها بالسباب ما شاء له خلقه السيء وطبعه الوحشي فتنفر منه وتبكي ، ولكن ما هي إلا ساعة أو بعض ساعة حتى تعود إليه ناسية ما لقيته من عنته وفظاظته ، وتغمره بحبها وحنانها كأنه لم يجترح في حقها إثما ولم يلصق بها إهانة ، وترقه قبلاتها الحرى كأنه لم يسيء إليها قط ولم يؤذها ، وكأنما لم يبدر منه إلا كل ما يحببه اليها ويغريها به

وتساءل « اليوكين » عن كنه هذا الحب غير المألوف ، وعن مدى اللذة النفسانية في هذا الهوى الغريب ، وقال إنه لا يلومها لأنها لا تحب رجلا أقرب إلى مزاجها وطباعها وأدنى إلى تفهم نفسيتها وعقليتها من ذلك السكير الغر ، فان لها كما للناس ذوقا في الحب ليس من المنطق ولا الحكمة في شيء أن تؤاخذ عليه وتلام من أجله ، وللناس فيما يعشقون مذاهب ، كما يقولون ، ولكنه يحاول أن يدرك مقدار السعادة الشخصية في مثل هذا الهوى الغريب الفذ ،

ويود لو يستطيع أن يوفق إلى حلّ ما فى الحب من طلاسم ، وإلى سَبْر غوره وكشف النقاب عن معمياته لا سيما والحب لم تذكر عنه حتى الآن إلا حقيقة مفردة لا جدل فيها ولا خلاف عليها وهي أنه « عظيم » وكل ماعدا ذلك مما كتب عنه ، أو قيل فيه قابل للجدل والأخذ والرد وللمناقشات الطويلة المرهقة ، وليس إلا مقدمات للغز لا يزال مغلقاً ولسر لم يبرح غامضاً ، وإن البيان الذى يظهر مطابقاً لحالة لا يتفق وعشراً سواها ، وإنه من الخير أن تبحث كل حالة من حالات الحب على حدة ، مستقلة تمام الاستقلال عن أخواتها ، فالتخصيص وحده — كما يقول الأطباء — يؤخذ به ويؤبه له ، لا التعميم

— « بالصواب نطقت » قال الأستاذ بوركين:

— أجل ! هذا هو الحق الصراح يا صديق ،

فنحن الروسيين جد مولعين بالألغاز والأحاجى ، أو بالأحرى يستهوينا الغامض المبهم فنحوم حوله فقط ؛ أما أن نكتشف جوهره ونبلغ لبابه فأمر لسنا من طلابه وليس لنا به غاية ولا مأرب ، وكتابنا رعاهم الله وحرسهم يجملون الحب ما شاء لهم ذوقهم الشعرى الأنيق ويحيطونه بهالة من الروعة والجلال ويوشونه كالربيع بالورد المفوّف والأرج المعطار والبلبل الغريد

إننا لا نفهم الحب كما يجب أن نفهمه ، أو لا نحاول أن ندركه كما يتحتم علينا أن نفعل ، ورجالنا يحسبون أن الحب هو الزواج ، فاذا أحببت غادة فعليك أن تطلب يدها لتبنى بها ، ونساؤنا يقدرن الحب بمقدار الهدايا ، فعلى قدر هداياك ، يكون حبك وهواك

وإنى لا أزال أذكر يوم كنت طالباً فى موسكو . إننى أحببت أو خُيّل إلى أنى أحببت سيدة فاتنة لطيفة دقيقة الحس رقيقة الشعور كانت كلما احتبستها بين ذراعى تسألنى عن الهدية التى سأقدمها إليها فى آخر الأسبوع

إننا معشر الروسيين والحق يقال لا نفتأ نتساءل كلما أحببنا : أرفيع حبنا أم وضيع ؛ روحاني أم شهوانى ؟ وإلى أين يؤدى بنا هذا الحب يا ترى ؟ وهل يليق بنا أن نمعن فيه أم نقف عند حدنا خوف التورط فيما لا تحمد عقباه ؟

وأنا أقول من غير مواربة ولا مداجاة : إننى لن أسأل نفسى هذه الأسئلة الباردة بعد اليوم . قد أكون مخطئاً فى نظريتى هذه إلا أننى لا ولن أستبدل بها سواها ؛ وقد يكون الخير كل الخير فى التروّى قبل أن يطوّح المرء بنفسه فى حب ، إلا أننى أعلم العلم اليقين أن هذا التروى يُفقدُه لذةَ الروح ومتعة النفس ويرمض القلب ويشقيه

إنى أعرف هذه الأمور حق المعرفة وأدركها حق الإدراك لأنى بلوتُها بنفسى وخبرتها

ولمعت عيناه وتألق محياه كأنما غمرته سورة علوية من البشر والسرور ، وظهر للرائين بأجمل وضع وأفتن صورة ، وشاعت على ثغره الجميل بسمة وادعة جميلة

وتراءى كأنه يريد أن يتكلم عن ذكرى ، عن أمرٍ مضى وله فى نفسه أثر وبقيا ، كأنه يودّ أن يقص قصة من أقاصيص الشباب الناشئ ، قصة هوى مكبوت . والأعزبون الذين يسكنون وحدهم عندهم دائماً فى قرارة نفوسهم أشياء هم أبداً على استعداد للتحدث عنها من تلقاء ذواتهم ، والمقاهى فى المدن ملتقى الأعزبين يؤمونها لتزجية الوقت بأحاديثهم ، وأنى تبصر أعزبين معاً فقل إنهما يتسارّان عن هوى ويتحادثان عن حبّ

كانت السماء تتراءى من خلال زجاج النوافذ مربدة الأديم ، والأشجار مخضلة الأفنان من رذاذ المطر الذى وكف منذ حين ، والسحاب الأدكن تحدوه الريح كما يحدو الراعى سائمته ، وكان الطقسُ بارداً قرّاً فى حين كانت قاعة المائدة دافئة والراحة المضمونة فيها تغرى بالبقاء ، إما للتحدث أو للاصغاء

وتنحنح البوكين ، ورطّب شفتيه بطرف لسانه وانطلق فى حديثه يقول :

« لا أزال أيها الأعزاء منذ أمدٍ بعيد أسكن فى هـذه الأرباض وأدير بنفسى أعمال استثمار أراضينا فيها ، فقد عزّ علىّ كثيراً لدن تخرّجت من الجامعة أن أجد جلّ أراضينا مرهونة وأن أرى أبى غارقاً فى ديونه لكثرة ما تكبّد من مصاريف فى سبيل تثقيفى فى خير جامعات موسكو ، فعوّلتُ على ألا أهجر الأرض حتى أفى ما عليه من ديون

ولما كنت أعلم أن ريع الأرض ضئيل وأنى لن أوفّق إلى مبتغاى مالم أبذل كل مافى وسعى من قدرة ، رحتُ أستغلّ الأرقاء والعبيد فى هذا السبيل الشاقّ ، والزراعة كما لا يخفى عنكم تستلزم بذل الجهود وتستدعى إفراغ القوى ، فلم أدع فى القرية ولا فى القرى المجاورة رجلاً سابخاً (١) إلا استدعيته للعمل عندى ، أو امرأة فارغة إلا أتيت بها فحرثوا وزرعوا حتى البور والسباخ . وكان العمل مستمراً ما تنقطع فورته ولا تهدأ حدّته من مطلع الشمس حتى مغربها

وحاولت فى مستهلّ الأمر ألا أهجر الكتب وأن أثابر على مطالعة أمهات الصحف والمجلات ظناً منى أنى أستطيع أن أجمع بين عناء العمل وبين لذة الثقافة فإذا برأيى يخيب ، وإذا بى بعد بضعة أسابيع أتخلّى عن سكنى فى الطابق العلوى الأنيق الترتيب والرياش وأهبط إلى الطابق الأسفل أنام وأقوم فيه لا عن تبذّل ولكن عن ونى . ولم ألبث أن تعودت أن أرقد كالفلاحين حيث يتفق لى أن أفعل ، فى العَجَلة أو على الهشيم أو فى كوخ حارس الغابات لشدّة ما كان ينتابنى من تعبٍ يرهق القوى ويضنى الجسم

وبقيتُ كذلك أنصبّ على العمل انصباباً من غير تراخ ولا توان حتى قيّض الله لى ما رفّه عنى بعض الترفيه إذ عيّنتُ قاضياً شرفياً لمحكمة الولاية الصلحية ، وأصبح لى ما ينتزعنى من إدارة أعمالى الزراعية ولو إلى حين ، وبات من المحتم علىّ أن أذهب كلما دعت الحاجة إلى المحكمة فى المدينة فأساهم فى أعمال القضاة . وهكذا عدتُ إلى شئٍ من سابق المهد السرىّ وحياة الترف والنعماء ، وأصبح لى كثير من المعارف والأصحاب من سراة البلد ووجهائه يستقبلوننى لدى مجيئى إلى المدينة بكل بشاشة وترحاب

إلا أن أحبّ العلاقات الودية إلى نفسى وألطفها عندى كانت تلك التى توثقت عراها بينى وبين نائب رئيس المحكمة السيد « لوجا نوقتش » ؛ وما إخالُ أن بينكم من يجهله ، فهو رجل رصين جذاب ، كريم النفس ، طيب القلب إلى حدٍّ بعيد

وإنى لأذكر حين دعانى للمرة الأولى لتناول الطعام على مائدته بعد جلسة طويلة مسّنا بعدها الجهد والوَصَب فقبلت الدعوة شاكراً وذهبتُ

(١) رجل سابخ : فارغ لاعمل عنده والسباخ من الأرض مالم يحرث

أنا وهو إلى منزله وتعرفت هناك بالسيدة قرينته « أنّا اليكسيفنا » ، وهي غادة في مستهلّ العشرين من عمرها ما إن رأيتها حتى شعرتُ بجاذبٍ خفيّ يدنيني منها ويحبّبها إليّ

أنا لا أستطيع اليوم أيها الأعزاء ، وقد مضى دهرٌ من الزمن طويل على هذه الحادثة ، أن أقول لكم على التدقيق ماذا وجدت في السيدة « أنّا » حتى أعجبت بها الإعجاب كله وحتى نالت من نفسي من النظرة الأولى المكانة العظمى وتبوأت من قلبي المنزل الأسمى ، ولكن كل شيء كان لي واضحاً جلياً حين كنا على المائدة معاً وحين كنت أتناول الغداء وأرمقها بين الفينة والفينة من طرف خفيّ بنظرات ما أدري والله كيف أنعتها ، وكل ما أستطيع الآن أن أحدده لكم منها هو أني رأيتها فتيّة تجمع إلى الحسن الساحر سرعة الخاطر ، وإلى خفة الروح وحزم الفؤاد حياء المحصنات وخَفَر العذارى . وشعرت فوراً أنها شخص أنيس قريب إلى قلبي ، كأني أعرفها منذ نعومة أظفارها أيام كانت طفلة مرحة تملأ الفضاء ضحكاتها وأناشيدها ، أو كأن رسمها الكريم مطبوع في ذهني منذ زمن بعيد ، أو كأن هذا المحيا الطلق وهاتين العينين الساجيتين وهذا الجسم البديع مما ألِفه نظري وأحبه قلبي قبل ذلك اليوم

وقد كنت وأنا جالس إلى المائدة ما أزال ثائر النفس هائج الأعصاب لنقمتي على الحكم الجائر الذي أصدره رئيس المحكمة على أربعة من اليهود اتهموا بتأليف عصابة تقطع الطرق وتعيث فساداً ، ورحت من تأثري وانفعالي أسرد تفاصيل المحاكمة على السيدة « أنا » وأبين لها الخطأ الفادح الذي وقع فيه القاضي بإدانة أولئك المتهمين إدانة لا تتفق والعدالة في شيء ، فكانت تصغي إلى حديثي بإعجاب وتهز رأسها الصغير الجميل وتسأل زوجها متعجبة دهشة :

— وكيف جرى ذلك إذن يا « ديمتري » ؟ !

وديمتري لوجانوفتش كان رجلاً زمّيتاً رزيناً يعتقد كل الاعتقاد أن البت في القضايا لا يكون على المائدة ولا في حديث خاص ، وأن ذلاقة اللسان يجب ألا تبرىء مذنباً وتجرم بريئاً ، وأن الحكم يجب أن يكون صارماً مهما كان نوع الذنب ليكون المحكوم عليه عبرة لسواه ، وليرهب الناس القانون ويحترموا الشرائع

وقال لي رداً على سؤال قرينته بلهجة ملؤها الرزانة والجد : « لسنا يا صديقي من أصحاب الفتن ولا من مثيري القلاقل فحسبك أننا لن نعتقل ولن يحكم علينا »

ولما رآني على أهبة الإجابة رفع يمناه بكل هدوء وقال : « أرجو منك يا عزيزي أن تترك هذه الأحاديث لفرصة أخرى أكثر ملاءمة من هذه ؛ وإني سأتفق وإياك على رأي واحد فيما بعد . أما الآن فكل واشرب ، فالأكل والشراب على قدر المحبة كما يقول العامة وهم في قولهم جد مصيبين ، أليس كذلك يا « أنا » ؟

فأحنت « أنا » رأسها وقالت : « بلى يا عزيزي »

وإني الآن أستطيع أن أقول لكم أيها الأعزاء إن هذين الزوجين كانا سعيدين هانئين على أتم ألفة وأشمل وفاق ؛ وإنهما كانا متفاهمين كل التفاهم لا يتحاجان في أمر ولا يعترض أحدهما على رأي الآخر ، وإن فعل فبكثير من اللطف والحنان والأدب وكانت الاشارة أو الغمزة من أحدهما كافية لإفهام الآخر مراده .

وبعد الغداء عزفا معاً على البيان فكان توقيعهما عليه لطيفاً مشجياً ، وأنشدت هي أغنية رقيقة عذبة حركت بهـا مكامن الاحساسات من نفسي ، ولم يلبث أن أغطش الليـل فقمت مودعاً شاكراً لها لطفهما وحسن ضيافتهما ، وعدت إلى منزلي . وكان ذلك في أول فصل الربيع المراح

ومضت الأشهر تباعاً ، ولم تدع لي مشاغلي الكثيرة فرصة واحدة لأهبط المدينة ، ولـكن ذكرى المرأة الفتية الشقراء الوسيمة الوجه الفاتنة القسمات لم تبرح خاطري قط ، وطيفها الحبيب لم يحل عن ناظري

وفي أخريات الخريف مثلت في المدينة إحدى المسرحيات الرائعة لمشروع خيري ، وكان أن دخلت مقصورة الحاكم ، ولشد ما خفق قلبي لدن رأيت « أنا اليكسيفنا » ، وشعرت من جديد بضغط قوي على صدري لا سبيل إلى دفعه كان مأتاه إحساسي بأثر الجمال البليغ في نفسي الساهمة المرورة ، فحييتُ ، وجلست قرب « أنا » مأخوذاً بسحر عينيها الحالمتين ، ولقلبي وجيب دونه وجيب الفؤاد المروّع

أجل ! لقد جلست قربهـا أنظر إلى المسرح والممثلين فلا أرى هذا ولا هؤلاء إلا أطيافاً وأشباحاً، فقد كان فكري شريداً بمنأى عن التمثيل وهواته محصوراً كله في هذه التي رحت أخالسها النظر من حين إلى حين ، والتي كنت كلما احتك كتفي بكتفها عرضاً أشعر بغمرة اللذات وفيض الهناءات ، كأن مفاتن العالم ومباهج الحياة استحالت جميعـاً امرأة فاتنة شقراء هي هـذه التي أسعد بالجلوس حيالها أتملى من روعة حسنها الضحيان

وقالت لي لما انتهت الرواية وقمنا معاً نتخطر في على مهل :

— أكنت مريضاً ؟

فأجبتها أن وعكة ألمت بي فبرحت بجسمي وأني برئت منها أو كدت فقالت :

— أراك سقيماً شاحب اللون ذابلا في حين أنك كنت في الربيع مرحاً طروباً ، وكنت حين شرفتنا بتناول الغداء على مائدتنا ممتلئاً فتنة وسحراً ، وكنت بأحاديثك ملهما تفتن في القول وتتصرف به على هواك ببيان عذب كان له الوقع الجميل في نفسي . وأعـترف لك الآن أنك استملتني اليك بروعـة أحاديثك وشعرت بميـل نحوك وعطف وودي ما حنت ضلوعي على مثـله لمخلوق سواك ، ولا أدري لـماذا تذكرتك كثيراً في الصيف المنصرم ؟ ولا لماذا كان طيفك يمثل أغلب الأحايين أمام عينيّ ؟ واليوم وأنا قادمة إلى المسرح كانت نفسي تحدثني بلقائك ؛ وهأنذي الآن ألقاك ، ولـكن على غير ما كنت أود، كمداً محزوناً . فقلت: « أكنت تنتظرين لقائي إذن ... يا أنا ... ؟ »

وكانت تلك هي المرة الأولى التي لفظتُ فيها اسمها الـكريم من غير لقب ، فرفعت إليّ عينيهـا الساجيتين بجلال ، ولـما التقى النظران أطرقتْ حياء ، وضرّج الخفر خدّيها الناضرين الناعمين بحمرة الورد

ولم نلبث أن افترقنا على أمل اللقاء القريب . أجل . لقد افترقنا ، ولـكن فيمن كنتُ أفتكر وأنا أسير إلى المنزل لأقضي ليلتي فيه ؟ وخيال مَن كان ملازمي آناء ليلتي تلك ؟ وطيف أية حورية كان ذلك الذي راود أجفاني حتى الصباح ؟ وعند مَن أودعت روحي وقلبي ومشاعري جميعاً ؟ ! الجواب واحد

على هذه الأسئلة كلها أيها الأعزاء، هو: « أنا »
نعم أيها الرفاق، إنها « أنا » لا سواها، فأنا هي التي أذكت في روحي جذوة مضطرمة لا ينطفئ سعيرها؛ وهي التي أرهفت بحسنها الرفيع وصوتها الساحر إحساسي وشعوري، وهي وحدها التي حركت في قلبي الخلي عواطف الحب

وما انتصف النهار حتى كانت قدماي تقودانني إلى منزلها كأن قوة خفية تدفع بي إليه، وما أعلنت الخادم نبأ قدومي حتى هرع لوجانوفتش إليّ يستقبلني بما فطر عليه من لطف وإيناس، وهشّ بوجهي وبش، وقال لي إن زوجته حدّثته عن مرآي ليلة البارحة، وإنه كان يعلل نفسه بقدومي إليه، وإنه كان سيعتب علي كثيراً لو حرمته زيارتي، فتحرك لساني بشكره، وأما ذهني فقد ماج واضطرب، وراحت الأفكار تتقاذفني بتياراتها وتصطرع في رأسي قوية عنيفة؛ أأكون سافل الأخلاق منحطها فأتخذ صداقة زميلي ووده وسيلة لحب غير مشروع؟ أيظهر لي هذا الأدب الجم، وهذا اللطف المتناهي، وهذا الإخاء الخالص، فأصبو إلى امرأته وأحوّل قلبها عنه ولها منه طفلة رضيعة هي أحوج ما تكون إلى عطف أمها وحنانها؟ أوَ ليس حبي لهذه الزوجة الأم إغواء وإثماً؟ أأندفع وراء عاطفتي الجامحة اندفاعاً فيه كثير من التهور والجنون والضلال وأنا الذي تؤثر عنه الرزانة والتعقّل وبعد النظر؟ وبكلمة موجزة: أأخون صديقي في شريكة حياته ووالدة ابنته؟!

أجل. كانت هذه الأفكار وأمثالها تصطرع في خاطري اصطراعاً عندما سمعت صوتاً حنوناً حسبته لرقته وعذوبته منبعثاً عن أوتار تنقرها ريشة عازف مفن [1]؛ صوتاً ناعماً انتزعني من غمرة الخواطر ولجة الآراء، وانتشلني من وخز الضمير وتبكيته، وألقاني أمامها هي ليبهرني جمالها الرفيع، وتغويني أنوثتها الفذّة، وتسكرني نبرات صوتها المرنان في العبارات الترحيبية المنمّقة التي انفرجت عنها شفتاها الرقيقتان المغريتان وهي تتقدم نحوي بخطى موقعة توقيعاً

ولم نلبث أن قمنا إلى المائدة، وبعد تناول الغداء عزف ديمتري على البيان قطعة موسيقية أو قطعتين، ثم أنشدت هي أنشودة غرام حملتني بها بعذوبة الغناء ورخامته ورقة المعنى وروعته إلى ملأ غير هذا الملأ تحف به الهناءات والمتع، وتلاعبت بعواطفي ما شاء لها الفن الرفيع والصوت البديع، ودارت بيننا بعد ذلك أحاديث شتى تناولنا فيها مختلف الشؤون الثقافية كالموسيقى والأدب والفلسفة والدين والعلوم، وشربنا خلال الحديث الشاي مراراً، ولم نفق من غمرته إلا على صوت الطفلة وهي تنشج باكية معولة والحاضنة تناغيها وتداعبها لعلها تسكت، فنهضت « أنا » وقمت على إثرها مودّعاً، وكان الليل قد أوشك أن ينتصف

وأمسيت بعد ذلك كثير التردد على آل « لوجانوفتش » لا أهبط البلد إلا وأقضي جل أوقاتي عندهم؛ وبات يشوقهم مرآي كما يشوقني مرآهم؛ وأصبحت أغشى منزلهم ساعة أشاء كأني فرد من أفراد الأسرة دون أن يستأذن لي عليهم بالدخول؛ ولم تلبث حياتي أن أصبحت حنيناً دائماً وشوقاً مستمراً، وبت لا أستسيغ العيش ولا أستطيب الحياة إلا في بيتهم، أو إن شئتم فقولوا إلا حيالها

(١) اللفظة الصحيحة لكلمة فنان الشائعة على أقلام الكتاب

هى ؛ وكثيراً ما كنت أدخل دارهم فلا أرى فيها إلا الحاضنة والخادم فأستاقى على الأريكة فى الثوىّ أطالع فى صحيفة أو أقرأ فى كتاب ، فإن مللت من القراءة حنوت على الطفلة أهدهدها تارة وأناغيها طوراً ، حتى إذا حان ميعاد عودة « أنّا » من السوق هرعت إلى الباب أنتظرها على عتبته ، فما إن تقبل مثقلة الذراعين بما تكون قد ابتاعته من أدوات ولوازم ولُعَب ، حتى أتقدم إليها أروّح عنها بحمل أشيائها جميعاً كأنى غلام يدأب على خدمة سيدته بكل تيه وفخر

وبات الزوجان يقلقان علىّ إذا أطلتُ عنهما غيابى كأنما اتصلت أسباب حياتى بأسباب حياتهما ، وبت أنا لا أستروح نسيم السعادة إلا بغشيانى منزلها وترددى عليهما ، ولم يكن من شىء يحول دون رغبتى فى ذلك إلا وعكة تلم بى أو مرض يعرونى .

ولقد وفدت مرة بعد غياب طال أمده فدخلت الدار وجلستُ على إحدى أرائك الثوىّ ساهماً محزوناً ، فما هى إلا بضع دقائق حتى أقبلت « أنّا » فى مباذلها وصاحت لدن رأتنى بلهفة الجزعة الملتاعة :

— أهذا أنت ؟! لماذا حبست عنا قدومك كل هذه المدة ؟ ولماذا حرمتنا من أنسك هذا الأمد الطويل ؟ أأصابك مكروه ؟

لقد كانت نظراتها الوادعة المتألقة بطهر الحب ، ويداها العاجيتان الممدودتان إلىّ ، ورداؤها المنزلى البسيط الأنيق وشعرها المغدودن الناعم ، وصوتها ذو الجرْس الحنون ، ومشيتها الموزونة الخطى ، وكل ما فيها يؤثر فىّ تأثيراً عجيباً ويثير فى حنايا ضلوعى عواطفى المكبوتة الكظيمة

وجلست حيالها أرمقها بنظرات ملؤها الحب وترمقنى بمثلها ، وتحدثنا عن شتى الأمور ، وطرقنا مختلف الموضوعات إلا موضوع حبنا فلم ينطق لنا به لسان ولم نلم به لا تصريحاً ولا تلميحاً ، ولقد كنا سعيدين السعادة كلها هائمَين فوق مدى الظن . ولما أقبل زوجها سُرَّ كثيراً بمرآى ، ورحنا معاً نزجى الوقت بالحديث ونسرّى عنا بالعزف على البيان حيناً وبالإنشاد حيناً آخر

أنا لم أعرف بعد فى حياتى يا سادة رجلاً أطهر قلباً وأصفى نية وأوفى ولاء من « ديمترى لوجانوفتش » فقد كان لا يشك فى امرأته قط كأنه كان واثقاً من طهارة نفسها وعفتها ولا يرتاب بى على كثرة ما كان يأتى فيرانى فى منزله ، وكان هو وقرينته يفكران فى أمرى أكثر من تفكيرى فيه وينكران علىّ هذه الحياة القلقة المضطربة التى أحياها من غير شكوى ولا تبرم ، فى قرية لا متعة فيها ولا راحة لمن كان فى مثل ثقافتى ؛ وكان يعز عليهما أن أبذل شبابى كادحاً جاهداً فى العمل المرهق ولا يتبقى لدىّ من إيراد المواسم إلا النزر اليسير من المال أنفقه على شؤونى الخاصة بكثير من التقتير خشية نفاذه قبل الأوان

وكان يتراءى لها أنى أتألم وأنى ما كنت أتكلم أو أحسو الشراب إلا لأموّه على نفسى وأنفّس عنها بعض ما بها من شجن وغمّ . ولقد كنت أشعر بنظراتهما الفاحصة حتى فى ساعات سرورى وانشراحى كأنهما كانا يودّان أن يستطلعا بهما مكنونات قلبى ويستكشفا ضميرى . وكان يؤلمهما حقاً أن يريانى سادراً فى التفكير البائس ، وكثيراً ما كانا يعرضان علىّ المال عند ما كانا يدريان أن علىّ قسطاً مستحقاً من الدين ، ويلحان علىّ بوجوب

تقبل مساعدتهما المادية لى إلا أننى كنت أشكر لهما عواطفهما الرقيقة بكثير من الأدب واللطف، وآبى أن أستدين منهما بارة واحدة مع أنى كثيراً ما كنت فى أمس الحاجة إلى المال. وكنت أوثر أن أستدين من المرابين على أن أظهر أمامهما بمظهر الوضيع المهان

ودارت الأيام دورتها، وأصبحت «أنا» أمّاً لولدين كالربيع طلاقة وسنا، ولدين مرحين غردين كبلبلين، انطبعت فيهما ما فيها من نجابة وذكاء، ورونق وبهاء، ولدين كانا فخر أبيهما، وعنوان بهجته ونبع مسرّته، إلا أنهما لم يكونا كذلك لأمهما التى كانت ترى فيهما ذبولاً لآمالها وتصويحاً لأمانيها

لقد كانت تعطف عليهما وتحبهما، ولكن عطفاً مشوباً بالكدر وحباً ممزوجاً بالكآبة والحزن، لأنها كانت تشعر فى أعماقها أن كل عام يزيد فى نموّهما وحيويتهما ينقص من قوتها وحيويتها هى، وإنهما كلما تقدم بهما العمر نحو قمة الصبا والشباب انحدر بها إلى هاوية الكبر والهرَم، وأصبحت غير قمينة بالتقدير ولا جديرة بالإعجاب والحب

لقد كان هذا الخاطر يمضها ويرمضها، ولم أكن بحاجة لتصرح لي به، فحركاتها وتصرفاتها ومسحة الشجن التى علت قسماتها كانت كلها ناطقة به؛ ولكنها كانت على خطأ واضح وضلال مبين، فشحوبها الساهم جاءها فتنة على فتنة وسحراً على سحر، وكونها أمّاً لم يحل دون إعجابي بها بل على النقيض زاد فى حبي لها وتعلقي بها

لقد أحببتها حباً عميقاً هادئاً لا نزوة عاطفة فيه ولا جماح نفس، وأحبتني هي كذلك حباً شريفاً طاهراً. لقد نزهت حبي عن المفاسد والأهواء، فكنت أضن بهذا الحب العذرى الرفيع، هذا الحب النفسانى العالى أن يسفّ وأن ينحط من رفعته إلى حضيض المهانة والابتذال. وكنت أربأ بنفسى أن تهوى إلى الدرك الوضيع الشائن، وأنزهها عن ارتكاب الإثم الموبق، فما حاولت على كثرة ترددى على منزلها واجتماعاتى الطويلة بها أن أقبلها، أو أرتشف رحيق الهوى العذرى من شفتيها، لأنى كنت أعدُّ حتى تقبيلها مسًّا بولائى لزوجها وحطاً من قيمة الصداقة البريئة الخالصة التى ربطت بيننا، وامتهاناً للأخاء الذى وحّد بين قلبي وقلبه

وليس معنى هذا يا أعزائى أنى صنو الملائكة الأطهار وأن صدري لا تختلج فيه عاطفة ثائرة ولا تخفق فى حناياه نزوة جامحة، لا! فقد كانت تجيش بصدري نوازع شتى ولكنى كنت أكبتها وأخمد حدتها. وكان يجول فى خاطري بعض الأحايين أن هذه الخطة النقية التى أتبعها فى حب هذه المخلوقة الساحرة لم تكن مُثلى، وأنها ليست إلا من صنع الخيال الخاطئ، وأن رعى العهود وحفظ الوعود واحترام الصداقة وتقديس الأخوة ليس إلا أوهاماً فى أوهام، وأن الشرف والعفاف والنزاهة والتجرد والشهامة والإباء ليست إلا أسماء لغير مسميات لا وجود لها إلا فى بطون الكتب وعقول المتزمتين المخبولين، واصطلاحات لا معنى لها إلا فى عقول هؤلاء وأمثالهم من المأفونين أولى النظريات التى يستحيل تطبيقها على البشر بوجه من الوجوه؛ ولكنى كنت لا ألبث أن أزجر نفسى عن مثل هذه الفكر وأقول إنها خاطئة أوحاها إلى الشيطان وزينها لى الهوى

وهكذا يا أعزائى رحت أكلف بها من غير

أمل وأهيم بها دون رجاء . فكنا نجتمع الساعات الطوال فنمزح كثيراً ونصمت كثيراً كذلك ، وكنت أنظر إليها نظرات الوله ، وتنظر إلى نظرات التتيم ، ويحاول أحدنا أن يبوح للآخر بحبه ، ويبثه شكاة قلبه ؛ غير أنه يعود إلى نفسه فيؤثر الصمت ويفضل السكوت . وأى حاجة بنا للقول وكل ما بنا ينطق بالحب ويهتف بالهوى ؟ وأى جدوى للتصريح وكلانا يدرك حق الادراك ما يعتلج فى نفس رفيقه من وجد لاعج وجوى مستعر ؟

وإن الصمت فى مثل هذه المواقف لأبلغ من النطق ، والسكوت خير من الكلام . ولقد كنا سعيدين بالكلام عندما كنا نتكلم جدًّا أو مزاحاً ، وهانئين بالصمت عندما كنا نطلق لأخيلتنا العنان ذاهلين ممرورين تائهين فى عالم الرؤى والأحلام

كنت أفكر وأنا جالس حيالها فى ظلم القدر وقسوة القضاء ؛ أفكر فى حبى لها وحبها لى هذا الحب الناعم الساجى ، أفكر فى زوجها الكهل وفتوتها اليانعة ، أفكر فى كيف أن الأقدار شاءت أن يصادفها هو لا أنا ، وكيف ألقتها فى سبيله لا فى سبيلى ؛ وكنت أحياناً أشتطّ فى تأملاتى ويذهب بى خيالى كل مذهب ، فيخطر لى أن أنتزعها من أحضان زوجها وولديها وأفرّ بها ضارباً بصداقة زوجها وبالشرف عرض الحائط ؛ غير أنى لا ألبث أن أعود إلى عقلى الرصين وأثوب إلى هداى فأعزف عن هذا الرأى الفاسد الأخطل ، وأقول فى نفسى إن هـذا لو تمّ لجاء منتهى القسوة وغاية الظلم . وما إخالُ أننى فظّ إلى هذا الحد فأحطم سعادة عائلة يجلنى فيها الصغير والكبير الإجلال كله ، ويثق بى جميع أفرادها ثقة عمياء كبرى . ثم إلى أين

استطيع أن أنأى بها ؟ ! لو أنى ثرىّ موسر أسيح فى أقطار المعمور وأجوب عواصم العالم ، أو لو أنى زعيم فذّ فى بلادى تعبدنى الجماهير ، أو لو كنت عالماً كبيراً أو مغنياً خطيراً أو كاتباً نحريراً ، إذن ليسر الأمر وهان ، أما أن انتقل بها من حياة عادية لأخرى شبيهة بها أو أحطّ منها فما أرفضه وآباه الإباء كله ؛ فالى أين المآل لو قدّر الله لحبنا أمداً ولسعادتنا أجلاً ؟ ! وماذا يكون مصيرها هى يا ترى لو ألمّ بى مرض عضال أقعدنى عن العمل وجعلني طريح الفراش ، أو وافانى الأجل المحتوم فمت ؟ !

كنت أفكر فى هذا وأنا جالس إليها ، وأحسب أنها كانت تفكر فيه مثلي ، وأن خواطرها لم تكن إلا هذه أو ما يقرب منها ، وإخالُ أنها كانت تفكر فى زوجها الذى لم يسىء إليها قط ، فى ولديها فلذتى كبدها ، فى أمها التى كانت تعبدها وتحب صهرها كابنها الحبيب

وأمر آخر كان يرمضها على ما أظن ويعضّ منها الروح : أيكون حبها مسعدى يا ترى ؟ أم إنه يبليني بنكبات لا أول لها ولا آخر فيزيد حياتى تعقيداً وجدّي عثوراً ؟ ! وكان يتراءى لهـا عدا ذلك أنها فقدت الكثير من نشاطها بعد أن أصبحت أمّـا لولدين ، وأنها لم تعد كفءاً لى لتستهلّ معى حياة جديدة تتطلب جهداً وافراً ؛ وكثيراً ما كانت تقول لزوجها أمامى إن علىّ أن أبنى بفتاة ذات مزايا كثيرة تكون لى نعم العون فى شؤونى كافة ، ولكنها كانت تتبع فوراً عبارتها هذه بقولها له إن من الصعوبة بمكان أن أعثر فى المدينة بأسرها على فتاة كالتى تبتغيها وتتمناها لى

وكان يطيب لها أن تخرج معى إلى المتنزهات

العامة غير آبهة لألسن الوشاة ولا مكترثة لأقوال النمامين ، فنستمتع معاً بالنسيم السجاح والفيء السجسج ، ونتملى من منظر الورد وعبق الزهر ؛ ويلذّ لها أن أصحبها إلى الملهى لحضور إحدى الروايات المسرحية المتعة ، فنذهب سيراً على الأقدام ونجلس في المقصورة كتفاً إلى كتف وجنباً إلى جنب ، فإن بدا في المسرحية موقف غرامي رائع التفتت إليّ بعينين نصف مطبقتين ، ومحيا وادع كسته العاطفة كل روعتها وسحرها ، وثغر فاتن ترتقص عليه مغريات المنى ، وتمتمت :

« اليوكين ! » فأحنو عليها وصوتها الرخيم يرنّ في مسمعي ، وحبها يغور في أضالعي ، وأهمس بحب : « أنا ! » وأهمّ بتقبيلها فما إن يكاد يصل ثغري إلى ثغرها حتى أسحب رأسي وأتراجع عنها أظمأ ما أكون إلى رشفة من بين ثناياها ، وأحبس القبلة في فمي فما تريم ، فترد هي رأسها الصغير المحبوب ، وتطلق من صدرها المجهود زفرة لاهبة حرّى ولا تنبس . وأحسب أن تلك اللحظات القلائل هي خير ما كنت أشعر فيه بالسعادة والنعيم ، وأحس فيها بأن « أنا » لي وحدي ، وأن واحدنا لا يطيق العيش قصياً عن رفيقه يتقلى على جمر البعد ونار النوى ! ، ولكن وا أسفاه ، ينتهي التمثيل ونخرج من الندىّ فيذهب كل إلى طيته كغريبين لا صلة للواحد بالآخر ولا سبب يمت به إليه

ومرّت الأيام بعضها في إثر بعض ، وأصبحت « أنا » سوداوية الطبع ضيقة الخلق تتبرم بالحياة وتشكو منها وتحزن لغير داع وتغضب لغير سبب ، وباتت ترى في الكائنات نقصاً مشوّهاً كرهت الوجود من أجله وضاقت به ؛ لا ، بل تعدّى الأمر الى بيتها وأسرتها فاجتوت منزلها وأمست لا تطيق أن ترى زوجها ولا ولديها الحبيبين ، وغدت تتردد على أمها وأختها كثيراً وتقضي عندها ردحاً من النهار طويلاً ثم تنكفئ عائدة إلى منزلها كسيرة الخاطر محزونة النفس

وتغيرت اجتماعاتنا فيما تغير من عاداتها ، فأمست ساعات اللقاء سلسلة من الصمت الطويل والتأمل العميق ، وأضحت تظهر لي بمظهر الندّ أمام الناس كلما ضمني وإياها مجلس أو نادٍ . فإن تناظرتُ وأحداً من الناس انحازت إليه ضدّي ؛ وإن تحدّثتُ عن أمر ناقضتهُ ولم توافق عليه ؛ وإن سقط شيء من يدي عَرضاً قالت لي ببرودة ساخرة : « أهنئك » ؛ وإن صحبتها إلى الملهى وحدث أن نسيت أن أستحضر مِنى المنظار قالت بفتور : « كنت أعلم انك ستنساه ! »

وصمت « اليوكين » لحظة نظر فيها من خلال النافذة إلى السماء التي انقشعت عن أديمها بعض السحب وأن أنّة « خافتة » ثم استطرد يقول :

« كل شيء في الوجود ياسادة إلى نفاد ، ولا شيء في حياتنا — لسوء الطالع أو لحسنه — إلا ينتهي إما عاجلاً أو آجلاً . ووقت انفصالي عن « أنا » أو بالأحرى انفصالها عني قد دنا وحان ؛ فقد عين « لوجانوفتش » رئيساً لحكومة مجاورة لبولونيا وكان عليه أن يبيع كل ما عنده من أثاث ورياش وخيول وحتى منزله الريفي الجميل . وعلى ذكر المنزل الريفي هذا أقول إننا عند ما كنا لآخر مرة فيه وقفت « أنا » حيالي تتأمل مِنى الحديقة الغناء التي تساوره ، والحقول المنبسطة أمامها بخضرتها السندسية ونبتها المخضل ؛ وكان كلانا منقبض النفس مكمد الأسارير يشيع تلك المرائي بنظرات حزينة ويودعها لآخر مرة وداعاً لا لقاء

بعده . ولما التفت إليها رأيت في محجريها دمعتين تترأرآن ! (١)

وساءت صحتها قبل الرحيل الى مقر زوجها الجديد ، فاستشار لها الأطباء فأثبتوا أنها مصابة بضعف الأعصاب والقوى جميعاً ونصحوا لها بالاستشفاء فى « الكريمه » وقرروا أن تعالج فى ذلك المصح الفاتن بالهواء الرخيّ والماء المعدنى والمناخ السري ، حتى إذا تمّ لها الشفاء وقيض لها البرء لحقت بزوجها إلى مسكنه العتيد

ورافقت أنـا إلى المحطة حيث اجتمع لوداعها جم غفير من علية القوم وسراة البلد ، وقرع الجرس مؤذناً بتحرك القطار بعـد قليل ، فودعت زوجها وولديها والناس جميعاً ، ولما لم يبق إلا ثوان قلائل لسيره قفزت إلى العربة لأضع رزمة لهـا كانت قد نسيتها ولأودّعها الوداع الأخير وحدى . ولما التقت نظراتنا خذلتنا قوانا ، ووهى جلدنا ، فاحتضنتها بين ذراعى لأول مرة فى حياتى فألقت رأسها الصغير على صـدرى الخفاق ، ولم تمالك نفسها من البكاء فانهمرت من مقلتيها الدموع غزيرة حرّى

وفى تلك الغمرة الساحرة حنوت أرتشف من مقلتيها الدمع وأكفكف بشفتى العبرات الواكفة وألثمها فى فمها وخديها وعنقها وشعرها وكتفيها وأنى وقع عليها ثغري لثمـات كلها هوى وجوى ، وشعرت فى تلك اللحظات بحزن عميق فى نفسى لم يسبق لى أن شعرت بمثله فى ساعة من ساعات حياتى ، وانقبضت انقباضاً لا عهد لى بمثله من قبل ، وأدركت فى تلك الدقيقة فقط إبان الأسى المحرق الذى اجتاح كيانى كله أن أيامنا التى قضيناها معاً وتصرمت منها الساعات قد ذهبت هدراً فيما لا طائل تحته ولا غنية فيه ، وأن هـذا الذى حال بين حبها وبيني من إباء وشرف وكرامة لم يكن إلا هراء ولغواً ؟ وأننى أخطأت خطأً فادحاً فى عدم انصياعى إلى عاطفتى وهواى ؛ وأدركت فى تلك اللحظة فقط أن على المرء عند مايحب أن يرتفع فوق العرف والشرائع ، وأن يسمو فوق الترهات والأباطيل ، وأن يتخلى عن التفكير فى غده ومستقبله ، وألا يبحث فى أمور السعادة والشقاء ، والرذيلة والفضيلة ، والشرف والتهتك ، أو يضيع أوقاته سـدى ؛ وليندفع وراء حبه إن شاء متعة نفسه وراحة قلبه

وقبلتها للمرة الأخيرة قبلات حارة أودعتها كل مافى فؤادى من حنين وحب وصافحتها مودعاً إياها إلى الأبد . وكان القطار قد تحرك فجلست فى العربة المجاورة أبكى حتى بلغ بنا المحطة الأولى فنزلت وعدت منها إلى قريتى ماشياً

وأطلت الشمس من وراء الغيوم الدكناء التى كانت تحجبها وأرسلت أشعتها المنعشة من خلال النوافذ فقام « بوركين » و « إيفان » إلى الشرفة يتأملان جمال الطبيعة الساحر ويحدقان فى ترعة الماء وقد لمعت صفحتها كالمرآة الوضيئـة تحت شعاع الشمس ، ورثيا فى نفسيهما لمضيفهما الذى حدثهما بسذاجة وإخلاص عن حبه الشهيد ، وأشفقا على هذا الرجل النابغ الأروع الذي يقضى أيامه فى هذه الحقول والبساتين دون أن يكترث بالعلم أو بالأدب أو بأى شىء سواه يدخل السرور إلى قلبه الحزين الباكى ، الذي يحن إلى الماضى البعيد حنيناً يصوّح شبابه الوريف ويؤيس نفسه ، ويتلفت كثيراً بلوعة وحرقة إلى خيال تلك المرأة الفاتنة التى قضى بقربها خير سنى صباه دون أن ينال منها حتى فى آخر عهده بها إلا قبلات معدودات هي كلّ ذخيرته من هواه

جورج سلستى

(١) رأرأ الدمع دار في المحور ولم يسقط

أعصاب

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب جورج سليستي

رَجَتْ « مدام فاكسين » قرينها المهندس أن يأذن لها بزيارة كنيسة « السيدة » فى (ترويستا) ليلاً ، وفاء لنذر ، على أن تعود فى الصباح الباكر فلم ير بدًا لدى إلحاحها من أن يلبي طلبتها وينزل عند رغبتها ، ولم يجد هو بعد ذهابها مندوحة له من قضاء أمسيته عند أحد أصحابه فراراً من وحشة العزلة فى منزله المنفرد ، وتزجية لوقت يلذ فيه السهر ويستطاب السمر

ولقد شاء طالعه المجدود أن يكون المنزل الذى أمّه غاصاً بالساهرات والساهرين من الأتراب والأحباب ، يتساجلون فى فتون من غير تيه ، ويتطارحون الحديث سمحاً لا تكلّف فيه ، وما عتم بعد أن اطمأن به مجلسه أن ساهم معهم فى فنون القول ، وخاض معهم فى كل بحث ؛ ولما أثارت إحدى الغانيات مسألة قراءة الأفكار ، وتحدثت عن استدعاء الأرواح ، راح هو يتدفق فى كلامه عن الأرواح ومناجاتها كالخطيب المصقع ، ويروى لهم شتى الأحاديث عن اختبارات كبار العلماء فى هذا الفن وآرائهم فيه ، وعن تجاربه الشخصية التى قام بها بنفسه ، وأبى إلا أن يقرن القول بالعمل ، فطلب كأساً وخواناً ليجري عليهما تجربة أمامهم تأكيداً لما قال ، وإثباتاً لما روى ، وإن هى إلا لحظات حتى كان الأوانس قد تألبن حوله وساورنه وحتى كان الصحاب قد اندسوا بينهن حياله وكلهم يرنو إليه بطرف سادر لا يحير ، ويترقب حضور تلك الروح التي كان قد همّ باستدعائها من علياء سمائها بتمتمات إن أدركوا أقلها فاتهم إدراك جلها ، وغمغمات ما تبين أوائلها حتى تغمض أواخرها ، ولما عيل صبرهم أو كاد لفظ اسم المرحوم عمه بصوت خافت ملؤه الضراعة والتوسل ، وطلب إلى روحه المرفرفة فى فضاء اللانهاية أن تنحدر من سمائها الرفيع إلى مجتمعهم الوضيع ، وأن تتنازل فتجيب إن كانت ترى مانعاً يحول دون تسجيل منزله باسم زوجته غداً قبل أن يدهمه الموت المفاجىء نظراً لعلة ضعف القلب التي ألمت به منذ أمد بعيد واستعصى على الأطباء علاجها

وساد الصمت الرهيب ارجاء الثوى فى فترة انتظار الجواب العتيد ، ولم يلبثوا أن سمعوا جميعاً صوتاً يكاد يكون همساً إلا أنه واضح النبرات يقول: « إن كل شىء حسن فى أوانه » فأدهشهم ما سمعوا وكان له فى نفوسهم أثر بليغ

وانتقل بعد ذلك الحديث من مناجاة الأرواح إلى شخوصها وبروزها ، فكان للأوانس فى هذا الباب القدح المعلى ، إذ طفقت هذه تذكر كيف

تراءت لها روح أبيها ماثلة على الحائط بشكل يهول الرائي ويرعبه فى ليلة من الليالى الماطرة القرة ، وقد نبا بها مضجعها ، وانتفى الكرى عن مقلتيها ، وكيف أن الروح اتخذت أوضاعاً مختلفة على ضوء السراج الخافت الموضوع أمام صورة العذراء حيال سريرها مما روّعها وأثار مخاوفها ؛ وراحت تلك تقص عليهم ما سمعته عن القصر القديم المهجور من روايات أقل ما يقال فيها إنها تشيب الوليد ، ويقف لها الشعر هولاً ورعباً ، وتساءلت عن مدى الحقيقة فى تلك الأقاصيص ؛ فانبرت لها عانس شوهاء انطلقت تثبت أن للجن وجوداً ، وأن الأرواح كثيراً ما تتراءى إما بهيئات وحوش ضارية أو أناسى لا تملك رؤيتها المشاعر فحسب ، بل كثيراً ما تعقل اللسان وتكمّ الفم وترمى المرء بعد ذلك بمرض عضال لا برء منه ولا شفاء ؛ وأن المقابر مراح الجن ومغداه ، والويل ثم الويل لمن تحدثه نفسه أن يجوس بين الأضرحة فى ليل حالك الأهاب فالطامة الكبرى من غير بدّ واقعة عليه

وهنا تطوع أحد الحاضرين للحديث ، لا ليزيد فى متعة الأحاديث بل فى رهبتها ؛ وكان إلى تلك الآونة منصتاً إلى ما يقال دون أن يتكلم ، فراح على ذكر الأضرحة والمقابر يروى قصة فتى غيسانى الشباب مات على ما تراءى لأهله وبناء على ما أثبت الطبيب ، فوورى الثرى بين الآهات والعبرات ؛ إلا أن عابرى السبيل حيال المقبرة سمعوا مساء اليوم الذى دفن فيه صوتاً خافتاً كخرير المياه فى جوف وادٍ سحيق بعيد الغور ، فدفعهم حب الاستطلاع إلى تقصى الأمر واستجلاء كنهه ، فدخلوا المقبرة وطافوا بين الأجداث متتبعين مصدر الصوت المحتضر الرهيب ، فلما بلغوا ضريح ذلك الفتى المنكود أدركوا الحقيقة المرّة ، فهرع بعضهم ينبئ دائرة الشرطة وانكفأ البعض الآخر على القبر يحفره ويرفع ما هيل على التابوت من التراب

ولما أقبل رجال الشرطة كان هؤلاء يعالجون النعش لرفع غطائه ، فأمر القائد الشرطى أن ينسحبوا من الحفرة وأن يعالج النعش بالفتح اثنان من رجاله . فخضع هؤلاء للأمر وتقدم الشرطيان لفتح غطاء التابوت ، وما كادا يرفعانه معاً حتى رفع الدفين الحى رأسه وأرسل صيحة مدوية تركا الغطاء على أثرها يقع عليه ، وأغمى عليهما .

وأقبل الحاضرون لنجدتهما ، على حين تقدم الباقون لرفع غطاء النعش مرة أخرى ، بقلوب واجفة ووجوه مصفرة ذهب بلونها هول الموقف الرهيب !

ولشد ما آلمهم مرأى ذلك الفتى المسكين ، مجروح الرأس ، مخدّد الوجه من آثار أظافره التى أعملها فيه ، جاحظ العينين ، أزرق الأديم ممزّق الكفن . وعبثاً حاولوا إيقاظه ، فإن البائس كان قد لفظ آخر أنفاسه ، وكانت صيحته الأخيرة أمامهم آخر اختلاجة فيه ، فيا للفتى الموءود !

وما بلغ الرجل من روايته هذا الحدّ حتى كان بعض الأوانس قد امتقعت منهنّ الألوان واكفهرّت الملامح ، ودقت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل ، فنهضوا جميعاً يودع بعضهم بعضاً ، وإن هى إلا دقائق معدودات حتى انفرط عقدهم وارفضّ جمعهم ومشى كل إلى طيّته ونفسه تزخر بشتى الأحلام والرؤى ، إلا أن فاكسين كان أشغلهم بالاً بالجنّ والأرواح ، فعاد إلى منزله المنفرد

وصورة ذلك الفتى المنكود الذى دفن حياً ما تزايل مخيلته ، وأوى إلى فراشه وخيال الجثة لم يبرح ماثلاً أمام عينيه

قال فاكسين فى نفسه : « إن الحيـاة لتزخر بالغرائب ، وإن في الوجود من المخاوف والمروّعات ما لا يلمّ به عدّ ولا يدركه إحصاء ، ولكن الرجل من كان حديد الإرادة ثابت الجنـان ، فليست الجثث هى التي تخيف وإنما هو المجهول الغامض ؛ وأنا ما كنت فى يوم من حياتى جباناً ولا رعديداً ، ولن يعرف الخوف إلى قلبي سبيله ، والآن .. فلأنم ؛ فقد آن لجسمى أن يستوفى قسطه من الراحة »

ووفقاً لقراره هـذا أغمض عينيه ، وحاول أن يغفو ، إلا أن النوم قد جفاه ، وسعى لينزع الأوهام من خاطره ، إلا أنها كانت تكتظ فيـه وتترا كم عليه قاتمة سودا

ودقت الساعة الثانية بعد منتصف الليل وماذال الرجل يراوح بين جنبيه لعله يجد النوم فلا يسعده طالعه ولا ينال مأمله

وأطل برأسه من تحت دثاره فوقع نظره على رسم عمه الفقيد الذى ناجى روحه منذ ساعة ، لا يكاد يضيئه شعاع السراج الضئيل الموضوع أمام إيقونة العذراء فى أقصى الغرفة ، وما عسى أن يضيء هذا النور الشاحب المتراقص أبداً أمام حفيف النسيم الناعم ؟ !

وتساءل فاكسين عما ينتابه لو ظهر له خيال عمه حينذاك ؛ غير أنه لم يلبث أن طرد هذا الخاطر المزعج من رأسه لأنه على مارأى بعيد الاحتمال إن لم يكن مستحيلاً ، لا سيما أن شخوص الأرواح لا وجود له إلا عند الواهمين ، وليست رؤى الجن إلا ثمرة العقل المخبول والأثن حق له أن يسخر من رفاقه إذ يوهمهم أنه ينـاجى الأرواح ويستدعيها فتهرع إليه ، إنه ليس من الحكمة فى شيء أن يسخر هو من نفسه فيؤمن بما يثق كل الثقة من بطلانه ، أو يعتنق مبدأ يعده لغواً وهراء وشعوذة

تلك هى آراؤه التى كانت تجول فى فكره ، ولكن ما قيمة هذه الآراء ما دام الواقع يدحضها عنده وينفيها ، وما يجدى المرء اعتقاده أن شخوص الأرواح وهمٌ على حين يكون هو نفسه فريسة هذا الوهم ، لا يقوى على الإفلات من عقاله أو الانطلاق من إساره ؟ !

وراح فاكسين يحاول أن ينجو من براثن الأشباح ، فكان يغطى رأسه كله بدثاره ويطبق عينيه بشدة ويرغم نفسه على النوم إرغاماً . غير أن الأشباح كانت ما تفتأ تتخطر أمامه ، والرؤى لا تنفك غادية رائحة أمام باصرتيه ، والنوم شريد أنأى ما يكون عن عينيه

ولقد مثل له خاطره المروع رسم الدفين الحي يتقلب فى نعشه ، وتراءى له ساعياً ينفض عنـه الأكفان فيرتطم رأسه بغطاء التابوت فيشج ، ويستغيث بملء فيه فلا تخرج الاستغاثة من حلقه إلا كنداء المبحوح لا يكاد يسمعه أدنى الناس إليه . وتمثلت له صـورة المرحومة زوجة عمـه ساعة احتضارها وصورة أخ له حميم علق على أعواد المشنقة وصورة فتاة كانت من أحب الفتيات إليه وآثرهن عنده ابتلعها التيار الجارف وطوتها الأوذاى الصاخبة في مهاويها البعيدة الأغوار !

وحاول المسكين أن يدفع عنه أفكاره مرة أخرى ولكنها ما كانت لتزداد إلا قرباً منه فيهلع فؤاده الخوار

ولقد عاوده وهو تحت غطائه شيء من الثقة بالنفس وقليل من الجرأة التى كان يتبجح بها ، وأقر فى نفسه أن هذا الذى يبدو منه خور لا يليق بمثله ، وضعف من العار أن يثبت عليه ، وعزم عزماً صادقاً على أن ينهض من فراشه دون ما خوف ولا وجل ليظهر أمام نفسه بمظهر الجسور وليريها أن الشجاعة لديه ليست ادعاء كاذباً ولكنها حقيقة لا يعوزها دليل ولا إثبات ، ولكن يأبى سوء الطالع على ما يظهر إلا أن يلازمه ، فما كاد يرفع رأسه حتى لامس جبهته جدجد كان قد دخل من النافذة طائراً ولجناحيه حفيف كخشخشة الأوراق المتناثرة عند ما تذروها الريح . فارتاع أيما ارتياع ، وعاد فكمن تحت الدثار فى مثل ومض البرق الخاطف وفؤاده وجيب يتجاوب فى أذنيه صداه

ورن جرس الكنيسة القائمة حيال المقبرة فى ضاحية القرية ، رنات بطيئة محزنة تملك المشاعر ، وصر الجدجد فوق السرير صريراً يكمد النفس ويشجى الفؤاد على حين كانت الساعة وراء الحائط تنشد أغنيتها الموزونة من غير ونى ولا إبطاء فتزيد المكان رهبة على رهبة

أحس فاكسين كأنما النمل يحبو على ظهره ، فمرت جسمه المجهود قشعريرة هزته هزاً ، وتراءت له صورة عمه كأنها قد تجسدت وتملصت من إطارها وأكبت عليه تنفح رقبته أنفاسها الباردة فاستولى عليه ضيق شديد خيل معه إليه أن يدى عمه الباردتين تضغطان على عنقه حتى اختنق أو كاد تخانته قواه ، ولم يبق فى مقدوره أن يتجلد أكثر مما فعل ، فتعلقت أنامله المرتجفة بخيط الجرس تحت وسادته تعلق الغريق بآخر أمل له فى الحياة ، وجذبه بعنف يستدعى خادمه ليستعين بمرآه على تنفيس كربه ، وما هى إلا دقيقة أو اثنتان حتى أقبلت قيمة الدار صائحة من وراء الباب :

— « لقد أذن سيدى (لكلافديه) بزيارة أهله في المدينة وليس فى المنزل أحد سواى ، فهل يريد سيدى أن أقوم له بخدمة ؟ »

وهبط هذا الصوت الأنثوى عليه هبوط الفرج على البائس الحريب ، ووجد فيه أنساً يبدد مخاوفه بعد أن ناله منها ما ناله من عنت وضيق ، فأفرخ روعه واطمأن باله قليلاً ، وتجرأ فرفع رأسه من تحت الدثار ، وقال وقد ضرج الحياء خديه :

— آه ! أهذه أنت يا (روزاليا كارلوفنا) ؟ لقد جشمت نفسك مشقة المجىء إلى بعد أن كنت غافية ، تفضلى وادخلى

— ماذا يريد سيدى منى ؟

— إنك حقاً ذات قلب رقيق وخلق كريم ... كنت أود ... آه ... ولكن تفضلى ادخلى ياعزيزتى روزاليا ... ليس ثمة ماتخجلين منه ، فالقنديل مطفأ وأنا فى السرير ، ادخلى

ودخلت قيمة الدار وهى ألمانية ذات جسم بدين وعليها مسحة من الجمال الأنثوى المغرى ، وخطت خطوتين اثنتين ثم وقفت تنتظر أمر سيدها الذى سرى عنه لدى دخولها ، وتنفس الصعداء

كمن يلقي عن كاهله عبئاً يبهظه ويفدح قواه ثم قال :

— أرجو أن تجلسى يا عزيزتى روزاليا ، أتعلمين ماذا أريد ؟!

وتنحنح وهو ينظر بطرف عينه إلى صورة عمه ويفكر فيما ذا عساه أن يطلب منها فى مثل تلك الساعة المتأخرة فى الهزيع الثالث من الليل ، ثم رفع رأسه إليها وقال :

— آه ... ! كنت أود أن أكلف الخادم بشراء غليون غداً ، ولقد عزب عن بالى أنى أذنت له بزيارة أهله ... ولكن لا بأس ! فهل لك أن تبلغيه رغبتى لدى عودته ... ؟! ولكن اجلسى بربك !

— غليون ؟! هيه ! أقول للخادم أن يبتاع لك غداً غليوناً ؟! جميل حقاً ما تطلب يا سيدى !

وهزت رأسها باستخفاف وهزء ثم استأنفت :

— وبعد فماذا تريد ؟

— أريد ... إيه يا روزاليا ... عليك بالله أن تستريحى على الأريكة ريثما أفكر في شيء آخر أكلفك بتبليغ (كلافديه) شرائه

— هيه ! أخطأت يا سيدى كل الخطأ فيما ذهبت إليه ... ! لا لن أجلس ! وليس من اللياقة ولا الأدب أن تجلس فتاة شريفة في غرفة رجل بعد منتصف الليل !

قالت ذلك بلهجة جمعت بين الغضب واللين ، وهمّت بالانصراف ، فاستوقفها وطلب إليها مرة أخرى أن تنزل عند رغبته فتستريح على المتكأ ولو هنيهة واحدة ثم تذهب ، غير أنها أبت ، وفار دمها واحمرت وجنتاها وصاحت به :

أرى أنك رجل خليع متهتك ... أنا لم أسمع قبل الساعة أن خادماً يستدعيها سيدها من فراشها لأجل غليون ! أوَ تحسبنى جاهلة ؟ إنى أعلم حق العلم ما تروم منى !

ودارت على عقبيها وعادت أدراجها إلى غرفتها بعد أن أغلقت وراءها باب سيدها حانقة غضبى .

فلم يُبْدِ فاكين ولم يُعِد . وحسبه أن حضورها إليه وحديثه معها قد أزالا عن صدره كابوساً من الهم كان يرهقه وإن يكن فى قرارة نفسه قد خجل من ضعفه ، وجذب الغطاء عليه وراح يتلمس النوم بعد ذلك الهدوء النفسانى ... ولكن دون جدوى فكأنما تعادى النوم وأجفانه فصد عنها وجفاها

ومضت عشر دقائق سرعان ما تصرمت ثوانيها ثم عاد الخوف إلى فؤاده ، فتمتم لاعناً تلك الساعة التى قادته فيها قدماه إلى منزل ذلك الصديق التى حفلت الأمسية عنده بالأحاديث عن الأرواح والجن والموتى ، ومد يده إلى المنضدة قرب سريره ليتناول علبة الثقاب فلم تعثر أنامله المعيثة عليها

وتراءى له أن شيخاً عملاقاً جاثماً في زاوية الغرفة يرمقه بالنظر الشزر ويتهدده بقبضة يده القوية وأن عينى عمّه تخزرانه [1] بنظراتهما ، فتضاءل واستخذى ، ثم استجمع إرادته الموزّعة وعزم على أن يستدعى الفتاة الألمانية من جديد لتؤنسه ، وسينتحل لنفسه عذراً مقبولاً كالمرض مثلاً ، ويطلب منها أن تأتيه بالدواء

ودقّ الجرس ، ولكن دون جواب ، فروزاليا كانت قد غفت وراحت تسبح فى نوم

(١) خزر فلاناً : نظره بلحظ عينه كبراً واستخفافاً

عميق . وكرر الدقّ ، ولكن دون جدى ، ولم تطرق مسمعيه حركة ولا نأمة اللهمّ إلاّ دقات جرس الكنيسة القائمة حيال المقبرة ، وكأنما تقرع رداً على قرع جرسه ؛ ثم ساد الصمت الرهيب ، وعراه ذعر شديد ، وأحس بأعضائه تتقرس ، فلم يجد وسيلة ينجو بها مما هو فيه إلاّ أن يقفز من سريره ويهرع إلى غرفة القيّمة يلوذ بحجرتها

ونهض من سريره فعلاً ويمم حجرتها حافى القدمين وليس عليه من الثياب إلاّ قميص نومه . وقرع بابها بيده فلم تجبه ، وناداها باسمها مراراً فما ردت عليه ، ولقد أدرك أن اللعينة تسمع نداءه وتتصامّ فقال لها بلهجة المتوسل الضارع :

— روزاليا ... أنا مريض ... أسعفينى بزجاجة الدواء ... أتفهمين ؟ .. أرجو منك أن تسعفينى حالاً فأنا العليل واقف ببابك ... إيه ... لا أفهم والله لهذا التعنت سبباً ... ولا أفقه معنى لهذه الحدة تبدر منك لى ... ولا سيما أنى محرور ، وبى صداع أليم لا طاقة لى على احتماله

— سأقص كل شيء على زوجتك يا سيدى ، وسأروى لها الخبر بحذافيره ؛ سأعلمها عن تصديعك خاطرى من أجل ... آه منك يا هذا ؛ سأنبئها عن هذا كله إن لم ترعو عن غيّك وتثوب إلى رشدك ؛ ألا تريد أن تدع فتاة شريفة مثلى ؟ ! عند ما كنت عند البارون « ازريج » أقبل إلىّ حضرته كما أقبلت إلىّ أنت الآن بحجة التفتيش عن علبة ثقاب ، ولكنى وأنا الذكية أدركت بداهة أية علبة ثقاب كان يبتغى فعنّفته وزجرته ، وهرعت إلى البارونة أطلعها على الأمر وقلت لها إنى شريفة طاهرة الذيل

— ليحمل الشيطان شرفك وطهرك ، فأية غُنْيَةٍ لى فيهما أيتها المتوهة . إنى مدنف عليل يعوزه الدواء ... أتفهمين الآن ؟ !

— أنا أدرى منك بالدواء الذى تحتاجه ، إليك عن بابى يا سيدى ، فزوجتك شريفة وإن عليك أن تحبها هى وتخلص لها الحب ؛ إنها مثال الأمانة والوفاء والطهارة والورع وهى تستحق منك كل رعاية وتقدير وإنها بهما لجديرة . أنا لا أريد أن أكون عدوتها ، وليس لى أن أنافسها فى هواك

— إنك حمقاء ، أجل إنك حمقاء ؟ !

قال ذلك وهو ينزو غضباً ، ثم أسند ذراعه إلى الباب ، ورسم إشارة الصليب على صدره ليطرد بها الأشباح من مخيلته الواهمة المضطربة ، وطفق يحدق فى سكون ذلك الليل البهيم بنظر تائه وفكر شريد ؛ ويفكر بما تبقى له من عقل : أيعود إلى غرفته حيث تتراقص أضواء الشمعة الشاحبة ، وحيث يرى رسم عمه الذى يفزعه بنظراته الجامدة الحادة ، وتخيّلُ الأشباح المروعة ... و ... ؟ لا ولكن أيبقى حتى الفجر حافى القدمين واقفاً على باب القيّمة بجلبابه الرقيق ؟ إن هذا لا يليق بمثله ؛ ما العمل إذن ؟ .. إنه لا يدرى

ودقت الساعة الثالثة وهو لا يزال على وقفته تلك يفكر تحت ستار الدجى الحالك ، تساوره المخاوف وتحف به الرؤى . ولقد غدا من شدة هلعه يحسب أن للأثيرعيوناً ترمقه ، وأن الأرض ملؤها الأشباح المنبثة فى كل مكان تسلب الناس راحتهم وتعكر على البشر صفوهم

وخيل إليه أن جنيّاً مارداً واقفاً وراءه يصغى

إلى همسات روحه ، ويحصى عليه أنفاسه الزواخر ، وأنه ممسك بذيل جلبابه يشده منه ، ثم أحس كأن يداً من جليد وضعت على كتفه ، فقفّ شعر رأسه من الرعب ودفع الباب بكلتا يديه وهو ينادى القيمة باسمها بصوت مأخوذ كصوت المبحوح ، مستطار اللب ، زائغ النظرات ؛ ودخل غرفتها وأغلق وراءه الباب

كانت الفتاة الشريفة قد استرسلت فى نومها الهادئ العميق على نور سراج يرسل أضواءه الصفراء على جسمها الهانئ المتنعم بلذة الرقاد

ووقف فاكسين برهة يستعيد فيها بعض قواه الخائرة ثم ارتمى على عيبة[1] قرب الباب تؤنسه أنفاس الفتاة النائمة ؛ وشعر بالطمأنينة تعود إليه رويداً رويداً

قال فاكسين فى سره : فلتنم هى ، وأما أنا فسأبقى حيالها حتى الصباح وأترك حجرتها قبل أن تستيقظ

واعتمد رأسه على راحته وطفق يفكر في هذا الذى انتابه ، وعجب كيف تستحوز عليه الأوهام ، وهو المهندس الأريب إلى هذا الحد القصى . وعزا ذلك كله إلى وهن أعصابه الهائجة وخور نفسه ولم يلبث أن استولى عليه النعاس فأغفى

***

وعادت مدام فاكسين من (ترويستا) فى الصباح الباكر ولما لم تجد زوجها في غرفة نومه دخلت غرفة الألمانية لتطلب منها شيئاً من النقود كى تدفع الحوذى الذى أقلها أجرته ، فوقع نظرها على روزاليا

متمددة فى سريرها وقد سقط عنها دثارها فظهر فخذاها العاريتان البضتان وبانت تكاوين جسدها العابل فاتنة مغرية ؛ ورأت على قيد ذراعين منها زوجها فاكسين مستلقياً من غير غطاء ولا دثار على العيبة الكبيرة بجلبابه الفضفاض يغط فى نومه غطيط البكر !

أما كيف أيقظته زوجته من رقاده وماذا حدث بينهما بعد أن شاهدته فى ذلك الوضع الزرى الشائن فما أدع وصفه لسواى يعبر عنه بالمنطق الذى يروقه والبيان الذى يشوقه ، فأنا وقد كلّ ساعداى ووهنت قواى أرفع يدى مستسلماً وألقى سلاحى

جورج سلستى

(١) زنبيل من أدم تحفظ فيه الثياب

في المصيف

للكاتب الروسي أنطون تشيخوف

بقلم الأستاذ عبد الحميد حمدي

« أحبك فأنت حياتي وسعادتي ، وأنت لي كل شيء في الوجود ! ولتغفر لي هذا الاعتراف فما أنا بقادرة على أن أحمل الألم ولا أشكو ، وما أسألك أن تبادلني حباً بحب ولكني أسألك العطف على والرأفة بي . فلتلقني في تعريشة المتنزه في تمام الساعة الثامنة من مساء اليوم ... وما أحسب بي من حاجة لأن أوقع خطابي هذا باسمي وإني لأرجو ألا يزعجك أن أبقى مجهولة منك ، فحسبك أن تعلم أني صبية مليحة المنظر ... وما عساك تطلب وراء ذلك ؟! »

هذا هو الخطاب الذي تلقاه ، ساعة الأصيل ، « باقل ايفانتش » وهو رجل متزوج يقضي عطلة الصيف في بيت من بيوت المصايف ، فلما قرأه هز كتفيه ودعك جبهته ، وقد استولت عليه الحيرة ، وقال يخاطب نفسه :

« ياله من عمل من أعمال الشيطان . أنا رجل متزوج ، فما لهذه المرأة تبعث لي بمثل هذا الخطاب العجيب . السخيف ! ومن ترى تكون كاتبته ؟! »

وقلب باقل إيفانتش الخطاب أمام عينيه غير مرة وكرر قراءته مرة وثانية ثم تفل احتقارا وقال متهكما :

« إني أحبك ! حقا لقد وقعت على شاب ظريف جميل أيتها الحسناء ؟ إذاً سأسرع إلى لقائك في تعريشة المتنزه

لقد نعمت ، يابنيتي ، منذ أعوام طوال ، بأمثال هذه الخيالات ، وملأت معاطفي بما كانت تبعث به أزهار الغرام في الجو من عطر زكي .. يالله ! إني ما أشك في أن كاتبة هذا الخطاب امرأة خليعة لا تقيم للفضيلة وزنا . رب ! إن لهؤلاء النسوة لأدعيا لا يحس الحياء . إنهن شبيهات باللعب التي تعرض في الأسواق ليتلهى بها الأطفال فليغفر لنا الله!

إن المرأة التي تكتب مثل هذا الخطاب لرجل متزوج وأجنبي عنها لا يمكن أن تكون إلا امرأة هوائية مستهترة لا تحفل بالآداب .. الحق أن هذا هو غاية ما يصل إليه الانحلال في الأخلاق ! »

وكان باقل إيفانتش قد تغلب في السنوات الثمان من حياته الزوجية ، تغلباً تاماً على العواطف الغرامية ولم يتلق في خلال هذه المدة أي خطاب من أية امرأة إلا أن يكون خطاب تهنئة . لهذا كان الخطاب الذي تلقاه أصيل ذلك اليوم منشأ اضطراب استولى على نفسه وحيرة أحاطت به من جميع النواحي على الرغم من محاولته الزراية بهذا الخطاب وبالمرأة التي بعثت به

ولم تمض على الرجل ساعة من تسلمه هذا الخطاب حتى كان مستلقياً على أحد المقاعد مفكراً يحدث نفسه فيقول :

« ما من شك في أنني لست بالصبي الأبله الذي يندفع إلى المكان الذي عينته هذه المرأة للقاء ... ولكني أرى من الشائق مع ذلك أن أعرف من هي هذه المرأة اللعوب ... تبارك الله ... إن الخط خط امرأة ما في ذلك من ريب ... وإني لأشعر أن الخطاب يعبر عن إحساس صادق ... لذلك يبعد أن

يكون خطاباً قد أريد به المزاح الخالص ... ويغلب أن تكون كاتبته إحدى هؤلاء الفتيات المصبيات اللواتى ... ولكن لعلها أرمل ... والأرامل على العموم مداعبات غريبات الأطوار ... يا لله ... ترى من تكون الكاتبة ؟ »

وكان مما صعّب الأمر فى نظر بافل ايفانتش أنه لا يعرف من بين زائرات المصيف غير امرأة واحدة هى امرأته ... فهمهم لنفسه :

« عجباً ... إن هذه المرأة تقول « إنى أحبك » فكيف أحبتنى ومتى وقعت فى شرك هذا الحب ؟! حقا إنها لامرأة مدهشة ! فما عهدنا الحب يقع على هذه الصورة ... ومن غير سبب ظاهر ... ومن غير تعارف سابق ، وقبل أن تعرف المحبة أى نوع من الرجال أحبت ... ما من شك فى أن كاتبة هذا الخطاب فتاة صغيرة ... خيالية ... ليس أدل على ذلك من وقوعها فى حبى أن بعد رأتنى اتفاقاً مرتين أو ثلاث مرات فى الطريق ... ولكن ترى من تكون هذه الفتاة ؟!

وذكر بافل ايفانتش فجأة أنه إذ كان يسير خلال بيوت المصيف فى اليوم السابق واليوم الذى قبله التقى أكثر من مرة بغادة حسناء على رأسها قبعة سماوية اللون ، شامخة بأنفها إلى السماء ، وقد أطالت هذه الحسناء الرقيقة النظر إليه ، ولما جلس على أحد المقاعد العامة جلست إلى جانبه ... فسأل نفسه فى حيرة :

« أيمكن أن تكون هى ؟ ما أظن ذلك بممكن ! وهل من المعقول أن تحب فتاة هيفاء كهذه الفتاة كهلا مثلى متحطما ؟ كلا ! إن هذا لهو المستحيل بعينه ! »

وفى أثناء تناول العشاء الأول نظر بافل إيفانتش إلى امرأته نظرة تائهة، وكان غارقاً فى بحر من التأمل والتفكير يحدث نفسه بقوله :

« .. إنها تقول فى كتابها إنها صغيرة حسناء .. إذن هى ليست عجوزاً ... عجباً ! الحق الذى لا مرية فيه أننى لست من الكبر والسذاجة بحيث لا يمكن أن تقع امرأة فى حبى ! فامرأتي تحبنى . ويجب أن نذكر إلى جانب ذلك أن الحب أعمى .. وليس فينا من يجهل ذلك ... »

وقطعت عليه زوجه سلسلة تفكيره بهذا السؤال:

— فيم تفكر ؟

فأجاب الرجل ولم يك صادقاً فيما قال :

— أنا لا أفكر فى شىء . . . ولكننى أشكو صداعاً خفيفاً ..

واستقر رأيه آخر الأمر على أن من الغباوة والبله أن يفكر فى شىء لا معنى له ، كخطاب تحدثه فيه كاتبته عن الحب . . . وعاد يهزأ فى نفسه ، من جديد بالخطاب وكاتبته

ولكن أسفاً ... إن للانسان من نفسه لعدواً قوي السلطان ! فقد رقد بافل إيفانتش بعد العشاء على سريره ، وبدل أن ينام انهمك مرة أخرى فى التفكير والتأمل فكان يحدث نفسه :

— ولكنى أستطيع أن أجزم بأنها الآن جالسة تحت التعريشة فى انتظارى . فيا لها من حماقة ! وإنى لأتصور إلى أى حد تثور أعصاب الفتاة وقد استولى عليها القلق من طول الانتظار ، كما أتصور كيف ضاق صدرها عند ما دخلت التعريشة ولم تجدني فيها ومع ذلك فلن أذهب ... ولنأ كل نفسها ؟

ولكننا نعود فنقول أن للانسان من نفسه لعدوا قوى السلطان . فلم تمض على الرجل نصف ساعة وهو راقد على فراشه حتى حدث نفسه من جديد :

« ومع ذلك فقد يحسن، من قبيل الاستطلاع، أن أذهب وأنظر من بعد أى نوع من المخلوقات هذه الفتاة ... وما تضرنى نظرة سريعة أتعرف منها شكل المرأة التى تجرؤ على كتابة مثل هـذا الخطاب ... وهل يكون ذلك أكثر من دعابة لا يبقى لها فى نفسى من أثر بعد أن تمر لحظتها ... لقد هيأت لى المصادفة فرصة للدعابة فلم لا أقتنصها ؟»

وهب بافل إيفانتش عن سريره وشرع فى ارتداء ملابسه .

ولا حظت امرأته أنه أعد قميصاً نظيفاً ورباط رقبة أنيقاً فسألته :

« لم أراك تتأنق فى لباسك على هذا النمط ؟ »

فأجاب الرجل متململاً :

« أف ! ليس هناك مايدعو إلى العجب . . . وما هناك من شيء ، غير أن بى حاجة شديدة إلى التروض ... فرأسى مصدوع ... و ... أف ! . »

ارتدى بافل إيفانتش أحسن ملابسه فبدأ فى أجل هندامه ، وانتظر حتى وافت الساعة الثامنة وغادر البيت . فكان كلما التقى بأحد من زوار المصيف من رجال أو نساء أسرعت نبضات قلبه . وكان كلما رأى امرأة سأل نفسه متحيراً :

« ترى أيهن هى بين هؤلاء ؟ ولكن مالى أشعر بشيء من الخوف ؟ وعلام هذا الاضطراب ، وما أنا بذاهب إلى موعد ولقاء ! يالها من غباوة وحمق ! فلأتقدم فى ثبات ! ثم ماذا علىّ إذا أنا دخلت إلى التعريشة ؟ ولكن لا ، فليس هناك ما يستوجب الدخول »

ثم اشتد خفقان قلب بافل إيفانتش

... وتصور فجأة وعلى غير إرادة منه منظر التعريشة المظلمة . . وخيل إليه أنه يرى فيها فتاة رائعة المنظر على رأسها قبعة سماوية اللون وأنفها شامخ إلى السماء . . تصورها مستحيية لما ظهر من حبها . . وقد أصابتها الرجفة من قمة رأسها إلى أخمص قدمها . . ثم رآها وقد تقدمت إليه على استحياء وهى مضطربة . . و . . . على حين فجأة ضمته بين ذراعيها . .

وحدث نفسه — وهو يحاول أن يطرد من رأسه جميع الأفـكار الآثمة :

« لو لم أكن متزوجاً لما كان ثمت من بأس .. على أنه أى ضرر فى أن أحاول مرة فى حياتى هذه المحاولة من باب الاختبار ؟ . . وإلا فأن الانسان يموت قبل أن يتعلم ما يجب . ثم أى شيء فى ذلك يضير امرأتى ؟ ألا فلتشكر لله فنى خلال ثمانى سنوات عشتها معها لم أبتعد عنها خطوة واحدة ... ثمانى سنوات أؤدى واجب الزوج المخلص بما لا يدعو إلى لوم أو عتاب ! أما يكفى كل هذا الوقت الطويل فى مثل هذه الحياة المقيدة . . حقاً أن ذلك لما يضيق له الصدر .. وإنى لأشعر أنى لن أبالى بغضبها

ودنا بافل إيفانتش من التعريشة وقد استولت الرجفة على جميع أطرافه وأمسك بنفسه كالمتلصص ثم مد رأسه إلى الداخل فملأت رطوبة الجو خياشيمه وقال يحدث نفسه :

« أعتقد أن ليس هناك من أحد »

وتقدم بضع خطوات حتى صار داخل التعريشه

وهناك تبين شبح إنسان فى أحد الأركان

وكان شبح رجل ... وإذ دقق النظر عن قرب تبين أن هذا الانسان ليس أحداً غير الطالب ميتيا شقيق امرأته الذى يعيش معه في البيت

فدمدم متمضاً بعد أن جلس ونزع قبعته :

« أف ! هو أنت ؟ ! »

فأجابه ميتيا :

« نعم هو أنا ذا »

ومرت لحظة ساد فيها السكوت ثم قال ميتيا :

« عفواً يا بافل إيفانتش إذا رجوتك أن تتركنى وحدى ، فانى أفكر فى الرسالة التى أتقدم بهـا للحصول على درجتى العلمية ... ووجود أى إنسان إلي جانبي يقطع على طريق التفكير »

فقال بافل إيفانتش فى شيء من التواضع :

« وقد يكون خيراً لك يا ميتيا أن تذهب إلى أى مكان آخر يتفق مع غرضك كزاوية فى بعض الشوارع الـكبيرة المظلمة ... فان الهواء الطلق مما يسهل عليك التفكير ... ثم لا أخفى عليك أننى أود ... نعم أود أن أنام فترة قصيرة هنا ... فوق هذا المقعد ... فالجو فى هـذا المـكان أقل حرارة منه في البيت ... »

فأجاب ميتيا متذمراً :

« الأمر بالنسبة إليك أمر نوم ... أما بالنسبة لى فأمر استذكار وتفكير فى الرسالة العلمية ... ومن البديهى أن يكون التفكير فى مثل هذا الموضوع خيراً من النوم ... »

وساد السكوت مرة أخرى ... وكان بافل إيفانتش قد أرخى العنان لخياله ، وخيـل إليه أنه يسمع وقع أقدام فنفر من مكانه فجأة وقال فى صوت يتهدج غضباً :

« أرجو أن تصغى إلي يا ميتيا ! فأنت أصغر منى سناً وواجب عليك أن تحترمنى ... وأنا الليلة مريض ... وبى حاجة ماسة إلى النوم ... فلتنصرف من هنا ! »

فأجاب ميتيا :

« إنك لتدل بذلك على أنانيتك الشديدة . فلماذا تبيح لنفسك البقاء هنا وتطلب منى الانصراف . . إننى تمسكا بمبدأ الحق لن أغادر هذا المـكان »

فقال إيفانتش محتدا :

« إصغ إلى إنى أطلب منك أن تنصرف ! فقل عنى إنى أنانى . مستبد أحمق . قل ماتشاء . ولكننى أطلب منك أن تغادر هذا المـكان فى الحال . وهذه أول مرة فى حياتى أطلب منك فيها أن تسدى لى يداً بمعروف ! فهلا ظهرت بشيء من حسن التقدير والذوق ... »

فهز ميتيا رأسه وقال بافل إيفانتش فى نفسه :

« ياله من حيوان حقير . إن وجوده هنا تمسير على اللقاء ! نعم مستحيل على أن اجتمع بهـا فى حضرته ! »

ثم وجه إليه الخطاب قائلا :

« استمع ياميتيا إنى أطلب منك للمرة الأخيرة . فلتثبت أنك رجل ذو إحساس . مهذب . فى نفسك شيء من الانسانية ! »

فهز ميتيا كتفيه وقال :

« لا أعرف لماذا تلح على هـذا الالحاح . لقد قلت لك إننى لن أغادر هذا المـكان . وها أنا أكرر لك هذه القول .. نعم سأبقى هنا احتفاظا بمبدأ الحق والحرية ... »

فى هـذه اللحظة أطل داخل التعريشة رأس

امرأة شامخة الأنف إلى السماء ...

فلما رأت ميتيا وبافل إيفانتش حبست وجهها واختفت فى الظلام .

فقال بافل إيفانتش فى نفسه وهو يرمق ميتيا شزراً :

— لقد ذهبت ... نعم لقد رأت هذا الحيوان الدنئ فهربت ! لقد أفسد هذا المجرم كل شيء على

وانتظر بافل إيفانتش فترة قصيرة ثم هم واقفاً فوضع قبعته على رأسه وقال :

— إنك وحش ... إنك حقير ... وجبان دنئ ! نعم لقد برهنت على وحشيتك ودناءتك ... أيها الأحمق ... والآن لتعلم أن كل شيء بيننا قد انتهى !

فوقف ميتيا أيضاً ولبس قبعته وقال :

— إنى لسعيد لسماع هذه الكلمات ... ولتعلم أنك بوجودك هنا فى هذا الوقت قد مثلت معى فصلا قذراً لن أنساه لك ما حييت

وخرج بافل إيفانتش من التعريشة فعاد إلى بيته مسرعاً وهو ثائر غضب .. ولم يجد منظر المائدة المعدة لعشاء الليل فى التخفيف من غضبه

وفكر فى نفسه وهو ثائر مضطرب :

— مرة واحدة فى العمر تسنح لى مثل هذه الفرصة ... ثم تفلت منى فى اللحظة التى كدت أنتهزها فيها ... إنها الآن غاضبة مسحوقة القلب !

وفى أثناء تناول الطعام ثبت بافل إيفانتش وميتيا نظريهما فى أطباقهما وصمتا صمتاً كئيباً . . . وقد طفح كل منهما ببغض صاحبه ...

ونظر بافل إيفانتش إلى امرأته نظرة المتحفز وقال :

— علام تضحكين ؟ إن الحمقى الأغبياء هم الذين يضحكون من غير سبب ؟

ونظرت المرأة إلى وجه زوجها الغاضب وانفجرت ضحكا وسألته :

— ما هذا الخطاب الذى جاءك اليوم ؟

وأخـذ بافل ايفانتش بهذه المفاجأة فتولاه الاضطراب وقال :

— أنا ؟ أى خطاب تعنين ؟ أنا لم أتسلم خطابا ما ... وإنك لتخترعين ما تقولين ... وأراك تجرين وراء الخيال ...

قالت امرأته :

— ألا فلتكن صريحا ! فانى لواثقة من أنك قد تسلمت اليوم خطاباً ! ثم علام الانكار وأنا مرسلة الخطاب ! نعم أقسم لك بشرفى إننى أنا الذى أرسلت لك هذا الخطاب ! ها ! ها !

فاحمر وجه بافل ايفانتش وأرخى نظره إلى صحنه وقال مهمهما :

— مزاح بارد !

فقالت زوجته :

— ولكن خبرنى بالله ماذا كنت أستطيع أن أعمل غير ذلك وكان علينا أن ننظف الغرف هذا المساء ... ولم تكن هناك من وسيلة أخرى لاخراجكما من المنزل !... ولكن لا تغضب أيها البليد فلقد أردت ألا يتولاك السأم من الجلوس وحدك فى التعريشة ... لذلك أرسلت لميتيا أيضاً بصورة من الخطاب الذى بعثت إليك به ! فهل ذهبت إلى التعريشة يا ميتيا ؟

فكشر ميتيا عن أسنانه وخرج يرمق منافسه فى موعد الغرام بعين الغضب والبغضاء !

عبد الحميد حمدى

من روائع الأدب الروسي

رثاء !...

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب فيصل عبد الله

في صبيحة يوم صاحٍ مشرق مات « عضو التحكيم » (كيريل أفانوف بابيلونوف) صريع الداءين اللذين كثيراً ما أوديا بحياة الروس : إدمان الخمر وفظاظة الزوج . . . وكان الناس في شغل بتشييع موكب جنازته الذي كان في طريقه إلى القبر ... إلا أن (بولافسكي) وهو صديق حميم للفقيد ، أسرع فامتطى عربة أدت به إلى صديق له يدعى (زابوكين) . ولزابوكين هذا قدرة على ارتجال الخطب فائقة ، فهو يقولها أنى كان وحيثما يدعى ، فلا تعوقه سِنة ولا حمى ولا سكر عن ارتجالها . . . سواء أكان في مأتم يرثي ، أو في حفل يبهج ويشيد ، كانت الكلم تتدفق من فيه كالماء غزيراً سلسالاً . . .

وكان هذا ما حدا ببولافسكي أن يسرع إليه ، ولا سيما والخطب الذي ألمّ يحتاج إلى خطيب يعدّد مناقب الراحل الفقيد كزابوكين ... وقال بولافسكي لزابوكين حينما لقيه :

— إنني آت لأدعوك ... فهيا يا صاح ارتد معطفك واتبعني . لقد مات اليوم أحد زملائي ، وموكب جنازته في طريقه الآن إلى القبر . وليس لنا في مثل هذه الخطوب غيرك . . . ليس لنا من خطيب راثٍ مفوّه سواك ... ثق يا صاح أنه لو كان الميت وضيعاً مركزه لما أزعجتك . ولكنه (الأمين) ... فلا يليق بنا أن نوسده التراب دون ما مراثٍ تلقى أو خطب تقال ...

فتثاءب زابوكين وقال :

— الأمين ؟ آه . أتعني ذلك السكير ؟

— إنه هو ... ولكن لا تنس يا عزيزي أن مأدبة عشاء ستؤدب ، وأجر العربة سيدفع ، هيا يا صاح فما عليك إلا أن تلقي بإحدى خطبك على القبر ... وستلمس بعينيك مدى إعجاب المشيعين بك وتقديرهم لك . . .

فأجاب (زابوكين) طلبه دون ما تردد ولا إحجام . . . وتكلّف الحزن العميق تأهباً لما سيلقي . ثم قال لصاحبه : إنني أعرف (الأمين) .. ذلك الوغد الزنيم . . عليه رحمة الله ! وأدركا الموكب وقد بلغ المقابر ، ووُضع النعش على الأرض ، ووقفت أم الفقيد وزوجه وأختها تذرفان الدمع المتون — تبعاً للعرف — وما إن أنزل النعش في القبر حتى أعولت زوجه وصاحت باكية : دعوني أرحل معه . إلا أنها لم ترحل معه ؛ مع أن أحداً ممن حولها لم يحل دون ذلك . ولعلّ ما حال دون أن تشاركه رمسه ذلك الراتب التقاعدي الذي ستتناوله . أما (زابوكين) فقد سكت حتى شمل الجمع السكون ، فأدار بصره في الحاضرين وبدأ خطبته قائلاً :

يا ترى أبصري وسمعي صادقان ؟! أم إنني أشهد حلماً مرعباً يبدو لي فيه هذا الرمس المظلم الرحيب وهذا الحشد الباكي الحزين ... وا أسفاه ... إنها الحقيقة . فليس ما أراه حلماً ، وليست أبصارنا — ويا للأسف — بخادعة .. إن من كان حتى الأمس يفيض صحة ونشاطاً .. قد مات ووورى في التراب وأصبح ذكرى تستدر الدمع الساخن الغزير . لقد سلبه الردى منا ، وهو لا يزال في عنفوان قوته

وبهائه .. وأوج فتوته ونشاطه .. وإن يك متقدماً في السن ... أية خسارة منينا بها ... من ذا الذي يستطيع أن يحتل مكانه في قلوب عارفيه ... لدينا أيها السادة كثير من الموظفين .. إلا أن (بروكوف أوزبتش) كان جوهرة يتيمة فيما كان يزدهي به ويفخر. وكان — أيها السادة — المثل الأعلى للرجل الكامل الرفيع بخلقه، السامي بنفسيته. لقد كان الفقيد يأبى الرشوة فلم يرتضها يوماً. وكثيراً ما كان يبدي مقته واحتقاره لمن كان يلح عليه في أخذها وتقبلها. لقد كان يرفضها كل الرفض ويزدري ضعاف النفوس ممن كانوا على نقيضه. كما لا أظنكم تجهلون أنه كان يهب راتبه التافه على مشهد منا لزملائه المعوزين. وها أنتم الآن تسمعون بآذانكم نحيب الأرامل والأيامى اللائي كن يعشن من فيض إحسانه. لقد ذهب ذلك الذي وهب حياته للبر، ونذر نفسه للخير، وإنكم لا تعلمون بلاشك — أيها السادة — أنه كان أعزب ولم يزل كذلك حتى وسد التراب .. وإني لأتصوره الآن بوجهه المشرق الحليق وبسمته الحالمة العذبة، ويخيل إلي أنني أكاد أسمع صوته الرؤوف الذي كان يفيض حناناً ويقطر رقة وإخلاصاً. فإلى رحمة الله يا (بروكوف أوزبتش) ... إلى الجنان الخوالد أيها العزيز ... وداعاً أيها الراحل الكريم ...

وكان الخطيب مبدعاً حقاً في إلقائه فأحرز بهذا إعجاب السامعين ... إلا أن العارفين منهم بالميت أدهشهم مما قاله أشياء. ذلك أنهم لم يفقهوا علة ذكر الخطيب اسم الميت على أنه (بروكوف أوزبتش) مع أنه كان (كيريل أفانوفتش). وثانياً أن الكل كان لا يجهل أن الميت قضى حياته في تعكير صفو حياة زوجه، فكيف يقول الخطيب إنه كان عازباً عن الزواج؟ وأخيراً لقد كانت للميت لحية حمراء كثة ولم يك بحليقها ... فلماذا يصفه الخطيب بأنه كان حليقها؟! ... واشتد عجب السامعين وتبادلوا الهمس والنظرات ... وهزوا أكتافهم ساخرين

وتابع الخطيب كلامه: «إي (بروكوف أوزبتش) لقد كان وجهك شاحباً مرعباً ... إلا أننا كنا نعرف أن وراء ذلك قلباً طاهراً نبيلاً ونفساً كريمة».

وما لبث السامعون أن لحظوا على الخطيب دهشة بلغت حد الذهول. فقد اتجه ببصره إلى ركن من الحشد، ثم التفت إلى بولافسكي زائغ البصر، وقال بتهدج: إنه حي!

— من تعني؟!

— بروكوف أوزبتش. إنني أراه واقفاً عند القبر

— ومن قال لك إنه الميت ...؟ إن الذي مات هو (كيريل إيفانوفتش) أيها الأبله ...

— ولكنك قلت لي إن (الأمين) قد مات

— لقد كان (كيريل أفانوفتش) أميناً أيها الأحمق ... لقد حل محل (بروكوف أوزبتش) بعد أن نقل هذا ككاتب في مستهل العام المنصرم

— وأنى لي أن أعرف هذا ولم يسبق لي به علم؟!

— ولماذا توقفت عن خطابك؟ استمر أيها البليد

فأدار زابوكين وجهه شطر القبر وواصل رثاءه وعينا (بروكوف أوزبتش) عالقتان به تحدقان في حنق وغضب ... وما إن انتهى من الدفن وعاد المشيعون حتى أخذ زملاء (زابوكين) يلمطون ... لقد دفنت رجلاً حياً ... وأسرع (بروكوف أوزبتش) إلى الراثي حانقاً ساخطاً: «لا بأس أيها الغبي الأحمق بخطبتك إذا كانت رثاء لميت .. أما أن ترثيني وما زلت حياً فإنها سخرية بي بلينة وتهكماً بخلق فظيع ... لقد قلت إنني لم أقبل الرشوة ولست بذي أغراض ومنافع ... ومثل هذا القول لا يقال عن موظف حي إلا بقصد إدانته واتهامه ... لم يطلب منك أحد أن تصف وجهي بالمخيف المرعب ... إنها إهانة فظيعة سوف ترى مني العقاب عليها»

«بغداد» فيصل عبد الله

الفتنة

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ فخري شهاب السعيدي

كل ذلك مما غبر عليه الزمان البعيد ، فقد كانت هي يومئذ أنضر وأصغر ، وكان عشيقها « نيقولا بيترويتش كولباكو » في زيارتها بدارها في الريف ؛ وكان الجو حاراً مشبعاً بالرطوبة

وكان « كولباكو » قد انتهى من غدائه وشرب زجاجة كاملة من شراب المواني الردىء فلم يكن في حالة من صحة الإدراك جيدة ، وكانت السآمة وقلق البال قد استحوذا عليه وعلى صاحبته فقد كانا ينتظران مقدم المساء اللطيف البارد ليخرجا للنزهة

وبغتة دق جرس الباب ، وكان « كولباكو » قد بقي في قميصه ، فقام من مقعده وتساءل (بنظره) عن القادم فأجابته صاحبته وكان اسمها « باشا » قائلة :

— ربما كان هذا ساعي البريد ، أو بنت إحدى الصديقات

غير أن « كولباكو » لم يبال (ساعي البريد) أو (بنت إحدى الصديقات) المزعومين وإنما تناول (سترته) وذهب إلى الغرفة المجاورة بينا كانت « باشا » ذاهبة لفتح الباب

وما كان أشد دهشتها حين لم تجد الطارق ساعي البريد ولا بنت إحدى الصديقات ، بل كانت سيدة جميلة شابة عليها لباس أنيق من طراز قديم ، وكان منظرها ينم عن طيبة نفس وحسن أخلاق . كانت القادمة شاحبة الوجه ، وأنفاسها ثقيلة كمن نزل من عدة طوابق عالية ، وقد ابتدرتها « باشا » قائلة :

— ماذا تريدين ؟

غير أن السيدة لم تحر جواباً بل دخلت المكان ونفضت أثاثه بنظرة فضول ؛ وكان مظهرها ينم عن ألم في نفسها ، وقد مضت عليها فترة أعدت فيها نفسها للكلام ، فجلست ثم سألت أخيراً رافعة عينيها المحمرتين من البكاء قائلة :

— هل هنا زوجي ؟

فأجابتها « باشا » :

— زوج مَن ؟

وكان قد استولى عليها خوف مباغت بردت له يداها ورجلاها ، ثم كررت سؤالها قائلة في انفعال بيّن :

— زوج مَن ؟

— زوجي أنا « نيقولا بيترويتش كولباكو »

— لا أيتها السيدة ، إني ... إني لم أعرف زوجاً !

ثم مضت فترة صمت بينهما كانت السيدة خلالها تجفف ما كان بعينيها من دموع بمنديل كان بيدها وكانت « باشا » واقفة لا تجسر على الجلوس تنظر إلى الزائرة في ذعر وقلق شديدين ! ثم إن السيدة

سألت « باشا » في صوت هادئ وقد علت شفتيها بسمة فضول قائلة :

— إذاً فقد ذكرت أن زوجي ليس هنا ؟

— لا أفهم قصدك !

فنظرت السيدة إليها في احتقار وهزء ، وغمغمت قائلة : « إنك امرأة سوقية لا خلاق لها ، نعم ... نعم إنك لسافلة حقاً ، وإني لسعيدة إذ أملك وجهك بهذا الآن ! » فشعرت « باشا » بأنها لم تحسن السلوك قط إزاء هذه السيدة وأنها لا بد أن تكون قد آلمتها بشيء وضيع ارتكبته . فخجلت من خديها المصبوغين بصباغ أحمر ومن أنفها الذي كان يعلوه الوشم ، ومن القُصّة[1] المتموجة سهماً على جبينها ، وقد رأت أنها لو كانت نحيفة الجسم ، بلا صباغ ومسحوق وقصة لسهل عليها إخفاء كونها امرأة « رديئة » ، ولقابلتها مقابلة الند للند ولجرؤت على الجلوس على كرسي في جانب المنضدة الآخر ، وقد أعادت السيدة هذا السؤال :

— وأين زوجي ؟ ثم استأنفت قائلة : « على أنه لا بأس من وجوده هنا ، أو من عدم وجوده — سيان — وغاية ما هنالك أنه قد اكتشف لديه اختلاس ، وأنهم الآن يبحثون عنه لإلقاء القبض عليه ، وتبعة ذلك كله إنما تقع عليك وحدك ! »

ثم إن السيدة قامت فمشت في الغرفة وقد اشتد هياجها ، وكانت « باشا » ترقبها في دهشة واستغراب فما كانت تستطيع أن تفهم شيئاً من كل ذلك . ثم قالت السيدة :

— سيجدونه اليوم وسيقبضون عليه ! وإني لأعرف مَنْ ذا الذي قاده إلى ذلك كله ، ذلك هو أنت ... أيتها السوقية القبيحة ! أنت أيتها المخلوق السافل ! ... وكانت أمارات وجهها تعبر عما في نفسها من شعور نحو « باشا » بل كان منظرها يدل على أنها كانت تود أن لو بصقت في وجهها ، ثم أردفت :

— إني ضعيفة ، أتسمعين أيتها النقطة ؟ إني عاجزة لا حيلة لي وأنت أشد مني قوة ؛ غير أن هنالك من سيحميني بأطفالي . إن الله بكل شيء بصير ! إنه عدل وسيجزيك على ما أذرفت من دمعي ، وعلى ما حرمتني من نوم ليالٍ طويلة بما تستحقين ! وسيجيء الوقت الذي فيه تذكرينني . ثم إن السكون العميق خيّم تارة أخرى طويلاً ، وكانت السيدة تخطر في الغرفة بينما كانت « باشا » تطيل فيها النظر غير فاهمة شيئاً ، وكانت تتوقع — في كل لحظة — حدوث شيء مخوف . هنالك بدأت « باشا » الكلام قائلة :

— إني لا أعرف شيئاً عن كل هذا أيتها السيدة ! قالت ذلك وأجهشت بالبكاء المرّ من قلب كسير . فردت عليها السيدة تقول :

— إنك لتكذبين ، إني لأعرف كل شيء ، لقد عرفتك من أمد بعيد ، وقد جاءني أنه لم يمض يوم واحد من الشهور الأربعة البارحة لم يقضه زوجي معك !

---

(١) القصة : خصلة الشعر المقصوصة بشكل خاص تعلو الجبهة وتتدلى على الجبين

— نعم ، وأى شىء فى ذلك ؟ أى شىء تنكرين ؟ إن هنالك جمهرة تجىء إلىّ وتخرج للزيارات معى ، وما كنت التي أجبرتهم على المجىء إلىّ وإنما هم يأتون بمحض رغبتهم

— أقول لكِ إنهم قد اكتشفوا اختلاساً لديه ؛ لقد اختلس من دائرته من أجلك أنت ، من أجل امرأة مثلك قارف ذنبه ! فأصغى إلىّ . ثم إن السيدة قامت — قبل إتمام كلامها — فوقفت أمام « باشا » واستأنفت ما قطعت قائلة :

— لستِ يا هذه من صاحبات المبادئ فإن من دأبك إيذاء غيرك وذلك كل بنيتك التي تريدين ! إلا أنى لا أستطيع أن أصدق أنك امرأة أضعتِ كل شىء حتى ومضات الإنسانية الأخيرة . إن عنده — يا هذه — زوجاً وبنين ! فلو أنهم حكموا عليه بالإبعاد إلى سيبريا فإنى والأطفال سنموت حتماً من الجوع ! حاولى أن تتفهمى هذا ، غير أن هنالك طريقاً ما تزال أمامنا تنقذنا من البؤس والحطة ، فلو أنى اهتديت إلى « تسعمائة روبل » اليوم فإنه لن يحاكم ... تسعمائة فقط !

فسألتها « باشا » فى هدوء :

— تسعمائة روبل فقط ؟ إنى لا أعرف عن هذا المبلغ شيئاً

— إنى لا أستجدى منك تسعمائة روبل ، فليس لديك أنت نقود ، ولا أنا بحاجة إلى نقودك ، وإنما أسأل عن شىء يختلف عن ذلك تمام الاختلاف ، فقد اعتاد الرجال إعطاء أمثالك من الفتيات حلياً ، فأعيدى إلىّ ما كان أعطاك زوجى

فصرخت « باشا » وقد أدركت قصد السيدة :

— ما أعطانى شيئاً من حلى ، أيتها السيدة !

— فأين هى النقود إذاً ؟ لقد بذّر نقوده ونقودى ونقود آخرين غيرنا ، فأصغى إلىّ ، لقد أفرطت إذ نعتك بكثير مما لا يليق ولكنى أستغفرك . إنه لا شك فى أنك تكرهيننى ، إنى أدرى ، غير أنك إن كنت رحيمة فحاولى أن تتفق موقفى ؛ أتضرع إليك أن تعيدى لى الأشياء !

هنا هزت « باشا » كتفيها وقالت :

— حسن ، سأفعل ما أردت فى سرور ، ولكن هل ترين الله سيعاقبنى إن كانت هذه الحلى هدايا قدمها — هو — لى ؟ فأرجو أن تصدقينى ... إنك على حق ... وأوشكت أن تمضى فى الكلام لولا أنها استدركت وقالت :

— لقد جاءنى مرة بهاتين الحليتين اللتين أعيدها إليك الآن فى سرور إن رضيت

قالت ذلك وفتحت خزانة ثياب وسلمت إلى ضيفتها سواراً وخاتماً صغيراً فيه فص أحمر . فثارت السيدة ، وقالت وقد تجهم وجهها وظهرت عليه آثار الاستياء :

— ما هذا الذى تعطيننى ؟ إنى لا أسألك صدقة ولا إحساناً ، بل أسألك عن أشياء ليست ملك يمينك ، أغريت زوجى — ذلك المخلوق التاعس البائس فسلبته إياها ، أنت التي تعرفين كيف تكون الاستفادة فى مثل هذه الأحوال . لقد كنت يوم الخميس البارح ، يوم رأيتك مع زوجى فى الشارع متحلية بأثمن الخواتم والدبابيس وما أريدك أن تمثلى لنفستى دور حمل وديع ! إنى لأسألك آخر مرة : هل ستعيدين إلى تلك الحلى أم لا ؟

فساء كلامها « باشا » فأجابتها قائلة :

— ما أسخفك ! أؤكد لك أن زوجك نيقولا بترويتش ما أعطانى سوى هذا السوار وهذا الخاتم . وشىء آخر هو الكعك الذى كان يأتينى به !

فاستضحكت السيدة فى صوت متهدج وقالت :

— الكعك ؟ إن أطفاله فى الدار لا شىء عندهم يطعمونه ، وأنت هنا يولم لك على الكعك ؛ إذاً فأنت مصرة على عدم إعادة الحلى ؟ .

غير أنها لم تتلق من « باشا » جواباً فجلست على كرسى صريع هزاز وأثبتت نظرها فى نقطة واحدة وظلت تفكر ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

— ما العمل ؟ إذا لم أستطع الحصول على هذا المبلغ من المال فإننا حينئذ من الهالكين أنا وهو والأطفال معنا ، أأقتل هذه المخلوقة الفظة أم ترى أن من الخير أن أركع أمامها ؟ ! ثم إن السيدة وضعت المنديل على وجهها وأخذت فى الانتحاب ! ثم وجهت خطابها إلى « باشا » قائلة فى حسرة :

— أتوسل إليك ، لقد هدمت كياننا ، أتلفت زوجى ، وخربت حياته فأنقذيه ، إنى أدرى أنك لا تعطفين عليه ، ولكن فكرى فى صبيته الصغار ما ذنب هؤلاء الأطهار فى تحمل الشقاء ؟

ففكرت « باشا » ، وخيل إليها أن أولئك الصغار الآن على قارعة من قوارع الطرق يتضورون جوعاً وأن أمهم معهم تشاركهم فى العويل ! فقالت تسائل السيدة فى حنو وضعف ظاهرين :

— وماذا أستطيع أن أعمل يا أيتها السيدة العزيزة ؟ لقد قلت إننى وحش وإنى قضيت على نيقولا بيترويتش ، ولكنى أقسم لك ، وأشهد الله على أنى لم أجن منه مالاً ؟ بل إنه ليس فينا — نحن جماعة القيان — من لها حبيب غنى غير « موتجا » وأما نحن الأخريات فإنا نقاسى مرارة الجوع نصف أعمارنا ! إن نيقولا بيترويتش فتى أنيق لطيف المعشر وذلك ما دعانى إلى قبوله صديقاً . إننا قل أن نكون مدققات فى اختيارنا الصحاب !

— إنى لا أسألك غير تلك الحلى . أعيديها إلى . إنى أستصرخك وأضع نفسى أمامك ، وإن شئت فسألقى بنفسى على قدميك ، فأرجوك ... أرجوك»

فصرخت « باشا » رعباً واستنكاراً وشعرت أن هذه السيدة الحسناء التى كانت تتكلم بلهجة البطلة على المسرح على استعداد للانحناء على قدميها بكل ما أوتيت من ملكات الفخر والنبل لتذل نفسها أمامها ، ولتذلها — هى أيضاً — بذلك . ثم إنها قالت للسيدة وهى تجفف دموعها فى صوت مبحوح :

— حسن ، سأعطيك الحلى ، وأرجو ألا تظنين أنها من زوجك نيقولا بيترويتش وإنما كنت أخذتها من أخيار آخرين . وفتحت « باشا » الخزانة تارة أخرى وأعطت للسيدة دبوساً ماسياً وبضعة خواتم وعقود قائلة :

— خذى هذا أيضاً ، وهذا ، إنها ليست من زوجك ! خذيها جميعاً واجعلى بها من نفسك غنية من الغنيات — قالت كل ذلك متأثرة بما رأت من محاولة السيدة الانحناء على قدميها ! ثم قالت تستأنف كلامها : « وإذ كنت فى مثل هذا اللطف فعليك أن تحتفظى بزوجك خالصاً لنفسك ، وتعملى على ذلك فما أنا التى دعته إليها ، وإنما هو الذى جاء »

فنظرت السيدة من خلال دموعها إلى تلك الحلى المنثورة على المنضدة وقالت: «ليست هذه كل الحلى. إن قيمة كل هذا لا تعدل خمسمائة روبل!» فذهبت «باشا» إلى خزانتها بسرعة ورمت لها بساعة ذهبية، وعلبة سكائر وزرين مما تُزَرّ به الأكمام، وما إلى ذلك من أشياء، ثم قالت وقد تأثر صوتها بقوة عزم ظاهرة: «إني لا أملك غير ما ترين شيئاً وإنك تستطيعين التأكد بنفسك!»

فتحسرت السيدة وجمعت تلك الحلى ووضعتها في منديلها وخرجت لا تنبس ببنت شفة، بل إنها لم تحن رأسها تحية توديع! وهنالك فُتح الباب الموصل إلى الغرفة المجاورة وظهر نيقولا كوليا كو وكان شاحب الوجه، يهز رأسه في حركة عصبية كأنه قد جرع جرعة من شراب مر المذاق، وكانت الدموع تترقرق في عينيه، فابتدرته «باشا» قائلة:

— ما هي تلك الأشياء التي زعمَ أنك قدمت إليّ؟ وإذا كان يحق لي أن أسأل فتى كان هذا؟

فأجابها كوليا كو هازًّا رأسه:

— أشياء؟ إنما هذا هذيان! يا إلهي! أتراها قد انتحبت أمامك؟ وأذلت نفسها؟

فصرخت «باشا»:

— إني أسألك عن تلك الهدايا التي يقال إنك قد قدمت إليّ، ما هي؟

— إلهي! تلك النقية النبيلة الفخور تكاد ترتمي على قدمي هذه المخلوقة؟ إنما جاءت بها إلى هنا أعمالي! أنا الذي أقررت ذلك!

ثم إنه أسند رأسه إلى يديه وأنّ قائلاً:

لا . . . لن أغتفر لنفسي ذلك، اغربي (أيتها الوحش عن وجهي) قال ذلك ورمى «باشا» بنظرة احتقار بينما كانت يداه المرتجفتان تشيران إليها بالابتعاد عنه

آه. لقد أوشكت أن ترمى نفسها عند قدميها، وعند قدمي مَنْ؟ عند قدميك أنتِ؟ ويلاه! آه ... يا إلهي!

ثم إنه أسرع فارتدى ثيابه وخرج من الدار متجنباً أن تمس «باشا» يديه!

فلما خرج طرحت «باشا» نفسها فوق كرسي وأخذت تبكي في صوت رفيع. لقد كانت آسفة لأنها أعطت حليها

ولقد كان منظراً بشعاً كريهاً ذلك الذي شاهدته! إنها قد تذكرت الآن كيف أن أحد التجار كان قد غلبها من ثلاث سنوات لغير ما سبب فأجهشت بالبكاء أكثر من ذي قبل! ...

فخرى شهاب السعيدى
(بغداد)



في إحدى ليالي الخريف المظلمة كان المول العجوز يذرع حجرة مكتبه من ركن إلى آخر ، وهو يستعيد في ذهنه ذكرى المأدبة التي أقامها في الخريف لخمسة عشر عاماً خلت . كانت المأدبة تضم كثيراً من نوابغ القوم تدور بينهم أحاديث ممتعة شتى . ومال بهم الحديث إلى الكلام عن عقوبة الإعدام ، فلم يقرها أكثر الضيفان ، وكان بينهم غير قليل من الأدباء والصحافيين ، واعتدوها عقوبة باطلة همجية لا تليق بدولة مسيحية . ورأى بعضهم أن هذه العقوبة يجب إبدالها في جميع أنحاء العالم بالسجن المؤبد .

فقال المضيف : « أنا أخالفكم في هذا الرأي . ولو أنه لم يسبق أن حكم عليّ بالإعدام أو بالسجن المؤبد ، ففي اعتقادي أن عقوبة الإعدام أرق وأرحم من السجن . فالإعدام يقتل فوراً ، أما السجن المؤبد فيقتل تدريجياً. فأي الجلادين أرحم : الذي يقتل في ثوان معدودة ، أم الذي يستل الحياة على الدوام في عدة سنين ؟ »

فأجاب أحد الضيفان : « كلاهما متوحش ، لأن غرضهما واحد وهو انتزاع الحياة . إن الدولة ليست الله . وليس لها الحق في انتزاع مالا يمكنها استرداده عندما تشاء »

وكان في الرفقة محام شاب يناهز الخامسة والعشرين ، فلما سئل رأيه قال : « الإعدام والسجن المؤبد كلاهما عمل همجي . لكن إذا خيرت بين أحدهما فلا شك أني أختار الثاني. فلأن تعيش على وجه ما خير من ألا تعيش قط »

ثم احتدمت المناقشة ، وكان المول يومئذ أصغر سناً وأحد مزاجاً ، فخرج عن طوره فجأة وجعل يضرب المنضدة في عنف بقبضة يده ثم اتجه للمحامي الشاب صائحاً : « أنت تكذب . وإني أراهنك بمليونين إن استطعت أن تلزم حبساً ولو لمدة خمسة أعوام »

فأجاب المحامي : « إذا كنت جاداً فيما تقول فإني أراهن أن أمكث فيه لا أعواماً فقط ، ولكن خمسة عشر عاماً»

فصاح المول : « خمسة عشر ! فليكن ! أيها السادة إني أراهن بمليونين »

فقال المحامي : « موافق . أنت تراهن بمليونين وأنا أراهن بحريتي »

وهكذا جرى هذا الرهان الوحشي المضحك . واستطير المول فرحاً ، إذ كان في ذاك الوقت يملك ملايين كثيرة ، وكان متلافاً ذا بدوات وأهواء .

قال للمحامي أثناء العشاء مازحاً : « تدبر الأمر ملياً أيها الشاب قبل فوات الوقت . إن مليونين لا قيمة لها عندي ، ولكنك ستخسر ثلاثة أو أربعة

أعوام من أحسن سنى عمرك . أقول ثلاثة أو أربعة أعوام لأنك لن تستطيع الاحتيال على نفسك أكثر من ذلك . ولا تنس – أيها التعس – أن السجن الاختيارى أبهظ على النفس من الإجبارى ، لأن الاعتقاد بأنك فى حل من إخلاء نفسك فى أى وقت يسمم كل حياتك فى الحبس . إنى أرثى لك »

تذكر المول كل هذا وهو يروح ويجيء من ركن إلى آخر ثم تساءل : « لم أجريت هذا الرهان ؟ ما الفائدة ؟ المحامى يضيع خمسة عشر عاماً من حياته وأنا ألقى بمليونين سدى ... هل هذا سيقنع الناس أن عقوبة الإعدام شر أو خير من السجن مدى الحياة ؟ كلا . كلا ! كله عبث وهراء ، كان من جانبى هوى رجل أبشمه الثراء ، ومن جانب المحامى شدة شراهة للذهب »

وتذكر غير ذلك مما حدث بعد المأدبة . فقد تقرر أن يقضى المحامى مدة السجن تحت أدق مراقبة فى جناح من حديقة منزل المول . واتفق أن يحرم على المحامى طيلة المدة ، عبور العتبة ، ورؤية الناس الأحياء ، وسماع الأصوات البشرية ، واستلام الرسائل والصحف . وسمح له باقتناء آلة موسيقية ، وقراءة الكتب ، وكتابة الرسائل ، وشرب النبيذ ، وتدخين التبغ . وتيسر له حسب الاتفاق أن يتصل بالعالم الخارجى ، فى صمت فقط ، خلال نافذة صغيرة أنشئت لهذا الغرض ، كما تسنى له الحصول على كل ما يلزمه من كتب وقطع موسيقية ونبيذ بأى قدر كان ، وذلك بإرسال مذكرة من النافذة . وألم الاتفاق بكافة التفاصيل الدقيقة التى جعلت الحبس فى منتهى العزلة والانقطاع وألزمت المحامى أن يمكث خمس عشرة سنة كاملة من الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤ نوفمبر سنة ١٨٧٠ إلى الساعة الثانية عشرة من ليلة ١٤ نوفمبر سنة ١٨٨٥ ، حتى إذا ما قام بأدنى محاولة لنقض الشروط أو الهرب ولو قبل انتهاء المدة بدقيقتين فقط ، فإنها تعفى المول من دفع المليونين

فى غضون السنة الأولى من الحبس قاسى المحامى — حسب ما أمكن معرفته من مذكراته القصيرة — أهول عذاب من الوحدة والسأم ، وكان يصدر صوت البيانو من جناحه نهاراً وليلاً ، وأقلع عن التبغ والنبيذ ، فقد كتب : « إن النبيذ يثير الشهوات ، والشهوات ألد أعداء السجين . وفوق ذلك فليس هناك ما يضجر أكثر من شرب النبيذ الجيد على انفراد » كما كان التبغ يفسد هواء حجرته . وأرسلت إليه فى السنة الأولى كتب خفيفة سهلة الهضم كالروايات الغرامية وقصص الجرائم والخيال والمهازل وما إليها

وفى السنة الثانية لم يعد يسمع البيانو ، ولم يطلب المحامى سوى كتب الآداب الرفيعة . وفى السنة الخامسة سمعت الموسيقى ثانية وطلب السجين نبيذاً . وقال الذين يراقبونه : إنه طيلة هذا العام لم يكن يعمل إلا أن يأكل ويشرب ويرقد على الفراش . وكان غالباً يتثاءب ويكلم نفسه بغضب ، ولم يعد يقرأ الكتب ؛ وكان أحياناً يجلس فى الليل ليكتب . وقد يكتب زمناً طويلاً وفى الصباح يمزق كل ما كتب . وسمع أكثر من مرة وهو يبكى

وفى النصف الأخير من السنة السادسة ، شرع السجين يدرس بهمة اللغات والفلسفة والتاريخ ، وانكب على هذه المواضيع بنهم حتى أن المول لم يجد الوقت الكافى لتزويده بالكتب اللازمة . وفى مدى أربع سنوات اشترى له بناء

على طلبه زهاء ستمائة كتاب . وفى إبان هذا الحماس وصل الممول من السجين الكتاب الآتى « سجانى العزيز ، أكتب إليك هذه السطور بست لغات . فاعرضها على الخبراء ليقرؤوها ؛ فإن لم يعثروا فيها على غلطة واحدة ، أرجو أن تصدر أوامرك بإطلاق بندقية فى الحديقة . وسأعرف على صوتها أن مجهوداتى لم تذهب هباء . إن العبقريات فى كل عصر ومصر تتكلم بألسنة مختلفة ، ولكنها جميعاً تتقد فيها شعلة واحدة . أوه ! ليتك تعلم كم أنا سعيد إذ أستطيع فهمها الآن ! »

وحققت رغبة السجين فقد أطلقت فى الحديقة طلقتان بأمر الممول .

وبعد السنة العاشرة كان المحامى يجلس دون حراك إلى المنضدة ، ولا يقرأ سوى الإنجيل . واستغرب الممول من الرجل أن يقرأ فى أربع سنوات ستمائة مجلد فى كافة العلوم والمعارف ، ويسلخ قرابة عام فى قراءة كتاب واحد سهل الفهم صغير الحجم . ثم خلف الإنجيل بعد ذلك كتب فى اللاهوت ، وتاريخ الأديان .

وفى خلال السنتين الأخيرتين من الحبس كان السجين يقرأ خليطاً عجيباً حسبما اتفق . فتارة ينقطع للعلوم الطبيعية ، وطوراً يقرأ بيرون وشاكسبير ، وفى نفس الوقت كانت ترد منه مذكرات يطلب فيها إما كتاباً فى الكيمياء أو كتاباً فى الطب ، أو رواية ، أو رسالة فى الفلسفة أو اللاهوت . كان يقرأ كأنه يسبح فى بحر بين حطام سفينة غريقة وهو يتعلق بقطعة بعد أخرى محاولاً إنقاذ حياته .

تذكر الممول كل هذا ثم قال فى نفسه : « غداً فى الساعة الثانية عشر ليلاً يسترد حريته ، وسألزم بدفع مليونين له تنفيذاً للاتفاق . فإذا دفعت فعلى العفاء . سيقضى علىّ إلى النهاية ... »

منذ خمسة عشر عاماً مضت كان لديه ملايين لا عداد لها ، أما الآن فهو يخشى أن يسأل نفسه أيهما أكثر: نقوده أم ديونه؟ فإن المقامرات فى سوق الأوراق المالية ، والمضاربات المجازفة والتهور الذى لازمه حتى بعد تقدمه فى السن ، كل أولئك سارت بأعماله فى طريق الانحلال والتدهور ، ولم يعد رجل الأعمال الأمين الواثق بنفسه ، المتشامخ ، سوى ممول عادى يرتجف لأى صعود أو هبوط فى السوق

غمغم الرجل العجوز وهو يمسك برأسه فى قنوط : « تباً لهذا الرهان اللعين ، لماذا لم يمت هذا الرجل ؟ إنه لم يزل فى الأربعين من عمره ، وسوف يستولى على آخر دانق أملكه ، فيتزوج وينعم بالحياة ويقامر فى السوق وسأرمقه بنظرة الشحاذ الحسود وأسمع منه نفس هذه الكلمات كل يوم « وأنا مدين لك بسعادة حياتى . دعنى أساعدك . » كلا ، هذا كثير للغاية ! الوسيلة الوحيدة للتخلص من الإفلاس والعار — هى أن يموت هذا الرجل .

وكانت الساعة وقتئذ قد دقت الثالثة صباحاً ، والممول يرهف السمع وقد نام جميع من فى المنزل ، ولم يكن يسمع سوى أنين الأشجار المتجمدة خارج النوافذ ...

أخذ من خزانته وهو يحاذر ألا يحدث صوتاً ، مفتاح ذلك الباب الذى لم يفتح منذ خمسة عشر عاماً

ثم تدثر بمعطفه وخرج من المنزل . كانت الحديقة حالكة الظلمة باردة ، والسماء تمطر ، والريح المخضلة تعوى بشدة ولا تدع الأشجار تقر على قرار . ورغماً من أنه أنعم النظر فلم يستطع أن يتبين لا الأرض ولا التماثيل البيضاء ولا جناح الحديقة ولا الأشجار . وعند ما اقترب من جناح الحديقة نادى الحارس مرتين فلم يتلق أى جواب ، فلا ريب أن الحارس قد لجأ إلى مأوى يعصمه من رداءة الطقس وأنه يغط الآن فى النوم فى مكان ما بالمطبخ أو بمكان آخر

ففكر الرجل العجوز : « إذا واتتنى الشجاعة لتحقيق نيتى فستحوم الشبهة حول الحارس أولاً »

وجعل يتحسس فى الظلام درجات السلم والباب حتى دخل بهو جناح الحديقة فأخذ يتلمس طريقه فى ممر ضيق ، ثم أشعل عود ثقاب . لم يكن هناك أحد ، وإنما كان هناك سرير عار من الأغطية وموقد من الحديد مظلم قائم فى أحد الأركان . وكانت الأختام المطبوعة على الباب الذى يؤدى لحجرة السجين غير مفضوضة

وحينما نفدت أعواد الثقاب تطلع الرجل العجوز خلال النافذة الصغيرة وهو يرعد من القلق

كانت فى حجرة السجين شمعة ترسل ضوءاً خافتاً وكان السجين نفسه جالساً إلى المنضدة لا يرى منه سوى ظهره وشعر رأسه ويديه ، وقد تناثرت كتب مفتوحة فوق المنضدة والمقعدين وعلى البساط القريب من المنضدة

مرت خمس دقائق لم يتحرك السجين خلالها قط فقد علمته الخمس عشرة سنة أن يجلس جلوس الجماد فطرق المول النافذة بأصبعه لكن السجين لم يبد أية حركة . وعندئذ فض المول أختام الباب فى حذر ثم أولج المفتاح فى القفل الصدئ فخرجت منه أنة مبحوحة وصر الباب . وفى الحال توقع المول أن يسمع صرخة فزع ووقع أقدام ، لكن مضت ثلاث دقائق والهدوء شامل الحجرة كما كان من قبل فعقد العزم على الدخول

أمام المنضدة جلس رجل لا يشابه الرجل البشرى العادى فى شىء . كان هيكلاً عظمياً مشدود الإهاب ذا شعر طويل معقوص كشعر المرأة ، ولحية كثة . وكان لون بشرته شاحباً تعلوه غبرة ، وخداه غائرين ، وظهره مستطيلاً ضيقاً ، ويده التى أراح فوقها رأسه الشعراء من شدة الهزال والضمور بحيث يبعث منظرها الألم فى النفس ، أو شعره يلتمع فيه بياض المشيب . وكان من المستحيل أن يصدق من ينظر إلى نحافة الشيخوخة البادية على الوجه أن صاحبه لم يزل فى الأربعين من عمره ، وعلى المنضدة ، أمام رأسه المائل ، وضعت رقعة من الورق عليها كتابة بخط دقيق

قال المول فى نفسه «يا للشيطان المسكين . إنه نائم ولا يبعد أنه يحلم بالمليونين . ليس على إلا أن آخذ هذا المخلوق نصف الميت وألقى به على الفراش وأكتم أنفاسه لحظة بالوسادة ، ولن يستطيع أدق فحص بعد ذلك أن يستدل على أنه مات ميتة غير طبيعية . لكن لنقرأ أولاً ما كتبه ها هنا »

تناول المول الرقعة من على المنضدة وقرأ « غداً فى الثانية عشرة ليلاً سأسترد حريتى وحقى فى مخالطة الناس ، ولكن قبل أن أغادر هذه الحجرة وأشاهد الشمس أرى من اللازم أن أقول لك بضع كلمات : إنى أقر لك أمام ضميرى النقى وأمام الله الذى يرانى أنى أحتقر الحرية ، والحياة ، والصحة ، وجميع ما تدعوه كتبك نعم الدنيا

« أمضيت الخمسة عشر عاماً وأنا عاكف على دراسة الحياة الدنيوية . والواقع أنني لم أكن أعرف العالم ولا الناس ، ولكن فى كتبك نهلت سلافاً عطراً ، وشدوت الأغانى ، وصدت الظباء والوحوش فى الغاب ، وعشقت النساء ... وكانت توافينى ليلاً حسان كأنهن سحب أثيرية ، قد أبدعتهن عبقرية شعرائك ، فيهمسن إلىّ بقصص عجيبة تسكر رأسى . فى كتبك صعدت قمتى إلبروز ومونت بلان ، ورأيت من ثمة مطلع الشمس فى الصباح ومغربها عند الأصيل وقد خضبت بأرجوان الذهب السماء والبحر ورؤوس الجبال . رأيت من ثمة البرق يخفق فوق ويشق الغمام ؛ رأيت آجاماً خضراء ، وحقولاً غناء ، ومدائن فيحاء ، وأنهاراً دافقة ، وبحيرات خافقة ؛ سمعت غناء الحوريات وترنيم رب الرعاة على المزمار ؛ لمست أجنحة الملائكة الجميلة التى أتتنى طائرة لتحدثنى عن الله ...

« فى كتبك ألقيت بنفسى فى هوات سحيقة ، وأتيت بالمعجزات ، وأحرقت مدناً عن آخرها ، ودعوت إلى أديان جديدة ، وأخضعت أقطاراً بأكملها ...

« علمتنى كتبك الحكمة . إن عصارة كل ما أبدعه الفكر الإنسانى خلال الأجيال قد تجمعت فى جمجمتى . وأنا واثق تماماً أنى أكيس وأقدر منكم جميعاً

« بل وإنى أيضاً لأحتقر كتبك وأحتقر جميع النعم الدنيوية والحكمة . كل شىء باطل واه وهمى خادع كالسراب . قد تكون متكبراً حكيماً جميلاً ، ومع ذلك يأتى الموت فيمحوك من على وجه الأرض كالحشرة ولا يبقى من ذريتك وماضيك وعباقرتك الخالدين إلا رماد يختلط بالأرض . أنت مجنون ضللت سواء السبيل ، تحسب الزيف صدقاً والقبح حسناً . إنك لتعجب إن تدلت فجأة من الأشجار ضفادع وزواحف بدلاً من الثمار ، وإن فاحت من الورد رائحة حصان عرق مكدود . وهكذا أعجب لك أنا أيضاً أنت الذى بعت الآخرة بالدنيا ، لست أريد أن أفهمك

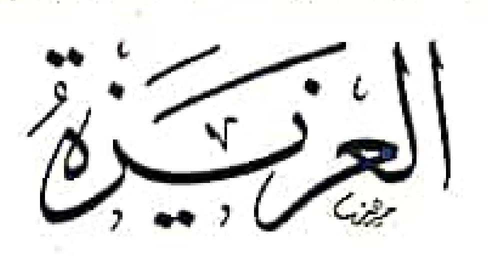
« ولكى أريك فعلاً مبلغ ازدرائى ما تعيش به ، فإنى متنازل عن المليونين اللذين كنت أحلم بهما قديماً كما أحلم بالجنة ، فأصبحت أحتقرهما الآن . ولكى أجرد نفسى من حق فيهما ، سأخرج من هنا قبل الموعد المتفق عليه بخمس دقائق وبهذا ينقض الاتفاق »

فلما أتم الممول قراءة الرقعة وضعها على المنضدة وقبل رأس هذا الرجل الغريب ثم أجهش بالبكاء

خرج من الجناح ولم يشعر فى أى وقت مضى ، حتى عقب خسائره الشنيعة ، بمثل هذا الاحتقار لنفسه . فلما بلغ المنزل تهالك على فراشه ، غير أن اضطرابه ودموعه نفرت عنه النوم مدة طويلة .

وفى صباح اليوم التالى أقبل إليه الحارس يعدو فأخبره أن الرجل الذى يقيم بالجناح شوهد يتسلق النافذة ويهبط منها إلى الحديقة ، ثم ذهب من البوابة واختفى . فتوجه الممول لوقته إلى الجناح مع الخدم وأثبتوا فرار السجين . وتلافياً للتخرصات والإشاعات أخذوا ورقة التنازل من على المنضدة ، وعند عودته أغلق عليها خزانته .

محمد حسين محمد



للكاتب الروسي انطون تشيكوف
بقلم الأستاذ حنفي محمود جمعة

كانت تجلس أولينكا ابنة بليميانيكوف الموظف المحال على المعاش في حديقة منزلها وهي غارقة في التفكير

كان الجو حاراً والذباب مزعجاً ولكن كان يريح الإنسان أنه يشعر بقرب حلول المساء؛ وراحت تتجمع في المشرق سحب محملة بالأمطار جعلت الهواء كثيفاً مملوءاً بالرطوبة. وهناك وقف في وسط الحديقة ذلك الفتى « كوكين » مدير المسرح الطلق الهواء الذي يسمونه التيفولي

وهو يقيم في المنزل نفسه. وقال يائساً وهو يتأمل صفحة الكون : « ستمطر السماء ثانية . المطر كل يوم. إن الطبيعة تريد دماري . سوف أشنق نفسي . إنه الهلاك . خسائر فادحة كل يوم »

ثم لوح بيده ومضى يوجه حديثه إلى أولنكا :

« إليك الحياة التي نحياها يا أولنكا بليميا نيكوف أليست هذه الحالة كافية لأن تجعلنا نجأر بالشكوى؟ إن إنساناً يعمل كل ما تسعه الطاقة ويجهد نفسه غاية الجهد ويقضي الليل ساهد الطرف وهو يكد ذهنه باحثاً عن خير الوسائل للإتقان ثم ماذا يكون جزاؤه ؟

أول ما نصطدم به جمهور جاهل غبي . إني أقدم لهم أحسن الروايات وممثلين من الدرجة الأولى ولكن أتحسبين أن هذا هو ما يطلبونه ؟ إنهم لا يتذوقون الفن الصحيح بل يودون مهرجاً ويرغبون متعة رخيصة . ثم هذا الطقس الملون أيضاً . إنها لا تمطر إلا مساء وقد بدأت هذه الحال في العاشر من مايو وظلت هكذا في مايو ويونيو . هذا مخيف في الوقت الذي لا يقبل فيه الجمهور على مسرحي . مطلوب مني أن أدفع الإيجار ومرتبات الممثلين »

وتجمعت السحب في مساء اليوم التالي فقال كوكين وهو يضحك ضحكة عصبية : « فلتمطري أيتها السماء ، فيضي على الحديقة ، أغرقيني . تباً لهذا الحظ العاثر في الدنيا والآخرة . فليشنقني الممثلون وليذهبوا بي إلى السجن أو إلى سيبيريا أو إلى ساحة الإعدام . ها . ها . ها »

ثم كان اليوم التالي والحال لا يتبدل

كانت أولنكا تصغي إلى كوكين في صمت حزين بل كانت تتبادر الدموع إلى مآقيها. وقد لمست هذه المتاعب وتراً حساساً في نفسها مما جعلها تغرم به

لقد كان رجلاً نحيلاً ضئيلاً ذا وجه أصفر تهفو على جبهته خصلات من الشعر، وإذا تحدث فني صوت موسيقي رفيع فيتحرك فمه من جهة جانبية واحدة. وكانت تلوح على محياه دائماً علامات اليأس إلا أنه برغم هذا أثر في نفسها تأثيراً بيناً

إنها كانت ترغب دائماً أن تحب إنساناً ما ولا يمكنها أن تحيا بغير الحب

في صغرها أحبت أباها الذي يجلس الآن في غرفة مظلمة يتنفس في عسر

ثم أحبت خالتها التي كانت تزورهم العام بعد

العام . ولما كانت فى المدرسة أحبت معلمة اللغة الفرنسية . هى فتاة طريفة رقيقة القلب سريعة التأثر ذات عينين وديعتين وصحة جيدة ، وكان المتحدث إليها يقول فى نفسه حينما يلمح منها خدين فيهما حمرة وردية فاتنة ورقبة بيضاء ناعمة وابتسامة بريئة ساذجة: (لا بأس بها) بينما كانت النساء إذا ماجلسن إليها يبادلنها الأحاديث لا تملك الواحدة منهن نفسها من القبض على يدها فى منتصف الحديث ، وتقول فى غبطة لطيفة: (أيتها العزيزة). لقد كان المنزل الذى تقطنه والذى تمتلكه بطريق الوصية عن والدها يقع فى أقصى المدينة بالقرب من مسرح التيفولى فكانت تستمع فى الأمسيات والليالى أنغام الفرقة الموسيقية وأزيز الألعاب النارية فتقول فى نفسها إن هذه الأصوات إنما هى صوت كوكين فى عراكه مع القدر أو سخطه على ذلك العدو الألد، ألا وهو جمهور النظارة الجاهل . إنها كانت تحس برعشة صريحة تختلج فى صدرها. وضعفت رغبتها فى النوم . وكانت تظل ساهرة تنتظر عودته إلى المنزل فى الصباح المبكر فتطرق نافذة غرفتها طرقات رقيقة ولا يبدو منها من وراء الزجاج غير رأسها وجزء من كتفها فتحييه بابتسامة عذبة . عرض عليها الزواج فقبلت . وحينما أصبح من حقه أن يشاهدها عن كثب ورأى منها رقبة عاجية وكتفين جميلتين أحاطها بذراعيه وهو يقول : (أيتها العزيزة)

لقد كان سعيداً ؛ إلا أن السماء ظلت تمطر نهاراً وليلاً يوم الزفاف فجعلته حزين النفس تعلو صفحة وجهه علامات اليأس

عاشا معاً سعيدين ، واعتادت أن تجلس فى مكتبه لتدير شئون المسرح: تدون الحساب وتدفع الأجور ، وكان خداها المتوردان وابتساماتها المضيئة العذبة الساذجة تتراءى خلف نافذتى المكتب أو فى مشرب المسرح ، أو وراء الكواليس ، وكانت إذا تحدثت إلى صاحباتها تقول إن المسرح أهم شىء فى الحياة؛ وإن الرواية الدرام وحدها هى سبيل المسرة والتثقيف إذ تتجمع فيها معانى الإنسانية .

ثم تستدرك فى حديثها وتقول : ولكن هل تظنين أن الجمهور يعقل هذا ؟ إنهم لا يريدون إلا التهريج. لقد عرضنا أمس قصة (فاوست) فكانت جميع المقاصير خالية ، فلو أن كوكين وأنا قدمنا للجمهور بضاعة رخيصة فإنى أوكد لك أن المسرح يمتلىء على سعته . غداً سيقدم كوكين وأنا رواية (أورفياس فى الجحيم) فنرجو تشريفك

وكان كلما قال كوكين شيئاً عن المسرح وعن الممثلين رددته أولينكا وأعادته؛ فهى تحقد على الجماهير لأنه يحقد على الجماهير، وهى تحتقرهم لجهلهم وعدم فهمهم للفن لأنه يحتقرهم لجهلهم وعدم فهمهم للفن. وكانت تشترك فى البروفات وتصلح للممثلين أخطاءهم وتراقب الموسيقيين، وتنطلق إلى مكتب الجريدة المحلية وهى تبكى لأنها اطلعت على نقد قاس فيها موجه إلى مسرحها فتقابل المحرر وتصحح له الوقائع

كان الممثلون يحبونها وأطلقوا عليها (كوكين دانا) أو (العزيزة) وكانت تحزن لحزنهم وتقرضهم مبالغ صغيرة.وطالما خدعوها. إلا أنها لم تكن تذرف غير دموع قليلة فيما بينها وبين نفسها فى خفية من زوجها

ومضى الشتاء على ما يرام ثم استأجروا مسرحاً فى المدينة إلا أنهم آجروه لفرقة روسية صغيرة. ومضت الأيام فاكتنزت أولنكا لحماً وكانت تخطر سعيدة

راضية، وأما كوكين فقد زاد نحافة واصفراراً، وكان دائم الشكوى للخسائر الفادحة ولو أنه لم يكن سيء الحظ في الشتاء

وكانت تناوله قدحاً من الشاى إذا أصابه السعال أثناء الليل أو تدلكه بماء الكولونيا وتلفه فى أغطية من الصوف ثم تقول له فى إخلاص عميق وهى تمسح شعره : (ما أعزك عندى) . ورحل يوماً إلى موسكو ليجمع فرقة جديدة فلم يطرق النوم أجفانها لأنه بعيد عنها. وكانت تجلس طيلة الليل قبالة نافذتها تحصى النجوم فكانت شبيهة بالدجاج التى تستيقظ بالليل وهى تصيح فى قلق واضطراب لأن الديك لم يكن فى عشته

بقى كوكين فى موسكو مرغماً فأرسل إليها يقول إنه سيعود فى عيد الفصح ، ثم أشار عليها ببعض تعليمات خاصة بالتيفولى

ولكن فى ساعة متأخرة من مساء يوم الأحد السابق للعيد بلغ سمعها طرق عنيف على الباب كأنما أحد يطرق برميلاً . فذهبت الخادم فى عيون ناعسة وقدم عارية وهى تجرى لتفتح الباب وصاح من الخارج صوت ضخم يقول :

أرجو فتح الباب فإن معى برقية . كثيراً ما تناولت أولنكا من زوجها برقيات ولكن فى هذه المرة تملها سكون وفزع . ثم فتحت البرقية بأنامل مرتعشة فإذا بها تتلو : (مات إيفان كوكين اليوم فجأة. أنا فى انتظار الإرشادات المتعلقة بالجنازة)

وكان مرسل التلغراف مدير المسرح

وبكت أولنكا ما شاء لها البكاء وكانت تقول : آه يا عزيزى كوكين يا جوهرتى المحبوبة . لماذا ألقى بك القدر فى طريق حياتى، ولماذا عرفتك وأحببتك؟ إن عزيزتك أولنكا الكسيرة الفؤاد أصبحت وحيدة الآن بدونك

لقد كانت الجنازة فى يوم الثلاثاء فى موسكو وعادت أولنكا إلى المنزل يوم الأربعاء. وما إن بلغت غرفتها حتى ألقت بنفسها على فراشها ومضت تنتحب فى صوت مرتفع بلغ رنينه أسماع الجيران

فقالوا: مسكينة هذه العزيزة أولينكا! ماذا يكون مصيرها ؟

وانقضت ثلاثة شهور فلاقت أولينكا وهى عائدة من الكنيسة حزينة كئيبة جاراً لها يدعى فاسيلى أندوبتش بستوفالوف كان يعود هو أيضاً من الكنيسة، فسار بجانبها، وهو مدير محل بابا كيت تاجر الخشب . كان يضع على رأسه قبعة من الخوص ويرتدى بدلة بيضاء ، ويحيط بمعصمه ساعة ذهبية فكان أشبه بسيد محترم منه برجل تاجر . قال لها فى عطف ظاهر :

إن كل شىء يا أولينكا سيميانوفنا يسير إلى أجل محتوم ، وإن كل عزيز من أعزائنا لا يخطفه الموت إلا بإرادة من الله فيجب أن نستعين بالصبر ونحتمل فى خضوع

وبعد أن أوصل أولينكا إلى باب حديقتها ودعها ومضى

كانت تستمع إلى نغمة صوته الجليل كل يوم، وكانت كلما أرخت أجفانها وتراءت لها لحيته السوداء أعجبت به الإعجاب كله كما إنها أثرت فى نفسه. وما هى إلا أيام قليلة حتى زارتها سيدة عجوز لا تعرفها إلا معرفة بسيطة

جلست العجوز وشربت القهوة ثم تحدثت عن فاسيلى وقالت عنه إنه أحسن رجل يمكن

أن يعتمد عليه وإن أية فتاة لتود الاقتران به

وبعد ثلاثة أيام أقبل فاسيلي بشخصه . لم يبق طويلاً ولم يتحدث طويلاً بل عشر دقائق فقط ولكن بعد أن ودعها شعرت أولينكا أنها تحبه . تحبه جداً . حتى إنها ظلت الليل كله ساهرة وقد انتابتها الحمى. وفى الصباح أرسلت فى طلب السيدة العجوز ثم انعقد القران

وكانا سعيدين بهذا الزواج

كان يجلس فى مكتبه حتى ميعاد الغداء ثم يمضى بعد ذلك إلى أعماله الخارجية فكانت أولينكا تحل محله فى المكتب تقيد الحساب وتنظم الطلبات .

وكانت تتحدث إلى العملاء وإلى الأصدقاء وتقول إن سعر الخشب يزداد ارتفاعاً كل عام فقد ارتفعت الأسعار عشرين فى المائة . ولكننا مع ذلك نبيع ؛ ولذا فإن فاسيلشكا (زوجى) يجب أن يسافر إلى مقاطعة موجيليف ليستورد الخشب . ويخال السامع أنها قضت فى تجارة الخشب أجيالاً وأجيالاً وأن أهم شىء عندها هو الخشب

وكانت تنطق الألفاظ فى نغمة مؤثرة أمثال : السويد . والزان . والورينه . واللوح . والورقة وغيرها

وكانت إذا ما أقبل الليل واستقبلت سلطان الكرى تحلم بجبال من الألواح والكتل وعربات مليئة بالأخشاب . ولقد حلمت مرة أن قطعاً ضخمة من الخشب عرضها ست بوصات وطولها أربعون قدماً واقفة على أطرافها؛ وكانت تسير فى المخزن أشبه بفرقة حربية ثم تنبسط على الأرض مستلقية الواحدة فوق الأخرى فى كوم كبير مرتفع

وكانت أولينكا أثناء الحلم تصيح وتتكلم فكان يقول لها زوجها : أولينكا أيتها العزيزة ما بك؟ تنبهى

كانت أفكارها هى نفس أفكار زوجها

إذا ما قال بأن جو الغرفة حار أو أن العمل فى تأخر فإنها كانت تنحو نحوه فى التفكير

لم يكن زوجها ليهتم بوسائل التسلية؛ وكان يقضى أيام الأجازات فى المنزل فكانت تفعل فعله

وكان يقول لها أصدقاؤها :

— إنك دائماً إما فى المنزل أو فى المكتب . يجب أن تذهبى أيتها العزيزة إلى المسرح أو إلى اللعب (السرك)

فكانت تجيبهم :

— ليس لدينا أنا وفاسيلي وقتاً للذهاب إلى المسرح . هذا عبث . ما نفع المسارح؟

وكانا يذهبان سوياً إلى الكنيسة فى أيام الأجازات ثم يعودان إلى المنزل متأبطاً أحدهما ذراع الآخر وهما يبتسمان بعضهما لبعض . وكانت ترفرف ملائكة السعادة على رأسيهما . ثم إذا جلسا فى المنزل تناولا الشاى والحلوى والمربى وأصنافاً أخرى ، وكانت تفوح من حديقة المنزل فى الساعة الثانية عشرة من كل يوم رائحة الحساء والضأن أو الطيور . وأما فى أيام الاعياد فكانا يأكلان السمك وكان يحس المار بالمنزل بجوعة يسيل لعابها . وأما فى مكتب العمل فإنهما كانا يقدمان الشاى للزبائن والبسكوت ، وكانا يذهبان مرة فى الأسبوع إلى الحمامات العامة ثم يعودان أدراجهما وهما محمرا البشرة

واعتادت أولينكا أن تقول لمن تعرفهم من الناس :

— نعم ليس لدينا ما نشكو منه . الحمد لله . إنى أود أن يكون كل إنسان مثلى ومثل فاسيلي

وحينما سافر فاسيلي ليشترى خشباً من مقاطعة

موجيلف أحست أولينكا بأنها افتقدته وظلت متيقظة بل كانت تبكى

وكان يسكن فى منزلهم جراح بيطرى صغير السن يعمل فى الجيش اسمه سميرنين اعتاد أن يأتى فى المساء يتحدث إليها. وكان فى ذلك شىء من الترفيه والتسلية فى غيبة زوجها ، وطالما سألته عن شؤونه الداخلية الخاصة فعلمت أنه متزوج وأن له غلاماً وأنه افترق عن زوجته لأنها لم تكن مخلصة له فهو الآن يكرهها واعتاد أن يرسل إليها أربعين روبية فى الشهر نفقة للطفل . فلما سمعت أولينكا هذه الأنباء تنهدت وهزت رأسها وهى حزينة من أجله

قالت له وهى تقوده إلى الباب الخارجى مضيئة السلم بشمعة تحملها فى يدها :

— حسن . الله معك . شكراً لك على زيارتك للترفيه عنى . الله يرعاك ويمنحك الصحة

ثم إذا كان على وشك الرحيل فإنها تقول :

— خير لك يا فلادين بلاتونيتش أن تعيش مع زوجتك واعف عنها من أجل الطفل حتى لا يفهم الغلام شيئاً

ولما عاد زوجها حدثته عن الطبيب البيطرى وعن تعاسته المنزلية فيشترك الاثنان فى التنهد وهز الرؤوس حزناً على الغلام الذى فقد رعاية أبيه. ثم تتحد خواطرهما فيذهبان إلى تمثال المسيح ويطأطئان الرأس أمامه طالبين من الولى أن يمنحهما أطفالا

واستمرت هذه الحياة السعيدة ست سنوات يغمرها الحب والانسجام

ولكن ...

بعد أن شرب فاسيلى قدحاً من الشاى فى يوم من أيام الشتاء فى مكتبه ، خرج عارى الرأس فى الهواء فى شأن من شؤون العمل فأصيب بلفحة برد ومرض

عاده أمهر الأطباء ولكن المرض كان غلاباً ، فما هى إلا شهور أربعة حتى واروه التراب ، وعادت أولينكا أرملة للمرة الثانية وهى تبكيه فى مرارة :

— ليس لى من سند وقد فقدتك إلى الأبد آه يا عزيزى. كيف يمكننى أن أحيا بدونك؟ ستكون حياتى شقية بائسة

يا للشقاء ! ...

هل يعيش أطيب الناس قلباً فى هذه الحياة الجدباء المنفردة على هذه الحال ؟

أهملت أولينكا ارتداء القفاز والقبعة وغير ذلك من الثياب اللامعة الفخمة الأنيقة ، ولم تكن تلتف إلا برداء أسود ، ولم تكن تخرج من المنزل إلا إلى الكنيسة أو لزيارة قبر زوجها . وكانت أشبه براهبة

وبعد مضى ستة شهور فتحت النوافذ المغلقة ، وكان يشاهدها الجيران فى بعض الأحيان ذاهبة إلى السوق مع خادمتها لتبتاع حاجياتها المنزلية ، ولم يكونوا يعلمون عن أحوالها الداخلية شيئاً

إلا أنهم كانوا يرونها تجلس فى الحديقة لتشرب الشاى مع الطبيب البيطرى الذى كان يقرأ لها الجرائد

وقد قالت يوماً لامرأة قابلتها بجوار مكتب البريد :

— لا توجد فى المدينة رقابة صحية على الحيوانات. وهذا هو السبب فى وجود الأنواع المختلفة من الأمراض المعدية ، وكثيراً ما نسمع أن أناساً أصيبوا بالعدوى من شرب اللبن ، أو انتقلت إليهم الأمراض من الخيل أو البقر

إنه يجب العناية بأمراض الحيوان كما نهتم بأمراض الإنسان

وهى بهذا القول تعيد ما سمعته من الطبيب البيطرى ، وكانت أفكارها تتفق مع آرائه تماماً

إنها لم تكن تقدر أن تعيش سنة واحدة بدون أن تكون ذات صلة بإنسان ما ، فكانت سعيدة بهذا الجار ، ولم يظن أحد بها سوءاً لأنها كانت طبيعية فى جميع تصرفاتها ولم تكن تخفى شيئاً .

وقد حدث أن أضاف الطبيب البيطرى بعضاً من أصدقائه فى الجيش ، فجلست أولينكا معهم لتسكب لهم الشاى ، وكانت تحدثهم أثناء ذلك عن الطاعون البقرى وعن بداية المرض وعن المجازر البلدية . وقد دهش الطبيب المسكين لهذا جميعه . فلما أن رحل الضيوف قبض على يدها وحدثها وهو غاضب :

— لقد نبهت عليك من قبل ألا تتحدثى عما لا تعرفينه وخصوصاً فى جمع من الأطباء البيطريين . أرجوك ألا تتدخلى فى مثل هذه الشئون ... هذه حالة متعبة ...

فنظرت إليه فى حدقة متسعة وعجب بالغ وقالت :

— إذن فى أى موضوع أتحدث ؟

وتعانقه والعبرات تسيل على خديها راجية منه ألا يغضب ، وكانا سعيدين

ولكن السعادة لا تستمر طويلاً ، فقد رحل الطبيب البيطرى إلى غير عودة ، إذ نقل مع فرقته إلى مكان بعيد جداً ... إلى سيبريا

وأصبحت أولينكا وحيدة ، بل وحيدة بالمعنى الحرفى لهذا اللفظ فقد مات والدها أيضاً وخلف كرسيه يعلوه الغبار وبجانبه ساق صناعية من الخشب

ونحل جسمها وأجهدتها السنون فلم يلتفت إليها الناس كسابق عهدهم ، ومضت الأيام الأولى السعيدة وتغيرت وجهة حياتها تماماً

إنها تجلس فى الحديقة وتسمع أصوات الموسيقى تلحنها فرقة التيفولى ، ولكن لا تهزها الأنغام الصادحة ولا يهمها شىء ما ، ولم تكن تفكر فى شىء ولا ترغب فى شىء ولا تحلم بشىء . إنها كانت تأكل وتشرب بطريقة آلية ...

إنه لم يكن لديها ، وهذه أسوأ حالة ، أية آراء أو خواطر من أى نوع كان

كانت تشاهد الحوادث تمر بها متتابعة وتفهم ما تسمع وتعى ما ترى ولكن كانت تعجز عن تكوين أى رأى ولم تدر فى أى موضوع تتحدث

ما أتعس ألا يكون للانسان خلجات نفسية أو خواطر ذهنية ! إنك ترى الزجاجة مثلاً أو تشاهد المطر أو عابر سبيل فما معنى هذا ؟

ليس من الميسور الرد على هذا السؤال ولو دفع عن الإجابة ألف روبية

حينما كان زمامها فى حياتها كوكين أو فاسيلى أو الطبيب البيطرى كان فى ميسور أولنكا أن تعبر عن خلجاتها بكل وضوح وفى كل موضوع وتبدى رأيها فى أية مسألة تريد . ولكن الآن أصبح رأسها خاوياً كقلبها وكحديقتها الجرداء .

ومضى الزمن واتسع العمران فى المدينة وامتد نطاقه وأصبح الطريق القفر شارعاً ممهداً وأقيم مكان التيفولى وموضع مخزن الأخشاب منازل وميادين

ما أسرع الزمن !

إلا منزل أولينكا فإنه ظل على حاله ، بل زاده كآبة كثرة الغبار على سطحه وميل جانب من جوانب عشة الدجاج ولون الصدأ الذى يعلو القضبان الحديدية ونمو نباتات غريبة فى الحديقة المهملة . بل إن أولينكا قد شاخت هى أيضاً . وكانت تجلس

فى الحديقة صيفاً وهى خاوية الروح تعلوها كآبة حزينة وصمت مرير

وأما فى الشتاء فكانت تقعد أمام نافذتها ناظرة إلى الثلج المتساقط

وفى الربيع كانت تتنفس عبير الأزهار أو تستمع إلى أجراس الكنائس فتعود إليها ذكريات الماضى فى صور زاهية الألوان وهزات فى الفؤاد وعبرات تملأ المآق، ولكن هذه الانفعالات لم تكن تدوم غير لحظة ثم تعود إلى حالها من الخلو والصمت الساذج وعدم الاكتراث للحياة

ولم تكن تتأثر أولينكا للقطة السوداء (بريسكا) حينما كانت تقترب منها وتتمسح بها

لم تكن هذه طلبتها فى الحياة، إنها تريد حباً يقلب حياتها ويستغرق وجدانها بل كيانها جميعه روحاً وذهناً

حباً يجعل لها فى الحياة غرضاً ويمنحها تفكيراً ويسكب فى عروقها دماً حاراً

طالما صاحت بالقطة السوداء: إذهبي عنى فلست أريدك

وهكذا مضت الأيام وتعاقبت السنون فلا مرح ولا خاطر. كانت تقر جميع ما تقوله خادمتها مافرا

وفى يوم قائظ من أيام يوليو، وكان المساء قد أشرف على الكون، وكانت قطع من الماشية تعود أدراجها، وكانت الحديقة المهملة تعلوها الكآبة إذا بها تسمع طرقاً على الباب فذهبت أولينكا بنفسها لتفتح الباب. وقد كانت المفاجأة عنيفة حينما ألفت أمامها سميرنين الطبيب البيطرى وقد علاه الشيب وهو يرتدى ملابس المدنيين

حينذاك فقط تذكرت كل شيء فى الوجود فلم تملك نفسها وقد بكت وسقط رأسها على صدره ولم تنبس شفتاها بكلام ما، ولم تدر وهى غريقة فى فيض من العواطف أنها دخلت بزائرها إلى المنزل وأنهما جلسا يشربان الشاى

وإنما قالت أخيراً وهى ترتعش سعادة وسروراً:

— عزيزى فلاديمير، أى حظ سعيد أتى بك إلينا؟

فقال:

— إننى جئت للسكنى فى مدينتكم فقد استقلت من عملى وجئت لأجرب حظى فى الحياة مستقلاً، وقد أزف الوقت الذى يجب أن أهتم فيه بابنى. إنه قد أصبح غلاماً كبيراً وقد تراضيت مع زوجتى كما تعلمين

فسألت أولينكا:

— وأين هى؟

— إنها مع الغلام فى الفندق

فقالت أولينكا وهى متأثرة بالغ التأثر:

— كيف يكون هذا؟

ألا يعجبكم منزلى لتسكنوا فيه. أستحلفكم أن تقطنوا معى فلن أطالبكم بأى أجر

أرجوك يا عزيزى فإنى أكون سعيدة فى معاشرتكم. ولما كان اليوم التالى إذا بالحيطان والسقوف قد ضربت بالألوان. ومضت أولينكا فى نشاط كبير تصدر الأوامر هنا وهناك، وكان يشع من عينيها بريق السعادة وتعلو وجهها ابتسامة حلوة، وكانت شبيهة بإنسان استيقظ بعد غفوة طويلة

وأقبلت زوجة الطبيب وهى نحيلة واضحة القسائم مقصوصة الشعر، وكان يصحبها ابنها ساشا وهو صبى فى العاشرة صغير الجرم إذا قيس بعمره له عينان زرقاوان ونغزتان فى الخدين

وما إن دخل الغلام فى الحديقة حتى راح يجرى

خلف القطة السوداء، ورنت فى الفضاء ضحكته الطفلة المحببة السعيدة وهو يوجه الحديث إلى أولينكا :

أهذه قطتك يا خالتى ؟

إذا أنجبت صغاراً فيجب أن تهديني قطيطة منها فإن أمي تخاف الفيران

وتحدثت إليه أولينكا وأعطته الشاى وامتلأ قلبها غبطة وأحست فى صدرها بأحاسيس مختلفة نحو الصبي الصغير كأنما كان ابنها وفلذة كبدها

وكان إذا ما جلس إلى المائدة ليكتب واجباته المدرسية فى المساء راحت تراقبه بعين وديعة وعطف بالغ وتهمهم فى نفسها :

كم هو ظريف هذا الصبي العزيز إنه جوهرة نفيسة، ما أذكاه !

وكان يقرأ بصوت عال ويقول :

الجزيرة قطعة من الأرض محاطة بالمياه من جميع الجهات. فكانت تردد أولينكا قوله : (الجزيرة قطعة من الأرض ...)

وكانت هـذه العبارة أول جملة وعتها بعد زمن طويل تقضى فى خمول وسنين طويلة مضت فى صمت قاس خال من الخواطر والآراء والعواطف ، وكأن هذا الكلام قد أوحى إليها بالكلام من جديد

إنها الآن أصبحت ذات أفكار مستقلة فكانت تجلس فى وقت العشاء مع عائلة ساشا وتقول : ما أصعب الدروس فى المدرسة العليا . إلاأن المدرسة العليا خير من مدارس التجارة ، إذ أن المتخرج فى المدرسة العليا يمكنه مزاولة مهن مختلفة : الطب والهندسة أو غيرهما

ودخل ساشا المدرسة العليا ورحلت أمه لزيارة أختها فى هاركوف ولم تعد ، واعتاد والده أن يذهب كل يوم للتفتيش على المواشى، وكثيراً ما تغيب عن المنزل ثلاثة أيام كاملة ، وأحست أولينكا أن ساشا يكاد يكون كما مهملاً من والديه ، ولذلك فإنها أحاطته برعاية كبيرة وأفردت له غرفة خاصة فى منزلها .

صاحبها شاسا ستة شهور فى مسكن واحد ، واعتادت أولينكا أن تأتي إلى غرفته كل صباح فتراه نائماً نوماً عميقاً هادئاً واضعاً يده الصغيرة تحت خده وكان يؤلمها أن توقظه إلا أنها أخيراً تقول :

ساشنكا ، تيقظ أيها العزيز فقد أزف ميعاد المدرسة ، فكان يستيقظ فى الحال ويرتدى ملابسه ثم يصلى صـلاته اليومية ثم يجلس لتناول طعام الإفطار ويشرب أثناء ذلك ثلاثة أقداح من الشاى ويأكل الخبز والفطائر

وكانت تنظر إليه أولينكا نظرها إلى إنسان مقبل على سفر طويل وتقول :

إنك لم تحفظ درسك تماماً ... كم أن هذا يكدرنى . . . يجب أن تذاكر جيداً يا عزيزى وتطيع معلميك !

وكان يجيب ساشا :

— اتركينى !

ثم يترك المنزل ويسير فى الطريق متجهاً إلى المدرسة . وكان يبدو ضئيلاً وهو يحمل حقيبته على كتفه فتتبعه أولينكا عن كثب وهى صامتة وكانت تناديه : ساشنكا !

ثم تضع فى يده قطعة من الحلوى ، فإذا اقترب من شارع المدرسة وأحس فى نفسه الخجل من مصاحبة سيدة عجوز طويلة يلتفت إليها ويقول :

— يحسن بك أن تعودى يا خالتى وتدعينى أسير بقية الطريق وحدى !

فكانت تقف ساكنة وهى تراقبه حتى يخفيه باب المدرسة عن نظرها

لقد أحبته ولم يؤثر فى قلبها أى لون من ألوان الحب السابقة مثلما أثر فيه هذا الحب فانه كان أعمقها أثراً ، ولم تخضع روحها من قبل لمثل هذا الشعور العنيف الذى لا غاية له

إن هذا الحب قد أحيا فى فؤادها جميع مشاعر الأمومة وغرائزها الهادئة

إنها كانت على استعداد لتضحية حياتها من أجل هـذا الصبى الجميل ذى الطاقية الواسعة . إنها تفتديه بروحها عن طيب خاطر

لماذا ؟ من يمكنه أن يقول لماذا

وبعد أن غاب ساشا عن بصرها رجعت أدراجها مرتاحة القلب هادئة النفس سعيدة بحبها له وقد عادت إلى وجهها نضرة الشباب ونفحة الصبا ، وكان ينظر إليها الناس مسرورين قائلين :

ألا عمى صباحاً يا أولينكا سميانوفنا ! كيف حالك أيتهـا العزيزة ؟ وكانت تقول فى السوق حاكية : (إن الدروس فى المدرسة العليا صعبة للغاية . إنها كثيرة على الأفهام الصغيرة . أمس فى السنة الأولى كلفوه بأن يحفظ عن ظهر قلب خرافة كاملة وترجمة لا تينية ومعضلة حسابية . لا شك أن هذا كثير على ذهن طفل)

ثم تتحدث عن المعلمين والدروس والكتب المدرسية مرددة جميع ما سمعته من ساشا

وكانا يتناولان الغداء سويا الساعة الثالثة ، وفى المساء كانا يجلسان لحفظ الدروس معا بصوت مرتفع وحينما كانت تضعه فى الفراش فإنهـا كانت تقضى وقتاً طويلاً وهى تخط بيديها علامة الصليب ثم تتمتم دعواتها وصلواتها . وبعد ذلك تذهب إلى غرفتها ثم تنام وهى تحلم عن المستقبل فى صورة مبهمة : حينما ينتهى ساشا من دراساته ويصبح طبيباً أو مهندساً ، وحينما يمتلك منزلاً كبيراً فيه الخدم والعربات والخيول ، وحينما يتزوج ويكون له أولاد صغار .

ثم تتأرجح فى عينيها المغمضتين عبرات تتساقط على خديها بينما القطة السوداء الناعسة تهمهم فى نومها …

ويطرق الباب فجأة فتستيقظ أولينكا وهى تلهث فزعاً ويدق قلبها خوفاً ، وتمضى دقيقة ثم يطرق الباب مرة ثانية فيمر برأسها خاطر يهزها هزاً عنيفاً من قمة الرأس إلى أخمص القدم

لا شك أن الطارق يحمل برقية من هاركوف تطلب ابنها … الرحمة بى يا إلـهى … ثم تغرق فى يأس قاتل وتسير البرودة إلى رأسها ويديها وقدميها وتحس فى صميمها أنها أتعس امرأة فى الوجود … ولكن إذا مضت دقيقة أخرى وسمعت الأصوات فإنها تتبين أن الطبيب البيطرى يعود إلى المنزل من النادى

فتهمس فى نفسها : حسن . الحمد لك يا ربى

ثم يخف الحمل الثقيل عن قلبها شيئاً فشيئاً حتى تحس راحة تامة بعد قليل ، فتقوم من فراشها وتسير على أطراف أصابعها إلى حجرة ساشا فتجده نائماً وهو يصيح فى نومه :

سأعطيكها . إذهب عنى . صه .

حنفى محمود جمعه

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع المبدولى — عابدين)

هفـــــوة

للكاتب الروسي الكبير أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ فيصل عبد الله

كانت « ناتالي » الشابة الحسناء تحدث زوجها بحماس بعيد عودتها من (يالطة) عما شاهدته من المباهج والطرف في زيارتها شبه جزيرة القرم ، وهما يتناولان الغداء سوية ... وكان زوجها ينصت لما ترويه مغتبطاً مسروراً ، إلا أنه كان يقطع صمته بين حين وآخر ، سائلاً زوجه سؤالاً سخيفاً عن « دنيا التتر » وعن المعيشة فيها ، وما يقال عن غلاء أسبابها ، فكانت تجيبه أن هذا القول لا يخلو من الغلو والخيال أحياناً ، إذ أنها وزميلتها (يوليا بتروفنا) كانتا تشغلان غرفتين مترفتين مريحتين لقاء بضعة روبلات قد تبلغ العشرين في اليوم ، إلا أن كل هذا يتوقف على تصرف الإنسان في قضاء رغباته ، فمثلاً إن اصطحاب الإنسان جواداً ودليلاً عند صعوده الجبال ، لما يكلف من المال الكثير ، وعلى ذكر الجبال تسرف « ناتالي » في وصفها وإطراء مفاتنها ، ثم تحاول أن تصور لزوجها تلك الروعة التي تملك لب الإنسان وهو يسرح الطرف في تلك الجبال ...

— لكم هي شاهقة خلابة . . . تصور أيها العزيز جبالاً شاهقات تكاد أن تنطح السماء إنها لأعلى كثيراً من أبراج الكنائس بآلاف من المرات ... لكم هي فتانة إذ يتوج الثلج الأبيض قممها ، وتحيط بسفوحها أشجار الصنوبر التي تحاول أن تنافس الجبال طولاً وامتداداً في الفضاء . . . كما أن الأحجار البراقة المصقولة والحصى الناعمة الدقيقة مبعثرة على سفوحها ... منثورة حواليها . . . آه . . . لكم أود لو أشبع رغبة نفسي التي تلج بي دائماً إلى تذكر تلك المشاهد الشعرية الفاتنة ، والتفكير فيها

فيقول لها زوجها : وهؤلاء التتر . . . إنك لم تحدثيني عنهم شيئاً ... إن لهم في حياتهم لفضائح وفظائع ضربيات ، أجل ، فلقد قرأت هكذا عنهم في الصحف عند غيابك ... فهلا يا (ناتالي) شهدت منها شيئاً ؟ ...

فيشحب وجهها ... وتعلوه سحابة نفور واشمئزاز ... ثم تهز كتفها في سخرية وهي تقول :

— إنهم ليسوا إلا تتراً بسطاء ، ليس فيهم مما يجلب البصر ويسترعي الاهتمام ، أجل ، إنني أعرف عنهم هذا ، وإن لم أدن منهم يوماً ... إنك لتعلم أيها العزيز أنني لم أنس كرهي بعد لهؤلاء التتر والشركس واليونان .

لقد لوح لي بعض هؤلاء من الأدلاء ، ولكنني لم أعر تلويحهم لي بعض التفات ، ولم أحفل بهم .

— ولكن المشاع أن كلا منهم زير نساء ، أو (دون جوان) .

— قد يكون هذا ... إنما لا تنس يا عزيزي أن هنالك من لا أخلاق لهن . وكأنما كرت بها الذكرى إلى أمر مخز أو حادث مزر ... فشحب

وجهها بغتة وصمتت فجأة، ثم عادت بعد صمت تقول:

— فاسيشكا، إن العالم لا يخلو من فقدن الحياء والكرامة، ووطئن الشرف بأقدام الطيش والرعونة يا لله، ما أشنع فضائحهن وأزرى مخازيهن... إنما العجب أيها العزيز أنهن سيدات يُنسبن إلى أرقى الطبقات وأرفع الأسر، سيدات تعرفهن المجتمعات خير معرفة، وفيهن لآلئ تضيء، وكواكب تبرق وتتوهج... يا له من أمر فظيع! لم أكن لأتصوره من قبل... خذ يا عزيزي مثالاً لهن، تصور سيدة تتناسى من هي ومن تكون، وتتعامى عن شرفها وكرامتها!... آه يا فاسيشكا، لكم أرغب عن التحدث عن أمثال هذه الفظائع، ولكن مع هذا... تصور يا عزيزي سيدة رفيعة الحسب، سامية المنزلة، كزميلتي في سفرتي «يوليا بتروفنا» إن لها — كما تعلم — لبعلاً كريماً يمتهن الطب وطفلين جميلين، سيدة تعرفها المجتمعات الراقية والمحافل الرفيعة، وتعلم أنها طالما أبدت نفسها كقديسة طاهرة... فإذا بها فجأة... ماذا؟!... أيمكن أن يصدق هذا؟ آه. يا عزيزي... إن ما أخبرك به لهو سر غير قمين بك أن تذيعه أو تبوح به لأحد. أتقسم لي على هذا؟...

— طبعاً... طبعاً... ولكن ما الذي جرى؟

— إنني لا أملك في هذا غير الثقة بك، ثم طرحت شوكتها جانباً من الصحاف، وقالت هامسة:

«لقد كان يوماً مشرقاً دافئاً، امتطت فيه «يوليا بتروفنا» ودليل لها جواداً يقصدان الجبال، أما أنا فقد كنت على مقربة منهما فإذا بها فجأة، تضع يدها على صدرها، ويبدو عليها الإغماء والإعياء... إنه أمر فظيع، لقد أحاط دليلها خصرها بذراعيه، ولولا ذلك لصرعت أرضاً، فأسرعت إليها ودليلي وسألتها في جزع وفزع شديدين عما حل بها... فقالت...

— أكاد أختنق... إنني أحتضر... فعرضت عليها العودة من حيث جئنا، فأبت ذلك محتجة بعدم قدرتها على العودة وبعجزها عن المسير، وبأنها قد تفقد الحياة إن خطت خطوة واحدة... ثم رجتنا وألحت علينا — أنا ودليلي سليمان — أن نعود إلى المدينة لنحضر لها ما اعتادت تناوله من الأدوية»

فقاطعها زوجها:

— مهلاً... إنك لتهرفين... لقد قلت منذ لحظات إنك لم تريهم إلا عن بعد، ولكنك الآن تذكرين أحدهم، ذلك الذي تدعينه سليمان... دليلك...

— ألا تترك سوء ظنك جانباً؟ إنك لا تعدم سبباً للوم... إنني لا أطيق هذا.. إنه أمر فظيع لا يصدر إلا عن أحمق غيور

— لست بسيء الظن بك فأبحث عما يمهد لي لومك وعذلك، ولكنك تكذبينني فيما تقولين، فإذا كنت قد اصطحبت أحد هؤلاء التتر يوماً في ارتيادك الجبال، فلِمَ تنكرين هذا أولاً ثم تعترفين به أخيراً؟

— حقاً إنه لأمر فظيع... أو تغار من سليمان؟! أم حسبت أنه من المستطاع أن أرتاد الجبال دون ما دليل يدلني على أقوم السبل وأبهج المسالك... لكم أود لو أراك تقصد الجبال وحدك دون ما دليل أو قائد، إذا كنت يا عزيزي تجهل أموراً فلا ترجم بالغيب فتتحدث عنها كأن عندك الخبر اليقين... إن الإنسان هناك... ليس بإمكانه أن يجول قليلاً أو طويلاً.. دون ما دليل يشير إليه بالمسالك السهلة المأمونة...

— يبدو لي ذلك!

— أرجو ألا تفرط فى سخريتك وتهكمك . احتفظ بهما لنفسك ... إننى لست (يوليا) ... إننى وإن لم أسايرها فى مسلكها وأحذ حذوها من قبل فأزعم أننى قديسة طاهرة الذيل ... مصونة ... فلن أجاريها أخيراً ولم أجارها من قبل ... إذ أنسى أو أتناسى نفسى وكرامتى ... إننى لم أسمح قط لسليمان أن يتعدى ما وضعت له ورسمت ... لقد كان « محمد قول » يجالس (يوليا) فى غرفتها النهار كله . أما أنا فقد كنت أصرخ بسليمان إذا ما أزفت الساعة الحادية عشر مساء :

— هيه سليمان ... هيا أيها الأحمق اعزب عن وجهى مرىباً ... فكان يذهب مطيعاً ما أقول . وإذا ما تذمر من قلة الأجر — مثلاً — كنت أصرخ به أن يسكت فيسكت ، ثم ينظر إلى بعينيه السوداوين ومحياه التترى الوسيم الوديع مستعطفاً ذليلاً ... لقد كان بسيطاً ساذجاً ... يا له من تترى ظريف !

فيتمتم زوجها قائلاً : أستطيع أن أتصور هذا

— ما هذا يا فاسيشكا ... إنها لفظاعة منك . إننى أفهم ما يدور بخلدك ويطوف بذهنك ، إنما أنت مخطئ فى ظنونك ... إننى أؤكد لك أننى لم أسمح له يوماً بأن يجتاز حدوده الموضوعة ، فمثلاً إذا ما قصدنا الجبال ذات يوم أو إذا ما عن لنا أن نمتع النفس برؤية شلال (أوشالنسو) كنت أصرخ به :

— سليمان ، هيا ... هيا امتطى جوادى خلق أسامع أنت ما أقول ... فكان المسكين يجيبنى إلى ذلك بخفة ورشاقة ... لقد كنت أقول له حتى فى أقرب المواقف التى كانت تمر بنا إلى ما نقرأ فى القصص والروايات ! : لا تنس يا سليمان أنك لست إلا تترياً بسيطاً أما أنا فزوج مشير ... ها . ها

وضحكت ساخرة ، ثم قالت : إننى لا أعرف خيراً من المزاح البسيط يقتل الملل الذى يتخلل الحياة الزوجية ، أما أن يفهم المرء ذلك على أنه أمر جدى فذلك ما لا أفهمه وإنها لفظاعة ... ولنعد ليوليا ، لقد استبدت بها الغيرة يوماً وسبتها ... آه لكم هو أمر مخز ذلك الذى أقدمت عليه . أقول لقد سبتها الغيرة يوماً كانت فيه غائبة عن البيت ، فجاء دليلها (محمد قول) فدعوته إلى غرفتى لكى ينتظر (يوليا) فيها حتى تجيء ، فتحدثنا فى أمور شتى وتناولنا من الحديث ما يلذ ويطيب ، وإنهم كما لا أظنك تجهله لقوم ظرفاء ، فأنسانى ظرفه أشباح المساء المدبرة ، حتى عادت (يوليا) فرأت دليلها عندى فى غرفتى فملكها الغيظ وشاع فيها الحقد الذميم فانهالت علينا — أنا ودليلها محمد قول — بالسباب المقذع والشتم الفظيع ... وأى شتم هو .. ثم تمادت فى غيها وغيظها فاستعانت باللكم والصفع تنهال بها علينا حتى شفت غليلها وابتردت من حمى غيرتها أو كادت .. إنه لأمر فظيع أيمكن أن تتصور هذا يا فاسيشكا ؟

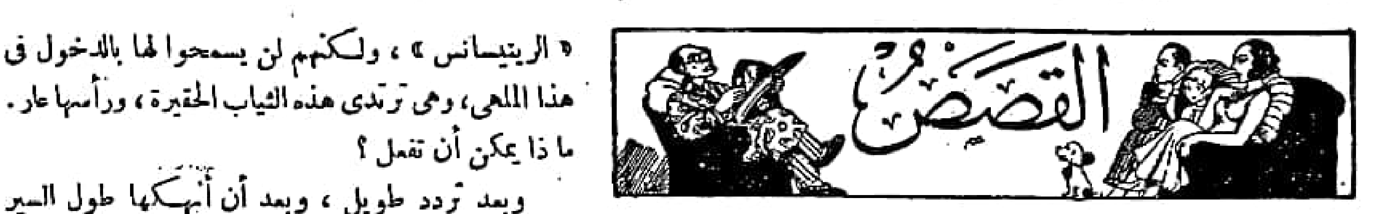
أما فاسيشكا فقد قطب جبينه وشمل محياه العبوس ... ثم أخذ يقطع الغرفة جيئة ورواحاً يفكر ويفكر ... ثم قال وقد اتضحت على ثغره بسمة سخرية واحتقار :

— يا لها من سفرة سعيدة وأيام ناعمة هنيئة قضيتها هناك ...

— إنه لأمر فظيع ... إنها لحماقة منك لا تغتفر .. إننى لأدرك ما تذهب إليه .. فما كنت يوماً بخال من هواجسك وظنونك ، إن أفكارك السخيفة الآثمة لم تزل بعد تستبد بلبك وتملأ ذهنك ...

كلا ... لستُ بمحدثتك عن شيء بعد اليوم

(بغداد) فيصل عبد الله



صديق هام ...

لأنطون تشيكوف

وجدت (ڤاندا) الساحرة، أو كما جاء وصفها في جواز السفر «المواطنة الشريفة ناستاسيا كاناڤكن» وجدت نفسها بعد خروجها من المستشفى في حال لم تصادفها في حياتها من قبل، لا مأوى لها ولا مال عندها؛ فماذا يمكن أن تفعل؟

كان أول شيء عملته هو ذهابها إلى مصرف الرهائن، حيث أودعت خاتمها الفيروزي، الحلية الوحيدة التي كانت تملكها، وأخذت جزاء ذلك روبلاً واحداً

ولكن ماذا يفيدها هذا الروبل؟ إنها لا تستطيع أن تشترى بهذا المبلغ معطفاً أنيقاً، أو قبعة واسعة، أو حذاء من ذى اللون القضى اللامع وهى - بدون هذه الثياب - تشعر بأنها عريانة. يخيل إليها أن كل من حولها حتى الكلاب والحمير ترمقها وتضحك من بساطة ثيابها. وكانت الثياب كل ما يشغل تفكيرها. لم يثر اهتمامها قط التفكير فيماذا تأكله ولا أين تنام؟

«آه لو أتيح لى لقاء صديق هام! إذن لحصلت على بعض المال. ما من صديق يمكنه أن يرفض لى طلباً كهذا. إني واثقة»

كان هذا اتجاه تفكيرها، ولكنها لم تلق هذا الصديق المنشود. إن من الأيسر أن تلقى أمثاله فى المساء فى ملهى «الرينيسانس»، ولكنهم لن يسمحوا لها بالدخول فى هذا الملهى، وهى ترتدى هذه الثياب الحقيرة، ورأسها عار. ما ذا يمكن أن تفعل؟

وبعد تردد طويل، وبعد أن أنهكها طول السير والجلوس والتفكير، استقر رأى ڤاندا على أن تلتمس ملجأ فتذهب لتوّها إلى منزل صديق هام وتطلب مقداراً من المال

وأخذت تفكر فيمن تقصد. «لا يمكنني أن أذهب إلى ميشا، إنه رجل متزوج ... والرجل العجوز ذو الشعر الأحمر سيكون فى مكتبه فى مثل هذا الوقت من النهار»، وتذكرت ڤاندا طبيب أسنان يدعى فينكل، وهو يهودى اعتنق المسيحية وكان قد أهدى إليها سواراً منذ ستة أشهر. وكانت فى يوم من الأيام قد صبت كأساً من الخمر فوق رأسه وقت العشاء فى النادى الألمانى. عمها السرور إذ فكرت فى فينكل وقالت:

«لا بد أنه سيمنحنى مقداراً من المال إذا وجدته فى المنزل؛ وإذا لم أجده فسأحطم كل مصابيح الكهرباء التى فى منزله»

كان هذا اتجاه تفكيرها وهى فى طريقها إليه

وقبل أن تصل إلى منزل طبيب الأسنان رسمت خطتها للعمل. إنها ستصعد السلم قفزاً وهي تضحك عابثة، ثم تندفع إلى حجرة الطبيب وتطلب منه خمسة وعشرين روبلا. ولكنها ما كادت تلمس الجرس حتى أحست بهذه الفكرة تتبخر من ذهنها. وبدأت ڤاندا تحس بالرهبة والضيق، مما لم تعهده من قبل. لقد كانت دائماً جريئة فى حلقات الشراب، ولكنها الآن وهى تلبس هذه الثياب الحقيرة تشعر كأنها شخص يطلب إحساناً؛ وقد لا يسمح لها حتى بالدخول. وشعرت فجأة بالذلة والمسكنة، وأحست بالخجل والاضطراب

رآك القلب أبهج ما تكونُ
وعين الحب هادية أمونُ
عزاء أيها الحسن

إيه يا جنة جفاها النعيم
هكذا العمر أنسه لا يدوم
كأنك نفس مات فيها غرامها
فلم يبق إلا بؤسها وسقامها
حلية النفس الهوى
فإذا توى[1]

عادت كغصن قد ذوى
أو ظلّ نجم قد هوى
على قدر ما فى النفس من خالص الجوى
يكون لها قدر ويسمو بها اللب
فإن فقدته فالفناء بها ثوى
وما قيمة النفس التى ما لها حب

يا روضة ذبلت
وخميلة خلت
أنت مثال السعد إذ فاتا
بل أنت رمز الحب قد ماتا

هكذا تصبح الحياة رفاتا
أقول للغادين لو يسمعون
هنا الهدى لو كنتم تبصرون
هلمو انظروا كيف تبلى القصور
وكيف تموت الحديقة
كذلك فيكم يجف الشعور
وتخفى الأمورُ
ويعمى البصير
وتموت الحقيقة

خليل شيبوب

(١) توى: هلك

أخذت تفكر وهى لا تجد من نفسها الشجاعة الكافية لأن تغمز الجرس وقالت فى نفسها : «ربما يكون قد نسينى . كيف يمكننى أن ألقاه فى هذه الثياب وأنا أبدو كمتسولة حقيرة أو عاملة فقيرة ؟» ودقت الجرس فى ضعف . وسمعت وقع أقدام تقترب : إنه البواب . « هل الطبيب موجود ؟ » وجهت السؤال وهى ترجو أن يكون الرد « كلا » ، ولكن البواب بدلاً من أن يجيب صحبها إلى القاعة وساعدها على خلع معطفها

وبهرتها القاعة بفخامة مظهرها وروعته ، ولكن نظرها علق بمرآة ضخمة ، فواجهتها لترى فتاة رثة الثياب ، لا تلبس معطفاً أنيقاً ، ولا تضع فوق رأسها قبعة واسعة ، ولا تنتعل الحذاء ذا اللون الفضى

ورأت ڤاندا أنها فى ثيابها البسيطة هذه ، تبدو كخادمة أو غاسلة ثياب ؛ واستغربت أنها تحس بالخجل ولا تجد فى نفسها أثراً لتلك الشجاعة ، بل الوقاحة التى اعتادتها . بل إنها لم تعد تفكر فى نفسها أنها ڤاندا « الساحرة » فا هى إلا ناستاسيا كاناڤكين كما كانت فى الأيام الخالية

وتقدمتها الخادم إلى حجرة الكشف قائلة لها : « تفضلى بالدخول . سيأتى الطبيب بعد دقيقة واحدة . اجلسى »

وجلست ڤاندا على مقعد مريح وأخذت تفكر : « سأطلب منه أن يبرئنى هذا المبلغ . ليس فى هذا أقل حرج . إن معرفتى إياه قديمة . آه لو أن هذه الخادم تخرج . إنى لا أميل إلى مصارحته أمامها . ما الذى يدعوها للبقاء هنا ؟ »

وبعد خمس دقائق انفرج الباب عن ڤينكل . كان يهودياً طويلاً ، أسمر اللون ، ذا خدين متهدلين وعينين منتفختين . كان منظر عينيه ، وخديه ، وصدره ، وجسمه ، بل منظره كله يمجه الذوق ويثير الكراهية . كان فى ملهى « رينيسانس » والنادى الألمانى يبدو ثملاً ، ويبذل نقوده للنساء عن سعة . وكان واسع الصدر ، صبوراً على ألاعيبهن (فمثلاً عند ما صبت ڤاندا كأس الخمر فوق رأسه ، لم يزد على أن ابتسم ورفع أصبعه فى وجهها منذراً) ، أما الآن فهو يبدو جامد الحس ، جاداً ، ثقيل الدم كرئيس الشرطة ، وهو ما يفتأ يلوك شيئاً بين شدقيه

قال مخاطباً ڤاندا دون أن ينظر إليها : « هل من خدمة أستطيع أن أقدمها إليك ؟ » . ونظرت ڤاندا فى وجه الخادم الصارم ومظهر ڤينكل ، الذى كان من الواضح أنه لم يعرفها ، واحمرت وجنتا ڤاندا

— « هل من خدمة أستطيع أن أقدمها إليك ؟ » ردد الطبيب سؤاله فى ضيق مكتوم ، فهمست ڤاندا : « أحس ألماً فى أسنانى »

— « حسن ... أين موضع الألم ؟ »

وتذكرت ڤاندا أن بإحدى أسنانها تجويفاً ، فقالت :

— « فى الفك الأسفل ... على اليمين ... »

— « هيه ! افتحى فمك » . وقطب ڤينكل جبينه ، وأمسك أنفاسه ، ثم أخذ يكشف عن السن . وسأل ڤاندا : « هل تؤلمك ؟ » . ثم وضع آلة معدنية فوقها . وأجابت ڤاندا كذباً : « نعم » ، وهى تتساءل فى نفسها : « هل أذكره ؟ إنه من المؤكد سيذكرنى . ولكن هذه الخادم ! ما الذى يدعوها للبقاء هنا ؟ »

وفجأة انطلق ڤينكل قائلاً « لا أنصحك بمعالجة هذه السن . إنها لا تستحق العلاج » . وبعد فحص السن مرة أخرى ملوثاً شفتى ڤاندا ولثتها بأصابعه الملوثة بلفائف التبغ ، أمسك أنفاسه مرة أخرى ، ثم وضع شيئاً بارداً فى فمها . وأحست ڤاندا فجأة بألم حاد ، فصرخت ، وقبضت على يد ڤينكل

فقال الطبيب : « كل شىء على ما يرام . لا تنزعجى . ليس لهذه السن فائدة... يجب أن تكونى شجاعة » ، وأخرج أصابعه من فمها ملوثة بالدماء وممسكة بالسن... وتقدمت الخادم ووضعت إناء تحت فم ڤاندا . وقال ڤينكل : « عليك أن تغسلى فمك بالماء البارد عند عودتك إلى المنزل ، فإن هذا سيمنع النزيف »

ثم واجهها فى مظهر الرجل الذى ينتظر انصرافها لتدعه فى سلام . فقالت : « نهارك سعيد . ثم اتجهت إلى الباب منصرفة . وتساءل ڤينكل فى لهجة ضاحكة : « هم ! وما رأيك فى أجرى ؟ »

« آه ! حقاً ! » وتذكرت ڤاندا فمدت يدها إلى اليهودى بالروبل الذى أخذته رهناً على خاتمها

وعند ما خرجت ڤاندا إلى الطريق تضاعف إحساسها بالخجل ، ولكنه فى هذه المرة لم يكن الفقر سبب خجلها . إنها لم تعد تجد الحاجة إلى قبعة واسعة أو معطف أنيق ، وإنما أخذت تجوب الطرقات والدم ينزف من فمها ، وهى تفكر فى حياتها الكريهة ، حياتها المؤلمة ، والإهانات التى عانتها والتى سوف تعانيها فى الغد ، وفى الأسبوع القادم ، بل طول عمرها حتى نهاية أجلها

« آه ! كم هذا مؤلم ! رباه كم هذا مخيف ! »

وعلى كل حال ففى اليوم التالى ، عادت ڤاندا الساحرة إلى ملهى « رينيسانس » لترقص هناك ، وكانت ترتدى قبعة حمراء واسعة ، ومعطفاً أنيقاً ، وحذاء ذا لون فضى لامع . وقد صحبها للعشاء تاجر شاب جاء أخيراً من قازان .

صموع الدين الهامى

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)



قصة من الأدب الروسي :

« الحمـــى »

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

للأستـــاذ مصطفى جميل مرسي

١٨٦٠ – ١٩٠٤

« هذه صورة وليست قصة !.. تمتاز بألوان من الوصف الدقيق وتزخر بصنوف من التصوير البارع ... يعرضها تشيكوف — ذلك الكاتب العظيم — بريشته الفنانة وقلمه الصنع ... فيبدع الوصف ويجيد التصوير وتجيء آية بينة واضحة على قدرته البيانية وقريحته الخصبة وعبقريته في رسم المشاعر الإنسانية ، والإحساسات النفسية ...

فهو يجلو لنا صفحة رائعة شائقة من حياة مخلوق من البشر ... أصابته حمى «التيفوس» ، فخر صريعها ... وراح يعاني آلامها وبلواءها ... وأحس أن هذا لا يتيسر إلا لمن كابد تلك الآلام ، وتثلت عليه وطأة المرض ... فاشتد تأثره به .! وأخرج لنا هذه الصورة المجلوة الحقة التي لا يداخلها باطل .. ولا تخالجها مبالغة !... » « م جميل »

كان القطار ينساب بين الربوع في سرعة وفي صخب ، بعد أن خلف وراءه « بتروغراد » وغايته « موسكو » ! ... وفي إحدى عرباته جلس الضابط « كليموف » وهو شاب تجلت على سيمائه آيات العناء والألم ! .

وكان رفيقه — الذي قعد مواجهاً له — رجلا طاعناً في السن ! . حليق الذقن ... تلوح عليه دلائل الثراء والعيش الرغد . ويخيل إلى المرء أنه من أبناء « فينلندا » أو « السويد » ... لم يبرح طيلة السفرة ... يدخن « غليونه » ، وينفث هباءه في الهواء ! ... وكان ثرثاراً مهذاراً ، نهماً إلى الحديث ، شرهاً إلى الكلام ... لا ينفتأ يلفظ بهذره حول معنى واحد ... دون تنويع ولا تبديل ! ...

— « ها ! . إنك ضابط ! . كذلك لي أخ ضابط ؛ بيد أنه نوتي يجوب البحار ! . . ألا خبرني ما الداعي لذهابك إلى « موسكو » ؟ ! . »

— « إن لي مقاماً هنالك ! ! . »

— « ها ! ! أما تزوجت بعد ؟ ! »

— « كلا ... إني أعيش مع خالتي وأختي ! . »

« إن أخي ضابط كذلك ، غير أنه متزوج ... وقد أنجبت له امرأته ثلاثة أطفال ... ها ! ! . »

وكان الرجل الفنلندي ينظر — خلال ذلك — في بلاهة وغرابة ... وترتسم على شفتيه ابتسامة تعبر عما يختلج في نفسه من جذل ومرح ، حينما يهتف : « ها ! ! . »

أما كليموف — وكان يشعر بدوار وصداع في رأسه ، ويحس بفتور ودعث في جسده — فقد برم بالجواب على أسئلته ... وراح يحمل عليه في قلبه إصراً وبغضاً ! ... وتراود نفسه رغبة جامحة في أن يختطف غليونه ... ويلق به تحت المقعد ، ويأمر « الفنلندي » نفسه بالبحث عن عربة أخرى . !

وقال يحدث نفسه — وقد ضاق به ذرعاً « ما أفظع أولئك « الفنلنديين » وأبغضهم إلى النفس ! . إنهم أوغاد مذقو الخلق ، أولو خسة وذوو سفه ... لا يأتون إلا كل تافه غير محمود من الأفعال ... وما خلقوا إلا ليعوقوا العالم فحسب ! . فما أدري مكرمة ذاعت لهم ، ولا حسنة أثرت عنهم ! . »

وزاد إحساس الضابط الشاب بما يكتنفه من وعك وكآبة وألم ! . فعلا وجهه شحوب وامتقاع ... وسرى الجفاف والظمأ إلى حلقه فلذعه لذعاً شديداً ، وضاقت رأسه — وقد تثلت تحت وطأة الصداع — عما يضطرب فيها من أفكار سوداء تجول بخاطر معربدة صاخبة على غير هدى ... ثم لا تلبث أن تفيض على ما حوله من مقاعد وأناس يلوحون في حلكة الظلام ! ...

ويطارق سمعه — في عنف - خليط من المرج والمرج ... يتراءى إليه من بلبلة الأصوات وضوضاء العجلات ، وصفق الأبواب وهدير الأجراس وصفير القطار وضجيج الناس وعجيجهم في كل محط يقف به ! .

وكان الزمن يمضي متباطئاً على مهل حيناً ، وسريعاً على عجل حيناً آخر ... ولاح لكليموف وكأن القطار يقف كل دقيقة في محطة ! . وتمر به القطارات الأخرى سراعاً يلاحق بعضها بعضاً بينما قطاره يتهادى في سيره ويدوي ويجلجل ! ...

إن سمع تلك الجلبة وذلك الصفير .. ومرأى هذا الفنلندي

وهذه الحلقات من الدخان ينفثها من غليونه في الهواء ... كل ذلك يمازج مع الكآبة السوداء التي تمتديه في إبهام . وتمخض عنه كابوس مخيف يجثم على صدره ، ويكاد أن يزهق أنفاسه ! .

وبينا هو في غمرة ذلك العذاب الأليم ، ورفع رأسه المصدع ونظر من خلال عينيه الذابلتين ... إلى المصباح ! . وقد راح يرسل ضوءاً واهناً متراقصاً لا يثبت على شيء . . ويمقد الظلال ، ويشيع جواً من الرهبة والغموض ! !

وود « كايموف » لو يرفع صوته بطلب شربة ماء ... ولكن لسانه جمد ... فقد يبس ريقه وجف حلقه من حرقة الصدى ! . كما أن قوته وهت عن أن تجيب « الفنلندي » إلى ما يسأله إياه ، وتستمع إلى ما يهذي به .

فحاول أن يمدد جسده على المقعد حتى تداعب عينه سنة من النوم ... ولكن النوم أبى عليه أن يأخذ بمعاقد أجفانه . وظلت تلك الكآبة القاتمة والخواطر السوداء والصور الغريبة تعبث به وتعبث من حوله ... في حين أن ذلك «الفنلندي» نام ملأ جفونه ما حلاله النوم ، وعلا شخيره ؟ . ثم أفاق من نومه وأشعل غليونه وطفق يحدثه ويردد « ها ! ! . » ثم لم يلبث أن غط في النوم من جديد ! وتحامل « كايموف » على نفسه في «سبيروف» أو نهض يسعى في طلب الماء ! . فامتد طرفه إلى فريق من الناس يجلسون إلى مائدة حافلة بالطعام ، ويأكلون في شراهة وعجلة ... فتمتم وهو يحاول أن ينأى بأنفه عن رائحة الشواء ويشيح بوجهه عن مرأى أولئك القوم وهم يلوكون الطعام في أفواههم المكتظة : « كيف يأكلون ؟ ! »

ثم لمح بعد ذلك امرأة وضيئة تتحدث إلى رجل عسكري يضع على هامته قلنسوة حمراء .. وتبتسم له ، فيفتر ثغرها عن أسنان كالدر المنظوم ... ولكن أثارت تلك الابتسامات وتلك الأسنان اللؤلؤية وتلك السيدة الوضيئة ذاتها عاصفة من السخط والحنق في نفسه ! .

وإذا ما أدرك بغيته من الماء ! . قفل راجعاً إلى مجلسه ... فألفى « الفنلندي » قد استوى على كرسيه يدخن ، فلما أبصره « الفنلندي » قال له في شيء من العجب : « ها ! ! أي محطة هذه ؟ ! » فأجابه كايموف في صبر نافذ وقد استلقى على مقعده وضم شفتيه حتى لا يتسلل إلى حلقه دخان الغليون الحاد اللاذع : « لست أدري ! . »

— « متى نصل إلى مدينة « تفر » ؟ ! ... »

— « لست أدري ! ومعذرة إن كنت لا أستطيع الكلام إني مريض ضيق الصدر ! ! ... »

فطرق « الفنلندي » حافة النافذة بغليونه ! . وطفق يحدثه عن أخيه البحار فلم يعره « كايموف » أدنى التفات ولم يكترث له بل راح يفكر في فراشه الوثير اللين ... وإبريقه البلوري ذي الماء العذب القراح ... ويتصور في خياله أخته « كاتي » التي تعرف كيف تروض نفسه وتخلع رنته وتحنو عليه وترنو إليه ! . ثم ارتسمت على شفتيه بسمة شاحبة ، حينما تذكر خادمه الجندي « بافل » وهو ينزع حذاءه الضخم في رفق ... ويضع الماء على المنضدة في هدوء ! ... وخيل إليه أنه ما يكاد يستلقي على سريره ويجرع بعض الماء يطفئ به غلته ... حتى يزول عنه ألمه ، ويبرأ من سقمه ! ويغط في نوم هادئ ! ...

عادت تلك الأصوات تختلط في سمع كايموف في هرج ومرج وراح يطرق أذنه في عنف هدير الأجراس وصفير القطار ... وضوضاء العجلات ، وهي تنساب صاخبة على القضبان ! .

فدفن كايموف وجهه — وقد تملكه اليأس وألح عليه الألم — في وسادة المقعد ... ثم أمسك برأسه بين يديه ... وثانية راحت تطوف بفكره خواطر عن أخته « كاتي » وخادمه « بافل » ... ولكن أخته وخادمه اختلطا — هذه المرة — في الصور التي تتهيأ له والأشباح التي تتمثل لوهمه ... ولفحت وجهه حرارة زفراته التي تردها عليه الوسادة ... وقد دفنه فيها ! .

وتسرب الوهن إلى عظامه فشقت عليه الحركة .. وتسلل من النافذة تيار هوائي بارد ، فأصاب ظهره ... بيد أنه لم يحرك ساكناً وأبى أن يغير الوضع الذي استقر عليه جسده ... ثم لم يلبث أن غاب في سبات قلق مضطرب ، سعى إليه فغل أطرافه وأغمض أجفانه ! ! ...

فلما ثاب إلى رشده — بعد أن انقضى زمن طويل — رأى النهار بازغاً ، والشمس تبث في أوصال الكون ضياءها ! ...

وكان السفر يهمون بارتداء معاطفهم ، ويتهيأون لمغادرة القطار ... حتى إذا وقف في الموضع الذي أعد له .. أسرع الحمالون في مآزرهم البيضاء ، وأرقامهم النحاسية الصفراء ... إلى الركب يحملون عنهم متاعهم وحقائبهم ...

فألقى « كايموف » معطفه على منكبيه في حركة آلية ...

وغادر القطار ! . وأحس — وهو يسير أنه ليس هو . بل مخلوق آخر ! . غريب ... وأحس أن حرارة القطار ما زالت ناشبة فيه ... وأنه ما برح مصحوباً بذلك الصدى فى حلقه ... والأشباح من حوله ... والكآبة فى نفسه ... وهى التى جميعاً حرمت جسده لذة الرقاد وحبست عن عينه نعمة النوم ...

واستقل عربة — كانت واقفة خارج المحطة — بعد أن وضع أمتعته إلى جواره فى تلك الحركات الآلية ... وتقاضاه السائق « روبلا وخمس وعشرين كوب » حتى يبلغ به دارة فى شارع « بوفارسكا » ... فأذعن لما أراده عليه ، ولم يساومه وهو يعلم حقاً أن ثمت زيادة فى الأجر ... بيد أن النقود لم تكن ذا قيمة لديه فى ذلك الحين ! ...

فلما بلغ بيته .. تلقته خالته بالترحاب ! . وقابلته أخته وهى غادة هيفاء شارفت ربيعها الأول من العمر .. تحيته بإيماءة رقيقة وهى ممسكة بقلم تخط به فى كراسة معها .. فتذكر أنهـا تتهيأ لامتحان تنال به إجازة التدريس ..

ولـكنه لم يرد تحيتها ولا أجاب على أسئلتها ! . بل راح يلهث من الأتون الذى يضطرم فى صدره .. وانطلق على غير هدى ولا بصيرة .. يجتاز الحجرات إلى حجرته .. فارتمى على فراشه يئن ويتأوه ..

وتراءت لخياله من جديد تلك الأشباح والصور التى لازمته فى القطار ! . الفنلندى وغليونه .. الجندى ذى القلنسوة الحمراء ! . والسيدة ذات الثنايا اللؤلؤية .. ورائحة الشواء . وضياء الصباح الواهنة .. المتراقصة .!! فأفقدته صوابه وسلبته رشده وجعلته لا يشعر ما حوله ولا يسمع تلك الأصوات القلقة على مقربة منه .!

فلما أفاق من غشيته .. ألفى نفسه منضطجعاً فى فراشه .. عارى الجسد أو شبه عار ! . ولمح خادمه «باڤل» ، وذلك الأبريق البلورى ذا الماء العذب .. بيد أن هذا لم يخفف من حدة مرضه ، ولم يجلب عليه راحة أو سكينة ..

فأرجح أطرافه واهنة متيبسة يشق عليه تحريكها. ولسانه قد تشقق من جفاف .. حتى عكدته وعلاه الطلا[١] .. وراحت ترن فى مسمعه قهقهة ذلك الفنلندى وقولته : « ها !! . »

وقام إلى جوار فراشه رجل بدين عظيم الهامة ذو لحية سوداء إنه الطبيب ! . ينظر إليه فى إمعان وتأمل ، ولم يلبث أن نبس فى صوت ذى قهقهة وتشدق : « حسن ! . حسن .. يا صغيرى رائع .. رائع .. لقد رأت تماماً ! .. »

فأثارت طريقة الطبيب فى النطق ، وضغطه مخارج الحروف حنق كليموف .. وأغضبته دعوته له بـ « يا صغيرى » ، وأسخطه ذلك التلطف البغيض الذى يبديه نحوه . فلما تمم قائلا: « ما الذى يدعوك إلى مناداتى بـ « يا صغيرى » ؟ . وما علة تلك الإلفة التى تحدثنى بها ؟ . عليك اللعنة ! . » راعه من صوته جرس أجش عمق ! . كاد أن ينكره !! .

كان الوقت يكر فى سرعة يزعج لها القلب ، كزمن القطار ! . فقد كان ضوء النهار يغمر الغرفة ويسطع فى أرجائها .. ثم هاهى ذى عتمة المساء تخيم وتشيع فى أنحائها ! . ولـكن الطبيب لم يبرح الغرفة ، بل ظل فمه يتشدق بتلك الألفاظ البغيضة الثقيلة فى كل حين ! .

وعاد يتراقص أمام ناظره فى فضـاء الحجرة العريض صف غير ذى نهاية من الوجوه والسحن .. « باڤل » .. الفنلندى .. القائد « ياروشفتش » .. والضابط « مكسيمنكو » .! . وذو القلنسوة الحمراء ... السيدة ذات الثنايا اللؤلؤية ... الطبيب المتفيهق ! كلهم يتحدثون ويلوحون بأياديهم ! ويأكلون فى نهم

ولم يلبث « كليموف » أن أبصر — فى بياض النهار الأول — كاهن الكنيسة الأب « ألكسندر » فى مسوحة الدينية ... يقبض بين أنامله على الصليب ! .. ويتمتم بصلوات وأدعية ! .. وقد تجلت عليه دلائل لم يرها « كليموف » من قبل .. فشردت عن وجهه تلك الابتسامات والضحكات التى طالما طالعته مترسمة عليه .. وتبدت عليه سيماء الرزانة والرصانة ! .. وأخذ يرسم على كليموف علامة الصليب !..

وفى الليل .. كانت تتسلل حوله أشباح وظلال تغدو وتروح فى إبهام وغموض ... وكانت أخته راكعة إلى جواره ! .. تردد صلاة خفية فى صمت وخشـوع .! وترفع طرفها — فى هيبة ورغبة — إلى السماء حيناً تطلب الرحمة من الله ... وإلى صورة « القديسين » أحياناً تسائلهم العطف والشفاعة ..

ما أن تنسم « كليموف » البخور والأرج — وهو يتضوع فى جو الغرفة — حتى صاح — وقد استفزه ما استقر فى بطنه « إحملوا هذا البخور اللعين بعيداً ! . »

بيد أنه لم يكن ثمت من يجيبه .. وكان يتراءى إلى سمعه من بعيد صوت الكهنة ، وهم يرتلون أناشيد « الوداع » .. وصدى خطوات تهرول على درجات السلم بين صعود وهبوط ! .

(١) عكدة اللسان أصله . والطلا بياض يعلوه من مرض أو عطش . « جيل »

حينما خفت وطأة الحمى عن كليموف . وأنثنى عنـــه هذيانه ! . كانت غرفته عاطلة من البشر .. وراحت أشعة الشمس تفيض من خلال النوافذ ، وتسيل من بين السدول والأستار ! . وراح يتراقص على مياه الإبريق البلورى شعاع مرتعش من النور دقيق براق كالسيف المسلول ... وطرق سمع « كليموف » صليل المجلات وصرير العربات وهى تدرج فى الطريق ، فأدرك أنه خلو من الثلوج ..

فراح يمد طرفه إلى ذلك الشعاع .. ثم يقلبه بين أثاث الغرفة ومتاعها .. ونوافذها وبابها . ولم يلبث أن راودت نفسه رغبة ملحة فى الضحك .!!. فأخذ صدره يهتز وخصره يرتج من الضحك العذب البهيج الذى راح يجتاح جسده من هامة رأسه حتى أخمص قدمه .. وهو لا يدرى لذلك سبباً سوى الشعور البالغ من السعادة والارتياح ، والاحساس السابغ من البهجة والمراح ..

وتملك كليموف شوق فائق إلى الناس والحركة والحديث ، غير أنه لم يقو على تحريك أى عضو من جسده لما يعتريه من وهن وضعف ! كان منشرح الصدر طلق المحيا لتنفسه الهادىء، طيب النفس طرب الفؤاد لضحكه وبشره !. ووجود ذلك الإبريق البلورى ذى الماء العذب الفرات .. وشعاع الشمس المرتعش ، وأستار النافذة المزركشة المزينة بشتى الألوان ..

ولاح له فيما بين جدران غرفته كون فاتن رائع !. أبدع الخالق صنعه ! وحينما وافى الطبيب إلى غرفته ملك الصبيحة تمثل فى ذهنه ماهو عليه من علم وبراعة فى التشخيص ، ودماثة ورقة فى المعاملة وحسن وظرف فى المعاشرة .. ما أجمل الناس جميعاً !. ما ألطفهم !!

قال الطبيب « رائع !. رائع .. لقد تماثلت يا » صغيرى « للشفاء .. وكدت أن تبرأ وتعاودك عافيتك !.. »

فأصغى الضابط الشاب إلى فهقهته فى النطق ..وهو يضحك جزلا .. ثم هاجته ذكرى ذلك « الفنلندى » .. والسيدة ذات الثنايا اللؤلؤية .. والقطار .. فانقلب ضحكه إلى قهقهة ..

ثم لم يلبث أن طلب بعض الطعام والسجائر .. وقال فى إلحاف « أيها الطبيب !. دعهم يحضرون لى خبزاً وسردينا وملحاً .. » فأبى الطبيب عليه ذلك !. وصدع «باقل» بأمره .. ولم يسع فى طلب الخبز لسيده .. فطفق « كليموف » يصرخ ويصيح كالطفل حينما لا يجاب إلى بغيته .. فقال له الطبيب وهو يضحك مداعباً : « إسكت .. أيها الوليد الصغير .. » فلم يسع كليموف سوى أن يشاركه ضحكه ! ولما غادره الطبيب أغرق فى وسن هادىء عميق ... أفاق منه بعد حين ومازال هذا الإحساس المفعم بالمرح ، الفياض بالسعادة . يتملكه ويتسلط على نفسه .. وقد جلست خالته بجانب فراشه ... فابتدرها قائلا فى بهجة وبشر :

« آه .. يا خالتى !. ما الذى كنت أعانيه ؟!.. »

— « تيفوس ! ... »

— « أحسبه كذلك ! بيدأنى الآن فى تمام الصحة أين كاتى؟»

— « ليست بالدار ! ... لعلها ذهبت لزيارة إحدى لداتها بعد فراغها من الامتحان ! . »

ومالت المرأة العجوزة — وهى تقول ذلك — نحو جوربها كأنها تبغى إصلاحه بيد أن شفتيها أخذتا ترتعدان ! . فأشاحت بوجهها بعيداً ... وبغتة راحت تجهش بالبكاء، وتنشج بالنحيب . لقد نسيت فى غمرة حزنها وحسرتها ما أمرها به الطبيب فقتأت تصيح : « آه ... كاتى ! كاتى ! ... لقد ذهب عنا ملاكنا ... لقد رحلت ! . » وأطرقت برأسها إلى الأرض ، وهى تتأوه من البث والأسى ... فحملق كليموف فى شعرها الرمادى .. لا يحير فهما لما تقول ، فسألها وقد تولاه الانزعاج ... لـكاتى ... « ولـكن أين ذهبت يا خالتى ؟ ؟ ! ! . »

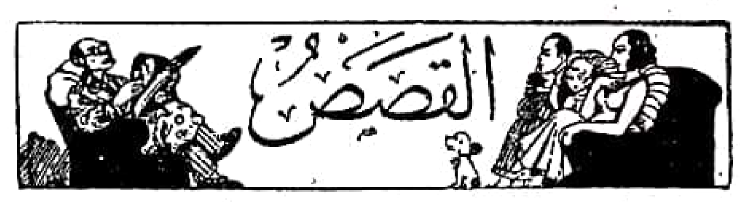
فأجابته العجوز بين دموعها التى راحت تنهمر على وجنتيها ، وتكاد أن تخنق صوتها : « لقد أصيبت منك بالتيفوس ! ... وماتت ! وواريناها التراب فى اليوم السابق على البارحة ! »

على الرغم من فجاءة وهول ذلك النبأ المفزع المروع ... فما استطاع « كليموف » أن يقمع تلك الغريزة الحيوانية ، التى جنحت بالضابط الناقه إلى الضحك والمرح ! فراح يصيح ويقهقه ويشتكى الجوع ... حتى إذا انقضت سبعة أيام ... اعتمد كليموف على ساعد « باقل » وخطى وئيداً حتى دنى من النافذة ... حيث قام ثمت يسرح الطرف فى مسارى الربيع الطلق الضاحك وهو ينفث فى الأرض الحياة والخضرة ! وقد علت شمس الضحى فى السماء تكاللها الغيوم والسحب . وطرق سمعه صليل العربات تخيل إليه أنه فظيع حاد!

حينئذ صدع قلبه الأسى وأمضه الكمد ... وأحس بوقع الفجيعة عليه أليما عنيفاً ... فطفق ينتحب فى وله ومرارة ويغمغم شارد اللب كاسف البال ... وقد دفن رأسه بين راحتيه ... « كم أنا شقى ! ... يا ربى ... كم أنا شقى ! ... »

وودع بهجته ومرحه ... وانثنى يضطرب فيما كان يكتنفه من سآمته للحياة وضجره بالعيش . وقد ضاعفتهما غداحة تلك الخسارة التى لا تعوض ! ...

(طنطا) مصطفى جميل مرسى



أقصوصة روسية :

تحـــفة يتيمة !

للكاتب الروسى أنطون تشكوف

بقـلم الأديب كمال الدين الحجازى

وصل «ساشا سميرنوف» إلى عيادة الطبيب «كوشلكوف» يحمل تحت إبطه شيئاً ملفوفاً .

كان ساشا وحيد أمه فسأله الطبيب : كيف حالك يا ولدى ؟ فأجاب شكراً أيها الطبيب ، إن أمى ليعجز لسانها عن شكرك على حسن صنيعك بشفاء ولدها ! فقال الطبيب : إننى لم أعمل سوى ما يفرضه الواجب على كل طبيب . فقال الولد : إن أمى فقيرة أيها الطبيب الفاضل ولا تملك سوى هذه التحفة الثمنية التى أحملها بين يدىّ والتى أرجو أن تتقبلها . فقال الطبيب : لا داعى لذلك ولا ضرورة له . ولـكن ساشا أصرّ على تقديم الهدية إليه وألح عليه بقبولها ، وقال إن رفض الهدية يعد إهانة له وتصغيراً من شأنه ومن شأن أبيه الذى أورثه ذلك الأثر الفنى والذى هو بمثابة تذكار منه ، فقد اعتاد أبوه أن يشترى الآثار البرنزية ويبيعها من عشاق الآثار القديمة . ثم وضع الأثر على المنضدة .

كان الأثر شمعداناً من البرنز ، جلس على قاعدته تمثالان لامرأتين عاريتين على هيئة حواء ، يستحى المرء من وصفهما ، كان هذان التمثالان يبتسمان ويميل أحدهما على الآخر بدلال كأنه يقبله ويتأهبان للرقص ! ولما أنعم الطبيب النظر فى الهدية حك رأسه وقال : لا ريب أنها تحفة فنيـة ولـكنها ... لست أدرى ما أقوله ، فالشيطان يوسوس فى صدور الناس ! وهل من اللائق أن أضع هذا التمثال الملوث على المنضدة ؟ فقال ساشا غاضباً : ولم لا يا دكتور ؟ إنك تحمل على الفن حملة شديدة . إن هذا عمل فنى خالد . إن الروحانية تتمثل فيه بأجمل صورها . ولا ريب أن الناظر إليه سينسى كل ما يحيط به من الأمور المادية ويتطلع إلى المثل العليا ! دقق النظر فيه تجد الجمال والروحانية تدعوانك إليهما ! فقال الطبيب : إنه أثر خالد يا ولدى ، ولـكنك تعلم أننى متزوج ، وأعتقد أن من غير اللائق أن أضعه فى هذه الغرفة التى يغشاها كثير من النساء والأولاد دائماً . فقال ساشا : أنك تنظر إلى التمثال نظرة الشك والريبة وتتطلع إليه بأعين السوقة وعامة الناس ، ويجب أن تسمو عن ذلك يا دكتور . إنه الأثر الوحيد الذى أورثنيه أبى وقد آليت لأهدينه إليك ، فقد شفيتنى من المرض . فقال الطبيب ، وقد أراد التخلص من هذه الورطة ، لا بأس يا ولدى ، ضعه على المنضدة . وضع ساشا الشمعدان كما أشار وقال للطبيب : آسف إذ لم أجد رفيقه ولـكنى سأجد فى البحث عنه ، ولم يدر الطبيب ما يقصده ساشا من رفيقه أو شريكه ، ثم ودعه وخرج .

أراد الطبيب التخلص من هذا التمثال ونظر إليه ملياً ، فخطر بباله أن يهديه إلى صديقه المحامى الذى كان مديناً له ببعض النقود وقال فى نفسه : إنها فكرة حسنة ، سأقدم إليه هذه التحفة وهو رجل أعزب كالطير الطليق . سار الطبيب إلى مكتب صديقه المحامى ، وبعد أن شكره على حسن دفاعه عنه وخدماته السابقة له ، رجا منه أن يتقبل منـه هدية متواضعة وهى تمثال البرونز النفيس . وما إن وقع نظر المحامى عليه حتى أعجب بجماله ولـكنه بعد أن أدمن النظر فيه قال : أعتذر يا صديقى من قبوله ، فإن أمى تزورنى دائماً ، كما أن مكتبى يؤمه كثير من الناس كل يوم ! فقال الطبيب : لا تقل ذلك يا صديقى ، إن من نكران الجميل أن ترفض مثل هذا الأثر الفنى . فقال المحامى متهكما : « حبذا لو كانت السيقان مصقولة أو مغطاة ببعض ورق التين على الأقل » ولـكن الطبيب لم يأبه له واغتنم فرصة إنشغاله ببعض شأنه ووضعه على مكتبه وانصرف .

تأمل المحامى فى هذا الأثر وهم بقذفه من نافذته ولـكن يده

لم تطاوعه فقد كان الأثر جميلا ، وقال فى نفسه : ليس لى إلا أن أقدمه هدية إلى الممثل الفكاهى « شوشكين » فإن الممثلين يحبون مثل هذه الأشياء الفنية البديعة .

ولما قدم الأثر إلى شوشكين أعجب به أيما إعجاب ، كما أعجب به كثير من الناس الذين رأوه ، وقد غصت غرفته بالمتفرجين والممثلين الذين كانوا يأتون إليه فى أى وقت يشاؤون . ولما رأى شوشكين هذا العدد الغفير من الناس لم يجد بداً من التخلص من هذا الأثر الذى جلب إليه كثيراً من التعب والشقاء ، وتمنى لو كان التمثال صغيراً ليتمكن من وضعه فى درج مكتبه ، ففكر فى بيعه لأحدى النساء المولعات بمثل تلك التحف الفنية ، ولم يلبث أن باعه لها .

وبعد يومين بينما كان الطبيب كوشلكوف جالساً فى عيادته ، فتح الباب فجأة ودخله ساشا وهو يحمل شيئاً ملفوفاً بين يديه ، والابتسامة تداعب شفتيه وقال للطبيب : إنك لا تستطيع أن تتصور مقدار سرورى وابتهاجى ، فقد استطعت بعد جهد جهيد أن أحصل على رفيق التمثال وشريكه ، وأن والدتى تشاركنى الفرح أيضاً ، ثم وضع ساشا الشمعدان على الطاولة فرحاً مسروراً وخرج .

نظر الطبيب إلى التمثال وقال فى نفسه : « ترى هل شعر ساشا بأن تمثال حواء الذى أهدانى إياه قبلا كان ينقصه تمثال آخر لن تستطيع حواء أن تعيش بدونه ، فأحضر لها تمثال آدم ! ! .

(القدس) **جمال الدين الحجازى**

الندوة الأدبية

وزارة المعارف العمومية — إعلان

مسابقة الثقافة العامة لسنة ١٩٤٨ — ١٩٤٩

تعلن الإدارة العامة للثقافة بوزارة المعارف عن مسابقة ثقافية لسنة ١٩٤٨/٤٩ فى الموضوعات التالية ، وبالجوائز المبينة أمام كل منها وهى .

١ — تمثيليات قصيرة للمسرح المدرسى — وقيمة جوائزها الأولى ٤٠ ج لتمثيلية الفصل الواحد و ٧٠ ج لتمثيلية الفصلين وقيمة جوائزها الثانية ٣٠ ج لتمثيلية الفصل الواحد و ٥٠ ج لتمثيلية الفصلين .

٢ — تمثيليات قصيرة للإذاعة المدرسية — وجائزتها الأولى ٣٠ ج والثانية ٢٠ ج .

٣ — المسرحيات العامة وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية ١٠٠ ج .

٤ — القصة الطويلة وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية ١٠٠ ج .

٥ — القصص القصيرة وجائزتها الأولى ٢٥ ج والثانية ٢٠ ج .

٦ — بحوادث أدبية وفنية وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية ١٠٠ ج .

٧ — بحوث فى التاريخ والآثار وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية ١٠٠ ج .

٨ — الرحلات وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية ١٠٠ ج .

٩ — العلوم المبسطة وجائزتها الأولى ١٥٠ ج والثانية ١٠٠ ج وعدد جوائزها اثنتان أولى ، وأربعة ثانية .

وآخر موعد لقبول موضوعات هذه المسابقة هو آخر نوفمبر سنة ١٩٤٨ ويمكن الاتصال بإدارة التأليف بوزارة المعارف للحصول على الشروط المفصلة لهذه المسابقة . ٩٤٨٦

حب في الشتاء

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف   ترجمها جميل حمودي صاحب مجلة الفكر الحديث العراقية

☆

كانت ظهيرة صافية من ذلك الشتاء . وكانت صرصرة الجليد حادة ، وكانت ضفائر (نادينكا) المتدلية على اصداغها ، والزغب الناعم النابت على شفتها العليا ، مكسوة كلها بطبقة من الصقيع الفضي .

كنا واقفين على تل مرتفع وهي تتشبث بذراعي، وقد امتد من حيث وقفنا الى هناك حيث الارض المتمادية تحتنا ، منحدر ناعم شديد الانحدار ، وقد غمرته الشمس بانعكاسات اشعتها التي جعلته أشبه بالزجاج . وفي الجانب منا عربة تزحلق صغيرة خططت بشريط أحمر براق .

« دعينا ننزل يا ناديشدا بتروفنا » ... بهذه العبارة توسلت اليها ، ثم أضفت « مرة واحدة فقط . اؤكد لك أننا سنكون بعيدين عن الخطر » . ولكن نادينكا كانت خائفة ، وخيل اليها ان النزول من خفيها الصغيرين الى القعر من التل الثلجي شيء مخيف، وانها أمام دركة جسيمة . وتطلعت الى الاسفل حين اقترحت عليها ان نحتل مكاننا في العربة ، فما أسرع ما وهنت روحها وارتبك تنفسها ! فكيف اذن يكون الحال لو كانت هذه العربة طائرة بنا الى اعماق الهاوية !... ربما تموت ، أو تجن ...

وقلت لها وأنا أحاول اقناعها : « أتضرع اليك ان لا تكوني خائفة ، وأنت تعلمين أن شعورك هـذا جبن . وانه ليس من الشجاعة في شيء » ...

واخيراً استطعت اقناع نادينكا . الا أنني لمحت في وجهها أنها انا أذعنت في رعب مميت . فأجلستها في العربة مخطوفة اللون مرتعشة وأحطتها بساعدي ، ثم انطلقنا في المنحدر ...

انطلقت العربة بنا كأنها رصاصة البندقية . والهواء المنشطر بمروقنا يضرب وجهينا ويزمجر ، ليرتد فيعصف برؤوسنا كأنه يحاول خطفها من على اكتافنا . كان من الصعب ان نغالب القوة التي نتنفس بها من الريح المالحة ، وخيل الينا كأن الشيطان الهائج قد قبض علينا بمخالبه يجرنا الى دركات جهنم . كنا بين اللحظة والاخرى نتصور أننا على وشك أن نهلك .

« أحبك يا ناديا » ... قلت ذلك بصوت خافت . وبدأت العربة تتباطأ ، وزمجرة الريح ، وأصوات العربات الاخرى صارت أقل ازعاجاً ، وكان اسهل علينا ان نتنفس فقد وصلنا اخيراً الى القعر . وكانت نادينكا الى الموت اقرب منها الى الحياة . كانت مخطوفة اللون تتنفس بصعوبة ... وساعدتها على النهوض، فقالت وهي تنظر الي بعيون واسعة مليئة بالرعب : « ان يقنعني شيء ، أي شيء في العالم ، أن اذهب ثانية .. ، لقد كدت أموت » . ولكنها استعادت نفسها بعد قليل ونظرت الي تستفهم من عيني متعجبة ، هل أنا حقيقة تمتمت تلك الكلمات الثلاث ، ام انها هي اختلطت عليها الاصوات فخيل اليها ذلك ! ? . أما انا فقد وقفت الى جانبها أدخن وأنظر بانتباه الى قفازي . وبعد حين أخذت نادينكا ذراعي فأمضينا هنيهة طويلة نتمشى قريباً من تل الثلج ، الا أنه كان جلياً أن اللغز لم يدعها ترتاح ... هل ان تلك الكلمات قيلت ام لا ؟ ... نعم أم لا ؟ ... نعم أم لا؟ انه سؤال يتعلق بعزة النفس ، بالشرف، بالحياة — سؤال مهم جداً ، السؤال

قصة

الأهم في العالم . وبصبر نافذ أرسلت نادينكا الى وجهي نظرة حزينة نفاذة الوميض وانتظرت لترى ما اذا امتنعت أنا عن الكلام.
ويا لله من لعب الاحاسيس على الوجوه الجميلة !

لقد رأيت أنها تكافح نفسها في أن تقول شيئاً ، او أن تسأل سؤالاً . ولكنها لم تقو على اختيار الكلمات . ولقد أحسست انها عديمة المهارة ومضطربة . ولكنه ظهر على محياها بريق مفاجىء. فأسرعت تقول من غير ان تنظر الي :

« هل تعلم ؟ »

وسألت بدوري :

« حسناً ؟ »

فأجابت :

« دعنا . . . نتزحلق ثانية . »

تسلقنا التل الثلجي بالسلالم ثانية . وأجلست نادينكا مخطوفة اللون مرتعدة في العربة . وانطلقنا ثانية الى الهاوية المرعبة، وبدأت الريح تعصف مرة اخرى والعربات المتزحلقة الاخرى تصوت ، وثانية عندما صار سير عربتنا خاطفاً ومصوتاً قلت بصوت خافت :

« احبك يا ناديا . »

وعندما وقفت العربة ، رشقت نادينكا التل بنظرة من الجهة التي مرقنا منها ثم صوبت نظرة طويلة الى وجهي ، واصغت الى صوتي الذي كان رزيناً وغير مرتعش . اما هي ، فقد كان كل شيء في تكوينها ، كل ناحية منه حتى فروتها وقلنسوتها كانت تعبر بأقصى ما يمكن عن شدة حيرتها كأن على وجهها بات مكتوباً :

« ماذا تعني ؟ من تم تلك الكلمات ؟ هو ؟ ام انني واهمة ؟ » .

أتعبها عدم التأكد وجعلها تخرج من حالة الصبر . ولم تستطع الفتاة البائسة ان تحل اللغز فاذا بها توشك ان ترسل الدموع .

وحينئذ سألتها :

« أليس من الافضل ان نذهب الى البيت ؟ » .

الا أنها قالت وقد احمرت وجنتاها :

« حسناً انني . . . انني احب التزحلق ، فهل سنتزحلق مرة اخرى ؟ » .

انها اذن « احبت » التزحلق بالعربة ! ، على الرغم من انها كانت في هذه المرة ايضاً ، كما في المرتين السابقتين ، مخطوفة مرتجفة يصعب عليها التنفس من الفزع .

وهكذا رحنا نتزحلق للمرة الثالثة . ورأيتها تنظر الى وجهي وتراقب شفتي ، ولكنني وضعت منديلي على شفتي وسعلت ، وحالما وصلنا منتصف التل نجحت في ان الفظ بصوت خافت :

« احبك يا ناديا . » .

وفي طريق عودتنا الى البيت ، وجدت نادينكا ساكنة تفكر في شيء ما وقد جربت ان تتباطأ في المسير وترخي خطاها . وظلت تنتظر لترى فيما اذا أسكت عن قول تلك الكلمات لها ورأيت كيف ان روحها كانت تتعذب . وكيف ان انفعالها كان يمنعها ان تقول لنفسها : « انه ليس من الممكن ان تقولها الريح ، ولست اريد ان تكون الريح قد قالتها . » .

وفي الصباح الثاني تلقيت رسالة مختصرة :

« اذا كنت راغباً في التزحلق اليوم ، فهيا الي »

ومنذ ذلك الوقت بدأت اذهب كل يوم للتزحلق مع نادينكا . وكلما انطلقت العربة بنا كنت اتلفظ بصوت خافت نفس الكلمات.

وما مر الوقت حتى تعودت نادينكا تلك العبارة كما لو انها الكحول او الافيون . اضحت لا تحتمل ان تحيا بدونها . اما التزحلق من التل الثلجي ، فقد كان في الحقيقة يرعبها مثل ما حدث في السابق ، ولكن الفزع والخطر قد اضافا بعدئذ جاذبية خاصة لتلك الكلمات . كلمات الحب التي لم تكن سوى سر مؤلم لها . ان نفس الاثنين ، أنا والريح ، بقيا متهمين . . لم تكن تعلم أيهما كان يدعي حبها ، ولكن لم يعد يهمها ذلك . وحدث ان ذهبت الى ساحة التزحلق وحيداً في ظهيرة يوم ، مختلطاً بالمحتشدين ، فرأيت نادينكا تصعد التل باحثة عني شاعرة بالخيبة . . كانت مرتعبة جداً لذهابها وحدها . فمضت الى المصطبة الا أنها مضت بثبات ودون ان تنظر خلفها فلقد صممت أخيراً ان تظاهر الذوق في تصرفها وتنتهي اليه . فهل ستسمع تلك الكلمات حين لا اكون انا هناك ؟!

لقد رأيتها مخطوفة . وشفاهها متباعدة لفرط الارتجاف ، حين اخذت مكانها في العربة واغلقت عينيها . وتناست شواغل فكرها وهي كأنها تودع الارض الى الابد . . اما ان نادينكا سمعت تلك الكلمات ام لا فلست ادري . ولكني فقط رأيتها تنهض من العربة وهي في حالة الضعف والتلف بحيث يستطيع من يراها ان يفهم من وجهها انها لا تستطع ان تقنع نفسها سواء أسمعت شيئاً ام لا . ان جزعها ، وهي تتزحلق ، حرمها قوة السمع وتمييز الاصوات لقد جرتها غيرتها العظيمة وانفعالها العميق الى ان تحل هذا السر المحبوب . الا انها لم تجرب التزحلق وحدها ثانية .

واقبل شهر مارس . . واشعة شمس الربيع صارت اكثر رحمة .

في الخليقة

في البدء كان آدم وكانت حواء من ضلعه وأحبها وأحبت هي حبه لها . وأتاح لهما الله ان ينعما بالجنة ، بكل ما فيها ، الا شجرة معرفة الخير والشر فانه نهاهما عنها .

ولم يكن في خلد آدم ان يعصي الله ، ولكن حواء في ساعة من ساعات عبثها ومجونها تمنت ان تأكل من الشجرة المحرمة وابانت رغبتها لآدم فقام لفوره يسعى الى الشجرة وخشيت حواء سوء المصير ، فنهته فلم يرتدع ، ذلك لان حواء أرادت فليكن لها ما تريد لا يبالي بعدها ما يكون شأنه مع سيد الجنة .

وعلق آدم بغصن من الاغصان وهم بجذبه اليه فتصيح حواء : « يا آدم لا تفعل فاني اخاف ان نغضب الله بفعلتنا . » .

ولكن ادم فعل فقصف الغصن وأخذ تفاحة كانت فيه ولم يذق منها شيئاً ، وانما قدمها لحواء وسمر عينيه في عينيها عله يلمس فيها دلائل الرضا .

وحواء أخذت التفاحة وأكلت منها بشغف . ولم تكن لذتها بالتفاحة لتفوق لذتها بانقياد آدم لمشيئتها وتمرده على مشيئة الخالق من اجلها . ولكنها لم تلتفت اليه بل قالت بجدوء وقساوة : « لقد اتينا أمراً منكراً ولا أدري ما تكون عاقبة فعلتك هذه ، لقد جنيت علينا يا آدم واني أوجس شراً قم بنا نختفي من وجه الله . »

واغتم آدم ان تفكر حواء بالمصير وان لا تكون فرحة بما اتى من اجلها .

وانكشفت فعلة آدم وحواء وغضب الله فأخرجها من الجنة وكأن آدم لم يبال بالعقاب ، وما همه ان يكون خارج الجنة وهذه حواء معه ، هي الجنة باطل كل شيء عداها .

وحواء اني اكلت من شجرة الخير والشر تدرك عظم الذنب فتحمل آدم وحده مسؤولية هذا العصيان وتنغص حياتها وتنغص حياته معها دون ان يعرف سبباً لهذه الكآبة الدائمة التي تغمرها ، فانه لم يذق من ثمرة المعرفة وانما هو اطاع رغبة في نفس حواء أراد ان يملأ حياتها بها غبطة . وانه لو رجع الى الجنة بعد ليذهبن تواً الى الشجرة المحرمة يقطف منها لحواء ، فهو ليس بنادم ، فما حبه لحواء بالعمل المنكر .

فكم يخاطب الله بينه وبين نفسه بشيء اشبه بالصلاة : « ربي انت جبلتني على المحبة ، وابحت لي جنونها ثم رحت تعاقبني ان انا اتيت امراً باسمها .

فما المحبة ان لم يتمرد الانسان في سبيلها .

وما المحبة اذا لم تتخط القيود والقوانين .

وما المحبة اذا كتفت يدي امام رغبة في نفس من هي ضلع مني لا لشيء الا لانه محرم .

ربي انا لست بنادم على قطف الثمرة المحرمة ، ولست بهاجس ان اعود الى الجنة ، فهذه حواء معي الحح فيها أجمل ما في الفردوس . فيا ليتها تقلع عن التفكر بتلك الثمرة التي بدلت مصيرنا وتلتفت الى اي محرم جديد ، فأكسر أغصانه من اجلها .

حلمي معلوف

وتحول تلنا الثلجي الى الاغبرار فاقداً بريقه ، وانقطعنا نحن عن التزحلق . ولم يكن بعدئذ للبائسة نادينكا مكان تتطلع فيه الى سماع تلك الكلمات التي لم يتمتمها احد منذ ان انقطعت الريح . وكنت قد عزمت على السفر الى بطرسبورغ في رحلة طويلة ربما تستمر الى الابد . وقبل رحيلي بيومين حدث ان كنت جالساً ، عند غبش المساء في الحديقة الصغيرة التي كانت قد انفصلت عن ساحة دار نادينكا بسياج عال تعلوه الابر الحديدية . . وكان الجو لا يزال لطيف البرودة وقد تخلف بعض الثلج في اكوام السماد . وكانت الاشجار كأنها مائتة . ولكن كان هناك عبير الربيع المنعش ، والزيفان ، وقد حطت لتنعم براحة لياليها . صعدت الى السياج ووقفت برهة طويلة اسارق النظر من خلال فرجة صغيرة فيه وفجأة شعرت بالوحشة تسري في نفسي حتى حسبت او كدت احسب اني سوف لا ارحل . رأيت نادينكا تخرج الى الطارمة وتستقر في تفجع ثم تتطلع بحنين وشوق الى السماء . كان هواء الربيع يضرب باستمرار في وجهها المخطوف الكئيب . . لقد اعاد اليها ذكرى الريح التي كانت تعصف بنا على التل حين سمعت تلك الكلمات الثلاث . وصار وجهها مليئاً بالحزن . واذا دمعتها تنحدر الى اسفل خدها ، واذا الطفلة البائسة تمد ذراعيها كأنها كانت تلتمس الريح ان تسمعها كلماتها تلك مرة اخرى . ولبثت تنتظر شهامة الريح . وحينئذ قلت بصوت خافت :

« احبك يا ناديا . » .

وغمر نادينكا الشعور بالامتنان والشكر فعبرت عنه بصرخة خافتة ثم ابتسمت ابتسامة ملأت محياها . وظهرت علائم البشر والسعادة فمدت يديها لتعانق الريح ممتنة شاكرة . وذهبت أنا اتهيأ للسفر .

كان ذلك منذ وقت طويل . ونادينكا الآن متزوجة . تزوجت رجلاً يشغل وظيفة . سكرتير عند احد الوجهاء ، ولست ادري ما إذا كان من المفضلين لديها املا ، فهذا لا يهم كثيراً ، ولها الآن ثلاثة اطفال . . لقد كان ان ذهبنا مرة نتزحلق معاً فتسمعها الريح ، او غيرها ، هذه الكلمات التي لم تستطع نسيانها والتي هي لها الآن الذكرى التي تغرقها بالسعادة وبالتأثر اكثر من اي شيء في حياتها . . .

والآن ، وقد كبرت ، لا استطيع ان افهم السبب الذي دفعني الى تمتمة تلك الكلمات والباعث الى تلك الدعابة .

باريس **جميل حمودي**



حب في الشتاء

قصة للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

للأستاذ محمد فتحي عبد الوهاب

كان ذلك اليوم من أيام الشتاء المشرقة ... والصقيع يتقصف في حدة ، وقد كسا الجليد اللجيني خصلات شعر نادنكا المهدلة على جبينها وحافة شفتها العليا

وكانت ممسكة بذراعي ونحن واقفان على تل مرتفع ، وقد امتد تحتنا المنحدر الأملس ، تنعكس عليه أشعة الشمس كما لو أنه مرآة ، وبجوارنا زاحفة منطاة بقماش أحمر براق

وقلت لها راجيا « فلنزلق يا نادبزدا بتروفنا ! مرة واحدة فحسب ! أؤكد لك أنك ستكونين بخير ولن تصابي بسوء »

بيد أن نادنكا ظلت مرتاعة ، فقد كان يبدو لها المنحدر من موقع قدميها حتى سفح التل الثلجي وكأنه هوة مهولة عميقة الغور . وخانتها شجاعتها ، وبهرت أنفاسها كلما حدقت إلى أسفل ، في الوقت الذي كنت أقترح عليها مجرد ركوبها الزاحفة . إذن ماذا يكون حالها إذا ما جازفت بالاندفاع إلى الهاوية ؟ فلعلها تهلك أو لربما تفقد وعيها

وقلت « أرجوك ! لا تخافي ! إنها شجاعة واهنة منك ! إنه خور وضعف ! »

وأخيراً أذعنت دونكا ... ولاحظت من ملامحها أنها قد رضخت وهي في حالة من الخوف المميت . وأجلستها على الزاحفة شاحبة مرتجفة ، وأحطتها بذراعي . ثم دفعت بي وبها إلى أسفل الهاوية

واندفعت الزاحفة وكأنها القذيفة . ولطم الهواء وجهينا مزمجرا ، وهدر في آذاننا يتمزق حولنا ، ويقرصنا غاضبا في قسوة ، محاولا أن ينتزع رأسينا من أكتافنا . وتعذر علينا التنفس من ضغط الريح

كان يبدو كما لو أن الشيطان ذاته قد أمسكنا بمخالبه ، يسحبنا إلى الجحيم في هدير . واستحال كل ما يحيط بنا خطا واحداً متماسكا ممتدا يسابقنا سباقا هائلا ... وخيل إلينا في لحظة كما لو أننا في طريق الردى

وهتفت قائلا في همس « إني أحبك يا ناديا ! »

ثم أخذت الزاحفة تقل سرعتها رويداً رويدا ، ولم نعد نخشى هدير الريح . وسهل علينا التنفس . ثم إذا بنا في سفح الهضبة

كانت نادنكا في حالة سيئة ، شاحبة الوجه ، تتنفس في صعوبة ... وساعدتها على النهوض

وأخيراً قالت وهي ترنو إلي بعينين واسعتين مفعمتين رعبا « ما من أحد في العالم يدفعني بعد ذلك إلى إعادة الكرة . لقد كدت أهلك ! »

وإن هي إلا لحظة حتى استعادت رباطة جأشها ، ثم تطلعت في عيني متسائلة ، وقد لاح على محياها دلائل العجب : هل أنا تفوهت حقا بهذه الكلمات الثلاث ؟ أم كان ذلك وليد مخيلتها وسط زئير العاصفة ؟ وكنت واقفا بجوارها أدخن وأنا غارق في تأمل قفازي

وأخذت بيدي ، ثم قضينا وقتاً طويلا نتجاذب أطراف الحديث على مقربة من التل الثلجي . وكان من الجلي أن اللغز لا يدع لها فترة للراحة ... هل تفوهت بتلك الكلمات أو لم أتفوه ؟ ... نعم أولا ؟ ... نعم أولا ! إنها مسألة كبرياء ، شرف ، حياة — إنها شيء ذو أهمية كبرى ، أهم مسألة في العالم

وظلت نادنكا تتأمل وجهي في حزن واضح ، وتخترق نظراتها النفاذة ملامحي في صبر نافذ ، وتجيب على أسئلتي كيفما تمن لها الإجابة . أواه ، يالها من مشاعر تتلاعب على صفحة ذلك الوجه الجميل ! شاهدت أنها تناضل مع نفسها ، وتود أن تفضي بشيء ، وتريد أن تسأل سؤالا ، دون أن تجد ما يسعفها من كلمات . تستشعر الارتباك والخوف والاضطراب ...

وأخيراً قالت دون أن تنظر إلي « أتعرف ماذا ؟ »

قلت « ماذا ؟ »

قالت « دعنا نتزلق مرة أخرى ! »

* * *

وتسلقنا الهضبة الثلجية . وجلست نادنكا فى الزاحفة شاحبة مرتجفة . ومرة أخرى اندفعنا شطر الهوة المخيفة . وزأرت الريح . ومرة أخرى همست والزاحفة تشق طريقها فى سرعة مخيفة « إنى أحبك يانادياا ! »

وعندما توقفت الزاحفة عن السير ألقت نادنكا نظرة على الهضبة حيث انزلقنا ، ثم حدجتنى بنظرة طويلة ، تستمع إلى وأنا أتكلم فى هدوء وبرود ، ويسرب كل جزء من جسمها الصغير ، حتى الفراء التى كانت تنطى به يديها ، حتى غطاء رأسها ، من منتهى الحيرة ، وكأنما قد سطر على وجهها « ماذا يعنى ذلك ؟ من الذى تفوه بتلك الكلمات ؟ أنطق بها هو أو أنى تخيلت ذلك فحسب ؟ »

وأصبح الشك يضايقها ويغصبها من كل صبر . ولم تعد الفتاة المسكينة تجيب على أسئلتى ، بل صمتت فى غضب وكأنها على وشك البكاء .

وأخيراً سألتها « أليس من المستحسن أن نعود إلى الدار ؟ »

فقالت فى خفر « حسن . أنا ... إنى أحب هذه الرياضة . ألا تود أن تتزلق مرة أخرى ؟ »

إنها تحب « هذه الرياضة » ! ومع ذلك ، فعندما امتطت الزاحفة ، أصبحت — كما كانت فى المرتين السابقتين — شاحبة الوجه مرتجفة ، تلهث رعباً .

وانحدرنا للمرة الثالثة . ولاحظت أنها تحدق فى وجهى وتراقب شفتى . ولكنى وضعت منديلى على فمى وسعلت . وعندما بلغنا منتصف الهضبة ، نجحت فى التفوه قائلا « إنى أحبك يانادياا ! »

وظل السر غامضا ! كانت نادنكا صامتة ، تنعم النظر فى . . لاشىء . . وأوصلتها إلى دارها . كانت تسير الهوينى ، وتحاول أن تقصر من خطواتها ، إلى أن تتحقق من أنى تفوهت بهذه الكلمات . ولاحظت كيف كانت روحها تتعذب ، وأى مجهود كانت تقوم به وهى تحدث نفسها قائلة « لايمكن أن تكون الريح قد تفوهت بهذه الكلمة ! إنى لا أود أن تكون هى السبب ! »

وفى صباح اليوم التالى تسلمت رقعة منها تقول فيها « إذا كنت تود التريض اليوم ، فاحضر إلى »

ومنذ ذلك الوقت أخذت أذهب يوميا للانزلاق مع نادنكا ، وكلما نزلنا بالزاحفة أهمس قائلا « إنى أحبك يانادياا »

* * *

وسرعان ما اعتادت نادنكا هذه العبارة كما يعتاد المرء الخمر والخدر ، وأصبحت لا تستطيع العيش بدونها . وفى الحق ، كان الانزلاق من التل الثلجى يرعبها دائما بيد أن الإحساس المخيف والشعور بالخطر قد ولدا لها سحراً غريبا من كلمات الحب — كلمات كانت لا تزال لغزا يعذب روحها . وكنا — أنا والريح — لازلنا موضع شكها .. فقد كانت تجهل من منا الذى يناز لها . بيد أنه كان يبدو الآن أنها لم تعد تأبه بذلك أونهتم . فشارب الخمر لايعبأ من أى دن يستقى مادام أن مايحتسيه يثمله .

ولقد حدث ظهر يوم أن ذهبت وحيدا إلى أرض الانزلاق واختلطت بالموجودين ، فشاهدت نادنكا تصعد الهضبة وتنظر باحثة عنى . . وكان يبدو عليها الخوف من الذهاب وحدها — أوه أى خوف ! لقد كانت ناصعة البياض كالثلج ، ترتجف وكأنها فى طريقها إلى المقصلة . بيد أنها واصلت التسلق فى عزم دون أن تلتفت خلفها . وكان من الجلى أنها صممت أن تتبين وحدها فيما إذا كانت ستستمع إلى تلك الكلمات العجيبة فى أثناء غيابى وشاهدتها شاحبة الوجه منفرجة الشفتين ، تعتلى الزاحفة وتغمض عينيها ، ثم تندفع بها وكأنها تودع الأرض إلى الأبد

ولست أدرى هل سمعت نادنكا تلك الكلمات . كل ما أدريه أنى شاهدتها تنهض من الزاحفة وقد بدت متخاذلة منهوكة . ولم يبد على محياها ما ينبىء : أكانت قد سمعت شيئا أو لم تسمع . فقد كان خوفها وهى تنحدر قد جردها من حاسة السمع أو تمييز الأصوات . فلم تؤد بها محاولتها الجبارة إلى حل ذلك اللغز اللطيف . . ولم تحاول مرة أخرى

ثم أقبل شهر مارس ... وكانت أشعة شمس الربيع أكثر حنانا وشفقة . . وتحولت هضبتنا الثلجية إلى لون قاتم ، وفقدت بهاءها . وأخيرا ذاب الثلج وهجرنا الانزلاق : ولم يعد هناك ثمة موضع تستطيع فيه المسكينة نادنكا أن تستمع إلى تلك

الكلمات وفى الحق ، لا يوجد هناك من يتفوه بها الآن ، فاريع قدوات ، وكنت أنا الآخر على أهبة الرحيل قاصدا بطرسبرج لأقيم فيها مدة طويلة بل لعلها تكون إقامة مستمرة

وحدث قبل رحيلى بيومين أن كنت جالسا يغمرنى الظلام فى الحديقة الصغيرة التى يفصل بينها وبين فناء نادنكا حاجز مرتفع ... كان الجو لايزال باردا ، ولم يعد هناك جليد . وبدت الأشجار وكأنما قد فارقتها الحياة . بيد أن رائحة الربيع كانت تضوع فى كل مكان ، والغربان تنعب فى صوت جهورى أثناء استقرارها فى عشها . وذهبت إلى الحاجز ، ووقفت مدة طويلة أتبصص خلال فرجة بالحاجز . وفجأة شعرت بالوحشة تنتابنى ، وبدافع يدفعنى إلى العدول عن الرحيل

ثم شاهدت نادنكا تقبل نحو الطنف ، وتحدج السماء بنظرة حزينة والهة . كان النسيم يهب على وجهها الشاحب فيذكرها بالريح التى كانت تزأر فى وجهينا فوق الهضبة الثلجية عندما كانت تستمع إلى تلك الكلمات الثلاث . وكسا وجهها حزن بالغ وانحدرت الدموع على خدها ، ومدت الطفلة المسكينة ذراعها كما لو أنها تتوسل إلى النسيم أن يأتى لها بتلك الكلمات وفى هذه اللحظة همست قائلا « إنى أحبك يانادنكا ! »

يالرحمة الله ! أى تغير ذلك الذى طرأ على نادنكا ! لقد ندت عنها صرخة ، ثم ابتسمت ابتسامة أشرقت على وجهها ، وبدت تغمرها البهجة والسعادة والجمال . وجعلت تستقبل النسيم بذراعيها وذهبت أحزم أمتعتى ...

* * *

كان ذلك منذ أمد بعيد . أما الآن فقد تزوجت نادنكا . . تزوجها سكرتير أحد النبلاء ولها الآن أولاد ثلاثة . .

ومع ذلك فإن ذكرى تلك الأيام التى كانت تذهب معى فيها للانزلاق ، فتستمع إلى الريح تهمس إليها « إنى أحبك يانادنكا ! » هذه الذكرى لم تغب عن بالها مطلقا ، لأنها فى عرفها أجمل وأسعد بل أكثر الذكريات تأثيرا فى حياتها ...

بيد أنى ، وقد بلغت الآن من الكبر عتيا ، لا أستطيع أن أفهم لماذا تفوهت بتلك الكلمات ، وماذا كان باعثى على هذه المزحة ! ؟

محمد فتحى عبد الوهاب



من الماضي ..!

للكاتب الروسي أنطون تشيخوف

للأستاذ عبد القادر حسن حميدة

كان الجو في بداية أمره منعشا هادئا .. تنبعث خلال سكونه الحالم أغاريد طير « الأج » العذبة ... والمستنقعات قد حفلت بأجسام ضئيلة حية ترسل أنات متحشرجة محزنة أشبه بفحيح الأفاعي ... وانطلق طائر « البكاسين » فرددت الريح صدى دوى الرصاصة التي صوبت نحوه ... بيد أنه حينما بدأت الظلمة الحالكة تنشر على الكون غلالتها السوداء هبت من ناحية الشرق ريح رطبة نفاذة ... وغاص كل شيء في بحر من الصمت الرهيب ... وعلت البركة طبقة متماسكة من الثلج ... وإذا بالغابة كلها خالية مقفرة مخيفة ...

لقد بدأت علائم الشتاء تظهر على محيا الزمن .. !!

وكان « إيفان فيلكوبولسكي » عائدا إلى بيته بعد قضاء يوم ملىء بالمغامرات والقنص — وهو ابن أمين مكتبة الكنيسة وطالب بالمجمع الكنائسي — وكانت أنامله قد أصابها شيء من التخدير ووجهه قد اتقد بهبات الريح .. وخيل إليه أن ذلك البرد الذي هبط فجأة .. قد أفسد على الأشياء رونقها .. وران على معالمها .. وأن الطبيعة ذاتها قد خامرها القلق .. وساورها الاضطراب .. وهذا علة ما شاهد من أن الحلكة قد بدأت تخيم على الأرض أسرع مما كانت عليه من قبل .. وكان كل ما يحيط به مهجورا كئيبا .. ولم يكن ثمة بارق من الضوء يومض إلا في حدائق الأرامل — وكانت القرية .. وهي على بعد ثلاثة أميال — وكل ما يأخذ العين سابحا في ضباب المساء البلوري ..

وتذكر الطالب أنه حين غادر بيته كانت أمه تفترش الأديم .. عارية القدمين .. تنظف وعاء الشاي .. وأبوه جالسا على مقربة من الموقد يعاني آلام السعال .. ولما كان اليوم هو الجمعة الحزينة لم يطبخوا شيئا .. فاستشعر لذعات الجوع الهائل .. ثم تقاصت أعضاؤه .. ودار بخلده أن مثل هذه الموجات من البرد كانت قد اجتاحت أيام رادك وبطرس وإيفان الجبار .. وأن في زمنهم الفقر المدقع قد تفشى .. والجوع المهلك قد انتشر .. وكذلك نفس السقوف التي صنعت من القش التي اتخذت منها الخروق والثقوب العديدة موطنا لها .. كما اتخذ الجهل والبؤس ونقص الحيرة والظلمة والضجر من الأهلين حقلا خصيبا تنمو فيه يوما بعد يوم .. لقد كان ذلك في عهدهم .. وحدث بلا مراء ولا جدال .. ثم تدور على أسطوانة الدهر ألف عام .. والحياة هي .. هي لا يعتريها تقدم .. ولا تحسن ... !!

وكان مقيتا إلى نفس الشاب أن يؤوب إلى بيته ..

ويرجع السبب إلى إطلاقهم على الحدائق اسم حدائق الأرامل أن أرملتين — أما وابنتها — كانتا قد آلتا على نفسيهما أن يتعهداها بالرعاية .. ويسهرا للقيام على شؤونها ..

وكانت هناك نار مضيئة ملتهبة .. وأصوات طقطقة صاخبة .. يحملها الأثير إلى مسافات كبيرة فوق الأرض المحروثة .. وكانت الأرمل فازيليا — وهي بدينة الجسم فارعة القامة — ترتدي سترة رجل واقفة إلى جانب النيران تحدق بعينين شاردتين .. تنطويان على التفكير العميق والرحلة إلى عالم غامض مبهم .. وكانت ابنتها ليكريا جالسة على الأرض تنظف الملاعق والصحاف، وهي امرأة ذات نظرة متبلدة فاترة قد انتشرت على وجهها آثار الجدري .. وكان واضحا لدي أنهما قد فرغتا من تناول عشائهما .. منذ برهة .. وكان صوت العمال يصل إلى آذاننا .. وهم يسقون جيادهم من النهر ..

واتجه الطالب صوب النار .. وقال :

— لقد عاود الشتاء كرته .. مساء الخير ... !!

فارتاعت فازيليا .. غير أنها تبينته لتوها .. فارتسمت على شفتيها ظلال ابتسامة رقيقة وقالت :

— إنني لم أعرفك .. ! لتحرسك عناية الخالق الأكبر سوف تصيب ثراء واسعا ..!

ثم أخذوا يتجاذبون أطراف الحديث ..

كانت فازيليا .. ذات خبرة كبيرة . قد اختلطت بالطبقات العالية .. إذ كانت تعمل وصيفة . ثم مربية للاطفال .. فراحت تطرق باب الحديث بعصا اللباقة والرقة .. ولم تفارق شفتيها .. ابتسامة ناعمة دسمة .. أما ابنتها ليكريا فكانت ريفية قد ألهبها زوجها بسياط معاملته القاسية .. فسمرت نظراتها على وجه الطالب.. ولم تشرك نفسها فى الحديث ، وكانت تلوح على وجهها سمة كالتى تراها ضافية دائما على الصم والبكم ..

وحرك الطالب يديه حول النار ينشد الدفء وهو يقول :

— لقد كان القديس بطرس يدفئ نفسه على مثل تلك النار .. فلا ريب إذن .. أن الجو كانت تسوده البرودة آنذاك.. آه . . . لابد أنها كانت ليلة مروعة ياجدتى . . ! ليلة طويلة مشؤومة لا محالة .! .. ثم ألقى ببصره إلى ماعقد حوله من نطاق الظلمة الدامسة وهز رأسه فى تأثر بالغ وقال :

— لاشك أنك كنت تطالعين فى الأناجيل ثنى عشر ..؟

فأجابت فازيليا : — أجل . . ! لقد كنت أجيل الطرف خلال صفحاته ..

هل يعلق بذكراتك أن بطرس قال فى العشاء الأخير « إننى متأهب تمام الأهبة لأن أخوض برفقتك معمعة الظلمة والموت » فأجاب مولانا السيد « إننى أقول لك يابطرس إنك ستشرك بى ثلاثا قبل أن تصيح الديكة وخرج يسوع » عقب العشاء إلى الحديقة . . يوقد له نيران الموت وكان بطرس المسكين . . خامد النفس . . واهى القلب . . وعيناه مثقلتان .. فلم تصمدا أمام جيوش النعاس فهزمها النوم .. ولقد أدركنى أن يهوذا تقابل ويسوع فى تلك الليلة نفسها « . وأفشى أمره إلى مضطهديه . . وأنهم . . أدوا به إلى الكاهن الأكبر مغلولا .. فضرب كثيرا . . !!

واستيقظ بطرس متثاقلا وهو يتوقع أن الشئ الخطير المفزع سيحل بالأرض . . ولقد كان يحمل ليسوع الحب والتقدير الشديدين .. وها هو ذا الآن يضرب على البعد

.. وألقت ليكريا بالملاعق من يدها وأدارت بصرها إلى الطالب الذى استطرد فى القول ..

— فلما انتهوا حيث دار الكاهن الأكبر راحوا يعطرون يسوع بوابل من الأسئلة المتزاحمة بينا أشعل الرجال النار فى الفناء يصطلون . . واندس بطرس بينهم يدفئ نفسه كشأنى الآن هنا . . فرأته إحدى النساء . . فصاحت « لقد كان هذا مع يسوع . . أيسوع أيضا ؟ » ومعنى ذلك أنه ينبغى أن يستجوب أيضا . . ولا بد أن جميع العمال قد نظروا إليه فى ارتياب وحذر . . إذ أن الارتباك استولى عليه فقال « كلا . . إنى لست أعرفه » وما انصرمت فترة قصيرة الأمد حتى عرف شخص آخر أن هذا الرجل من تلاميذ يسوع فقال « إنك كذلك أحدهم » ولكن بطرس آثر الإنكار للمرة الثانية . . غير أن شخصا ثالثا تحول إليه وقال « كيف هذا ؟ ألم أشاهدكما معا فى الحديقة اليوم ؟ » فأصر بطرس على ألا يعترف للمرة الثالثة . . وفى تلك الأونة انبعثت صيحة الديك . . ونظر بطرس إلى يسوع على البعد . . واستقر فى ذاكرته تلك الكلمات التى تفوه بها فى المساء إذ قال له « إنك ستشرك بى ثلاثا قبل أن تصيح الديكة » وعندما استعاد فى ذاكرته هذا . . هزته رجفة من الألم الممض . . وزايل الحديقة .. وأرخى العنان لقلبيه . . تذرف الدمع الحار . . والإنجيل يقول « لقد انصرف والدمع السخين يهطل من عينيه مدرارا » . . إننى لألمس ذلك الآن واضحا جليا . . فها هى ذى الحديقة يطويها الظلام . . ويخيم على أرجائها السكون ...

وفى ذلك الهدوء الشامل اختنق صوته بالعبرات . . حتى وقف الكلام فى حلقه . .

وتنهد الطالب تنهدة عميقة . . وسرح ببصره فى متاهات التفكير . . وكانت فازيليا لا زالت على شفتيها الابتسامة المشرقة . . بيد أنها غصت بريقها بغتة . . وانحدرت الدموع على وجنتيها المتوردتين وكأنما أخجلها أن تبكى فوارت وجهها بطرف ثوبها . . أما ليكريا فكانت عيناها تحملقان فى الطالب فى تهم وتلهف . فتصاعد الدم إلى وجهها . . وبدت على

سحنتها علائم التبرم . . كأنما تقاسى ضيقا مؤلما …

وانقلب الرجال راجعين من النهر . . بعد أن أطفأوا ظمأ خيلهم . . ومر واحد منهم على الدار ممتطيا صهوة جواده . . بينما الأضواء تترنح متمايلة على جسمه . . فحيا الطالب الأرملتين . . وودعهما . . وطواه الليل برداء الظلام مرة أخرى . . وسرى التخدر فى أنامله . . وكانت الريح تعصف وتهب . . حتى كأن الشتاء قد عاد حقيقة . . ولم يكن هناك من الدلائل ما يوحى بأن شمس العيد ستشرق فى الصباح الباكر !

وفى تلك اللحظة كانت خواطر الطالب منصرفة إلى فازيليا « لا ريب أن نشيجها هذا له صلة بما وقع لبطرس فى الليلة التى طوبت قبيل صلب المسيح . وأرسل إشعاعات من بصره على ما حوله وكان الضوء لا يزال يلتمع فى بهمة الليل . . بيد أنه كان وحيدا . . ولم يكن بجانبه آدمى ما . . وأجهد الطالب فكره ثانية . . فى أنه ما دامت فازيليا قد بكت . . وما دامت ابنتها قد اضطربت فلا ريب أن ذلك الذى حدث منذ تسعة عشر قرنا . . والذى أفضى بحديثه الآن . . لا شك . . أن هناك خيوطا قوية . . تربط ذلك الشيء بالحاضر . . بهاتين المرأتين . . بالقرية الرابضة فى الخلاء . . بنفسه . بالعالم كله !

لقد أجهشت تلك المرأة العجوز بالبكاء . . لا لأنه عرف كيف يروى عليها القصة . . بأسلوب له عمل السحر فى النفس . . وإنما لأن بطرس . . متصل بها . . قريب منها . . ولأن ما ساور دخيلته قد هز كيانها . . واستحوذ على مشاعرها …

وطفت عليه موجة من المرح بغتة . . فوقف . . ليتنفس وفكر هنيهة . . قائلا :

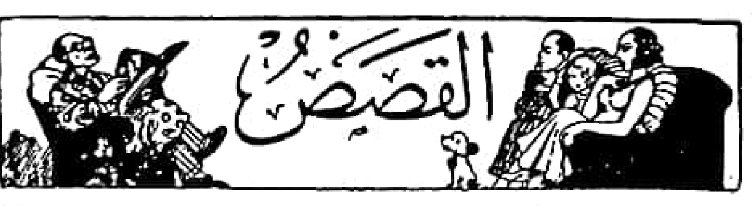
— ألا إن الماضى لمتماسك بالحاضر . . بحلقات من الحوادث تربط بعضها بعضا . ! وخيل إليه أنه أدرك كنه هذه الحلقات . . إنه حين يقبض على حلقة تتحرك الأخرى …

ثم خاض النهر فى أحد القوارب . . وصعد إلى التل . . ووقف يرنو عبر قريته ثم إلى الغرب حيث يلوح فى الأفق البعيد خيط واه من النور خلفته الشمس الحمراء ..

وظن أن الجمال المبدع . . والحق الخالد . . اللذين قادا ركب البشرية الوانى . . هنالك فى الحديقة . . وفى فناء الكاهن الأكبر . . ما زالا على جبروتهما حتى الساعة . . بل إنهما أحوج ما تكون إليه الإنسانية . . وذلك العالم الأرضى !

وبدأ يستشعر شيئا فشيئا . . بالحيوية . . والقوة . . وذلك الانتظار الحلو للسعادة — وهو انتظار لا يمكن الإحاطة بكنهه — ترقب لسعادة مجهولة غريبة . . وانقشعت السحب من أمام عينيه . . فبدت الحياة رائعة . . زاخرة بشتى المعانى النبيلة …

عبد القادر حسين حميدة



الدكتور فيكل

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأديب أزاد نوري محمود

خرجت (واندا) الحسناء من المستشفى وهي فقيرة معدمة . . ماذا تفعل ! وكل ما عندها من حطام الدنيا خاتم ذهبي ذو ماسة براقة ، وقد اضطرت لشدة احتياجها للمال أن تبيعه بروبل واحد . . ولكن روبلا واحدا لا يكفيها لشراء ما تهفو إليه نفسها

إنها تحتاج إلى ملابس جديدة لتبدو فيها أجمل مما هي الآن ، وقبعة بيضاء تزهو بها بين الفتيات ، وهذه الأحذية البالية التي أكل عليها الدهر وشرب تبعث الاشمئزاز إلى نفسها . . ولكن ماذا تفعل ؟

وكانت تشعر بخجل واضطراب كلما رأت العيون تحدق فيها وفي ملابسها الرثة وسحنتها الزرية . والغريب أنهـا تتوهم أن الحيوانات إذا ما رأتها تتقزز من منظرها وتدمدم غاضبة . وكثيرا ما انفردت بنفسها تناجيها :

— آه . أين ذلك الذي ينتشلني من هذه الوهدة ، وينقذني من شقائي . . أخشى ألا أجد أحدا

ثم فكرت في الذهاب إلى (تيفولي) . . وهناك كانت تأمل أن تلتقي بضالتها المنشودة . ولكن، أبهذه الملابس القذرة المهلهلة تذهب إلى تيفولي ؟ هل تقدم على ذلك ؟

وأطلقت لأفكارها العنان : إلى أين أستطيع الاتجاه ؟ ولا وزر لي في تيفولي . . أإلى (ميشيل) ؟ لا ، لقد تزوج منذ أيام ، أم إلى ذلك الهرم الساذج (أوسيب) ، وأخشى أن يكون منهمكا في أعماله

ثم هبت بغتة عندما جال بخاطرها اسم (فيكل) طبيب الأسنان في تيفولي ، وتذكرت أنها زارته قبل بضعة أشهر عندما وهبها بعض الأساور الجميلة. وداعبها في تلك الليلة حتى أغاظها فلم تتمالك أن أفرغت قدحا من الشراب على رأسه . إنه طيب القلب مرح . فلا بد أن يعطيها شيئا إذا زارته اليوم

وهكذا جدت (واندا) السير في طريقها إلى منزل فيكل وقد سرت فيهـا انتعاشة فياضة وانبعث منها حمية ونشاط . . وكانت تتمتم بخفوت :

— إذا كان في المنزل ولم يعطني شيئا فسأجدع أنفه ! ! وسأحاول إغراءه بشتى الوسائل على أن أحصل منه على ٢٠ روبلا

لـكنها أنكرت هـذه الفكرة وحاولت إبعادها من رأسها؛ وانتابتها قشعريرة وأخذت تترنح في سيرها وشعرت بارتباك وخوف . .

وعندما اقتربت من منزل الطبيب ترددت في طرق بابه . . وتسمرت في مكانها لحظات واجمة تفكر :

— ربما يكون قد نسيني . . ثم هذه الملابس الرثة . . هذا المنظر الزري . . رباه !

وواتتها شجاعة حينما تقدمت غير هيابة وطرقت البـاب بقوة . . وصاحت : — هل الطبيب هنا ؟

وبرزت الخادمة . . وخطت نحوها ثم قادتها إلى غرفة الانتظار دون أن تنبس . . وغاصت واندا فوق المقعد الوثير سارحة الفكر شاردة اللب . . وأبصرت نفسها في مرآة مقابلة . . لقد كانت صورة واضحة للبؤس والشقاء والتشرد

ثم خاطبتها الخادمة بعد هنيهة :

— تفضلي بالجلوس هنا . . سيحضر الطبيب بعد دقائق

وكانت واندا تفكر فلم تفقه من كلام الخادمة شيئا . . وساءلت نفسها :

— لم هذا التهيب ؟ سأصارحه بالقول وأقترض ما أطلب من مال . . ولا عيب في ذلك ! وسيتذكرني حالما يراني . . ولكن هذه الخادمة السمجة ، مالها جمدت في مكانها لاتبرحه؟ لن أصعد إلى غرفته إن بقيت في مكانها

وفجأة دخل (الدكتور فيكل) بقامته الفارعة ووجهه المتجهم وعينيه اللتين ينبعث منهما وميض الاعتزاز والكبرياء، تدل سحنته العابسة على أنه متشبث برأيه يصعب إقناعه. ودهشت واندا لتجهمه وعبوسه وقد عهدت فيه المرح والانشراح. وفي تلك الليلة التي زارته في منزله داعيها وهو طلق الأسارير ضحوك. ما باله تغير هكذا؟ وكأنه ببروده وتكلفه الابتسام موظف رسمي في ديوانه...

واقترب من واندا وقبل أن يتفرس فيها جيداً سألها بهدوء:

— ماذا بوسعي أن أفعله لك؟

ووجف قلبها عندما خاطبها الطبيب بلهجة من لا يعلم عنها شيئاً. وأخذت تحدق في تلك الخادمة الأمينة بنظرات تتلظى وغضب مكتوم، واصطبغت وجنتاها بحمرة خفيفة عندما خاطبها ثانية: — هل أستطيع أن أقوم بشيء؟

وأجابته على الفور بصوت متهدج واهن وهي تعصر على نواجذها:

— أسناني. أسناني تؤلمني قليلا يا دكتور..

— ها. صحيح؟ وتذكرت واندا سناً لها كانت تؤلمها أحيانا:

— في الفك الأسفل، نحو اليمين. ... حسنا افتحي فاك جيدا ...

وزوى فيكل ما بين حاجبيه وبدت عليه صرامة قاسية وتنهد تنهدة عميقة، ثم شمر عن ساعديه وأمر أصابعه على أسنان الفتاة بهدوء، ثم أدخل في فمها آلة قاطعة:

— هل هذه السن تؤلمك؟ نعم.

واستسلمت بين يديه بهمود وتراخ وشرعت تفكر

— إذا عرفته بنفسي.. فلابد أنه يتذكرني جيدا، ولكن هذه الشيطانة لا تزال جامدة هناك كالصنم

وشعرت بألم حاد حينما اقتلع سنها بقوة، وندت عنها صرخة مكتومة وحاولت أن تمسك يديه.. وصاح فيها: — ماذا تفعلين؟ إن سنك قد فسدت ولا تصلح لك ألبتة. وعليك ألا تهمل شأن أسنانك منذ اليوم يا صغيرتي..

قال هذا واستوى واقفاً على قيد خطوات منها وكأنه ينتظر خروجها.. بعد أن أنهى عمله.. وهبت الفتاة ناهضة وتوجهت نحو الباب بخطى مضطربة والتفتت نحو الطبيب وقالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة متكلفة:

— إلى اللقاء يا دكتور..

وأمسك فيكل زمام ضحكة كانت على وشك الانطلاق ثم أجابها بتهكم مرير:

— إلى أين؟ لقد نسيت الأجر!

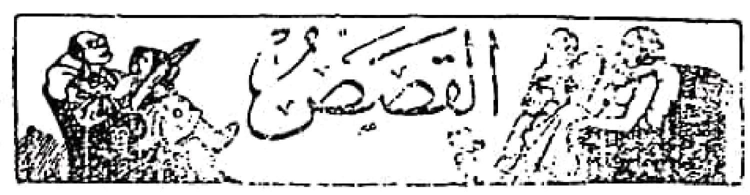
واصفر وجه (واندا) ثم اكتسى بحمرة الخجل، لكنها تمالكت نفسها:

— أوه... المعذرة، لقد نسيت ذلك، عفواً.

وازداد ارتباكها وهي تتلقى نظراته النفاذة، وسرعان ما أخرجت الروبل الوحيد الذي تملكه وألقته بين يدي الدكتور فيكل وهي ترتعش..

ومرقت من الغرفة ماضية نحو الشارع بخجل وهي تشعر بخجل لم تشعر بمثله في حياتها. وطفقت تطرق الشوارع الفقراء بحذاءيها الباليين وهي ساهمة شاردة، ولطالما كانت تحلم بالملابس الجديدة والقبعة البيضاء ذات الشرائط الوردية وآمالها الموءودة.. من يدري؟..

أزاد نوري محمود



من روائع الأدب الروسي

رثاء !...

للقصصي الروسي أنطون تشيكوف

في صبيحة يوم صاح مشرق مات « عضو التحكيم » (كيريل أفانوف بابيلونوف) صريع الداءين اللذين كثيرا ما أوديا بحياة الروس: إدمان الخمر ومظاظة الزوج ... وكان الناس في شغل بتشييع موكب جنازته الذي كان في طريقه إلى القبر ... إلا أن (بولافسكي) وهو صديق حميم للفقيد، أسرع فركب عربة أدت به إلى صديق له يدعى (زابوكين) . ولزابوكين هذا قدرة على ارتجال الخطب فائقة ، فهو يقولها أنى كان وحيثما يدعى، فلا تعوقه سنة ولا حمى ولا سكر عن ارتجالها ... سواء أكان في مأتم يرثى ، أو في حفل بهيج وبشيد ، كانت الكلمة تتدفق من فيه كالماء غزيرا سلسالا ...

وكان هذا ما حدا ببولافسكي أن يسرع إليه ، ولا سيما والخطب الذي ألم يحتاج إلى خطيب بصدد مناقب الراحل الفقيد كزابوكين ... وقال بولافسكي لزابوكين حينما لقيه :

— إنني آت لأدعوك ... فهيا يا صاح ارتد معطفك واتبعني . لقد مات اليوم أحد زملائي ، وموكب جنازته في طريقه الآن إلى القبر . وليس لنا في مثل هذه الخطوب غيرك ... ليس لنا من خطيب رثاء مفوه سواك ... ثق يا صاح أنه لو كان الميت وضيعا مركزه لما أزعجتك . ولكنه (الأمين) ... فلا يليق بنا أن نوسده التراب دون مراث تلقى أو خطب تقال ...

فتثاءب زابوكين وقال :

— الأمين ؟ آه . أتعني ذلك السكير ؟

— إنه هو . . ولكن لا تنس يا عزيزي أن مأدبة عشاء ستؤدب . وأجر العربة سيدفع ، هيا يا صاح فاعليك إلا أن تلق بإحدى خطبك على القبر .. وستلمس بعينيك مدى إعجاب المشيعين بك وتقديرهم لك ..

فأجاب (زابوكين) طلبه دون ما تردد ولا إحجام ... وتكلف الحزن العميق تأهبا لما سيلقى . ثم قال لصاحبه : إنني أعرف (الأمين) .. ذلك الوغد الزنيم .. عليه رحمة الله ! وأدركا الموكب وقد بلغ المقابر ، وحط النعش على الأرض ، ووقفت أم الفقيد وزوجه وأختها تذرفان الدمع الهتون — تبعا للعرف — وما إن أنزل النعش في القبر حتى أعولت زوجه وصاحت باكية : دعوني أرحل معه . إلا أنها لم ترحل معه ؛ مع أن أحداً ممن حولها لم يحل دون ذلك . ولعل ما حال دون أن تشاركه رمسه ذلك الراتب التقاعدي الذي ستتناوله . أما (زابوكين) فقد

خطوط

نشرت الرسالة في عددها ٤٩٧٧٥ قصيدة بعنوان (خطوط) للأستاذ محمد مفتاح الفيتوري ، فدفعني جمال شعره إلى إنعام النظر فيه ، والتعقيب عليه بكلمة لا تزعزعا يدور في القلب؟ ومن الملامات الرئيسية على مكانة الشعر في النفوس ، ووقعه الجميل في القلوب ، النقد البريء له وإبداء الرأي الصحيح فيه يقول الشاعر في وصف الحصير العتيق :

حصير تقادم حتى يكا د يخضر يرجع عشبا نضير

وكل ما نعلم أن الحصير المتقادم يسود ويعفن إن كانت هناك رطوبة ، كما هو شأن حصر الفقراء ، وكيف يكاد يخضر ويعود إلى عشب نضير ؟ ويمضي في بيت آخر الإغراق إلى « معول » فيقول :

ويغرق معوله في تراب لبالية محتفرا رمسه

ولا أستطيع أن أتصور — في حدود طاقتي التصويرية — إغراق « المعول » في التراب ، إنما الذي أستطيع تصوره هو الهدم به ، وإعماله والتدمير به

وختاما أود أن تكون هذه الكلمة بداءة صداقة متبادلة بين شاعر رقيق وقارئ معجب بشاعريته

سورية هفيف الحسيني

سكت حتى شمل الجمع السكون ، فأدار بصره فى الحاضرين وبدأ خطبته قائلا :

يا ترى أبصرى وسمعى صادقان ؟ ! أم أننى أشهد حلماً مرعباً يبدو لى فيه هذا الرمس المظلم الرهيب وهذا الحشد الباكى الحزين وا أسفاه ... إنها الحقيقة . فليس ما أراه حلماً ، وليست أبصارنا — ويا للأسف — بخادعة .. إن من كان حتى الأمس يفيض صحة ونشاطاً .. قد مات وورى التراب وأصبح ذكرى تستدر الدمع الساخن الغزير . لقد سلبه الردى منا ، وهو لا يزال فى عنفوان قوته وبهائه . . وأوج قدرته ونشاطه وإن يك متقدما فى السن .. أية خسارة منينا بها .. من ذا الذى يستطيع أن يحتل مكانه فى قلوب عارفيه .. لدينا أيها السادة كثير من الموظفين .. إلا أن (بروكوفى أوزبتش) كان جوهرة يتيمة فيما كان يزدهى به ويفخر . وكان أيها السادة — المثل الأعلى للرجل الكامل الرفيع بخلقه ، السامى بنفسيته . لقد كان العقيد يأبى الرشوة فلم يرتضها يوما . وكثيراً ما كان يبدى مقته واحتقاره لمن كان يلح عليه فى أخذها وتقبلها . لقد كان يرفضها كل الرفض ويزدرى ضعاف النفوس ممن كانوا على نقيضه . كما لا أظنكم تجهلون أنه كان يهب راتبه التافه على مشهد منا لزملائه المعوزين وها أنتم الآن تسمعون بآذانكم نحيب الأرامل والأيامى اللائى كن يعشن من فيض إحسانه . لقد ذهب ذلك الذى وهب حياته للبر ، ونذر نفسه للخير ، وإنكم لا تعلمون بلا شك — أيها السادة — أنه كان أعزب ولم يزل كذلك حتى وسد التراب ... إننى لأتصوره الآن بوجهه المشرق الحليق وبسماته الحالمة العذاب ، ويخيل إلى أننى أكاد أسمع صوته الرؤوف الذى كان يفيض حنانا ويقطر رقة وإخلاصا . فإلى رحمة الله يا (بروكوفى أوزبتش) ... إلى الجنان الخوالد أيها العزيز .. وداعاً أيها الراحل الكريم ..

وكان الخطيب مبدعا حقا فى إلقائه فأحرز بهـــا إعجاب السامعين .. إلا أن العارفين منهم بالميت أدهشهم مما قاله أشياء . ذلك أنهم لم يفقهوا علة ذكر الخطيب اسم الميت على أنه (بروكوف أوزبتش) مع أنه كان (كيربل أفانوفتش) . وثانيا أن الكل كان لا يجهل أن الميت قضى حياته فى تكدير صفو حياة زوجه ، فكيف يقول الخطيب إنه كان أعزب ؟ وأخيرا لقد كانت للميت لحية حمراء كثة ولم يك بحالقها .. فلماذا يصفه الخطيب بأنه كان حليقها ؟!.. واشتد عجب السامعين وتبادلوا الهمس والنظرات .. وهزوا أكتافهم ساخرين

وتابع الخطيب كلامه : « إى (بروكوفى أوزبتش) لقد كان وجهك شاحبا مرعبا .. إلا أننا كنا نعرف أن وراء ذلك قلبا طاهرا نبيلا ونفسا كريمة » . وما لبث السامعون أن لحظوا على الخطيب دهشة بلغت حد الذهول . فقد اتجه بصره إلى ركن من الحشد ، ثم التفت إلى بولافسكى زائغ البصر ، وقال بصوت متهدج : إنه حى !

— من تعنى ؟ !

— بروكوفى أوزبتش . إننى أراه واقفا عند القبر !

— ومن قال لك إنه الميت . . ؟ إن الذى مات هو (كيربل إيفانوفتش) أيها الأبله . .

— ولكنك قلت لى إن (الأمين) قد مات .

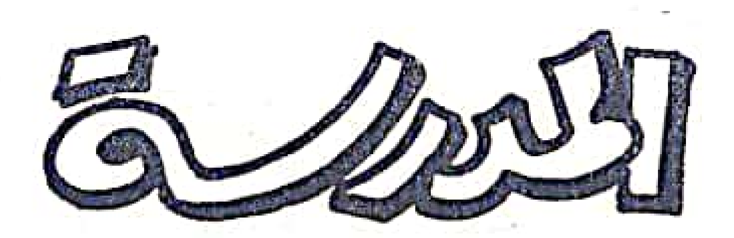
— لقد كان (كيربل أفانوفتش) أمينا أيها الأحمق .. لقد حل محل (بروكوفى أوزبتش) بعد أن نقل هذا ككاتب فى سجل العام المنصرم

— أنى لى أن أعرف هذا ولم يسبق لى به علم ؟ !

فأدار زابوكين وجهه شطر القبر وواصل رثاءه وعينا (بروكوفى أوزبتش) عالقتان به تحدقان فى حنق وغضب .. وما إن انتهى من الدفن وعاد المشيعون حتى أخذ زملاء (زابوكين) يلغطون ... لقد دفنت رجلا حيا ... وأسرع (بروكوفى أوزبتش) إلى الراثى حانقاً ساخطاً : لا بأس أيها النبى الأحمق بخطبتك إذا كانت رثاء لميت .. أما أن ترثينى وما زلت حيا فإنها سخرية بى بليغة وتهكما بخاق فظيعا ... لقد قلت إننى لم أقبل الرشوة ولست بذى أغراض ومنافع .. ومثل هذا القول لا يقال عن موظف حى إلا بقصد إدانته واتهامه ... لم يطلب منك أحد أن تصف وجهى المخيف المرعب ... إنها إهانة فظيعة سوف ترى منى العقاب عليها »

ف . ع

قصة روسية



المدرسة

لانطون تشيكوف

كانت الساعة الثامنة والنصف عندما خرجوامن المدينة ، وقدكان الطريق جافا وشمس الربيع الجميلة تبعث الدفء ، وان كانت بقايا الثلج لاتزال ترى فى الحفر والغابات . ولم يكن الشتاء الطويل بظلامه قد انقضى تماما اذ جاء الربيع على غرة . ولكن لا الدفء الذى جلبه الربيع ولا اسراب الطيور وهى ترفرف فوق المياه الراكدة كالبحيرات ، ولا السماء الصافية التى تغرى الانسان بالانطلاق فى مرح ، لاشيء من كل ذلك كان يؤثر فى نفس ماريا فاسيليفنا وهى جالسة فى عربتها .

لقد قضت ثلاثة عشر عاما وهى مدرسة ، وقد ذهبت مرات عديدة اثناء تلك السنوات الطويلة الى المدينة لاخذ مرتبها ، وهى لم تكن تفكر فى اى مرة ان كانت فى الربيع كما هى الان او فى احدى امسيات الخريف المطرة او فى الشتاء ، لم يكن الامر يختلف بالنسبة لها ، كانت تفكر دائما فى شيء واحد فقط هو أن تنهى رحلتها باسرع ما تستطيع .

كان يخيل اليها انها عاشت فى هذا الجزء من البلاد زمنا طويلا جدا ، مائة عام ، وكان يخيل لها انها تعرف كل حجر وكل شجرة فى الطريق من المدينة الى المدرسة . هنا ماضيها وحاضرها وهى لا تستطيع ان تفكر فى مستقبل سوى المدرسة والطريق الى المدينة والعودة منها والمدرسة مرة اخرى والطريق وهكذا .

لقد اصبحت لا تفكر فى ماضيها قبل ان تصبح مدرسة وكادت تنسى ذلك الماضى . كان لها اب وام ، وكانوا يعيشون فى موسكو فى شقة كبيرة بقرب البوابة الحمراء . ولكن لم يعد يعلق بذاكرتها من كل ذلك سوى خيال خافت كالحلم . لقد مات أبوها وهى فى العاشرة وماتت امها بعده بقليل ، وكان لها اخ ضابط ، وكانا يتبادلان الرسائل ثم انقطع عن اجابة رسائلها ولم يعد يكتب اليها بعد ذلك . ولم تكن تملك شيئا من اثار الماضى سوى صورة لامها وقد بهت لونها من شدة الرطوبة بالمدرسة ولم يعد يرى من وجهها سوى الشعر والحاجبين .

وعندما كانت العربة قد قطعت ميلين استدار اليها السائق العجوز سيميون قائلا : لقد قبضوا على موظف حكومى بالمدينة قيل انه اشترك مع جماعة من الالمان فى قتل العمدة الكسييف بموسكو . فقالت : من قال لك هذا ؟

فاجاب : سمعتهم يقراون الجريدة فى حانة ايفان ايونوف . وساد الصمت ثانيا لمدة طويلة وقد اخذت ماريا فاسيليفنا تفكر فى المدرسة والامتحان الذى اقترب موعده والبنت والاربعة اولاد الذين تعدهم له .



وبينما هى تفكر فى الامتحان اذ بها ترى احد ملاك الارض من الجيران ويدعى هانوف يقود عربة باربعة جياد ، وهو نفس الرجل الذى قام بالامتحان فى مدرستها فى السنة الماضية . وعندما اقترب منها عرفها وانحنى اليها قائلا : صباح الخير ، انت عائدة الى البيت على ما اظن .

وهانوف هذا فى الاربعين من عمره ، له نظرات باهتة ووجه عليه مظاهر الاعياء ، وقد اخذ يظهر عليه الكبر ولكنه كان لايزال محتفظا برشاقته التى تنال اعجاب النساء . كان يعيش وحيدا فى قصره الكبير وقد ترك الوظيفة ، وكان الناس يقولون عنه انه لايفعل شيئا فى البيت سوى المشى فى الحجرات يصفر اويلعب الشطرنج مع خادمه العجوز . وكانوا يقولون ايضا انه يشرب كثيرا ، وقد كانت رائحة الخمر تفوح من اوراق الامتحان التى احضرها معه فى السنة الماضية وكان فى ذلك الحين يلبس ملابس جديدة ، وقد بدا لماريا فاسيليفنا جذابا للغاية ، وكانت طيلة الوقت وهى جالسة بجواره تحس بالاضطراب ، فقد كانت معتادة ان ترى ممتحنين يعملون فى برود او حماس اما هو فلم يكن يعرف صلاة واحدة ، ولكنه كان لطيفا رقيقا لا يعطى الا اعلى الدرجات .

قال هانوف موجها اليها الحديث : لقد كنت ذاهبا لزيارة باكفيست ، ولكنى علمت انه ليس فى البيت . واستدار بعربته من الطريق الرئيسى الى طريق ضيق متفرع منه متجه نحو القرية ، وتبعه سيمسون . كانت الجياد الاربعة تسير ببطء وهى تجر العربة الضخمة فوق الطين فى عناء . واخذ سيمسون يعرج بعربته من جانب لاخر وهو ملازم لحافة الطريق ينحدر فى حفرة مرة وفى مستنقع مرة اخرى وفى كل مرة ينزل ليساعد الحصان فى جر العربة وكانت ماريا فاسيليفنا لا تزال تفكر فى المدرسة وهل ستكون اسئلة الحساب اسهل او اصعب

من اسئلة امتحان السنة الماضية . وشعرت بالضيق نحو لجنة الزمستفو التى لم تجد احدا منها فى الامس ، يالهم من قوم لايعملون . منذ عامين وهى تطلب منهم ان يفصلوا الفراش الذى لايعمل شيئا ولا يحترمها ويضرب التلاميذ ولكن احدا لم يصغ اليها . كان من النادر ان تجد الرئيس فى مكتبه ، واذا وجدته قال والدموع فى عينيه ان ليس لديه دقيقة واحدة من الفراغ . وكان المفتش يزور المدرسة مرة واحدة كل ثلاث سنوات ، وهو على اى حال لم يكن يفهم شيئا فى عمله ، فقد كان موظفا فى ادارة الضرائب ووصل الى مركزه كمفتش عن طريق الواسطة . ولم تكن لجنة المدرسة تجتمع الا نادرا ، ولم يكن احد يعلم اين تجتمع . اما المشرف فهو قروى امى يعمل فى صناعة الصباغة وهو غبى جاف المعاملة ، والفراش من اقرب الناس اليه ، وهى لا تدرى لمن تقدم الشكاوى او الطلبات . والتفتت فجاة الى هانوف وقالت لنفسها : انه جميل حقا .

واصبحوا الان يخترقون الغابة ، ولم يكن هناك اى مكان لتدور فيه العربة ، وقد اخذت العجلات تغوص فى الوحل والمياه الراكدة التى اخذت قطراتها تتناثر فى صوت مسموع وتتساقط على وجوههم .

وقال هانوف وهو يضحك : ياله من طريق .. ونظرت اليه المدرسة وهى لاتدرى لماذا يعيش هذا الرجل العجيب فى تلك الناحية ، وماذا يفعل باموا له ومظهره الانيق وثرائه فى هذا الوحل وهذا المكان المهجور . انه لايستفيد شيئا من الحياة ، وها هو الان — تماما كما يفعل سيميون — يسوق العربة فى الطين ، ويقاسى نفس المشقة .. لماذا يعيش المرء هنا وفى امكانه ان يعيش فى بطرسبرج او فى الخارج ويخيل لها ان رجلا غنيا مثله لن يضيره ان يستبدل هذا الطريق القذر بطريق اخر نظيف حتى لايقاسى من هذه المتاعب ولا يرى الياس على وجه سائقه ووجه سيميون .. ولكنه يضحك فقط ولا يبدو عليه الاهتمام او الرغبة فى حياة افضل ، انه طيب رقيق لطيف ولكنه لايفهم هذه الحياة تماما كما كان فى الامتحان لايعرف الصلوات . وهو لم يهب المدرسة شيئا سوى بضع كرات ، ويظن مع ذلك انه رجل نافع وعضو عامل فى سبيل نشر التعليم الشعبى ، وما فائدة كراته هنا ؟

وصاح سيميون : انتبهى يا فاسيليفنا . . وانحدرت العربة بعنف وكادت ان تنقلب وسقط شىء ثقيل على رجلها وهى اللفة التى بها مشترياتها . وكانت رائحة شديدة تنبعث من الوحل وقد اخذت المياه تنحدر من مجارى بين الحفر وكانها تمزق الطريق فاصبح من المتعذر السير فيه . واخذت الجياد تتنفس بصعوبة ، ونزل هانوف من عربته وسار الى جوارها وقد تدثر بمعطفه الدافىء ، وقال وهو يضحك ثانيا : ياله من طريق ، يكاد يكسر العربة . فقال سيميون فى وقاحة : لا احد يجبرك على السير فى هذا الجو ، كان يمكنك ان تبقى فى البيت . فاجابه : اننى اشعر بالضيق فى البيت ياجدى لا احب البقاء فيه . وكان يبدو نشيطا ممتلئا حيوية وهو بجانب سيميون ولكن شيئا ما فى مظهره كان يعطى الاحساس انه قد ضعف وانهد كيانه وانه سائر فى طريقه الى النهاية .

وفجاة نشطت الزوابع فى الغابة ، وامتلات نفس ماريا فاسيليفنا بالشفقة على ذلك الذى يسير نحو حتفه بلا هدف ولا سبب معلوم وبدر الى ذهنها انها لو كانت زوجته او اخته لكرست حياتها لانقاذه من تلك النهاية . . زوجته ؟ ان الحياة تسير منظمة هكذا ، هو يعيش وحده فى قصره الكبير وهى وحدها فى تلك القرية البعيدة ، ومجرد التفكير فى انها يمكن ان تربطها به رابطة واحدة كالند للند كان تفكيرا مستحيلا سخيفا ، فالواقع ان الحياة منظمة والعلاقات الانسانية معقدة لدرجة لايمكن فهمها وان مجرد التفكير فيها يجعل الانسان يحس بقلبه يخفق وعقله يضطرب . وظلت تفكر وهى لاتستطيع ان تدرك لماذا يهب الله الجمال والرقة وسحر العيون للضعفاء السيئى الحظ الذين لافائدة منهم ، لماذا يبدون هكذا فاتنين ؟

قال هانوف وهو يركب عربته : الان يجب ان نعرج الى اليمين ، وداعا ، لك اطيب تمنياتى .. ومرة اخرى اخذت تفكر فى التلاميذ والامتحان والفراش والمدرسة ، وعندما اخذت الرياح تحمل اليها صوت العربة المبتعدة اختلطت هذه الافكار بافكار اخرى ، وظلت تفكر

فى العيون الجميلة والحب والسعادة التى لن تتحقق .. زوجته ؟

لقد كان الجو باردا فى الصباح ، ولم يكن هناك احد يشعل النار فى المدفاة ، فقد اختفى الفراش حينذاك ،

وعندما امتلأ الكون بالنور جاء الاطفال يحملون الجليدوالوحل ويملاون المكانبالضوضاء لقد كان كل شىء متعبا يبعث الضيق . كان مسكنها عبارة عن حجرة واحدة صغيرةبجوارها مطبخ . كان راسها يؤلمها كل يوم بعد انتهاء العمل .

وبعد الغداء كانت تحس بالسخونة فىمعدتها كان عليها أن تجمع النقود من التلاميذ لشراء الخشب وللفراش ، وكانت تعطى النقود للمشرف السمج المتكرش وترجوه ان يرسل لها الخشب . وفى الليل كانت تحلم بالامتحانات والفلاحين والجليد المتساقط . كانت هذه الحياة تجعلها تزداد كبرا وخشونة ، كانت تحمل اليها القبح والضعف وتيبس المفاصل وتجعلها كانها مصنوعة من الرصاص . كانت تعيش فى خوف ، لا تجسر على الجلوس فى حضرة احد اعضاء الزمستفو ، ولا تستطيع ان تذكر اسم احدهم الا بعبارات الاجلال الرسمية ، ولم يكن احد ينظر اليها على انها جذابة ، والحياة تمر رتيبة بلا عاطفة ولا صداقة ولا تعارف . وماكان اسوا حالها لو وقعت فى الحب .. انتبهى يا فاسيليفنا .. ومرة ثانية اخذت تشم رائحة الوحل . ان المدرسين والاطباء الذين يحصلون على الاجور المنخفضة ومساعديهم ، مع عملهم الشاق المضنى ، لا يستطيعون ان يجدوا العزاء حتىفى التفكير فىانهم يؤدون رسالة أو يخدمون الناس ، فرؤوسهم مشحونة دائما بالتفكير فى الحصول على قوتهم اليومى والخشب اللازم للتدفئة والطرق الرديئة والامراض .. انه من الصعب جدا ان يحيا المرء حياة ليس بها ما يبعث على السرور ، ولا يستطيع ان يحياها مدة طويلة سوى الصابرون الصامتون كماريا فاسيليفنا ، أما ذوو الحماس الذين لايقدرون على الصبر ، المحبون للمرح ، الذين يتحدثون عن المبادىء وخدمة الرسالة فهم يقلقون بسرعة ثم يتركون العمل .

وظل سيميون يختصر الطريق ، فقطع الوادى المنخفض واخذ يقترب من اكواخ القرية ، وكان الفلاحون يمنعونه من المرور فى ناحية وفى ناحية اخرى كانت ارض الكاهن التى لايستطيع ان يعبرها ، وفى مكان اخر كانت الارض التى اشتراها ايفان ايونوف وحفر حولها خندقا . وفى كل مرة كان عليه ان يغير اتجاهه . واخيرا وصلوا الى نيشنى جورورديتش قرب الحانة فى الارض الملية بروث البهائم التى كان لايزال يغطى بعضها الجليد ، وقد وقفت هناك عدة عربات تحمل قوارير حامض الكبريتيك

كان هناك كثيرون فى الحانة ، اغلبهم سائقون وقد انتشرت رائحة الفودكا والدخان وجلود الغنم . . وقد علت اصواتهم مختلطة بصرير الباب المتحرك ، ومن خلال الحائط كان يسمع صوت الموسيقى المنبعثة باستمرار دون توقف من داخل المحل .

وجلست ماريا فاسيليفنا تشرب الشاى بينما جلس الفلاحون يشربون الفودكا والبيرة ، والعرق يتصبب على وجوههم من الشاى الذى شربوه والدخان الخانق الذى يملا الحانة .. وتعالت الاصوات بين الضجيج : اقول ياكوزما : .. ماذا هناك ؟ .. ليرحمنا الله .. ايفان ديمتيتش .. اقول لك ان . انظر الى الخارج يا رجل ..

واخذ رجل نمل مبقع الوجه بلحية كبيرة سوداء ، وقد اثاره شىء ، يهذى بالفاظ نابية .. فقال سيميون فى غيظ ، وقد كان جالسا بالقرب منه : لمن هذا السباب يا رجل .. الا ترى الانسة ؟ وعلا صوت من احد الاركان فى تهكم : الانسة ؟ .. فصاح سيميون : همج ؟

فقال الرجل الصغير فى اضطراب : اننا لم نقصد شيئا ، لا مؤاخذة .. اننا ندفع حسابنا كما تدفع الانسة حسابها .. صباح الخير .

فاجابت المدرسة : صباح الخير ..

فقال : اننا نشكرك من كل قلبنا .

وشربت ماريا فاسيليفنا الشاى فى سرور وقد بدا وجهها يحمر هى الاخرى مثل الفلاحين ، واخذت تفكر من جديد فى خشب التدفئـــة والفراش و.. وسمعت من الناحية المجاورة :قف يا رجل .. انها المدرسة .. فيازوفيا .. اننا نعرفها فهى انسة لطيفة .. لطيفة جدا . . وكان الباب المتحرك لايزال يتارجح ، جماعة تخرج وجماعة تدخل .

وجلست ماريا فاسيليفنا تفكر طيلة الوقت فى نفس الاشياء ، والموسيقيون يعزفون ويعزفون .. وقد اخذ شعاع من الشمس يمر فوق الارض ثم المنضدة والحائط ثم اختفى تماما . كان الوقت بعد الظهر كما يدل سير الشمس ، وقد تاهب الفلاحون الجالسون على المنضدة المجاورة للرحيل ، وتقدم الرجل النحيف فى تردد من ماريا فاسيليفنا ومد لها يده وتبعه زملاؤه وصافحوها قبل رحيلهم ، ثم ساروا الواحد خلف الاخر ، وانفتح الباب وانقفل تسع مرات .. ثم قال سيميون : استعدى يافاسيليفنا ، وقاما بدورهما .

وسارت العربة ببطء ، وقال سيميون وهو يلتفت اليها : لقد بداوا منذ مدة فى بنـــاء مدرسة هنا فى نيشنى وبئس ما فعـــلوا .. فقالت ماريا : لماذا ؟ قال سيميون : يقال ان المدير وضع الفا فى جيبه ، والمشرف الفا اخرى والمدرس خمسمائة !

فقالت : ان المدرسة كلها تكلفت الفا ، لا يصح ان تسىء الظن بالناس . هذا هراء .. فقال : لا ادرى انى اقول لك مايردده الناس فقط وكان واضحا ان سيميون لم يصدق المدرسة والفلاحون لايصدقونها كذلك ، وهم يعتقدون انها تحصل على مرتب كبير ، احدى وعشرين روبية فى الشهر ، وقد كان يكفيها خمسة فقط وانها تستولى على الجزء الاكبر من النقـــود التى تجمعها من التلاميذ للفراش ولخشـــب التدفئة . وكان المشرف يظن فيها نفس الشىء كالفلاحين ، وقد كان هو نفسه يستولى على جزء كبير من تلك النقود ويحصل من الفلاحين على اتاوات نظير اشرافه على المدرسة دون عـــلم المسئولين .

والان لقد عبروا الغابة ولم يعد امامهم سوى الارض المستوية على طول الطريق حتى فيازوفيا . ولم يبق سوى جزء قصير من الطريق كان عليهم ان يعبروا النهر ، ثم شريط السكة الحديدية ثم يصلوا الى فيازوفيا . وقالت ماريا فاسيليفنا ليسميون : الى اين انت ذاهب .. اتجه الى اليمين نحو الجسر . فقال لماذا ؟ اننا نستطيع ان نمر من هنا .. ليس النهر عميقا فقالت : اخشى ان تغرق الحصان .. فصاح : ماذا ؟ ثم قالت وقد لمحت الجياد الاربعة تسير عن بعد : ها هوذا هانوف يسير نحو الجسر . انه هو على ما اظن .. فقال لها : فعلا ، انه هو فهو لم يجد باكفيست فى البيت .. ياله من رجل برأس خنزير .. ليرحمنا الله .. لقد ذهب من هناك .. لماذا ؟ من هنا اقصر ميلين

ووصلوا الى النهر وهو فى الصيف يصبح مجرى يسهل عبوره ، وفى اغسطس يكاد يجف تماما ، ولكنه الان بعد سيول الربيع قد صار نهرا : عرضه اربعون قدما ، سريع التيار باردا مليئا بالوحل ، وعلى ضفتى النهر كانت ترى اثار حديثة لعجلات عربات مرت منه بلا شك وصاح سيميون فى غضب وعصبية ، وهـــو يجذب اللجام بعنف ، ويضرب الهواء بكوعيه كما يفعل الطائر بجناحيه : هيا ، هيا . وخاض الحصان فى الماء الذى وصل الى رأسه ثم توقف من السير ثم انطلق ثانيا بعنف ، واحست ماريا سيليفنا ببرودة شديدة فى قدميها ، وصاحت هى ايضا وهى واقفة : هيا هيا .. واخـــيرا عبروا النهر . وتمتم سيميون وهو يسوى السرج فوق ظهر الحصان : يالها من مشقة .. ليرحمنا الله .. كم هم متعبون هؤلاء الزمستفو .

كان حذاء ماريا فاسيليفنا مليئا بالمياه والجزء الاسفل من ردائها ومعطفها واحد اكمامها مبللين تتساقط منهم قطرات الماء .. وكان اســوأ ما فى الامر ان السكر والدقيق قد ابتلا . وفركت ماريا فاسيليفنا يديها فى يأس قائلة : اه يا سيميون كم انت متعب ..

وعند السكة الحديدية كان الحاجز موضوعا لقيام القطار من المحطة ، ووقفت ماريا فاسيليفنا تنتظر حتى يمر وهى ترتعد من شدة البرد ، وقد ظهرت فيازوفيا الان ، وظهر مبنى المدرسة بسطحه الاخضر والكنيسة بصلبانها التى تلمع فى شمس الاصيل ، وكانت نوافذ المحطة تلمع ايضا .. واخذ الدخان الازرق يتصاعد من مدخنة القاطرة .. وخيل اليها ان كل شىء يرتعد من البرد .. ومر القطار وقد اخذت نوافذه تعكس الضوء كالصلبان فوق الكنيسة واحست بعينيها تؤلمانها من النظر اليها . . وبين عربتين من الدرجة الثانية كانت سيدة واقفة ولمحتها ماريا فاسيليفنا بسرعة والقطار يمر . . امامها ؟؟ يا للشبه الغريب .. لقد كان لامها مثل ذلك الشعر اللامع وتلك الحواجب وتلك الجبهة . وللمرة الاولى منذ ثلاثة عشر عاما ارتسمت فى مخيلتها بوضوح عجيب صورة امها واخيها وشقتهم فى موسكو والحوض الذى يسبح فيه السمك الصغير .. وكل شىء بادق التفاصيل .. وخيل اليها انها تسمع صوت البيانو وصوت ابيها .

واخذت تحس بنفسها كما كانت حينذاك صغيرة جميلة رشيقة تجلس مع اهلها فى حجرة دافئة مضيئة .. وفجاة غمرها الشعور بالفرح والسعادة ، وضغطت يدها على خدها بشدة ثم نادت فى همس : اماه .. واخذت تبكى ، لم تكن تدرى لماذا .. وفى نفس هذه اللحظة وصل هانوف بجياده الاربعة ، وعندما راته خيل اليها انها تحس بسعادة لم تشعر بها من قبل وابتسمت ثم هزت له راسها كما لو كان صديقا او زميلا ، وبدا لها ان سعادتها تغمر الدنيا من كل جانب فى السماء وخلال النوافذ وفوق الاشجار .. ان اباها وامها لم يموتا ، انها لم تكن قط مدرسة .. كما لو كان هذا كله حلما غريبا مفزعا وقد افاقت منه .. وفجاة اختفى كل شىء ، وسمعت صوت سيميون يقول : فاسيليفنا ، اصعدى .. وارتفع الحاجز ببطء وصعدت ماريا فاسيليفنا الى العربة وهى ترتعد من البرد .

وعبرت العربة ذات الجياد الاربعة شريط السكة الحديدية وتبعها سيميون .. وقد رفع حارس الاشارة قبعته تحية .. وهاهم اخيرا فى فيازوفيا .

« أن دروس الحياة اعظم واقوى
من دروس الكتب ..

أن الناس يعلمون الناس فى شدة
وقسوة .. ولكنه العلم الوحيد الذى
يبقى .. »

((مكسيم جوركى))

الذى تقرءون عنه فى القصص والروايات ، وقد غمرت قلبي السعادة حقا ، ولكنى كنت أضايق اهلى واصدقائى بكثرة حديثى عن سعادتى ، والسعداء كما تعرفون هم اكثر الناس حديثا عن سعادتهم واقلهم ركونا الى الصمت !

وكان لى صديق يعمل محاميا ناشئا آنذاك ، وهو الآن واسع الشهرة معروف فى طول البلاد وعرضها ، ولكنه كان يخطو وقتئذ اولى خطواته نحو المجد والثراء • وكان من عادتى أن أذهب لزيارته مرة أو مرتين فى كل اسبوع ، فاذا ما استقر بى المقام فى بيته ، استلقينا على أريكتين وثيرتين ، واخذنا نتجاذب أطراف الحديث فى الادب والفلسفة وفى مختلف الموضوعات

وكنت يوما مضطجعا فوق الاريكة على عادتى ، أجادله فى أن المحاماة مهنة كلها عقوق ونكران للجميل ، وحاولت أن أبين له أن من الممكن الاستغناء عن المحامى بعد سماع أقوال الشهود فى المحكمة • فان كان هناك محلف شاب قوى العقل والروح ، واثبت أن هذا السقف أبيض اللون أو أن ذاك الرجل مذنب فليس هناك من يستطيع عندئذ أن يقاوم قوة اقناعه ! ومن ذا الذى يستطيع أن يبرهن لى على أن شاربى أحمر فى الوقت الذى أنا موقن فيه أنه أسود • وربما أصغيت الى خطيب يؤثر فى نفسى وينتزع منى الدموع ، أما عقائدى الثابتة التى تقوم على أساس من الحقائق الواضحة فلا يمكن تغييرها بأية حال !

ولكن صديقى المحامى جاهد فى اقناعى أنى ما زلت صغيرا أتكلم كالاطفال كلاما لا معنى له ولا قيمة وقال ان الحقيقة الظاهرة اذا ما ألقى عليها الضوء رجل خبير عادل، فانها تزداد وضوحا ، وان الذكاء



وقد ألححت فى مضايقة المحامى
فهز رأسه وقطب ما بين حاجبيه

قوة جبارة تستطيع أن تحيل الصخر الى تراب ، وقال أيضا ، انه حينما يتحدث عن الذكاء ، فانه لايعني ذلك الذكاء البسيط التافه كذكاء الملاك وأصحاب المتاجر ، وانه لمن العسير أن تقاوم الارادة البشرية الضعيفة رجلا ذكيا ، تماما كمن ينظر الى الشمس دون أن يصاب بالعمى ! ، وانه بقوة الكلمات أمكن لشخص واحد أن يجعل الآلاف يعتنقون المسيحية ! ،وما قام التاريخ الا على لحظات وحوادث مثل هذه

ولكنى أصررت على أن قوة العقيدة لا يمكن أن يضعفها أى ذكاء كنت اقول هذا مع أننى لا أستطيع ان أحدد تماما ما هى الحقيقة وما هو)الذكاء ! ومن المحتمل انى كنت اتحدث لمجرد الحديث ليس الا !

ولكن صديقى المحامى استطرد يقول : « لنأخذ شخصا مثلك ، فانك مقتنع بأن خطيبتك ملكة ، وبانه ما من قلب فى البلدة مفعم بالسعادة كقلبك ، ولكن يمكننى أن أؤكد لك أن بضع دقائق كافية لان تجلس على هذا المكتب لتكتب لها خطابا تفصم به العلاقة بينكما »

فضحك ساخرا من قوله ولكنه قال : « لاتضحك ، فانى اذكر الحقائق ، فاذا رغبت ، ففى وسعك ان تصبح سعيدا بعد عشرين دقيقة فقط ، لانى قد انقذتك من هذا الزواج ! »

فقلت متحديا : « حسنا ... يمكنك ان تجرب »

فأجاب : « كلا ! كيف افعل ذلك وأنت صديق مهذب ! انى اشفق ان احملك هدفا لتجربتى القاسية »

وجلسنا للعشاء ، وغمرتني الخمر بخيالات حالمة عن حبيبتى « ناتاشا » ، فكان سرورى بالغ

حتى أن عبنى صديقى المحامى الخضراوين . بدتا لى وكان بهما مسحة من الكآبة والهم !

واخذت استفزه قائلا « حاول ياصديقى .. ارجوك .. لم لا تحاول ؟ »

فهز المحامى رأسه وعقد حاجبيه وقد أفلحت فى مضايقته ، فقال : « اؤكد لك انك ستشكرنى ، بل لسوف تلقبنى بالمنقذ حينما أتم تجربتى . ولكنى ارى لزاما على كذلك ان اذكر خطيبتك ، فهى تحبك ، ولسد مايؤلمها ويشقيها الا تبادلها الحب ! يا الهى ! كم هى فاتنة ! انى احسدك ! »

وزفر زفرة حارة وهو يرشف جرعة من الخمر ، ثم بدأ يتحدث عن جمال حبيبتى ، وكان وصفه بارعا وهو يتحدث عن اهدابها الطويلة ، وأناملها الوردية الرقيقة فاخذت استمع اليه وقد غمرنى السرور

وصمت صديقى لحظة ثم اضاف

يقول : « لقد رأيت كثيرا من النساء ولكنى أصارحك القول بأن «ناتاشا» درة لامعة ، انها فتاة نادرة المثال ! بالطبع ان لها عيوبها ولكنها مع ذلك رائعة ! »

ثم شرع المحامى يتحدث عن عيوب حبيبتى ، وكان حديثه جامعا وتناول مواطن الضعف فى أخلاق النساء بوجه خاص ، ولكن بدا لى عندئذ أنه لم يكن يعنى بحديثه أحدا الا « ناتاشا » بالذات .

وأخذ صديقى وقد أذهله الفرح ، يطيل فى وصف أنفها الأفطس ، وصوتها المثير ، وضحكتها المرحة وتكلفها وتظاهرها .. وكل ماأكرهه فيها ، وكان كل ذلك فى نظره محبوبا ، بل وجميلا مفعما بالانوثة !

ودون أن أشعر ، انتقل صديقى من هذا الى الحديث بحرارة وحماسة عن التربية الابوية وآثرها ، وكان يتحدث بصوت يفيض تهكما وسخرية حتى أنى لم أجد فرصة لأن أقول كلمة واحدة ! وماذا يمكن أن أقول ؟ انه لم يذكر شيئا جديدا ، لقد كان صادقا فى كل ما جاء على لسانه ، ولم يكن موضع السم فى كلماته ذاتها ، بل كان فى تلك اللهجة الشيطانية التى كان يتحدث بها . واقتنعت بأن كل كلمة يمكن أن يكون لها ألف معنى بحسب الطريقة التى تنطق بها ، وطبقا لتغيير موضعها فى الجملة !

ونهضت من مكانى ثائرا وأخذت أذرع الحجرة جيئة وذهابا ، ووجدت نفسى أصدقه عندما راح يخبرنى والدموع تترقرق فى عينيه بأننى مازلت شابا فى مقتبل العمر ، وأن أمامى مستقبلا مشرقا سأقوم فيه بعمل باهر عظيم وأن زواجى هذا سوف يقف حائلا دونه ، ومالبث أن أطبق بيديه على يدى فى حرارة وهو يقول : « أرجوك .. بل آمرك بأن تقف عند هذا الحد قبل فوات الاوان ! ولسوف يساعدك الله على انقاذك من تلك الخطيئة التى توشك أن تتردى فيها ! كلا كلا ، لا تحطم شبابك يا صديقى ! »

والغريب فى الامر أنى وجدت نفسى أجلس الى المكتب وأحرر الى خطيبتى رسالة الفصم بها عرى خطبتنا ، وقد تملكنى الفرح وأنا أشعر بأنه لا يزال فى الوقت متسع لاصلاح ذلك الخطأ الذى ترديت فيه ! وأغلقت المظروف وأسرعت خارجا الى الشارع ، فلم تنقض لحظات حتى كانت رسالتى قد غابت داخل صندوق البريد . وكان صديقى المحامى يلازمنى ولا يكاد يكف لحظة عن الثناء على

وقال لى صديقى لما قضى الامر : « لقد قمت بعمل رائع حقا ، انى أهنئك يا صديقى من كل قلبى ،

ولشد ما أنا مسرور من أجلك ! »

وما كدنا نبتعد بضع خطوات حتى استطرد صديقي يقول : « لا شك لي أن للزواج ناحية البهجة أيضا ، فأنا مثلا ، من ذلك النوع من الرجال الذين يجدون في الزواج وحياة الاسرة كل آمالهم »

قال هذا ثم أخذ يسرد على تفاصيل حياته الزوجية فتكشفت لعيني بشاعة حياة العزوبة ومدى ماتنطوى عليه من غلظة وجفاف ، فلم نكد نبلغ باب منزله حتى كان قد تملكني يأس قاتل ، وصحت أقول في صوت لاهث : « ماذا صنعت بي أيها اللعين ؟ لقد حطمتني ، لماذا جعلتني أكتب ذلك الخطاب المشئوم؟ الى أحبها ! نعم أحبها ! »

وأقسمت له أني أحبها ، فلقد كنت أخشى عواقب فعلتي المتهورة !

▱

وصمت الحلف الرابع لحظة ثم استطرد يقول في صوت متهدج النبرات :

« سادتي ، من العسير أن نتصور لحظة أكثر رهبة وقسوة من تلك اللحظة ، ولو أن رجلا رحيما وضع حينئذ مسدسا في يدي لاطلقت على رأسي رصاصة بكل ارتياح ! فما ظنكم فيما حدث بعد ذلك ؟

لقد ضحك صديقي المحامي عندئذ وهو يضع يده على كتفي في رفق ثم قال : « لا تصرخ هكذا يا صديقي ، فخطابك لن يصل الى « ناتاشا » ! لقد كتبت أنا العنوان بنفسي ، لا أنت ، على المظروف ، فاخترعت عنوانا خياليا لا وجود له ولن يقدر على حل رموزه أحد في مكتب البريد ، وليكن هذا درسا لك لاتنساه كي لاتجادلني مرة أخرى في أمور لاتعرف عنها الكثير ! »

والآن أيها السادة ، فليقص علينا الزميل الخامس قصته

▱

وما ان تأهب خامس المحلفين للكلام حتى دقت ساعة الكنيسة تعلن انتصاف الليل ، وعندئذ قال رجل من بين الحاضرين : « فما بالكم أيها السادة بالحالة الرهيبة التي يعانيها سجيننا الآن ؟ ترى ما الذي يشعر به في هذه اللحظة ؟ وما الذي يفكر فيه ؟ انه يقضي ليلته هنا في زنزانة ، وقد يكون مستلقيا وقد يكون جالسا ، ولكن لاشك لي أنه ساهد أرق ، وهو يصغي الى دقات الساعة تبدد من آن لآخر هدأة الليل ! »

وضى المجتمعون لجاة كل ماقيل أثناء السهرة عن اللحظات الرهيبة ، وقد تبين لهم أن قصة زميلهم الذي كتب الخطاب الى خطيبته لم تكن الا تجربة يسيرة تافهة بالقياس الى قصة السجين الذي ينتظرون قضيته ، فلم ينبس أحد منهم بعد ذلك ببنت شفة ، بل نهضوا جميعا وذهبوا الى فراشهم في هدوء وسكون

قصة للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

الآنسة نتالي

■ كان ذلك منذ نحو تسع سنوات ، في وقت حصيد الهشيم ، عصر أحد الأيام . وكنت انا و « بيير سرغيتش » ، وكان يزاول عمله قاضيا للصلح ، قد ذهبنا على ظهور الخيل الى محطة السكة الحديدية لكي نأتي بالبريد . وكان الجو صافيا، غير اننا في طريق العودة سمعنا هزيم الرعد، ورأينا سحابة ضخمة دكناء تتقدم في اتجاهنا ، مهددة متوعدة . وكنا نسير صوبها .

ومن بعيد ، وراء تلك السحابة ، كانت دارنا تبدو كبقعة بيضاء، ومعها الكنيسة، وأشجار الحور الفضية الباسقة . وكانت رائحة المطر والهشيم تملأ الأنف . وكان زميلي متوقد الذهن ، لا ينفك يضحك ويفيض بلغو القول ، ويخال الخيالات .

قال : « ما أروع ان نجد في طريقنا قصرا من قصور العصور الوسطى ، وقد نهض ثمة على حين غرة بأبراجه المسننة وطحالبه وبومه ، فنلوذ به من المطر ، ثم تضربنا الصاعقة في النهاية فتهلك ... »

وثارت الريح فجاة ، وجرت دوامتها فوق القمح والقرطم ، وتطاير الغبار في الجو . وضحك بيير وهمز جواده ، وتنحنح وصاح : « حسن . حسن جدا . » ورحت انا أضحك كذلك تحت تأثير اندفاعه ، وانسياقا مع تصوري باني لن ألبث ان ابتل حتى عظامي ، وان من المحتمل أن تصرعني الصاعقة ..

ولما عدنا كانت الريح قد هدأت ، وهطلت قطرات كبيرة من المطر كانت تنفقأ بين العشب وفوق الأسطح . ولما دخلنا الاصطبل لم نجد فيه انسانا قط .

قام « بيير سرغيتش » نفسه برفع السرجين ، وقاد الجوادين الى مربطهما . وفي انتظار أن يفرغ من عمله هذا كنت واقفة على العتبة اشاهد خيوط المطر المنحرفة . وكانت رائحة الهشيم المثيرة أشد هنا منها في الحقول . وقد اربد الجو وتجمعت الغيوم وانهمر المطر شديدا . ثم قصف الرعد قصفا مروعا حتى لقد بدا كأنما السماء به قد انشقت شطرين . وعلى اثر ذلك اقترب « بيير » مني وقال : « يا لقعقعة هذا الرعد ! »

كان واقفا الى جانبي على العتبة يتأملني ، وما برح مبهور الأنفاس من شدة عدو الجواد به .

ثم قال : يا آنسة نتالي ، شد ما وددت أن اخرج عن كل ما أملك في سبيل أن اظل واقفا هكذا أطول مدة ممكنة وانا انظر اليك . فانت اليوم رائعة باهرة » .

كانت نظرته مفتونة متضرعة ، ومحياه شاحبا ، تلتمع فوق لحيته وشاربيه قطرات المطر . وكان يخيل الي أن تلك القطرات هي الأخرى ، تنظر الي بومق . ومضى فقال : « اني احبك . احبك واحس اني سعيد ان أراك . وانا أعلم انك لا تستطيعين ان تكوني زوجي . غير اني لا ابتغي شيئا ، ولست بحاجة الى أي شيء . ولتعلمي اني احبك وحسب . لا تقولي شيئا ولا تجيبي ولتعلمي فقط انك العزيزة الغالية . ودعيني بعد أتملى النظر منك » .

وانتقلت الي حماسته ، ورحت أتأمل محياه الملهم ، واصغي الى صوته يختلط بصوت المطر . ولم أعد استطيع أن آتي بحركة . لكأنما تملكني سحر ساحر . وتمنيت لو بقيت هكذا الى الأبد أتأمل عينيه البراقتين ، وأسمع صوته الجميل .

قال بيير : « انك لا تفوهين بكلمة . وهذا حسن جدا . استمرى فى صمتك » .

تملكنى احساس" مستطاب ، وطَفِقتُ اضحك فرحا وابتهاجا . ثم ركضت نحو البيت تحت وابل المطر . وضحك هو الآخر ، واندفع يلاحقنى .. وطرنا خفيفين ، كل الى غرفته ، نصخب صخب الأطفال ، وكانت ثيابنا مبلولة ، وأنفاسنا مبهورة ، وصات السلم تحت وقع اقدامنا . وما كان أبى ، ولا أخى ، قد تعودا أن يريانى مبتهجة ضاحكة السن هكذا ، فحدقا النظر فىّ مندهشين ، ثم اغرقا فى الضحك .

وانقشعت غيوم العاصفة ، وسكن الرعد ، ولكن قطرات من المطر كانت لا تزال تلتمع على لحية بيير .

وراح بيير طيلة المساء يغنى ويصفر ويلاعب الكلب فى جلبة ويلاحقه في أرجاء البيت حتى كاد يصطدم بالخادم . وحان موعد العشاء فاخذ يلتهم الطعام التهاما ، ويتحدث ، ويقول الحماقات ، ثم

.. ولم اعد استطيع ان آتى بحركة لكانما تملكنى سحر ساحر ! ..



اكد ان المرء اذ يتناول خيارا طازجا فى الشتاء يحس بشذا الربيع فى فمه .

ولما حان وقت النوم ، اوقدتُ شمعة فى غرفتى ، وفتحت النافذة على وُسعها،واستولى على روحى شعور لا سبيل الى تفسيره . وطاف فى ذهنى اننى حرة ، وذات ثراء ، وجيدة الصحة ، وانى من الطبقة الاجتماعية الرفيعة . احاسيس ما اجملها يا الهى !

وحاولت ، وانا اضجع على سريرى ، واستنشق العبير الرطب المتصاعد من البستان مع انداء الليل، ان انفهم حقيقة شعورى نحو بيير سرغيتش ، وهل انا احبه ؟ ولما لم يسعنى ان افهم شيئا جاءنى النوم .

ولكنى لما استيقظت فى الصباح ، وشاهدت ظلال شجر الزيزفون ، وشعاعات من نور الشمس تمرُ فوق سريرى ، عادت الى ذاكرتى حوادث العشية السابقة . وبدت لى الحياة عندئذ غنية متنوعة ، مليئة بالسحر والروعة . ورحت ارتدى ملابسى بسرعة ، وعلى شفتىَ يتراقص نغم جميل ، ثم انطلقتُ الى الحديقة ..

فماذا جاءت به الايام بعد ذلك ؟ لا شىء . لقد كان من عادة بيير ، فى اثناء اقامتنا فى المدينة شتاء، أن يزورنا احيانا . ان اصدقاء الريف ، امثال بيير لا تطيب بهم نفوسنا الا فى الريف وحده ، صيفا . واما فى المدينة ، وفى فصل الشتاء ، فان هؤلاء الاصدقاء يفقدون نصف كياستهم وملاحتهم. ونحن حين نقدم لهم الشاى، فى المدينة ، يساورنا الشعور بانهم يرتدون حلل « الريدنغوت » المستعارة ، وانهم يحركون الملاعق الصغيرة فى اكواب الشاى مدة جد طويلة ..

وفى المدينة كان بيير يتحدث احيانا فى الحب . غير انه كان لهذا الحديث وقع مختلف عنه فى الريف كل الاختلاف . لقد كنا فى المدينة نحس بالحاجز الذى يفصل بيننا احساسا اقوى واشد : فانا ثرية ، ومن الطبقة الرفيعة ، وهو فقير . ولم يكن حتى من طبقة النبلاء . كان ابن «شماس» وكان مرشحا لوظيفة قاضى صلح . وكنا ، كلانا ، نعتبر الجدار القائم بيننا عاليا وسميكا جدا . وكان هذا منى نزق شباب ، واما منه هو فعلمه عند الله . وكان حين يتردد علينا فى المدينة لاينفك يتكلف الابتسام وبوجه نقده الى الطبقة الرفيعة . واذا وجد فى غرفة الاستقبال زائرا اخر لزم جانب الصمت عابسا مقطبا .

لقد كنت محبوبة . وكانت السعادة بجانبى . لكانما كانت تعايشنى وتقيم معى كتفا الى كتف . وكنت احيا دون مبالاة ، دون محاولة لفهم نفسى . دون ان ادرك ماذا انتظر واتوقع من الحياة . وكان الزمن يمضى ..

كان الناس يمرون امامى ومعهم الحب . وكانت الايام الصافية والليالى الدافئة تتعاقب ،والبلابل تغرد ، والهشيم يفوح أريجه . ان هذا كله ،وهو غاية فى الفتنة واثارة الذكرى لى وللاخرين ، قد مر وانقضى وشيكا ، دون ان يبقى اثرا او يجد تقديرا . فاين هو الآن ، اين ، اين ؟ ..

وتوفى والدى . واخذت اشيخ . وكل ما كان يُبهج ويَسر ، ويحلو ، ويَهَب الامل : وقع المطر .. هزيم الرعد .. فكرة السعادة .. احاديث الحب .. هذا كله لم يعد سوى ذكرى . وانى لأرى الآن امامى منبسطا شاسعا كله وحشة وخواء .. والافق هناك مربداً مخيفا ..

ويقرع جرس الباب : انه بيير .

انى كلما رايت اشجار الشتاء ، وكلما تذكرت كم كانت مونقة خضراء لأجلى فى الصيف ، همست : ايها الشجر الحبيب .. واذا وقع نظرى على اولئك الاشخاص الذين امضيت معهم ربيع الحياة تغشتنى الكآبة .. ثم تسلل الدفء الى قلبى وهمست اردد العبارة نفسها : « يا أعزائى » .

كان بيير منذ زمن طويل قد استقر فى المدينة بسبب من حماية ابى ومسعاه . ولقد شاخ قليلا ، وانحنى ظهره شيئا ما ، وكف منذ زمن بعيد عن مطارحتى الحب ، ولم يعد يلقى بحماقاته قط ،كما لم يعد يحب مهنته . فكأنه مريض ، وكانما زال عنه السحر والوهم ، فأدار ظهره للحياة وراح يعيشها مرغما .

تشيكوف : ليلة وفاته ..



وُلد انطون تشيكوف منذ مئة سنة ، اى فى عام ١٨٦٠ بالضبط . وقد كان جده لأبيه من الرقيق ، وكان ابوه بقالا . اما هو فقد كان طبيبا احترف كتابة القصة والمسرحية . وتوفّى سنة ١٩٠٤ بداء السل ، وهو فى اوج مجده الادبى ، ويقول النقد الاوروبى : ان قصصه القصار كانت أروع واجمل ما أخرج للدنيا من هذا الفن .

ويصف مَنْ كَتَب سيرته ليلة وفاته فيقول : « فى ليلة بديعة من ليالى تموز ١٩٠٤ احسّ انه لم يعد فى طوقه أن يجد مزيدا من مقاومة الداء . وقد وهن قلبه فلا يكاد يخفق . وسأل امرأته ان تأتى له بطبيب . وقد أعطاه الطبيب حقنة كافور لم تنفعه . وناولوه كأسا من الشمبانيا فشربها واضجع على أحد جانبيه ، وأخذ ينظر الى فراشة الليل التى دخلت من النافذة المفتوحة وراحت تصطدم بالمصابيح الموقدة . ثم وجدت الفراشة طريقها الى الخارج فاختفت فى طوايا ليل دافىء رقيق . وأرسل تشيكوف نفسا واهنا ، ثم استرخى وجهه وفارق الحياة » .

والقصة العربية القصيرة مدينة بالكثير لانطون تشيكوف . فهو بحق استاذ لبناة القصة القصيرة فى ادبنا ، استلهموا فنه وأسلوبه وخصائصه ، كما استلهم هذا الفن الكثيرون من مشاهير كتاب القصة فى أوروبا دون شبهة من ريب .

جلس قرب الموقد ، يتطلع بصمت الى اللهب ... ولا يدرى ما يقول ... وسألته : ماذا هناك ؟ واجاب : « ما ثمة من شيء ... » .

واطبق الصمت عليه من جديد . وراح اللهب الاحمر المنعكس يتراقص على صفحة وجهه . وعاد الماضى الى مخيلتى . وعلى حين غرة اهتز كتفاى ، وانحنى راسى ، وطفقت ابكى بحرقة .. ولقد رثيت رثاء مريرا لنفسى ولهذا الرجل ، وتمنيت لو عاد ما فات مما تأباه علينا اليوم الحياة . لم أفكر عندئذ انى ثرية ... وانى من الطبقة العالية ... ثم شهقت فى البكاء وانتحبت بصوت مرتفع وانا أضغط فودىَّ ، ورحت أتمتم : « رباه .. رباه .. لقد ضاعت حياتى .. » .

وظل بيير جالسا ، وقد لزم الصمت ، ولم يقل لى «لا تبكى» . كان يدرك أن وقت البكاء قد حان . ولقد قرأت فى عينيه أنه يرثى لى . وانا ايضا كنت ارثى لحالة مغيظة مُحنَقة انْ لم يدر كيف يصنع حياته وحياتى ..

ولما سرتُ معه أودعه فى رواق البيت تلبّث طويلا وهو يرتدى معطفه المبطن بالفراء . وقد قبّل يدى مرتين دون أن ينبس بكلمة . وحدّق مليا فى وجهى المبلل بالدمع . وأحسب أنه فى تلك اللحظة قد تذكر ذلك اليوم العاصف ... وخيوط المطر المنهمر ... وضحكاتنا ... ووجهى اذ ذاك ... وهمّ أن يقول لى شيئا ما كان سيشعره بالسعادة لو أفضى به ، الا انه لم يفعل ، واكتفى بأن يهز رأسه ويضغط يدى بشدة .. كان الله معه ..

وبعد أن رافقته حتى الباب عدت الى غرفة مكتبتى ، فجلست ثانية على البساط قبالة الموقد ... وقد اكتست الجمرات الحمر بالرماد وشرعت تخمد ... ولقد قرع الجليد زجاج النوافذ بعنف متزايد ، وأخذت الريح تنفخ فى مدخنة الموقد ، ودخلت الخادم وحسبتنى نائمة وراحت تناديني لتوقظنى ..

ترجمة : محمود سيف الدين الايرانى

مفتش بوزارة التربية والتعليم ــ عمان

دُعــابة

قصة للكاتب الروسى الشهير
أنطون تشيكوف



ظهر يوم شتوى صاف تساقط الثلج بغـزارة ، وكان الجـو شـديـد البرودة .

وكان لناديا ــ التى امسكت بذراعى ــ ذؤابتان من الشعر على صدغيها ، وزغب فوق شفتها العليا وهى مغطاة بقطرات من الصقيع

كنا نقف على قمة جبل عال ، وبين موقفنـــا والأرض يمتد طريق منحدر ، مغطى بالثلوج ، ترى فى صفحته الشمس وكأنها تنعكس فى مرآة .

وكان بالقرب منا مركبات صغيرة ، من تلك التى تنزلج على الثلوج ، منجدة بالجوخ الأحمر اللامع . ودعوتها قائلا :

ــ هيا ننزلق الى أسفل يا « ناديا بتروفنا » ! مرة واحدة فقط،اؤكد لك،انه لن يصيبنا ضررمطلقا!

لكن ناديا تخاف ! ان الكون كله ، من عنـــد حذائها الصغير ، الى سفح الجبل الثلجى ، يبدو لها مزعجا ، ويطير له قلبها من الهلع .

ونظرت الى اســـفل الطريق ، فشهقت ، واحتبست انفاسها .

عندئذ فقط اقترحت عليهـــا ان نجلس فى المزلجة .

ترى ماذا يكون عندما تخاطر هذه الفتاة الصغيرة بالاندفاع الى الهاوية ؟ انها تموت أو تفقد عقلها .

ولكنى قلت لها :

ــ أتوسل اليك ! لا ينبغى أن تخاف ! هيا نذهب .. أم تجبنين ؟

واخيرا وافقتنى ناديا . ونظرت فى وجهها وهى تستسلم للمخاطـرة ، واجلستها فى المزلجة وهى شاحبة مرتعشة ، واحتضنتها بيدى ، وطرت معها الى القاع .

كانت المركبات تنطلق كالقذيفة الصاروخية ، والريح تضرب الوجوه ، وتصفر فى الآذان بشكل مزعج ، وتلسع الخدود لسعا مؤلما ، وتكاد تطيح بالرؤوس عن الأكتاف . وكان استنشاق الهـواء مستحيلا ، وبدا أننا سنهلك بعد لحظات !

وقلت بصوت خافت :

ــ انا احبك يا ناديا !

وبدأت المركبة تهدأ وتهدأ ، ولم يعد ضجيـــج الريح ودوى الانزلاق مزعجين كما كانا ، وعـــاد التنفس الينا ، واذا نحن اخيرا .. فى القاع !

وبدت ناديا لا هى حية ولا هى ميتة . انهـــا شاحبة،تتنفس بصعوبة،وانا اساعدها على النهوض.

وقالت،وهى تنظر الى نظرة زائغة،بعينين مملوءتين بالفزع :

ــ ابدا .. لن افعلها مرة اخرى فى حياتى ، لقد أشرفت على الموت !

وكانت تستعيد وعيها ببطء، وقد رمقتنى بنظرة متسائلة :

ــ هل انا الذى تكلمت بهذه الكلمات الاربــع ، ام انها سمعتها من ضجيج الدوامة الهوائية فحسب؟

اما انا فوقفت بقربها ادخن ، واراقب قفازى بعناية . واستندت الى ذراعى ، وتنزهنا طويلا حول الجبل .

وبدا ان هذا اللغز لن يتركها تستريح ، اقيلت هذه الكلمات ام لا ؟ نعم .. ام لا ؟ نعم .. ام لا ؟

ورمقتنى ناديا ،وقد نفد صبرها ، بنظرة حزينة، ولم تستطع ان تجيب اجابة سديدة على هـــذا السؤال . وانتظرت ان اتكلم انا ، ورايتها تغالب نفسها ، وبدا كأنها تريد ان تقول شيئا ما ، ان تسأل عن شىء ، ولكنها لا تجد الكلمات ، فتمزج حماقتها واضطرابها بالفرح ، وتقول :

ــ ألا تعرف ؟

واجيب :

ــ ماذا ؟

وهمس فى اذنيها بصوت خافت انا احبك يا ناديا



ـ تعال .. دعنا نتزلق مرة اخرى !

ونصعد السلم الى الجبل ، ومن جديد اجلس ناديا الشاحبة المرتجفة فى المزلجة ، ومن جديد تنطلق فى المنحدر الرهيب ، ومن جديد تبدأ الريح تزأر ، وتصفر فى مركبة الجليد ، ومن جديد اقول بصوت خافت :

ـ انا احبك يا ناديا !

وحينما توقفت المركبة ، اخذت ناديا ترمق الجبل الذى انزلقنا منه ، وتنظر فى وجهى طويلا وتستمع الى صوتى الهادىء القليل الاكتراث ، وتنم هيأتها عن اضطراب التفكير والحيرة ، وكأنما سطرت على وجهها هذه الاسئلة :

ـ ماذا حدث ؟ من نطق بهذه الكلمات ؟ أهو الذى نطق بها ام اننى انا توهمت انى سمعتها ؟

كان هذا الوهم يقلق بالها ، ويفقدها الصبر . ولا تجاب الفتاة المسكينة على الاسئلة ، فتقطب وجهها ، وتجهش بالبكاء . وانا اسأل :

ـ هل نذهب الى البيت ؟

وتقول ووجهها يتقد بحمرة الخجل :

ـ ولكن .. انا معجبة بالانزلاق . دعنا نتزلق مرة اخرى !

انها « معجبة » !! بالانزلاق ! ومع هذا فحينما نجلس في المزلجة تصير شاحبة ترتجف من الخوف !

وننزل من الجبل للمرة الثالثة ، وارى كيف تحدّق في وجهي ، وتراقب شفتى ، ولكننى اضع منديلا على فمي واسعل .

وحينما تصل الى وسط الجبل استانف قائلا :

ـ انا احبك يا ناديا !

ويظل اللغز لغزا ! وتصمت ناديا ، وتفكر في شيء ما .. وارافقها في المزلجة الى البيت ، وهي تمشى ببطء ، ثم تنتظر .. هل اقول لها تلك الكلمات !

وفى الصباح تسلمتُ هذه الرسالة :

« عندما تذهب الى الانزلاق اليوم فمر عليّ »

★★★

ومنذ ذلك اليوم اخذتُ اذهب يوميا مع ناديا للانزلاق . وحينما ننزلق الى اسفل ، كنت اهتف في كل مرة بنفس الكلمات في صوت خافت :

ـ انا احبك يا ناديا !

اعتادت ناديا هذه الجملة كما تعتاد الخمر أو المورفين . انها لا تستطيع أن تعيش بدونها .

وفي الحق اننا في الماضى كنا ننزلق من الجبل في فزع ، اما الآن فان الفزع والخطر يمنحان سحرا خاصا لكلمات الحب التى كانت في الماضى تظل لغزا : ولكن من يعترف لها بالحب ، انا ام الريح ؟ انها لا تعرف ، ولكن الامر في نظرها سواء .

ذات مرة ذهبتُ الى الانزلاق بمفردى عند الظهر ، ومن بعيد رايت كيف جاءت ناديا الى الجبل ، وكيف بحثت عني بنظرها ، ثم صعدت السلم في وجل ، وذهبت وحدها بخوف وخور شديدين ، كانت ترتجف ، ولكنها تسير بحزم .

يبدو انها قررت في النهاية ان تجرب : هل ستسمع كلمات الحب الجميلة ، حينما اكون غائبا ؟

لقد جلستْ في المزلجة مفتوحة الفم من الفزع ، مُغمَضَة العينين ، وبدات تتحرك لتغادر المكان . هل سمعتْ ناديا هذه الكلمات ؟ .. انا لا اعرفه ولكننى رايت فقط كيف خرجت من المزلجة محطمة ضعيفة ، وكان يبدو على وجهها انها هي الاخرى لا تعرف : هل سمعت شيئا ما ام لم تسمع ، ان الخوف قد انتزع قدرتها على السماع ، والفهم ، والتمييز بين الأصوات !

وحل بعد ذلك شهر مارس .. شهر الربيع ، واربدّ جبلنا الجليدى ، وفقد لمعانه ، وذاب في النهاية ثلجه .

وكففنا عن الانزلاق .

ولم يعد يوجد المكان الذى تسمع فيه ناديا المسكينة هذه الكلمات ، ولم يبق من ينطق بها ، ولم تعد الريح تحملها الى اذنيها .

وتاهبتُ انا للسفر الى « بتربرج » لمدة طويلة .

وذات يوم قبيل الرحلة ، كنت اجلس في الحديقة عند الغسق ، وكان السياج العالى يفصل هذه الحديقة عن فناء البيت الذى تقيم فيه ناديا ، وكان الجو باردا ، وما تزال بعض الاماكن مغطاة بالثلوج ، والاشجار ما زالت جرداء ، ولكن الربيع كان يعطّر الجو . ومشيتُ نحو السياج ، ونظرتُ من خلاله طويلا ، فرايت ناديا تخرج الى ردهة البيت ، وتنظر الى السماء بحزن .

وهبّت نسمات الربيع على وجهها الشاحب المكتئب ، فذكّرتها بهذه الريح التى كانت تفزعنا ونحن عند الجبل ، حينما سمعتْ هذه الكلمات الاربع ، وبدا وجهها حزينا ، وقد سقطت على خدها دمعة .. ومدّت الفتاة المسكينة كلتا يديها الى الامام كما لو كانت تسال الريح ان تحمل اليها مرة اخرى هذه الكلمات ، واخيرا وجدتُ اللحظة المناسبة ، وقلت بصوت خافت :

ـ انا احبك يا ناديا !

وصاحت ناديا ، وابتسمت ، ومدت يديها الجميلتين لاستقبال الريح بفرح وسعادة وجمال ، اما انا فقد ذهبت لاتهيا للسفر .

كان ذلك منذ زمن بعيد .

وناديا الآن متزوجة ، ولها ثلاثة اطفال .

ولكنها لا تنسى كيف ذهبنا معا في يوم ما للانزلاق ، وكيف حملت اليها الريح هذه الكلمات :

ـ انا احبك يا ناديا !

ان هذا الوقت يحمل لها اجمل الذكريات ، واسعدها ، واكثرها تاثيرا في حياتها !

اما انا ... فلا ادرى لماذا كنت اقول هذه الكلمات ؟

هل كنت امزح بها ؟ ■■

ترجمها عن الروسية
رضوان ابراهيم

آنيوتا

قصة قصيرة بقلم: أنطون تشيكوف
ترجمة: بهاء طاهر

في أرخص غرفة ببناية كبيرة للشقق المفروشة كان كلوتشكوف الطالب بالسنة الثالثة بكلية الطب يسير في حماس جيئة وذهابا وهو يراجع علم التشريح .. كانت شفتاه جافتين وجبهته قد تندت بالعرق ..

وكانت آنيوتا . الفتاة التى تعيش معه تجلس بقرب النافذة المغطاة بالصقيع . وآنيوتا سمراء صغيرة نحيفة ، في الخامسة والعشرين من عمرها ـ شديدة الشحوب وعيناها رماديتان وديعتان . جلست محنية الظهر وانهمكت في حياكة باقة قميص بخيط أحمر كانت تعمل ضد الزمن .. فقد دقت ساعة الممر دقتين ناعستين ومع ذلك فان الغرفة الصغيرة لم ترتب بعدلاستقبال النهار الجديد كانت ملاءات السرير غير مرتبة ... وهناك وسائد وملابس وكتب مبعثرة هنا وهناك .. ووعاء نفاية كبير ممتلىء بماء الغسيل وتطفو فوقه أعقاب السجائر .. وقذارة على الارض. كل هذه الاشياء كانت تشيع روحا من الفوضى في المكان بأسره .

وأخذ كلوتشكوف يكرر : «الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة أجزاء : الجزء العلوى فوق الحاجز الداخلى للصدر ويصل الى الضلع الرابع أو الخامس » ...



ورفع كلوتشكوف عينيه للسقف محاولا أن يتصور ماقرأه منذ لحظة ، وعندما يعجز عن تكوين صورة واضحة يبدأ في تحسس أضلاعه العليا تحت صدارة ثم يقول :

ـ ان هذه الأضلاع شبيهة بمفاتيح البيانو، يجب أن يعتاد المرء عليها والا اختلط عليه الأمر .. يجب أن تدرس على الهيكل العظمي وعلى الجسم الحى سواء بسواء .. اسمعى ياآنيوتا ، دعينى أتحسس أضلاعك .

ووضعت آنيوتا جانبا ماكانت تحيكه ، ونزعت عنها (بلوزتها) وانتصبت أمامه فجلس كلوتشكوف قبالتها عابسا وبدأ يعد ضلوعها :

ـ لايستطيع المرء أن يتحسس الضلع الاول فهو وراء لوح الكتف ، أما هذا .. هذا لابد أن يكون هو الضلع الثانى .. نعم ، وهذا هو الثالث .. وهذا هو الرابع .. نعم .. نعم .. لماذا ترتجفين ؟

ـ ان أصابعك باردة !

ـ هيا .. هيا .. لن تموتي لهذا السبب، لاتنحنى هكذا ! لابد أن يكون هذا هو الضلع الثالث .. وهذا الرابع . أنت تبدين هزيلة للغاية ومع ذلك لايستطيع المرء أن يتحسس أضلاعك . هذا هو الثانى ، وهذا هو الثالث. أوه ، انه شيء مربك ! لايمكن تتبعه بوضوح . لابد وأن أرسم . أين قلمى ؟

وأخذ كلوتشكوف قلمه ثم راح يرسم على صدر آنيوتا عدة خطوط متوازية ممتدة مع الأضلاع .

ـ رائع ! .. هذا أفضل . والآن أستطيع أن أدرسك . قفي .

ووقفت آنيوتا ، ثم رفعت ذقنها وبدأ كلوتشكوف يدرسها . كان منهمكا للغاية في تلك المهمة لدرجة أنه لم يلاحظ أن شفتي آنيوتا وأصابعها قد أصبحت زرقاء من شدة البرد . وارتجفت آنيوتا ، ثم خشيت أن يلاحظ الطالب ذلك فيكف عن رسمها ودراستها ويرسب في امتحانه ! وقال كلوتشكوف بعد أن انتهى :

ـ الآن وضح كل شيء .. فلتجلسي كما أنت دون أن تمسحي الخطوط ، وأثناء ذلك سوف أستذكر لفترة أخرى .

وبدأ الطالب سيره جيئة وذهابا وهو يستذكر ، بينما جلست آنيوتا منكمشة وهي ترتجف وراحت تفكر والخطوط السوداء على صدرها كالوشم .

كانت آنيوتا مقلة في الكلام عادة . تظل صامتة دائما بينما تفكر .. وتفكر ..

لقد عرفت في السنوات الست أو السبع التي قضتها متنقلة مابين غرفة مفروشة الى أخرى خمسة من الطلبة مثل كلوتشكوف ، وقد أنهوا دراساتهم جميعا وانطلقوا فى الحياة وبطبيعة الحال فانهم كأناس محترمين قد نسوا آنيوتا منذ زمن طويل . كان أحدهم مقيما في باريس ، واثنان منهم أطباء ، والرابع فنانا ، بينما يقال عن الخامس انه قد أصبح بالفعل أستاذا جامعيا .

وكان كلوتشكوف هو السادس . وعما قريب سينهى دراسته هو الآخر ثم ينطلق في الحياة ، وهناك مستقبل لامع ينتظره . ربما أصبح رجلا عظيما فى المستقبل ، أما الحاضر فهو الشيء الوحيد الذى لم يكن لامعا . فلم يكن عند كلوتشكوف تبغ ولاشاى ، ولم تبق عنده الا أربعة قوالب من السكر ، وعليها الآن أن تسرع بانهاء القميص الذى تحيكه وتوصله الى السيدة التى كلفتها بحياكته ثم تشترى بالربع روبل الذى ستعطيه لها شايا وتبغا .

وصاح شخص بالباب : أأستطيع أن أدخل ؟

فألقت آنيوتا بسرعة **شالا صوفيا** على كتفيها بينما دخل فتزوف الفنان وبدأ يخاطب كلوتشكوف وهو يحملق كحيوان مفترس :

ـ أتيت لأطلب منك معروفا .. لتصنع لى معروفا .. أعرنى فتاتك ساعتين فحسب اننى أرسم صورة ولا أستطيع أن أعمل دون نموذج .

فقال كلوتشكوف موافقا :

ـ أوه ، بكل سرور . هيا يا آنيوتا .

فتمتمت آنيوتا برقة .

ـ والاشياء التى على أن أنهيها هنا ؟

ـ هراء !! ان الرجل يطلبك من أجل الفن وليس لأى غرض تافه ، فلم لا تساعدينه مادام هذا بامكانك ؟

فبدأت آنيوتا ترتدى ملابسها .

وسأل كلوتشكوف :

ـ وماذا ترسم ؟

ـ سايكى .. (صورة تمثل الروح) انه موضوع جميل ولكنه لا يريد أن ينتهى لسبب ما ، وعلى أن أرسم من نماذج مختلفة. بالأمس كنت أرسم واحدة بسيقان زرقاء فسألتها « ما السبب فى أن سيقانك مزرقة ؟ » فأجابتنى « ان جواربى تلونها ». وأنت تحتمل أن تسمع هذا ؟!!.. انك لمحظوظ . عندك صبر .

ـ الطب مهنة لايستطيع المرء أن يتابعها دون أن تكون عنده قدرة على الاحتمال .

ـ آه لتغفرلى ياكلوتشكوف ، ولكنك يعيش كخنزير ! ان طريقتك فى الحياة مؤلمة.

ـ ماذا تعنى ؟ .. أنا لاأستطيع أن أعيش خيرا من هذا ، فأبى لايرسل لى سوى ١٢ روبلا كل شهر ، ومن الصعب أن يعيش الانسان حياة طيبة بمثل هذا المبلغ .

فأجاب الفنان في عبوس وهو يبدو متقززا:

ـ نعم ، نعم .. ولكن كان بوسعك أن **تعيش كخنزير ! أن طريقتك في الحياة مؤلمة** المتعلم ملزم بأن يكون على درجة من الذوق ، أليس كذلك ؟ ولكن الأمور هنا .. ياالله ! . السرير غير مرتب .. والنفاية .. والقاذورات .. وحساء الامس في الأطباق .. اتفو ! فأجاب الطالب بارتباك :

ـ هذا حق ، لكن آنيوتا لم يكن لديها وقت اليوم لتنظف الغرفة .

كانت مشغولة طول الوقت .

وعندما خرجت آنيوتا مع الفنان استلقى كلوتشكوف على الأريكة وبدأ يراجع دروسه وهو مستلق ثم باغته النعاس ، وعندما استيقظ بعد ساعة وضع رأسه بين كفيه واستغرق في أفكار قاتمة . لقد استعاد كلمات الفنان عندما قال ان الرجل المتعلم ملزم بأن يكون لديه ذوق ، وصدمه جو الغرفة فعلا فرآه قذرا وباعثا على الاشمئزاز . ورأى بعين الخيال مستقبله الخاص عندما يستقبل مرضاه في حجرة الكشف ، وعندما يشرب الشاى في غرفة الطعام مع زوجته التى ستكون «سيدة» بمعنى الكلمة !.. أما الآن فقد بدا له وعاء النفاية الذى تسبح فيه أعقاب السجاير شيئا مثيرا لأقصي درجات التقزز ، وبرزت آنيوتا في ذهنه أيضا كصورة منفرة وقرر أن يفترق عنها في الحال بأى ثمن .

وعندما عادت آنيوتا من عند الفنان وخلعت معطفها قام كلوتشكوف وأخذ يكلمها وعليه سيماء الجد !

ـ أنظرى هنا يافتاتى الطيبة . اجلسى واستمعى . يجب أن نفترق . الحقيقة هى اننى لاأريد أن أعيش معك أكثر من ذلك .

وكانت آنيوتا قد وصلت من عند الفنان مضناة ومرهقة . كان وقوفها الطويل كنموذج قد جعل وجهها يبدو نحيلا وخديها غائرين أكثر من ذى قبل . ولم تقل أى شيء لترد على كلمات الطالب ، فقط بدأت شفتاها ترتجفان .

وقال كلوتشكوف : أنت تعلمين على أية حال أننا يجب أن نفترق عاجلا أو آجلا .. وأنت فتاة طيبة وعاقلة . لست بلهاء : وسوف تفهمين .

ارتدت آنيوتا معطفها ثانية في سكون . ووضعت تطريزها في لفافة من الورق . ثم جمعت أبرها وخيوطها ووجدت الورقة التى بها قطع السكر على النافذة فوضعتها على المائدة بجوار الكتب. وقالت بهدوء :

ـ هذا .. هو .. السكر ..

ثم استدارت لتخفى دموعها .

ـ لماذا تبكين ؟

بدأ كلوتشكوف يسير فى الغرفة مضطربا ثم قال :

ـ أنت فتاة غريبة حقا . عجبا ! .. أنت تعلمين أننا سنفترق .. اننا لانستطيع أن نعيش سويا الى الأبد .

وكانت قد جمعت كل حاجياتها واستدارت لتقول له وداعا ، فشعر نحوها بالرثاء وأخذ يفكر : «هل أدعها تبقى هنا أسبوعا آخر ؟. ان بوسعها أن تبقى بالفعل وسأخبرها أن ترحل بعد أسبوع » وشعر بضيق لضعفه فصاح بها في خشونة :

ـ اسمعى ، لماذا تقفين هناك) .. ان كنت ذاهبة فاذهبى ، وان كنت لاتريدين فاخلعى معطفك وابقى ! يمكنك أن تبقى !

وخلعت آنيوتا معطفها في سكون ، خلسة ـ ثم مسحت أنفها خلسة أيضا ، وتنهدت ورجعت الى مكانها التقليدى على المقعد بجوار النافذة دون أن تحدث أى صوت .

وسحب الطالب كتابه ثانية ثم بدأ يذرع الغرفة من ركن الى ركن وهو يردد : « الرئة اليمنى تتكون من ثلاثة أجزاء : الجزء العلوى على الحاجز الداخلى للصدر ويصل الى الضلع الرابع أو الخامس ..

وصاح واحد من الممر بأعلى صوته :

ـ جريجورى ! الشاى !

انطـــون تشيخـــوف

الـثـــأر

(قـصـــة)

ترجمة : السيدة كوليت حبيـــب

كان ليون سافونيتش تورمانوف ، وهو بورجوازى عادى يملك راسمالا صغيرا ، وزوجة فى ميعة الصبا، وصلعة متينة مضيئة، يلعب الويست ذات يوم عند صديق له يحتفل بعيد ميلاده.

وبعد ما تكبد خسارة مالية كبيرة ، وتصبب العرق منه حتى غمره، تذكر فجاة انه لم يرتشف شيئا من الفودكا منذ فترة غير قصيرة. فنهض من مكانه ، وسلك طريقه بين الموائد متبخترا علـــى رؤوس اصابعه ، وعندما اجتاز البهو الكبير حيث يرقص الشباب ابتســم ابتسامة مفتعلة وهو يربت على كتف صيدلى فتى شديد النحول ، ثم اختفى وراء الباب الصغير المؤدى الى غرفة الطعام.

هنا ، وعلى مائدة صغيرة مستديرة انتصبت زجاجـــات الفودكا واقداحها ... وغير بعيد من ذلك استقرت سمكة تم استهلاك نصفها تقريبا فى صحيفة فضية بين بعض انواع المشهيات من فجـل وبقدونس وبصل اخضر. امسك ليون قدحا من الفودكا ، ولوح بيديه فى الهواء كمن يستعد لالقاء خطبه ، ثم شرب كاسه وقد اكتسى محياه بسيماء المرارة والعذاب ، وبعد ذلك اخذ شوكة وغرسها فـــى السمكـــة و ...

لكن اصواتا ترددت فى هذه اللحظة وراء الحاجز.

كان صوت نسائى ناعم يقول فى غنج ودلال :

ـــ حسنا ولم لا ؟ ولكن ... متى سيكون ذلك ؟

عرف ليون تورفاتوف الصوت ، وفكر :

« زوجتى ! لكن برفقة من هى اليوم ، يا ترى ؟ »

واجاب صوت خفيض اللحن غليظه :

ـــ متى شئت ، يا صديقتى .. اما هذا النهار فلا يوافقنـــا بالطبع ، وكذلك فانا مشغول طوال الغداة

وعرف تورمتوف فى صاحب الصوت الغليظ احد اصدقائه . فقال محدثا نفســـه :

« انه ديفتياريف ! ... حتى انت ، يا بروتوس ؟ الان فقد رمته اللعينة فى شباكها هو الاخر ! يا لها من انثى لا تتعب ولا ترتوى. افلا تستطيع الان ان تبقى يوما واحدا دون مغامرة. »

وتابع الصوت الهامس يقول :

ـــ بلى ، غدا سوف اكون مشغولا . ولكن اذا شئت. اكتبى لى كلمة صغيرة غدا ... ولسوف اكون سعيدا مسرورا ... ولكـــن

علينا ان نتدبر امر المراسلة فيما بيننا ، يجب ان نؤمن وسيلة ما ، اما البريد فغير مضمون ، فاذا ما كتبت لك عن طريقه ، فان طاووسك قد يستولى على الرسالة من الساعى مباشرة ، واذا كتبت انت ، فان نصفى الثانى ستتلقى الرسالة اثناء غيابى وتفتحها بكل تأكيد ، وهنا الطامة الكبرى !

ـ ما العمل ، الآن ؟

ـ يجب ان نبحث عن طريقة اخرى ... اظن اننا لا نستطيع كذلك ان نستفيد من الخدم ، لان عطيلك يملك الى جانبه بدون شك الاجير والوصيفة معا ... اين هو الان ؟ اهو منهمك فى لعب الورق ؟

ـ بدون شك ، وهو يخسر على الدوام ، ذلك الابله !

فقهقه ديفنباريف قائلا :

ـ ذلك انه سعيد فى الحب .. آه ! اليك ، يا عزيزتى ، الطريقة التى اكتشفت ... غدا ، وفى تمام الساعة السادسة ، سأمر وانا فى طريق عودتى من مكتبى فى الحديقة العامة حيث سأقابل الحارس ، الذى فحاولى ، يا حبيبتى ، ان تضعى رسالة صغيرة فى اناء الرخام القائم يمين حديقة الكرمة . تذكرى جيدا ، الساعة السادسة تماما .

ـ حسنا ، سأتذكر ذلك جيدا .

ـ كم سيكون ذلك شاعريا وسريا ومبتكرا .. آن احدا لن يعلم به ، لا زوجك المكرش ولا زوجتى الوفية المخلصة . اليس كذلك؟

اما ليون ساففيتش تورماتوف فقد جرع كأسا ثانية وقفل عائدا الى مائدة اللعب . لم يفاجئه اكتشافه ، او يدهشه ، او

يثر حنقه .. لقد انقضى الزمن الذى كان يثور فيه ويتشاجر مـــع زوجته ويشتمها ، بل يضربها فى بعض الاحيان ، انقضى منـــذ أمد بعيد. وهو قد خلص الان الى عدم المبالاة بتجاوز زوجته الطائشة حدود الطاعة والوفاء ، والنظر الى ذلك من خلال اصابعه .. مـــع ذلك فقد غمره شعور مقيت بالذل ، اذ جرحت كبرياءه تلك التعابير التى وصفاه بها ، من طاووس وعطيل ، الى زوج مكرش وابله .. الخ

واخذ يفكر ، وهو يسجل خسائره :

ـ يا لديفتياريف هذا من وغد لئيم على اية حال ؛ عندمـــا نلتقى يتظاهر بانه الصديق الحميم ، ويبتسم حتى تنظهر نواجذه ويداعب بطنى ايضا ، واما الان فانظر فى اية كتل من الادران يغرقنى ، انه يعاملنى ، فى وجهى ، كصديق ، وما ان يدير لى ظهره حتـــى يصفنى بالطووس والمكرش ...

كان شعور النقمة يتعاظم فى نفسه بمقدار ما تزداد خسائره ... وكان يفكر وهو يحطم قطعة الحوار فى غضب شديد :

ـ ايها الابله ! ايها الشقى !.. لا احب ان اثير الفضائـــح او ارتكب الحماقات ، والا كنت قدمت لك شيئا من عطيل !

ولم يستطع ، ساعة العشاء ، ان ينظر الى وجه ديفتياريف بغير مبالاة ، بينما لم يكف هذا الاخير لحظة واحدة ، وكانت يفعل ذلك عامدا متعمدا ، عن اغراقه باسئلته : هل ربح ؟ هل خسر ؟ ولم هو حزين هكذا ؟ الى آخر ما هنالك من الاسئلة التافهة السمجة .. بل لقد بلغت به وقاحته ، باعتباره صديقا للعائلة ، ان عتب على الزوجة لانها لا تعنى العناية الكافية بصحة زوجها .. فيما الزوجة تشخـص

الى زوجها بعينين طافحتين عذوبة ورقة ، وكان شيئا لم يكن ، وتضحك ببلاهة ، وتثرثر فى براءة ، حتى ليعجز الشيطان نفسه عن الارتيـــاب فى طيشها وخداعها .

وعندما رجع ليون سافوئيتش تورماتوف الى داره ، كـــان شعور بالخبث وعدم الرضى يتملكه ويسيطر عليه ، فكأنه تناول اثناء العشاء جزمة عتيقة بدلا من لحم العجل الطرى . ولقد كان ينسى ، اثناء تمالكه نفسه ، او يتناسى لو لم تذكره ثرثرة زوجته غير المنقطعة وابتساماتها المغرية وكلامها المعسول ، بالكلمات الوقحة والاوصاف الدنيئة التى كانا يصفا بها ! طاووس ، اوزة ، ابله ! ..

واخذ الدم يغلى فى عروقه . كان يفكر :

« لو انى صفعته على الخدين ، ذلك الوغد اللئيم ! ... لو انى لقنته درسا امام الجميع يذكره مدى عمره ، مغازلة زوجـــات الاخريـــــن ! ... »

ولكن لا ؛ انه يفعل حسنا بطلب ديغتياريف الى مبارزة وقتله فكأنه عصفور دورى حقير ... او ان يتدخل ليطرده من وظيفته فيصبح عاطلا شريدا لا قيمة له ولا اعتبار ... او ان يضع فى اناء الرخام شيئا غير لائق ، شيئا منتنا ـ فارا ميتا مثلا .. او ... لا مانـــع ابدا ولا ضير فى ان يسرق رسالة زوجته ويضع بديلا عنها بعض ابيات وقحة تحقره وتشمره بدناءته ، وتحمل هذا التوقيع : « حبيبتك الدلوعة » او شيئا آخر من هذا القبيل .

وظل تورماتوف يذرع ارض مخدعه جيئة وذهابا حتى ساعة متأخرة من الليل ، مستغرقا فى هواجسه هذه يفكر فى وسيلة يطفىء بها غليله ، وتكون على قد هذا الصديق الوفى !

وفجأة ، توقف ولطم جبهته بيده .. وصاح :

ــ مرحا ! لقد وجدتها .

وتألق وجهه سرورا وارتياحا :

ــ سوف يكون ذلك رائعا ، رائعا حتى أقصى الدرجات ؛

واذ استغرقت زوجته في نوم عميق ، جلس الى مكتبه ، واجهد ذهنه طويلا ، ثم بدا يخط ما ياتي ، مشوها كتابته ومختلقـــا اخطاء في الاملاء :

« الى التاجر دولينوف .

سيدى المحترم ،

اذا لم تضع اليوم ، الثاني عشر من ايلول ، قبيل الساعة السادسة مساء مبلغ مائتي روبل في اناء الرخام القائم في الحديقـــة العامة عن يسار جناح الكرمة ، فسوف تقتل ويتطاير مخزنك شظايا في الهواء ... ولقد اعذر من انذر ... »

وعندما انتهى ليون ساقوثيتش تورمانوف من كتابة هـــذه الرسالة ، انتفض فرحا وسرورا ، ثم غمغم وهو يفرك يديه ببعضهما :

« اليس ذلك رائعا ، يا تورمانوف ؟ مدهش ؛ ابليس نفســه لن يجد انتقاما افضل ؛ ان التاجر المسكين سيذعر طبعا ويعلم الشرطة بالامر وسوف تاتي الشرطة لتختبيء في الادغال المجاورة وتطبــق على عنق عاشقنا المدله الولهان عندما ياتي سعيا وراء الرسالة ، في الساعة السادسة . لشد ما سيكون ذعره عظيما في الساعـــة السادسة ؛ وقبل ان تتضح القضية وتثبت براءته ، فان الشقــي سيذوق من العذاب الوانا ومن الحقارة والذل الوانا والوانا .. مرحى

والصق ليون تورمانوف طابعا على الرسالة وحملها بنفسه وفى ذات الليلة ، الى احد صناديق البريد ، ومن ثم عاد فنام كما لم يسبق له ان نام منذ زمن طويل . وحين افاق فى صباح اليوم التالى تذكر خطته الجهنمية ، فطفق يدمدم مبتهجا مسرورا ، بل لقد داعب ذقن زوجته الخائنة مودعا اياها على غير عادته ..

وحين غدا الى عمله ، وبينما هو جالس وراء مكتبه فيما بعد، لم تفارق الابتسامة شفتيه وهو يتخيل هلع ديفتياريف وهو يقع فى الفخ.

لم يستطع ان يتمالك نفسه حوالى الساعة السادسة، فاسرع الى الحديقة العامة كى يستمتع برؤية يأس غريمه .

وحين التقى فى طريقه باحد رجال الشرطة غمغم بتشف : ((آها !))

ولما وصل الى جناح الكرمة جلس تحت احدى الخمائل وطفق ينتظر ، شاخصا الى الاناء بعين نهمة . ان فراغ صبره يتجاوز كل حدود !

ولاح ديفتياريف فى تمام السادسة ، بادىء الانشراح ، وكانت قبعته العالية مدفوعة الى الخلف فى شىء من الادعاء والكبر . وكان يبدو ان روحه تطل مع صدريته من تحت معطفه المحلول الازرار. كان يدمدم ويدخن سيجارة .

اغتبط تورمانوف سلفا ، وراح يخاطبه فى حنايا نفسه :

((يا للعقاب الذى سوف تناله من الطاووس وعطيل ، رويدك! انتظر برهة ! ان الرسالة التى تمنى نفسك بها اصبحت الان نتفا تتراقص على صفحة مياه الفولغا !

واقترب تبغتياريف من الاناء ، وغمس يده فيه على مهل ...
اما ليون سافونيتش فقد نهض على قدميه مصعوقا ! ... وراح يلتهمه بانظاره ! ... ان احدا لم يقترب منه ! ... حتى ولا رجل بسيط من رجال الشرطة ! ...

واما الفتى فقد اخرج من الاناء رزمة صغيرة ... واخـــذ يتفحصها من جميع اطرافها ، ثم هز كتفيه وشرع يفتحها بتردد ، وما ان ظهر محتواها حتى هز كتفيه مرة اخرى وقد بانت دهشة لا توصف على محياه . لقد كانت ورقتان ماليتان كبيرتان فى الرزمة ! .

تامل تبغتياريف هاتين الورقتين طويلا ، واخيــرا ودون ان يكف عن هز كتفيه دفعهما فى جيبه وهو يتمتم : « شكرا ».

سمع ليون تورمالتوف البائس بكل وضوح ، هذه الـ « شكرا » وهو يكاد يغمى عليه من هول الصدمة .

ولقد قضى بقية الامسية حائرا امام مخزن التاجر دولينوف ، مهددا لافتته بقبضة يده ، هامسا فى حنق شديد :

« ايها الجبان ! ايها البائع ! ايها الجبان الحقير ! اهذا كل ما استطعت ان تفعله ايها الارنب المكرش ! ؟ ...

كوليــت حبيــب



تاليف : انطون تشيكوف

ترجمة : نائلة البشرى

كانت أولنكا كريمة بلميانيكوف خبير التثمين المتقاعد تجلس على درجات سلم الباب الخلفى لمنزلها ساكنة لا تفعل شيئا . وكان الجو حارا وطنين الذباب مزعجا ، فكان مجرد تفكيرها فى اقتراب المساء يبعث فى نفسها شعورا بالارتياح، وكانت السحب الداكنة تتجمع من الشرق حاملة معها بين الفينة والاخرى نسمة رطيبة .

فى ذلك الوقت كان كوكين الذى يسكن جناح بيتها ويدير مسرح التيفولى الصيفى ، يقف فى حديقة البيت متطلعا الى السماء وهو يقول فى يأس : مرة أخرى ؟! المطر مرة أخرى ؟! مطر! مطر! مطر كل يوم ! لكأنه ينهمر نكاية بى . ماذا أفعل ؟ هل أشنق نفسى ؟ ان هذا المطر سيخرب بيتى . اننى أخسر كل يوم خسائر فادحة ! . وضغط كفيه ثم مضى موجهـا حديثـه الى أولنكا : أية حياة هذه يا أولنكا سميونوفنا ! انها كافية لكى تحمل أى رجل على البكاء . ان المرء يعمل ، ويبذل كل مافى وسعه ، أقصى مافى وسعه ، ويعذب نفسه ، ويمضى ليالى بطولها لايطرق النوم جفنه ، ويفكر ويفكر ويفكر فى انجاز كل شىء على أتم وجه . ثم ماذا تكون النتيجة ؟ انه يقدم الى الجمهور أحسن الاوبريتات . وأفضل التمثيليات الصامتة ، وخيرة الممثلين . ولكن هل يريد الجمهور شيئا من هذا ؟ وهل يقدره أدنى تقدير ؟ ان الجمهور جاهل . انه جلف كبير . انه يريد سيركا . يريد كمية من اللغو ، كمية من التفاهة . ثم الجو أيضا . أنظرى ! المطر كل مساء تقريبا . لقد بدأت تمطر فى العاشر من مايو ، واستمر المطر طول يونية . هذا فظيع . اننى لا أستطيع الحصول على متفرجين ، أو ليس على أن أدفع ايجارا ؟ أو ليس على أن أدفع أجور الممثلين ؟

وقبيل مساء اليوم التالى تجمعت السحب مرة أخرى . وقال كوكين وهو يضحك ضحكا هستيريا : أوه ! لست أبالى ! لتأت السماء بأسوأ ماعندها . لتغرق المسرح كله ولتغرقنى معه . أى ضرر فى هذا ! أنا لا حظ لى فى هذه الدنيا .. ولا فى الآخرة . ليقاضنى الممثلون وليجرونى الى المحكمة . بماذا ستحكم المحكمة ؟ لتكن الاشغال الشاقة فى سيبريا ! أو فلترسلنى الى المقصلة ! ها ! ها ! ها ! !

***

وفى اليوم الثالث تكرر نفس الموقف

وكانت أولنكا تنصت باهتمام الى كوكين ، وانما فى صمت ، وكانت الدموع توشك أحيانا أن تقفز الى عينيها . وأخيرا مس قلبها سوء حظ كوكين ، فوقعت فى حبه .

كان قصير القامة ، نحيل الجسم ، شاحب الوجه ، شعره مجعد ومسوى الى الوراء ، وصوته رفيع موسيقى . وكان اذا تكلم تجعدت قسمات وجهه كلها . وكانت علامات اليأس لا تفارق وجهه أبدا . ومع ذلك أثار فى نفس أولنكا شعورا صادقا عميقا .

لقد كانت دائما تحب انسانا ما . لم تكن تستطيع أن تعيش بغير حب ، فيما مضى أحبت أباها المريض الذى كان يجلس طول الوقت على كرسيه الوثير يتنفس بصعوبة فى حجرة مظلمة . وأحبت عمتها التى كانت تأتى من بريانسكا لزيارتها مرة أو مرتين فى السنة ، وقبل ذلك عندما كانت طالبة بالمدرسة الثانوية أحبت مدرس اللغة الفرنسية . كانت وديعة ، حانية ، رقيقة القلب ، يتسم كل مافيها بالرقة والمودة ، وتترك فى نفس كل من يراها أثرا طيبا جدا . وكان الرجال حين ينظرون الى وجنتيها المليئتين الورديتين والى عنقها الرخص الابيض ذا الخال الاسود ويرون الابتسامة البريئة الطيبة التى تتراقص على وجهها كلما سمعت ما يسرها ، يقولون لانفسهم «ما ألطفها» ويبتسمون هم أيضا . أما الزائرات من النساء فكن خلال الحديث يمسكن بيدها فجأة ويقلن فى ضجة من البهجة : يا حبوبة !

وكان المنزل الذى ورثته وعاشت فيه منذ ولادتها يقع فى أطراف المدينة على طريق النور بالقرب من مسرح التيفولى . وكانت من أول المساء حتى ساعة متأخرة من الليل تستطيع أن تسمع عزف الموسيقى وانطلاق الصواريخ فى المسرح، فيخيل اليها أن كوكين يدمدم فى صراع مع القدر ، ويستخدم عنصر المفاجأة فى الهجوم على عدوه الرئيسى ـ الجمهور غير المكترث ، فيذوب قلبها حنانا ولا تشعر برغبة فى النوم . وعندما يعود كوكين قبيل الصبح تطرق زجاج نافذتها طرقا خفيفا فيرى من خلال الستائر وجهها وكتفها والابتسامة الرقيقة التى تمنحه اياها .

وتقدم اليها يطلب يدها .. وتزوجا. وكان أحيانا يتفرس فى عنقها وكتفها المتلئتين فيفرك كفيه قائلا : حبوبتى .

لقد كان سعيدا بها ، ولكن السماء أمطرت يوم زفافهما ، ولم يفارق تعبير اليأس وجهه أبدا .

وسارت حياتهما على ما يرام ، كانت هى تجلس وراء شباك التذاكر ، وتحافظ على نظام المسرح ، وتقيد المصروفات ، وتدفع المرتبات ، وكان الجميع يطالعون وجنتيها الوردتين وابتسامتها البريئة الرقيقة كأنها الهالة حول وجهها .. خلف شباك التذاكر ، ووراء الكواليس ، وفى مقهى المسرح . وبدأت تقول لصديقاتها ان المسرح هو أعظم وأهم شىء فى العالم ، وانه المكان الوحيد الذى يحصل فيه المرء على المتعة الحقيقية ويزداد فيه انسانية وثقافة .

وكانت تسأل صديقاتها : ولكن هل تحسبن أن الجمهور يقدره ؟ ان مايريده الجمهور هو السيرك . فبالأمس قدمت أنا وزوجى مسرحية فاوست ، وكانت كل المقاعد تقريبا خالية ، أؤكد لكن اننا لو قدمنا بعض اللغو السخيف لزاد عدد المتفرجين على عدد المقاعد . اننا سنقدم غدا « أورفيوس فى عالم الموتى » لابد أن تحضرن .

***

كانت تردد كل ما يقول كوكين عن المسرح والممثلين ، وتتحدث مثله باحتقار عن الجمهور عن عدم اكتراثه بالفن ، عن فظاظته . وكانت تشترك فى تسميع الأدوار ، وتصحح أخطاء الممثلين ، وتراقب أداء الموسيقيين ، فاذا ظهر نقد فى صحيفة المدينة بكت وذهبت الى المحرر تناقشه .

كان الممثلون مغرمين بها ، وكانوا يسمونها « أنا وزوجى » أو « الحبوب » وكانت هى تشفق عليهم وتقرضهم بعض المبالغ الصغيرة ، ولم تكن تشكو الى زوجها اذا راوغوا فى تسديد ديونهم ، كان أقصى ما تفعله ان تذرف بعض الدموع .

وفى الشتاء أيضا كانت حياتهما تمضى على ما يرام ، كانا يستأجران مسرحا فى المدينة طول فصل الشتاء ويؤجرانه من الباطن على فترات قصيرة لاحدى الفرق المسرحية الروسية الصغيرة ، أو لأحدى الحواة ، أو لبعض هواة التمثيل من أبناء المدينة .

وامتلأ جسم أولنكا ، وكان وجهها يشع دائما بالرضا ، بينما كان كوكين يزداد نحولا وشحوبا ويشكو من خسائره القادحة، برغم أن أحواله سارت على ما يرام خلال فصل الشتاء كله . وفى الليل كان يتملكه السعال فتعطيه شراب الخداش وعصير الليمون ،وتدلكه بماء الكولونيا ،وتدثره بالأغطية الوثيرة

وكانت تعبث بشعره وتقول له فى صدق واخلاص : انت حبيبى الغالى . ما أغلاك عندى !

وفى فترة الصوم الكبير كان كوكين يذهب الى موسكو ليجمع أفراد فرقته ، وكانت أولنكا لا تستطيع النوم فى غيابه ، فكانت تجلس طول الوقت الى النافذة محملقة الى النجوم . وكانت تشبه نفسها بالدجاجات التى يتملكها القلق ولا تستطيع النوم عندما يكون ديكها خارج القفص . وتأخر كوكين فى موسكو ، وكتب اليها يقول انه سيعود فى عيد الفصح ، وكان فى خطاباته يناقش الترتيبات الخاصة بمسرح التيفولى . وفى ساعة متأخرة من احدى الليالى ، وقبل أن يحل يوم الاثنين من أسبوع عيد الفصح ، سمعت دقة مشئومة على الباب الخارجى . كانت كدقة على برميل — بوم ، بوم ، بوم ! وهبت الطاهية النائمة وهرولت الى الباب الخارجى عارية القدمين تغوص فى مياه الحديقة .

وسمعت من يقول فى صوت أجوف خفيض : افتحى من فضلك . ان معى برقية لكم .

كانت أولنكا قد تلقت قبل ذلك برقيات من زوجها ، ولكنها على نحو ما أحست هذه المرة بالرعب يتملكها عليها كل مشاعرها . وفتحت وبداها ترتجفان وراحت تقرأ :

« توفى ايفان بتروفتش اليوم فجاة ، الجنازة الثلاثاء ، فى انتظار تعليمات عاجلة » .

كانت البرقية مكتوبة هكذا — « الفنازة » ، وتلك الكلمة الأخرى غير المفهومة « ماجلة » ، وتحمل توقيع مدير فرقة الاوبرا .

وانفجرت أولنكا تنتحب وتقول : يا أعز الناس على ، فانتشكا يا أعز عزيز ، يا حبيبى . ليتنى ما التقيت بك . ليتنى ماعرفتك ولا أحببتك ! لمن تركت زوجتك المسكينة أولنكا ، زوجتك التعسة المسكينة أولنكا ؟

وفى يوم الثلاثاء دفن كوكين فى مقبرة فجانكوف بموسكو . وعادت أولنكا الى المدينة يوم الاربعاء . ولم تكد تدخل بيتها حتى القت نفسها على الفراش وانفجرت تنتحب بصوت مرتفع سمعه الناس فى الشارع وفى الافنية المجاورة .

وقال الجيران وهم يستعيذون برسم

الصليب : الحبوبة ! ما أشد فجيعة أولجا سميونوفنا ، الحبوبة المسكينة !

ومضت ثلاثة شهور ، وذات يوم كانت أولنكا عائدة الى بيتها من القداس فى يأس مطبق وحزن عميق . وكان يسير الى جوارها رجل عائد من الكنيسة أيضا هو فاسيلى بستوفالوف مدير متجر الاخشاب الذى يملكه التاجر بباكاييف. كان يلبس قبعة من القش ، ورداء أبيض ، وسلسلة ذهبية ، فكان مظهره أدنى الى ملاك الاراضى منه الى رجال الاعمال .

وقال فى هدوء وبصوت ينم عن التعاطف ، ان لكل شىء مصيره المرسوم يا أولجا سميونوفنا . واذا مات لنا قريب أو عزيز فتلك ارادة الله وعلينا أن نتذكر ذلك ونتحملها بالرضا والتسليم .

وصحبها الى باب بيتها ، ثم ودعها وانصرف . وظلت بعد ذلك طول اليوم تسمع صوته الهادىء ... كانت كلما أغمضت عينيها رأت بخيالها لحيته السوداء . وأحبته حبا شديدا . وكان من الواضح أنها أيضا تركت فى نفسه أثرا ، لانه لم تمض بضعة أيام حتى جاءت اليها امرأة عجوز تعرفها من بعيد لتتناول معها قدحا من القهوة . ولم تكد المرأة تجلس الى المائدة حتى بدأت تتحدث عن بستوفالوف، عن طيبته، واستقامته، وكيف أن كل امرأة يسعدها أن يكون زوجا لها . ومضت ثلاثة أيام قام بعدها بستوفالوف نفسه بزيارة أولنكا . ولم يمكث الا عشر دقائق تقريبا ، ولم يتكلم الا قليلا ، ولكن أولنكا أحبته ، أحبته حبا عنيفا ، ولم تنم الليل بطوله ، وارتفعت درجة حرارتها كأنما أصيبت بالحمى . وفى الصباح أرسلت تستدعى المرأة العجوز ، ولم يلبث بستوفالوف وأولنكا بعد ذلك أن ارتبطا ، ثم كان الزفاف .

وعاشا معا فى سعادة . كان من عادة بستوفالوف أن يمكث فى متجر الاخشاب

حتى يحين موعد الغذاء ، ثم يخرج ليباشر أعماله . وكانت أولنكا أثناء ذلك تأخذ مكانه فى المكتب وتظل به حتى المساء ، تشرف على قيد المبيعات وتصدر التعليمات .

كانت تقول لزبائنها ومعارفها : « ان سعر الخشب يرتفع الآن عشرين فى المائة كل سنة ، تصوروا ، لقد كنا نشترى الخشب من غاباتنا هنا ، أما الآن فان زوجى يضطر كل عام الى أن يذهب الى

ولاية موجيليف ليحصل على الخشب ، وما أدراكم ما الضرائب ! » . ثم تغطى وجنتيها بيديها رعبا وتصيح : ماأدراكم ما الضرائب !

***

كانت تشعر كأنها تتعامل منذ زمن طويل فى الخشب ، وأن أهم شىء فى الحياة هو الخشب . وكان ثمة شىء مؤثر ومحبب الى النفس فى طريقة نطقها لكلمات : العارضة ، والكتلة ، واللوح ، والقدة ، والبغدادلى ، وعربة المدفع ، والزرجينة. وفى الليل كانت تحلم بجبال كامله من ألواح الخشب ، وصفوف طويلة لا آخر لها من العربات تنقل الخشب الى مكان بعيد عن المدينة . وذات ليلة رأت فى نومها كتيبة كاملة من الالواح مقاس ٣٦ قدما × ٥ بوصات تتقدم شاخصة لتخوض معركة ضد أخشاب المتجر . ورأت العوارض والكتل والالواح تصطدم بعضها ببعض محدثة تلك الاصوات الحادة التى يحدثها تشقق الخشب الجاف، ورأت هذه العوارض والكتل والالواح تتساقط ثم تنهض واقفة احداها فوق الاخرى . وصرخت أولنكا فى نومها فقال لها بستوفالوف برفق :

أولنكا يا عزيزتى ، ماذا بك ؟ استعيذى بالصليب .

كانت تتبنى جميع أفكار زوجها : فاذا اعتقد أن الحجرة شديدة الحر، اعتقدت أنها شديدة الحر . واذا قال ان العمل كاسد ، قالت ان العمل كاسد . وكان بستوفالوف لا يحب التنزه ويمكث فى البيت أيام العطلات ، وكانت هى أيضا لا تحب التنزه وتمكث فى البيت أيام العطلات .

كان صديقاتها يقلن لها : أنت دائما اما فى البيت واما فى المكتب . لماذا يا حبوبة لا تذهبين الى المسرح أو السيرك ؟

وكانت تجيبهن فى هدوء : أنا وزوجى لا نذهب الى المسرح أبدا ، ان لدينا أعمالا علينا أن نؤديها ، ليس عندنا وقت للعبث . وما الذى يعود على المرء من الذهاب الى المسرح ؟

***

كانت هى وبستوفالوف يذهبان أيام السبت الى صلاة المساء ، وفى أيام الأحد الى صلاة القداس المبكرة ، وفى طريق عودتهما الى البيت كانا يسيران جنبا الى جنب : وجهاهما يفيضان بشرا ، ورائحة ذكية تفوح منهما ، ورداؤها الحريرى يخفق فيصدر حفيفا ممتعا . وفى البيت كانا يشربان الشاى ومعه الخبز المحمر وأنواع المربات ، ثم يتناولان الفطائر ، وظهر كل يوم تفوح فى حديقة البيت وخارج البوابة رائحة يسيل لها اللعاب: حساء الكرنب ولحم الضأن المشوى أو البط ، والسمك فى أيام العيد . وكان كل من يمر أمام البيت تتملكه رغبة عامة فى تناول الطعام . وكان السيماور يغلى دائما على نضد بالمكتب ، والشاى والبسكوت يقدمان للزبائن . وذات يوم ذهب الزوجان الى الحمامات ، وعادا يسيران جنبا الى جنب وقد توردت خدودهما .

كانت أولنكا تقول لصديقاتها : اننا نعيش على مايرام والحمد لله . هيا الله لكل الناس أن يعيشوا كما أعيش أنا وزوجى .

وكانت كلما ذهب بستوفالوف الى ولاية موجيلوف ليشترى الأخشاب أحست نحوه بوحشة شديدة ، وظلت الليالى لا يتطرق النوم الى جفنيها ولا تكف عن البكاء . وكان سميرنوف طبيب الوحدة البيطرية الشاب الذى يسكن جناح بيتها يأتى لزيارتها فى بعض الأمسيات . كان يقص عليها بعض الحوادث أو يلعبان الورق ، فتجد فى ذلك عزاء لها . وكانت أمتع قصصه هى قصص حياته الشخصية . كان متزوجا وله ولد : ثم انفصل عن زوجته لأنها خدعته . انه الآن يكرهها ولكنه يرسل اليها كل شهر أربعين روبلا تعول بها ولده . وتنهدت أولنكا وهزت رأسها وشعرت بالحزن من أجله .

وقالت له وهى تصحبه الى الباب على ضوء شمعة : « طيب مع السلامة . وشكرا لك على حضورك وتمضية الوقت معى . متعك الله بالصحة . يارب ! » . كانت تتكلم بهدوء وروية على طريقة زوجها . وكان الطبيب قد توارى خلف الباب عندما هتفت به : على فكرة يافلاديمير بلاتونتش ، يبغى أن تتصالح مع زوجتك ، اغفر لها ولو من أجل ولدك . ان الطفل يدرك كل شىء . تأكد من هذا .

***

عندما عاد بستوفالوف حكت له بصوت منخفض قصة الطبيب البيطرى وحياته الزوجية التعيسة . وتنهدا ، وهزا رأسيهما ، وراحا يتحدثان عن الطفل الذى لابد أنه يشعر بوحشة لأبيه ، وبتداع غريب للخواطر توقف الاثنان أمام صور القديسين ، ثم ركعا ، ودعيا الله أن يرزقهما أطفالا .

هكذا عاشت أولنكا وبستوفالوف ست سنوات كاملة ، فى هدوء وسكينة، وحب وانسجام لا مزيد عليهما . ثم حدث ذات يوم من أيام الشتاء أن تناول فاسيل أندريتش شايا ساخنا وخرج الى متجر الأخشاب بلا قبعة فأصيب بالبرد ومرض . وتولى علاجه خيرة الأطباء ، ولكن المرض اشتد عليه ، ثم توفى بعد أربعة شهور من مرضه ... وترملت أولنكا مرة أخرى .

ومشت تولول خلف نعشه وتقول : لمن تركتنى يا حبيبى ؟ كيف أعيش الآن من غيرك ، أنا المخلوقة التعسة . رحمة بى أيها الناس الطيبون ، رحمة بى ، يتيمة الأب والأم ، وحيدة فى الدنيا !

كانت تمضى بملابسها السوداء وأشرطة الحداد ، وأقلعت نهائيا عن لبس القبعات والقفازات . ولم تكن تبرح البيت الا لتذهب الى الكنيسة أو لتزور قبر زوجها ، لقد أصبحت حياتها أشبه ما تكون بحياة الراهبات .

ولم تخلع أشرطة الحداد أو تفتح نوافذ البيت الا بعد ستة شهور . وبدأت تبرح البيت من وقت لآخر فى الصباح لتذهب الى السوق مع الطاهية . أما كيف تعيش فى البيت أو ماذا كان يجرى داخل هذا البيت فذلك ما لم يكن فى وسع أحد أن يعرفه الا ظنا وتخمينا. كان فى الامكان استنتاج ذلك من أنها كانت تشاهد فى حديقتها الصغيرة تتناول الشاى مع الطبيب البيطرى بينما يقرأ لها الصحيفة بصوت مرتفع ، ومن أنها التقت ذات يوم فى مكتب البريد باحدى معارفها فقالت لها :

« ان مدينتنا ليس لها تفتيش بيطرى سليم . وهذا هو السبب فى انتشار الامراض بهذه الدرجة . انك تسمعين دائما عن أناس يصابون بالمرض من جراء شرب اللبن أو تنتقل اليهم العدوى عن طريق الخيل والأبقار . ان صحة الحيوانات المنزلية ينبغى فى الواقع أن تلقى من الرعاية مثل ما تلقاه صحة الآدميين » .

كانت تردد كلمات الطبيب البيطرى وتعتنق آراءه فى كل شىء . وكان

واضحا أنها لاتستطيع أن تعيش عاما واحدا بدون أن ترتبط بأحد ، ولقد وجدت سعادتها الجديدة فى جناح بيتها. ولو حدث ذلك من امرأة غيرها لظن بها الناس الظنون ، ولكن أحدا لم يكن يستطيع أن يظن سوءا بأولنكا ، فقد كان كل شيء فى حياتها شفافا .

ولم تتحدث هى أو الطبيب قط عن التغير الذى أصاب علاقاتهما ، بل لقد حاولا فى الواقع أن يخفيا هذا التغير . ولم يفلحا لأن أولنكا لم يكن فى وسعها أن تحتفظ لنفسها بأسرار . وذات يوم جاء زملاء الطبيب فى الوحدة البيطرية لزيارته ، فصبت لهم الشاى ، وقدمت لهم العشاء ، وراحت تتحدث اليهم عن طاعون الماشية أو أمراض الحوافر والفم، ومذابح البلدية . وضاق الطبيب بذلك أشد الضيق ، فلما انصرف الزوار امسك بيدها وقال لها وهو يتميز غضبا :

الم أطلب اليك الا تتكلمى فيما لا تفهمين ؟ أرجوك اذا ناقشنا نحن الأطباء شيئا الا تتدخلى فى النقاش . لقد أصبح تدخلك أمرا مزعجا .

ونظرت اليه فى دهشة وانزعاج وسألته :

ولكن فيما عساى أتكلم يا فولودتشكا؟ والقت بذراعيها حول عنقه وقد امتلأت عيناها بالدموع ، وتوسلت اليه الا يغضب ، وعاش الاثنان فى سعادة .

غير أن سعادتهما لم تدم طويلا . فقد نقلت الوحدة البيطرية التى يعمل فيها الطبيب الى مكان بعيد بعد سيبريا ، وغادر المدينة الى الأبد ، وبقيت أولنكا وحيدة .

***

لقد أصبحت الآن وحيدة تماما . فقد مات أبوها منذ زمن طويل ، ولا يزال كرسيه ملقى فى الطابق الأعلى وقد غطاه التراب وكسرت احدى أرجله . وأخذت تزداد نحولا وتفقد رداءها ، ولم يعد الناس يتطلعون اليها فى الشوارع كما كانوا يفعلون من قبل . لقد بات واضحا أن خير أيامها قد ولت وانقضت وأنها على وشك أن تستقبل حياة جديدة غامضة خير لها لو استطاعت الا تفكر فيها .

كانت فى المساء تجلس على درجات السلم وتسمع عزف الموسيقى وانطلاق الصواريخ فى مسرح التيفولى ، ولكن ذلك لم يعد يثير لديها أية استجابة .

وكانت تنظر الى الحديقة وهى لا تفكر فى شيء ، ولا تريد شيئا . فاذا أقبل الليل آوت الى فراشها فلا تراودها غير أحلام الحديقة الخاوية . وكانت تأكل وتشرب كأنها مكرهة على ذلك .

وكان أسوأ ما فى الأمر أنها لم يعد لها رأى فى شيء ، كانت ترى كل مايجرى حولها ، ولكنها لا تستطيع أن تحكم عليه بشيء ، ولم تعد تعرف شيئا تتحدث عنه . وما أفظع الا يكون للمرء رأى ! انك ترى مثلا زجاجة ، أو ترى السماء تمطر ، أو ترى فلاحا يركب عربة نقل ، ولكن ما الذى تمثله الزجاجة أو المطر أو الفلاح ؟ ما الذى يعنيه كل هذا ؟ لا تدرى .. لا تدرى على الاطلاق. لقد كانت أولنكا على أيام كوكين وبستوفالوف ثم على أيام الطبيب البيطرى تجد تفسيرا لكل شيء ، وتستطيع أن تدلى برأيها فى كل شيء . لكن قلبها وعقلها أصبحا الآن خاويين كحديقة البيت ، وكان ذلك عندها أمر مذاقا من الحنظل .

وشيئا فشيئا أخذت المدينة الصغيرة تنمو وتتسع من جميع أطرافها ، فأصبح طريق النور شارعا ، وقامت مكان مسرح التيفولى ومتجر الأخشاب منازل جديدة وصف من الشوارع الجانبية. الا ماأسرع مايمر الزمن ! لقد أصبح بيت أولنكا كئيبا : سقفه صدىء ، وصومعته مالت، ونباتات الحماض والمسك ملأت أرجاء حديقته الصغيرة . وأولنكا نفسها تقدمت بها السن .. وذبل رواؤها .

كانت أيام الصيف تجلس على درجات السلم وقد خلت نفسها الا من الحزن والمرارة . وكانت اذا تنفست عبير الربيع أو حملت اليها الريح قرع نواقيس الكاتدرائية ، تدفق عليها سيل مفاجىء من الذكريات فيمتلىء قلبها بدفء حنون وتنحدر الدموع على خديها . لكن ذلك لم يكن يستمر أكثر من لحظات ثم يعاودها الفراغ وشعورها بعبث الحياة . وكانت بريسكا — قطتها السوداء الصغيرة — تحتك بها وهى تخرخر فى وداعة . لكن مداعبات القطة الصغيرة لم تكن تمس أوتار قلبها . لم تكن هذه المداعبات هى ما تحتاج اليه . كان كل ما تحتاج اليه حبا يستوعب كيانها كله ، حبا يستوعب عقلها وروحها ويمنحها أفكارا وهدفا فى الحياة ، ويبعث الدفء فى دمها الشائخ . وهكذا كانت تدفع الهرة السوداء عن قميصها حانقة وهى تقول لها : اغربى عن وجهى ! ماذا تفعلين هنا ؟

***

وهكذا يوم وراء يوم ، وعام بعد عام، بلا فرحة واحدة ، ولا رأى واحد ، وكل ما تقوله مارفا الطاهية لا يلقى منها غير التسليم .

وذات يوم حار من أيام يوليو كانت ماشية القرية عائدة قبيل المساء ، وكانت الحديقة كلها قد امتلأت بسحب من الغبار، وفجأة سمعت طرقة على الباب الخارجى، وذهبت أولنكا بنفسها لتفتحه ولشد ما كانت دهشتها حين رأت أمامها سميرنوف .. الطبيب البيطرى . كان شعره قد استحال الى لون الرماد ، وكان يرتدى الملابس المدنية . وتدفقت على خاطرها جميع الذكريات القديمة فلم تستطع أن تمسك زمام نفسها، وانفجرت تبكى ، والقت بنفسها على صدر سميرنوف بدون أن تنطق بكلمة واحدة. ولم تدر من فرط تأثرها كيف سارا الى داخل البيت وجلسا يتناولان الشاى .

وتمتمت تقول وهى ترتجف من الفرح: يا حبيبى يا فلاديمير بلاتونتش ... من أين بعث بك الله الى ؟

وقال سميرنوف: اننى أريد أن أستقر هنا الى ما شاء الله . لقد استقلت من وظيفتى ، وجئت الى هنا لكى أجرب حظى فى العمل الحر وأحيا حياة مستقرة . وفضلا عن ذلك فقد آن الأوان لكى أرسل ولدى الى المدرسة . لقد كبر الآن . وعلى فكرة لقد صالحت زوجتى .

وسألته أولنكا : وأين هى ؟

— مع الولد فى الفندق . اننى أبحث عن مكان نقيم فيه .

واستخف أولنكا الفرح فراحت من جديد تقول بصوت مرتفع : يا الهى ! ما أروع هذا ! خذ منزلى . لم لا تأخذ منزلى ؟ يا الهى ! لن أطلب منك ايجارا. أنتم تقيمون هنا ، وأنا يكفينى الجناح . يا الهى ! يا فرحتى !

وفى اليوم التالى مباشرة بدأ طلاء السقف والجدران . كانت أولنكا تضع يديها فى خصرها وتروح وتغدو فى الفناء مشرفة على سير العمل . وأشرق وجهها بابتسامتها القديمة ، وتجددت الحياة فى كيانها كله ، وبدت منتعشة كأنها استيقظت من نوم طويل .

ووصلت زوجة الطبيب وولده . كانت امرأة نحيلة ، بسيطة المظهر ، تشيع



تأليف : انطون تشيكوف ترجمة : حسن فتحي خليل

حدث هذا منذ زمن ليس بالبعيد فى دائرة محكمة موسكو وقد بدأت المناقشة بين المحلفين الذين ظلوا فى المحكمة ليلا مجتمعين قبل أن يذهب كل فراشه عن اللحظات الرهيبة التى تصادف الانسان فىحياته وذلك بمناسبة ما ذكره أحدهم عن شاهد فى احدى القضايا وقد تلعثم واصفر وجهه وارتج عليه ، وهو يرجع أن ذلك كان راجعا الى تلك اللحظة العصيبة المخيفة . وقد رأى المحلفين أن يحفر كل فى ذاكرته ويحكى لهم قصة تتضمن مواقف مشابهة لذلك الموقف ، فان الحياة على قصرها لاتخلو من لحظات قاسية عنيفة .

روى أحدهم كيف كان على وشك الغرق ، وقال ثان كيف انه سمم ولده فى مكان خال من أى طبيب او صيدلى بأن أعطى الطفل مسحوقا من النحاس بدلا من الصودا ، ولكن الطفل لم يمت ، الا أن والده كان على وشك الجنون . وحكى ثالث وهو رجل ليس بالعجوز الا أنه سقيم كيف أنه حاول الانتحار مرتين ، فقد أطلق على نفسه عيارا ناريا مرة وألقى بنفسه بجانب قطار مرة أخرى . أما الرابع وهو رجل قصير ، تبدو على وجهه دلائل الصحة والقوة ، فلابسه ، وجيهة نظيفة ، فقد روى القصة التالية :

كنت لا أتعدى الثانية والعشرين أو الثالثة حين أفعم قلبى بحب زوجتى الحالية فطلبت يدها . كان حبى لها حارا من ذلك النوع الجنونى الذى يذكر فى القصص والروايات ، وقد غمرنى هذا الحب بالسرور فلم أعرف كيف أتخلص منه ، فضايقت والدى وأصدقائى وخدمى بتكرار ذكر حبى لهم دائما ، والمسرورون – كما تعلمون – هم أكثر الناس تعبا وضيقا ، اذ كنت دائما حانقا مغيظا حتى أنى أخجل من ذكر ذلك الآن .

وكان لى صديق محام ناشىء حينذاك ، وهو مشهور الآن فى روسيا بأسرها ، ولكنه يومئذ كان يخطو خطواته الاولى نحو الشهرة . لم يكن موسرا ولا مشهورا حتى يحق له ألا يذكر صديقا له اذا ما قابله أو يرفع قبعته لأحد . وكان من عادتى أن أزوره مرة أو مرتين فى الاسبوع . فاذا ما ذهبت اليه اضطجعنا على أريكتين وبدأنا فى الفلسفة .



وكنت يوما مضطجعا على الاريكة كعادتى ، أتجادل معه حول أن مهنة المحامى هى مهنة كلهـــا عقوق ونكران للمعروف . حاولت أن أبين له كيف أنه بعد سماع الشهود فى المحكمة يمكن الاســـتغناء عن المحامى . فاذا كان هناك محلف يافع سليم العقـل والروح وأثبت أن هذا السقف أبيض أو أن هـــذا مذنب فليس هناك من شخص لديه القوة الكافيـة ليقاوم اقناعه واثبـاته . ومن ذا الذى يثبت لى أن شاربى أحمر بينما أنا أعرف أنه أسود . ولربما اذا أصغيت الى خطيب أثر على وانتزع دموعى ، ولـكن عقائدى الثابتة المبنية على الحقائق الجلية لايمـــكن تغييرها .

ولكن صديقى المحامى جاهد فى اقنـــاعى أنى مازلت صغيرا ، غبيا ، أتكلم كالاطفال كلاما لامعنى له ولا قيمه . وقال ان الحقيقة الظاهرة حينما يلقى عليها الضوء اخصائى خبير عادل تزداد جلاء ، وان الذكاء قوة هائلة يمكنها تحويل الحجر الى تراب . وقال انه لا يتـكلم عن ذلك الذكاء الطفيف التـافه كذكاء أصحاب الاملاك والمحال ، فمن الصـــعب على الارادة البشرية الضعيفة أن تقاوم رجلا ذكيا ، كمن ينظر الى الشمس دون أن يعمى . وبقوة الـــكلمات أمكن لشخص واحد أن يجعل الالوف يعتنقـــون المسيحية ، وما التاريخ قائم الا على خطات وحوادث كتلك .

لكنى أصررت على أن قوة العقيدة لايضـعفها أى ذكاء . وكنت أقول ذلك مع أنى لا يمكننى أن أحدد تماما ما هى العقيدة وما هو الذكاء ، ومن المحتمل أنى كنت أتكلم لمجرد الكلام فحسب !

ولكن صديقى المحامى قال : « خذ مثلا شخصك ، فأنت مقتنع أن خطيبتك ملاك ، وأنه ما من قلب فى البلدة مفعم بالسرور كقلبك . ولـــكن أؤكد لك أن بضع دقائق تكفى تماما لجلوسك على نفس هذا المكتب تكتب لها فاصما عرى علاقتكما » .

فقهقت ساخرا ، الا أن صديقى قال « لاتضـحك فانى أتكلم الحقائق ، فاذا رغبت فى ذلك فستصبح سعيدا بعد عشرين دقيقـــة فقط ، لانى أنقذتك من ذلك الزواج . » .

فقلت : « حسنا .. جرب من فضلك . »

ـ « كلا » لماذا أفعل ذلك وأنت شاب مهـــذب رقيق . انى أشفق عليك كى أجعـــل منك هدفا لتجربتى القاسية . »

وجلسنا للعشاء .. ولما غمرتنى الخمر بتخيلاتى عن ناتاشا حبيبتى كان سرورى عظيما حتى أن عينى المحامى الخضراوين ظهرتا لى وكأنهما مكتئبتان .

فاستفززته قائلا : حاول ياصديقى « أرجوك أن تحاول . »

فهز المحامى رأسه وعقد حاجبيـــه ، وكنت قد ضايقته ، فقال : « أؤكد لك بأنك ســـتشكرنى وستدعونى بالمنقذ حينما تتم تجربتى . ولكن يجب على أن أذكر خطيبتك أيضا فهى تحبك ، وعـــدم مبادلتك اياها حبها سيؤلمها ويشقيها ولكن كم هى جميلة .. انى أحسدك . »

وزفر المحامى زفرة حارة وهو يرشـــف الخمر ، وبدأ يتحدث عن جمال صديقتى . كان وصـــافا بارعا وهو يتحدث عن أهدابها أو اصبعها الصغيرة ، وبدأت أنصت اليه فى فرح .

وكان يقول « رأيت نساء كثيرات ولكنى أصدقك القول أن ناتاشا درة لامعة ، فتاة نادرة ! وبالطبع لها عيوبها ، ولكنها مع ذلك كله مدهشة . »

وبدأ المحامى يتكلم عن عيوب خطيبتى ، والذى أفهمه أنا أنه كان حديثا جامعا عن النســـاء .. عن النقط الضعيفة من أخلاقهن ، الا أنى تخيلت حينئذ أنه يقصد ناتاشا بحديثه ذاك . وأطال صديقى وهو ذاهل فرح ، فى وصف أنفها الافطس ، وصوتهـــا المثير ، وضحكتها المجلجلة ، وتكلفها ، وتظاهرها .. وعن كل ما أكرهه فيهـــا ، وكل هذا كان فى رأيه محبوبا ، جميلا ، مفعما بالانوثة ! وبدون أن اشعر انتقل من تلك الحرارة والحماسة الى التربية الابوية . وكان يتكلم بصوت لين كله تهكم وســـخرية . ولم أجد أنا الفرصة لافتح فمى .. فماذا أقول ؟ فصديقى لم يذكر شيئا جديدا ، وكل ما قاله كان صادقا فيه . ولم يكن موضع السم فى كلماته ولكنه كان فى تلك اللهجة الشيطانية التى كان يتكلم بها .

واقتنعت أن لكل كلمة آلاف المعانى حسب الطريقة التى تنطق بها وتغيير موضعها فى الجملة .

قمت ثائرا وأنا أقطع الحجرة جيئـــة وذهـابا ، ووجدتنى أصـــدقه حين أخبرنى والدموع تلمع فى

عينيه أنى شاب فى مقتبل العمر ، أمامى مستقبل مشرق سأقوم فيه بعمل باهر عجيب يمنعه زواجى . أطبق بيديه على يدى وهو يقول :

« أرجوك » بل آمرك .. أن تقف عند هذا الحد قبل أن يقطع السيف العذل ان الله سينقذك من تلك الخطيئة الغريبة ! لاتحطم شبابك ياصديقى » .

ومن الغريب أنى جلست الى المكتب وكتبت الى خطيبتى أفصم عرى صداقتنا . كنت فرحا اذ هناك متسع من الوقت لاصلح ذلك الخطأ الذى وقعت فيه .

والصقت المظروف ثم اسرعت الى الشارع ووضعته



فى الصندوق . وكان صديقى المحامى معى يمدحنى على ما فعلت .

ولما اختفى خطابى فى ظلمة الصندوق سمعته يقول : « عمل باهر عظيم .. انى أهنئك من كل قلبى .. انى فرح من أجلك . »

وبعد أن سرنا معا ما يقرب من عشر خطوات كان صديقى يقول :

« بطبيعة الحال للزواج ناحية البهجة أيضا ، فأنا مثلا أنتمى الى ذلك النوع من الرجال الذين يجدون فى الزواج والحياة العائلية كل آمالهم . »

وجعل يصف حياته الزوجية فظهرت لى بشاعة حياة الفردية وغلظتها . وكان يتكلم بحرارة وحماس واخلاص عن زوجته .. عن سعادة الحياة العائلية ، فهزنى يأس مميت حين وصلنا الى باب منزله ، وقلت وأنا ألهث :

« ما الذى فعلته معى أيها الرجل الملعون ؟ لقد حطمتنى ! لماذا جعلتنى أكتب ذلك الخطاب المشئوم ؟ انى أحبها ! أحبها » !

وأقسمت أنى أحبها .. كنت أخاف نتيجة فعلتى المتهورة .

سادتى .. من الصعب تصور لحظة أرهب من تلك ، فلو وضع رجل رحيم مسدسا فى يدى حينئذ لاطلقت رصاصة فى رأسى بكل ارتياح .

وضحك المحامى وهو يمسك بذراعى بلطف وقال :

« لاتصرخ ! ان الخطاب لن يصل الى صديقتك . لقد كتبت أنا العنوان – لا أنت – على المظروف ، وقد غيرت من كتابته حتى أنهم لن يقدروا على حل رموزه فى مكتب البريد . وليكن هذا درسا لاتنساه حتى لاتجادلنى مرة أخرى فى أشياء لاتفهمها . »

والان ياسادتى فليقص الخامس قصته .

ولما تأهب المحلف الخامس للكلام دقت ساعة الكنيسة الثانية عشرة ، فقال أحد المحلفين :

« ما بالكم أيها السادة فى الحالة الرهيبة التى عليها سجيننا الآن ؟ ما الذى يحسه وما الذى يشعر به وهو فى القفص ؟ انه يقضى ليله هنا فى زنزانة ، ولربما كان مضجعا أو جالسا ، أرقا بطبيعة الحال ، مصغيا الى دقات الساعة طوال الليل . والذى يفكر فيه ؟ ما هى أحلامه وتخيلاته ؟ »

ونسى الحاضرون فجأة كل ما قيل من قبل عن اللحظات الرهيبة ، وتبين لهم أن قصة صديقهم الذى كتب الخطاب الى خطيبته لم تكن الا تجربة تافهة مضجرة ، ولم يتكلم أحد بل ذهب كل الى فراشه هادئا ساكنا .





تأليف: أنطون تشيكوف   ترجمة: أحمد حسين عودي

الشخصيات

هيلين ايفانوفنا بوبوف: أرملة شابة وصاحبة عقارات وأملاك

جرجوريا سبتنوفتش سميرنوف: صاحب عقارات وأملاك

لوكــا: خادم السيدة بوبوف

عامل الحديقة

سائق العربة

عدد من العمال

المشهد: غرفة استقبال فخمة في بيت بوبوف

(تُـرفع الستـارة عن السيدة بـوبوف وهي تلبس ثـوب الحـداد، تجلس عـلى الأريكـة وتحملق بشدة في صورة فوتوغرافية. ويظهر لوكا أيضا).

(*) مسرحية ذات فصل واحـد تمت ترجمتها إلى العربيـة عن الانكليزيـة من كتاب المسرحيـة رقم (١)، قام بجمعه مارجوري باروز، وهو عبارة عن مجموعة مسرحيات ذات فصل واحد من التراث العالمي.

أنطـون تشيكـوف

Anton Chekhov

١٨٦٠ ـ ١٩٠٤

درس تشيكوف الطب ولكنه لم يمارسه قط، بل وقف نشاطه كله على الكتابة.

بدأ كتابـة القصة القصـيرة والمسرحية عـلى صفحات المجـلات الساخـرة طلبا للمال، وقد كشفت بوضوح ـ رغم تفاهة محتواها ـ براعته في خلق مواقف درامـاتيكية مثيرة، ورسم شخصيات فريدة مميزة.

لقد سخرت قصص تشيكـوف القصيرة وكـذلك مسرحيـاته الأولى من النـاس وعاداتهم الاجتماعية وطرق معيشتهم مما جعلهم يُطلقون عليه لقب «اليـائس والأحمق والـرجعي». أما قصصـه الأخيرة ومسرحيـاته فقـد بيّنت اهتمامـه بالأثـر الذي يـتركه الصراع العاطفي والنفسي بين الناس على شخصياته وأسلوب حياتهم.

أما مسرحيات تشيكوف الطويلة مثل «ايفانوف عام ١٨٨٧» و«نـورس البحر» عام ١٨٩٦ فرسمت بداية اهتمامه الكبير بالمسرحيـة وارتباطـه بالمسرح. وقـد كتب في هـذه الفترة عـدة مسرحيـات قصـيرة أبهجت المشـاهـدين واعتـبر بعضهـا بـين أكـثر المسرحيـات اثارة للضحـك والهزل، علماً أن تشيكـوف لم يُعـرهـا الاهتـمام المـطلوب وأطلق عليها «المسرحيات الهـزلية» ربمـا لأنها كانت تتكلف الهـزل وأحيانـاً السخافـة مقارنة بمسرحياته الطويلة الجدية. ورغم كل هذا فإن بعض مسرحياته مازالت تتمتع بالشعبية ويقرأها الناس ويشاهدونها.

أما أشهر مسرحياته الكبيرة «بستان الكرز» و«الأخوات الثلاث» و«العم ڤانيا» فتكشف لنا عن قدرة الكاتب على المزج الذكي بين الفرح والترح ـ الصفة التي تتميـز بها أروع قصصه.

ومهما يكن فإن النزعة الانسانية تغلب عـلى قصصه القصـيرة ورواياتـه الطويلة ومسرحياته جميعها. ويمتاز تشيكوف بغزارة التجربة وعمق التحليل وبساطة التعبير.

لوكا : إن هذا ليس مناسباً . . إنك ترهقين نفسك. لقد ذهب الخادم والطباخ ليحضر التوت، إن الأحياء يستمتعون بالحياة. حتى القطط تعرف معنى السعادة فتندفع خلسة وراء العصافير. إنك تعزلين نفسك هنا في هذا البيت كأنك في دير. نعم. إنك لم تغادري هذا البيت منذ سنة كاملة.

السيدة بوبوف : وسوف لن أغادره. ولم لا؟ لقد انتهت حياتي. إنه يرقد في قبره. وإني دفنت نفسي بين هذه الجدران الأربعة. لقد مُتنا نحن الاثنين.

لوكا : ثانيةً! إنه لمفزع حقاً أن تصغي له. لقد كان ما كان! لقد مات نيقولاي متشيلوفتش. إنها ارادة الله ولقد منحه الله راحة سرمدية. لقد حزنت عليه ويجب أن ينتهي هذا الحزن. لقد حان الوقت الآن لتتوقفي عن الحزن. فلا يمكن للانسان أن يبكي ويلبس الحداد للأبد! لقد ماتت زوجتي منذ سنوات وحزنت عليها وبكيتها شهراً كاملاً. وبعد ذلك انتهى كل شيء. هل يبقى الانسان يندب وينوح للأبد؟ إن هذا أكثر مما يستحق زوجك! (يتنهّد) لقد نسيتِ كل جيرانك، فأنت لا تغادرين البيت ولم تستقبلي أحداً. إننا نعيش ـ معذرة كالعناكب لا نرى نور الصباح المشرق، وقد أكلت الجرذان العلف ـ كأن لم يعد هناك أناس طيبون في هذا العالم. إن الجوار مليء بالصحبة الحسنة وبالأشراف والنبلاء. لقد عسكرت فرقة الضباط في رابلوف من ذوي المظهر الحسن. ولم يتسنّ لنا بعد أن نرى العدد الكافي منهم! وكل يوم جمعة يقيمون الحفلات الراقصة ويعزفون الموسيقى العسكرية يومياً. آه يا سيدتي العزيزة. . أرجوك أن تطلقي الحرية لروحك لتحيا وتستمتع بالحياة. إن الجمال لا يدوم والزمن يمضي سريعاً. وإذا ما خرجت بعد ذلك للقاء الضباط

فسيكون القطار قد فاتك!

السيدة بوبوف : (بعزم وثبات) أرجوك أن لا تتلكم ثانية عن هذه الأمور. أنت تعلم جيداً أنه بعد وفاة نيقولاي أصبحت حياتي لا تساوي شيئاً أبداً. إنك تظن أنني أحيا ولكن ذلك وهم وخيال. هل فهمت؟ إن روحه التي فارقتنا يجب أن تعرف كم أحبه! إني لا أخفي عليك سراً فغالباً ما كان قاسياً وغير منصف، ولم يكن مخلصاً. ولكني سأكون مخلصة لقبره ولأبرهن له عن مدى حبي، هناك في الآخرة سيجدني كما كنت معه قبل موته.

لوكا : ما فائدة هذا الكلام؟! من الأفضل لك أن تتمشي في الحديقة أو تأمري بشد العربة على توبي أو ولكان وتقومي بزيارة الجيران.

السيدة بوبوف : (باكية) آه.

لوكا : سيدتي.. سيدتي العزيزة.. ماهذا؟ أرجوك بحق السماء!

السيدة بوبوف : كان يحب توبي كثيراً. وكان يسوقه دائماً إلى كورتسشجين أو إلى ڤلاسوڤز. ما أروعه من خيال! كم كان يبدو رائعاً عندما يطلق العنان لجواده. توبي.. توبي دعه يشعر أنك تقدم له اليوم أقصى ما عندك من الشوفان.

لوكا : أجل يا سيدتي.

(يدق الجرس بشدة)

السيدة بوبوف : (تشعر بالقشعريره) من هذا؟ إني لا أريد أن أستقبل أحداً.

لوكا : نعم يا سيدتي (يخرج)

السيدة بوبوف : (تحملق في الصورة) سوف ترى يا نيقولاي كيف أنني أحب وأعفو! إن حبي سيموت معي ـ فقط عندما يتوقف قلبي الضعيف عن الخفقان. (تبتسم وتنساب الدموع على خديها) أما تشعر بالخجل؟! لقد كنت زوجة طيبة وصادقة. لقد سجنت

نفسي وسأبقى صادقة ومخلصة حتى الموت. وأنت. . أنت. . أما تشعر بالخجل من نفسك أيها الغول العـزيز! كنت تتشـاجر معي وتتركني وحيدة لأسابيع.

(يدخل لوكا وهو في غاية الاضطراب والاثارة)

لوكا : آه يا سيدتي. . هناك رجل يسأل عنك ويصرّ على مقابلتك.

السيدة بوبوف : ألم تخبره أني منذ وفاة زوجي لم أستقبل أحداً؟

لوكا : أخبرته يا سيدتي، لكنه لم يهتم ويقول إنها قضية مستعجلة.

السيدة بوبوف : إنني لا أستقبل أحداً!

لوكا : لوكا أخبرته بذلك ولكنـه رجل فظ وغليظ وقـد دفع بجسمـه إلى الغرفة. إنه الآن في غرفة الطعام.

السيدة بوبوف : (مضطربة) حسناً. دعه يدخل. . هذا الرجل الوقح الصفيق!

(يخرج لوكا)

السيدة بوبوف : أي أنـاس هؤلاء؟ إنهم ثقيلو الظل ومصـدر إزعاج؟ مـاذا يريـد هذا الرجل مني؟ ولماذا يعكر علي صفائي وهدوئي؟ (تتنهد) أجل إني أعيش في دير (تتأمل) أجل في دير!

(يدخل سمير نوف ووراءه لوكا)

سميرنوف : (موجهاً كلامه إلى لوكا) لماذا كل هذا الضجيج أيها الأبله؟ (يكتشف وجود السيدة بوبوف ـ بـأدب) يشرفني أيتها السيـدة أن أقـدم لك نفسي: مـواطن وضابط متقـاعد اسمي: جـرجـوري سبتنوفتش سميرنوف. معذرة لمضايقتك، فالأمر هام جداً.

السيدة بوبوف : (دون أن تمد يدها) ماذا تريد؟

سميرنوف : إن لي على زوجك الفقيد الذي شرفني بمعرفته كمبيالتين تقـدران بنحو ١٢ ألف روبل. ونظراً لهذا فإنه يتوجب عليّ دفـع الفائـدة عـلى قرض من البنـك الأوكراني. لـذلك أرجـوك يـا سيـدتي أن تدفعي لي المال هذا اليوم.

السيدة بوبوف : ١٢ ألف ـ ولماذا كان زوجي مديناً لك؟

سميرنوف : لقد اشترى مني الشوفان.

السيدة بوبوف : (تتنهد وتوجه كلامها إلى لوكا) لا تنس أن تزيد كمية الشوفان إلى توبي.

(يخرج لوكا)

السيدة بوبوف : (إلى سميرنوف) إذا كان نيقولاي مديناً لك فإني بالطبع سأدفع، ولكن يؤسفني أن المال غير متوفر اليوم. سيعود الوكيل غداً من المدينة وسأخبره أن يدفع لك ما تستحق، وحتى ذلك الحين فإنني لا أستطيع تلبية رغبتك. بالإضافة إلى ذلك فقد مضى على وفاة زوجي سبعة أشهر وحالتي لا تصلح لمناقشة قضايا مالية بعد!

سميرنوف : وإنني إذا لم أتمكن من دفع الفائدة غداً أشبه بمن يهرب من المدخنة ورجلاه معلقتان في الهواء. إنهم سيحجزون على أملاكي.

السيدة بوبوف : ستأخذ مالك بعد غد.

سميرنوف : لا أريد المال بعد غد. أريده اليوم.

السيدة بوبوف : آسفة. لا أستطيع دفعه اليوم.

سميرنوف : لا أستطيع الانتظار إلى بعد غد.

السيدة بوبوف : ماذا عساي أعمل إذا لم يكن لدي المال الآن؟

سميرنوف : ألا تستطيعين الدفع؟

السيدة بوبوف : كلا.

سميرنوف : وهل هذه كلمتك الأخيرة؟

السيدة بوبوف : نعم. الأخيرة.

سميرنوف : بالتأكيد؟

السيدة بوبوف : نعم بالتأكيد.

سميرنوف : أشكرك (يهز أكتافه) يظنون أني أستطيع تحمل ذلك. لقد

صادفني الرجل الذي يجمع الضرائب والمكوس للتو في الطريق وسألني لماذا أتذمر دائماً! ألا يحق لي بحق المساء أن أتـذمر وأتـبرم من الحياة. إني بحاجة إلى المال وأشعر أن السكين تقترب من رقبتي. . تركت بيتي صباح أمس في الفجر الباكر وطرقت أبواب المدينين وتمنيت لو أن أحداً منهم يدفع دينه ولكن جهودي ذهبت عبثاً. إن الشيطان يعلم أي نوع من الخانات قضيت ليلتي فيها: في غرفة داخل برميل من البراندي. وبالنهاية وصلت إلى هنا حيث سبعون فرست[1] بعيداً عن البيت وكلي أمل في الحصول على المال وها أنتِ تقولين أنكِ في حالة نفسية لا تسمح لك! ألا يحق لي أن أشكو وأتبرم؟؟

السيدة بوبوف : أعتقد أني كنت واضحة بأن الوكيل سيعود من المدينة وأدفع لك المال.

سميرنوف : لم آت لأرى الوكيل ولكني جئت لأراك. معذرة. بماذا يهمني وكيلك؟

السيدة بوبوف : في الحقيقة إنني غير معتادة لسماع مثل هذا الكلام أو مثل هذا السلوك. لا يسعني الاستماع لك بعد ذلك! (تغادر الغرفة)

سميرنوف : ماذا يستطيع المرء أن يقول؟ حالة نفسية؟ سبعة أشهر بعد وفاة زوجها! هل يمكنني دفع الفائدة أم لا؟ أكرر السؤال: هل أدفع الفائدة أم لا؟ الزوج مات وانتهى، والوكيل ـ لعنه الله ـ مسافر في مكان ما! أخبريني الآن ماذا أعمل؟ هل أهرب من دائني في بالون؟ أو أكسر رأسي بحائط؟ لو ذهبت إلى جرزوف فسيقولون إنه «خارج المنزل» وإرزوشقتش اختفى بسهولة وتشاجرت مع كرزن وكنت على وشك أن أقذفه من الشباك وماسوتوف مريض وهذه المرأة تعيش حالة نفسية. ما من أحد يريد دفع المال لأنني

(١) الفَرْسَت: مقياس روسي للطول يعادل ٣٥٠٠ قدم تقريبا.

دللتهم. إني كالطير الهرم أو كخرقة لغسل الصحون! لقد كنت رقيق القلب كثيراً معهم. لكن مهلاً! لن أسمح لأحد منهم أن يحتال علي. لعنهم الشيطان! سأبقى هنا ولن أبرح المكان حتى تدفع المال.. كم أشعر بالغضب.. بالغضب الشديد. إن أوتار صوتي ترتجف من الغضب. إني أكاد أختنق.. إني أشعر بالمرض والوهن! (ينادي) أيها الخادم!

(يدخل لوكا)

لوكا : ماذا تريد؟

سميرنوف : كأساً من الكفاس[٢] أو من الماء! (يخرج لوكا) حسناً. ماذا سأعمل؟ هي لا تملك المال الآن! ماهذا المنطق؟ يقف المرء ويطلب ماله والسكين على رقبته وهو على وشك شنق نفسه وهي لا تستطيع الدفع لأنها ليست في حالة تسمح لها بنقاش أمور مالية. أي منطق للنساء هذا؟ وهذا السبب الذي يدفعني لعدم التحدث مع النساء والذي يجعلني أكره القيام به الآن. إني أفضل أن أجلس على برميل بارود من أن أتحدث إلى امرأة! آه! أشعر بالبرد والقشعريرة! إن هذه القضية جعلتني أشعر بالغضب الشديد. إني أشعر بالغضب الشديد إذا ما رأيت مثل هذه المخلوقة الرومانسية من بعيد وكأن في أحشائي مغصاً حاداً، كفى.. (يصرخ للنجدة)

(يدخل لوكا)

لوكا : (يناوله الماء) إن سيدتي مريضة ومتعبة ولا تريد أن تستقبل أحداً.

سميرنوف : أسرع (يخرج لوكا) متعبة ولا تستقبل أحداً! حسناً. ليس ضرورياً، وإني لا أريد أن أستقبل أحداً أيضاً. سأجلس هنا

---

(٢) الكفاس: نوع من الجعة يصنع في أوروبا الشرقية.

وأبقى حتى تـأتيني بالمـال. إذا دام مرضهـا أسبوعـاً فسأبقى هنـا أسبـوعاً، وإذا دام مـرضها سنـة فسأبقى سنـة وستكـون السـماء شـاهدة عـليّ: إني أريد المـال، إنكِ لا تزعجينني بنـواحـك ـ أو بغمازاتك. إنني أعرف غمازاتـك! (ينادي من الشبـاك) سيمون: أنـزل الركـاب عن الحصان. إننـا لن نعادر الآن، سـأبقى هنا. أخبرهم في الاسطبل أن يقدموا الشوفان للخيل. (يترك الشباك) إنه فظيع! إنه وضـع لا يحتمل: بـلا مال ولم أنم الليلة المـاضية. والآن ملابس الحداد وحالة نفسية. إن رأسي يؤلمني. إنني بحاجة إلى شرب كأس. أجل بحاجة.. (ينادي) أيها الخادم.

لوكا : ماذا تريد؟

سميرنوف : شيئاً أشربه (يخـرج لوكـا. يجلس سميرنـوف يتفحص مـلابسـه باشمئزاز وازدراء). يا ويلتي! هل هـذا مظهـر حسن؟ لا فائـدة من الانكـار! حذاء وسـخ وقـذر، وشعـر أشعث ومـلابس غـير نظيفة وثـوب يغطيـه التبن والقش ـ لربمـا تظن هـذه السيدة أنني قـاطـع طـريق! (يتثـاءب) إنـه من غـير الـلائق أن أحضر بهـذه الملابس إلى غرفة الاستقبال. أجل لكنه لم يحصل شيء مؤذ. إني لست ضيفاً. إني أطالب بديوني وليس لأصحاب الدين مـلابس خاصة.

لوكا : (يدخل وبيده زجاجة) لقد تجاوزت حدود الأدب يا سيدي!

سميرنوف : (بغضب) ماذا؟

لوكا : أ ـ أ ـ أنا فقط.

سميرنوف : هل تعرف مع من تتكلم؟ اخرس.

لوكا : (بغضب) طعام شهي ولذيذ! يبدو أن الرفيق لا يريـد أن يغادر. (يخرج)

سميرنوف : يـا إلهي! إنني غـاضب جـداً. ويـدفعني غضبي لأرمي الـوحـل

والطين على كل العالم.

(تدخل السيدة بوبوف وهي مسبلة العيون مكتئبة)

السيدة بوبوف : أيها السيد! إنني غير معتادة على سماع مثل هذا الصوت في وحدتي! إني لا أستطيع سماع الأصوات المرتفعة. أرجوك أن تتوقف عن ازعاجي.

سميرنوف : سأغادر حالما تدفعي المال.

السيدة بوبوف : لقد كنت واضحة معك وقلت لك باللغة التي تفهمها أنه ليس لدي المال الآن. انتظر حتى بعد غد.

سميرنوف : يشرفني أن أخبرك وبلغتك أنني بحاجة إلى المال اليوم وليس بعد غد. وإن لم تدفعي المال اليوم سأشنق نفسي غداً.

السيدة بوبوف : ماذا باستطاعتي أن أقدم لك إن لم يكن لدي المال؟

سميرنوف : إذاً. لن تدفعي المال في الحال. أليس كذلك؟

السيدة بوبوف : كلا.

سميرنوف : إذاً سأجلس هنا حتى أحصل على المال (يجلس) ستدفعين بعد غد. رائع! سأمكث هنا حتى بعد غد. (ينهض بسرعة) إني أسألك هل سأدفع الفائدة غداً أو لا؟ هل تعتقدين أني أمزح؟

السيدة بوبوف : أرجوك أيها السيد أن لا تصرخ. إن هذا ليس اسطبلاً!

سميرنوف : إني لا أتكلم عن الاسطبلات، ولكني أسألك إذا كنت أستطيع دفع الفائدة غداً أو لا؟

السيدة بوبوف : إنك لا تُحسن التعامل مع السيدات!

سميرنوف : آه. أجل. أعرف.

السيدة بوبوف : كلا. لا تعرف. إنك غير مهذب وفظ وسوقي. الناس المحترمون لا يكلمون السيدات هكذا!

سميرنوف : كم هو غريب وملفت للنظر! بأي لغة تريدين أن أكلّمك؟ باللغة الفرنسية؟ ربما! مدام من فضلك ـ عذراً على إزعاجك! ما

أجمل الطقس اليوم! وكم يليق بك هذا النحيب! (ينحني قليلاً باستهزاء وسخرية)

السيدة بوبوف : إن هذا لا يدعو للضحك أبداً. أعتقد ن ذلك تصرف السوقة والرعاع.

سميرنوف : (يقلدها) ليس مضحكاً أو سوقياً؟! إني لا أفهم كيف أتصرف بصحبة السيدات! لقد قابلت يا سيدتي في حياتي سيدات أكثر مما شاهدت من عصافير الدوري. لقد تبارزت مع النساء أكثر من ثلاث مرات وخنتُ العهد ١٢ مرة ونكثن معي وخنني تسع مرات. وكثيراً ما تصرفتُ كالأبله واستعملتُ كلمات الحب وانحنيت وقدمت لهن احترامي. لقد أحببت وقاسيت وتنهدت للقمر وذبت في عذابات الحب. أحببت بكل عواطفي.. أحببت حتى الجنون.. أحببت بكل كياني ونعقتُ كالغراب عندما يُطلق سراحه، وضحيتُ وصرفتُ نصف ثروتي على العواطف الرقيقة. إن الشيطان يعرف كم عانيت من الحب! يمكنك السيطرة التامة على خادمكِ المطيع. كفى، ياذات العيون السود المليئة بالعواطف والمشاعر والشفاه القرنفلية والغمازات على الخدين والهمسات كضوء القمر الناعس والتنهدات الناعمة الرقيقة. إني لا أدفع كوبكا واحدا يا سيدتي على كل هذا! إني لا أتكلم عن الصحبة الحالية ولكن عن النساء بشكل عام. فأقل النساء كأعظمهن: مخدوعات ومنافقات ومثرثرات وكريهات وقبيحات وخادعات من الرأس حتى أخمص القدمين. كلهن غرور وضيق أفق وقسوة في منطقهن المنير. (يضرب على جبهته) أعذريني لأني في هذا المجال صريح وواضح فعصفور الدوري يساوي عشر نساء من أمثال هؤلاء المتفلسفات اللواتي سبق ذكرهن. عندما يرى المرء مخلوقاً رومانسياً أمامه، فإنه يتصور أنه

ينظر إلى مخلوق مقدس رائع إلى درجة أنه بنفخة واحدة يستطيع إذابته في بحر من السحر والبهجة والسرور، ولكن إذا ما نظر إلى الروح ـ فما هو إلا تمساح. (يقبض على المنضدة ويكسرها نصفين) وإن أسوأ شيء أن هذا التمساح يظن أنه تحفة المخلوقات جميعها وأنه يحتكر العواطف الرقيقة كلها. فليعلقني الشيطان برجليّ لأني لا أجد ما يحب في المرأة. وعندما تُحِب المرأة فكل ما تعرفه كيف تشكو وكيف تذرف الدموع! وإذا ما أحب الرجل فإنه يضحي أمامها وهي تتمايل في أثوابها حتى تسيطر عليه سيطرة تامة. ولسوء حظك أنك امرأة وأنك بلاشك تعرفين طبيعة المرأة. أخبريني، بشرفك، هل رأيت في حياتك امرأة صادقة ومخلصة؟! أبداً. فقط الكبار منهن وذوات العاهات هن صادقات ومخلصات. من الأسهل أن يجد المرء قطة لها قرون أو دجاجة أرض بيضاء من أن يجد امرأة مخلصة!

السيدة بوبوف : اسمح لي أن أسألك: من هو المخلص في الحب؟ الرجل؟ ربما!

سميرنوف : أجل. إنه الرجل.

السيدة بوبوف : الرجل! (تضحك بسخرية) الرجل مخلص وصادق في الحب؟! أجل إن هذا شيء جديد! (بسخرية لاذعة) كيف توصلت إلى مثل هذه النتيجة؟ الرجال صادقون ومخلصون؟ وبناء لهذا أستطيع أن أقول إن زوجي كان الأفضل بين كل الرجال الذين عرفتهم، لقد أحببته بصدق، بكل جوارحي كما تحب المرأة الشابة الرصينة. منحته شبابي وسعادتي وثروتي وحياتي، عبدته كما يعبد الوثن. وماذا حدث! لقد خدعني هذا الرجل بشتى الوسائل. بعد موته وجدت في مكتبه كثيراً من رسائل الحب. كان يتركني وحيدة لأشهر. إنه لشيء رهيب ومفزع أن أفكر به الآن ـ كان يتبادل الحب مع كثير من النساء وبحضوري أيضاً.

بدّد ثروتي وسخر من مشاعري - ورغم كل هذا فقد وثقتُ به وأخلصت له. وأكثر من ذلك: لقد مات وما زلت مخلصة له. لقد دفنت نفسي بين هذه الجدران الأربعة وسأظل ألبس أثواب الحداد حتى أموت.

سميرنوف : (يضحك دون ابداء الاحترام) ملابس الحداد! بحق الوجود إنك لم تفهميني؟ كأني لا أعرف لماذا لبست هذا البرنس الأسود ودفنت نفسك بين هذه الجدران! هل تعتبرين هذا سرا؟! رومانسية جداً. ولربما يمر فارس بهذه القلعة ويحملق بالشبابيك ويقول في نفسه: هنا ترقد تامارا الغامضة التي دفنت نفسها بين أربعة جدران بسبب حبها لزوجها. آه، لقد فهمتُ مكركِ!

السيدة بوبوف : (تقفز) ماذا؟ ماذا تعني بقولك هذا؟

سميرنوف : لقد دفنت نفسك وأنت حية ولكنك لم تنسي أن تضعي المساحيق!

السيدة بوبوف : كيف تجرؤ على قول هذا الكلام؟

سميرنوف : أرجوك أن لا ترفعي صوتك! فإني لست الوكيل. دعني اسمي الأشياء بأسمائها. إني لست امرأة، ومعتاد أن أقول ما أعتقد به. لذلك أرجوك عدم الصراخ.

السيدة بوبوف : إني لا أصرخ، بل أنت الذي يصرخ. أرجوك أن تتركني وحدي، أرجوك.

سميرنوف : ادفعي لي المال وسأرحل!

السيدة بوبوف : سوف لن أدفع لك المال.

سميرنوف : لن تدفعي؟ لن تدفعي لي مالي؟!

السيدة بوبوف : لا يهمني ماذا ستفعل. لن تحصل على كوبك واحد. ارحل عني.

سميرنوف : إنه لا يشرفني أن أكون زوجك أو خطيبك. أرجوك أن لا تثوري

وتغضبي. (يجلس)

السيدة بوبوف : (تتنفس بصعوبة) هل تريد الجلوس؟

سميرنوف : ها وقد جلست.

السيدة بوبوف : أترك البيت. أرجوك.

سميرنوف : أعطني المال.

السيدة بوبوف : لا أهتم لحديث الرجال الوقحين. أترك البيت. . (فترة صمت) ألست براحل؟

سميرنوف : كلا.

السيدة بوبوف : كلا؟

سميرنوف : كلا.

السيدة بوبوف : حسناً. (تضرب الجرس)

(يدخل لوكا)

السيدة بوبوف : لوكا. أخرج هذا الرجل.

لوكا : (يتقدم من سميرنوف) لماذا لا تترك المكان، أيها السيد، عندما يطلب منك؟ ماذا تريد؟

سميرنوف : (ينهض واقفاً) هل فكرت مع من تتحدث؟ سأدق عنقك.

لوكا : (يضع يده فوق قلبه) يا إلهي! (يصطدم بالكرسي) آه. إنني مريض وأشعر باختناق!

السيدة بوبوف : أين داستا؟ (تنادي) داستا! بلاجيجا! داستا! (تضرب الجرس بعنف)

لوكا : كلهم ذهبوا؟ إنني مريض. ماء. أريد الماء.

السيدة بوبوف : (إلى سميرنوف) أترك المكان وانصرف.

سميرنوف : أرجوك أن تكوني مؤدبة!

السيدة بوبوف : (تضرب بقبضتها وتدق الأرض برجيلها) إنك رجل سوقي، فظ ومتوحش!

سميرنوف : (يخطو نحوها بسرعة) اسمحي لي بسؤالك: كيف تجرؤين على اهانتي؟

السيدة بوبوف : وماذا في ذلك؟ هل تعتقد أنني خائفة منك؟

سميرنوف : هل تعتقدين أنك تستطيعين اهانتي دون عقاب؟ إنني أتحداكِ!

لوكا : بحق السماء! الماء!

سميرنوف : إلى المبارزة.

السيدة بوبوف : هل تعتقد أنني أخافك لأن لك قبضات كبيرة ورقبة كالثور؟

سميرنوف : إني لا أسمح لأحد أن يهينني، ولا أستثنيك لأنك امرأة ومن «الجنس الضعيف».

السيدة بوبوف : (تحاول اهانته) فظ.. جلف.

سميرنوف : لقد حان الوقت لنتخلص من الخرافات القديمة وأن الرجل وحده هو الذي منح البركة والرضى. إذا كان لابد من عدالة، فلتكن العدالة في كل الأمور. ولكن إلى حدود!

السيدة بوبوف : هل تريد المبارزة؟

سميرنوف : حالاً.

السيدة بوبوف : حالاً. كان لزوجي مسدسات. سأحضرهم حالاً. (تخرج مسرعة وتعود) ما أسعد اللحظة التي أصوب فيها رصاصة إلى رأسك. فلتذهب إلى الجحيم.. (تخرج)

سميرنوف : سأقتلها بالرصاص. إني لستُ فرخ طير ولست عاطفياً أو جرو كلب صغير.

لوكا : آه يا سيدي! (يركع تحت قدميه) ارحمني. ارحم رجلاً كبيراً.. وارحل! لقد أفزعتنا كثيرا. والآن تريد المبارزة؟!

سميرنوف : (لا يعيره الاهتمام) مبارزة! تلك هي العدالة والتحرير والخلاص. تلك هي الطريقة التي يتساوى فيها الجنسان. سأقتلها كأمر قانوني. ماذا يستطيع المرء أن يقول لمثل هذه المرأة؟

(يقلدها) «فلتذهب إلى الجحيم. سأصوب رصاصة إلى رأسك الوقح» بماذا يرد على مثل هذا الكلام؟ كانت غاضبة ولمعت عيناها وقبلت التحدي. بشرفي إنها أول مرة أرى فيها امرأة كهذه في حياتي كلها.

لوكا : ارحل يا سيدي.. أرجوك أن ترحل!

سميرنوف : إنها امرأة.. إني أستطيع فهمها. إنها امرأة حقيقية. لا تتردد ولكن انفعال ومساحيق وضجيج! إني أشفق أن أطلق النار على مثل هذه المرأة.

لوكا : (باكياً) آه يا سيدي. أرجوك أن ترحل.

(تدخل السيدة بوبوڤ)

السيدة بوبوڤ : إليك بالمسدسات! لكن قبل أن نبدأ المبارزة أرني من فضلك كيف تطلق النار. إنني لم أحمل مسدساً من قبل!

لوكا : يا إلهي كن رحيماً وأشفق علينا! سأذهب لأبحث عن البستاني والحوذي. لماذا حل بنا هذا الرعب؟ (يخرج)

سميرنوف : (ينظر إلى المسدسات) هناك كما ترين مسدسات متنوعة. هناك مسدسات للمبارزة اثنان منها يكلفان ٩٠ روبلاً على الأقل. هكذا يُحمل المسدس (جانباً) هذه العيون ـ هذه العيون! عيون امرأة حقيقية!

السيدة بوبوڤ : هكذا؟

سميرنوف : نعم. هكذا. ثم اسحبي زند المسدس للوراء وصوبي ـ ارجعي رأسك قليلاً إلى الوراء ثم شدّي ذراعك. من فضلك. هكذا ـ اضغطي باصبعك على هذا هكذا، وهذا كل شيء. الأمر المهم أن لا تضطربي ولا تتسرعي في أخذ هدفك. انتبهي أن لا ترتجف يداكِ.

السيدة بوبوف : إنـه لا يليق أن نطلق النـار هنـا في الـداخـل. دعنـا نـذهب إلى الحديقة.

سميرنوف : أجل. لكني أريد أن أخبرك الآن أنني سأطلق النار في الهواء.

السيدة بوبوف : إنه لأمر رهيب! لماذا؟

سميرنوف : لأن ـ لأن ـ هذا شأني.

السيدة بوبوف : إنك خائف. أجل. ها. ها. ها. كلا. كلا يا سيدي العـزيز. لا تُحجم. أرجـوك. اتبعني. إنني لن أرتاح حتى أطلق النـار على هذا الرأس الذي أكرهه كثيراً. هل أنت خائف؟

سميرنوف : نعم. إني خائف.

السيدة بوبوف : إنك كاذب. لماذا لا تريد المبارزة؟

سميرنوف : لأني ـ لأني ـ أحبك.

السيدة بوبوف : (تضحك وهي غاضبة) تُحبني! إنه يجرؤ أن يقول بأنه يحبني (تشير إلى الباب) هيا. انصرف.

سميرنوف : (يضع المسدس على الطاولة بهدوء. يتناول قبعته ويبـدأ بالسـير. وعند الباب يقف لحظة يحملق بها صامتاً، ثم يقترب منها متردداً) كيف أفسر لكِ نفسي؟ إن الأمر هو هكذا ـ كباقي الأمور ـ (يرفع صوته) والآن هـل هي غلطتي في أنك مـدينة لي؟ (يمسك بمؤخر الكـرسي الـذي كسره) إن الشيـطان يعـرف أن أثـاثـك قـديم ومكسر. إني أحبك. هل فهمت؟ إني ـ إني عاشق ومغرم بكِ.

السيدة بوبوف : انصرف واترك المكان ـ إني أكرهكَ.

سميرنوف : يـا إلهي! ما هـذه المرأة! لم أصـادف في حيـاتي امـرأة مثلهـا! إني ضائع ومحطم! إنني كالفأر في المصيدة!

السيدة بوبوف : انصرف وإلا أطلقت النار عليك.

سميرنوف : أطلقي! إنـك لا تدرين كم تكـون سعادتي إذا مُت أمـام هاتـين

العينـين الجميلتين وأن أمـوت بهذا المسـدس الذي تحملينـه بـين يديك الرقيقتين المخمليتـين! إني مجنون. فكـري ونفذي بسرعـة لأني إذا ذهبت الآن فلن نلتقي ثانية. قرري - تكلمي - إني رجل نبيل ومحترم ولدي مدخول يقدر بعشرة آلاف واستـطيع أن أطلق النار على قـطعة نقـدية وهي تسبـح في الفضاء. وعنـدي الخيول الجميلة. هل تقبلين بي زوجاً؟

السيدة بوبوف : (تلوح بالمسدس وهي غاضبة) سأطلق النار!

سميرنوف : إن فكري مشوش ولم أعد أستوعب! أيها الخادم. إلي بالماء. لقد وقعت أسير الحب كالشبان. (يمسك بيدهـا - تصرخ متألمـة) إني أحبك! (يركع) إني أحبك كمن لم يحب من قبـل. اثنتا عشرة امرأة خنني وخنتُ تسعاً منهن ولكني لم أحب واحدة منهن مثلك. إني أسير حبك. إني ضـائع وراكـع تحت قدميـك كالأبله يـطلب يدك. يا للعار ويا للخجـل! لم أقع في حبـائل الحب منـذ خمس سنـوات. شكراً لله عـلى ذلك. لقـد اصـطادني الحب الآن. إني أشبه بالعربة التي تشدها عربة ثـانية. أرجـوك أن تقبلي. نعم أو لا؟ أرجوكِ. .

(يقف ويذهب إلى الباب بسرعة)

السيدة بوبوف : انتظر لحظة!

سميرنوف : (يتوقف) حسناً.

السيدة بوبوف : لا شيء - يمكنـك الذهـاب. . لكن انتظر لحـظة. كلا. اذهب. إني أكـرهك. . كـلا. لاتذهب. آه. لـو تعرف كم أنـا غاضبـة كم. . (تـرمي المسـدس عـلى الكـرسي) لقــد ورم اصبعي من المسدس. (تمزق منديلها بغضب) لماذا تقف؟ ماذا تنتظر؟ هيا. . أخرج.

سميرنوف : وداعاً.

السيدة بوبوف : نعم. اذهب (تصرخ عالياً) لماذا تذهب؟ انتظر. . كلا. . اذهب. آه كم أنا غاضبة! لا تقترب. . لا تقترب كثيراً. - تعال - لا تقترب.

سميرنوف : (يقترب منها) كم أنا غاضب من نفسي! لقد أحببت كما يحب أولاد المدارس. ورميت بنفسي على ركبتي. إني أشعر بالقشعريرة! (بقوة) إني أحبك! هذا رائع. وكل ما أنا بحاجة إليه أن أقع أسير الحب. عليّ أن أدفع الفوائد غداً. لقد بدأ الحصاد وظهرت أنتِ (يضمها بين ذراعيه) لا أستطيع أن أعفي نفسي من الدّيْن!

السيدة بوبوف : اغرب عن وجهي! أبعد يداك عني! إني أكرهك. . أكرهك (قبلة طويلة)

(يدخل لوكا وبيده فأس والبستاني بيده رفش وسائق العربة بيده مذراة وعدد من العمال يحمل كل منهم عصا غليظة)

لوكا : (يحملق بالاثنين) أيتها السموات الرحيمة! (فترة صمت طويلة)

السيدة بوبوف : (تذرف الدمع من عينها) أخبرهم في الاسطبل أن يتوقفوا عن تقديم الشوفان إلى توبي.

ـ تُسدل الستّارة ـ



الخطبــــة

مسرحية من فصل واحد

• بقلم الكاتب المسرحي الروسي أنطون تشيخوف
١٨٦٠ ـ ١٩٠٤

ترجمـة : حصـة المنيـف

شخصيات المسرحية :

ـ ستيبان ستيبا نوفيتش تشوبوكوف ـ ملاك أراضي

ـ ناتاليا ستيبا نوفنا (ناتاشا) ـ ابنته ـ عمرها ٢٥ عاما .

ـ إيفان فاسيليفيتش لوموف ـ ملاك أراضي وجار لتشوبوكوف . شخص حسن البنية ، يتمتع بصحة جيدة ، ولكنه مصاب بتوهم المرض .

تجري الأحداث في مزرعة تشوبوكوف

* * *

(غرفة الجلوس في بيت تشوبوكوف . تشوبوكوف جالسا ، يدخل عليه لوموف وهو يرتدي ثياب السهرة وقفازات بيضاء) .

تشوبوكوف : (مندفعا لاستقباله) صديقي العزيز ... أهلا بك . لا أصدق عيني يا إيفان فاسيليفتش ، إنني في غاية السعادة (يصافحه) . مفاجأة حقة ياولدي العزيز! كيف أنت ؟

لوموف : شكرا لك ... وكيف حالك أنت ؟ .

تشوبوكوف : أحوالنا ، لا بأس ياعزيزي ، بفضل دعواتك وما إلى ذلك . تفضل

بالجلوس .. لقد نسيت جيرانك مع الأسف أيها الصديق القديم ! ولكن لم هذه الرسميات ياعزيزي ؟ بدلة سهرة ، وقفازات .. كل هذه الملابس .. هل تذهب لزيارة أحد أو ما إلى ذلك يافتاي العزيز ؟ .

لوموف : لا بل جئت لرؤيتك ياعزيزي ستيبان ستيبانوفيتش .

تشوبوكوف : لماذا ترتدي إذن ثيـــاب السهرة يافتاي العزيز وكأنما تقوم بزيارة رسمية بمناسبة عيد ؟ ....

لوموف : أتيت فـــي الحقيقة (يمسك بيده) طالبـا منك معروفـا ياسيدي العزيز ستيبـان ستيبــــانوفيتش ، إن كان هذا لا يزعجك كثيرا ... لقد سمحت لنفســي بأن أطلب مساعدتك أكثر من مرة في الماضــي ، وأنت ، كمـا يمكننــي القول .... ولكن أرجو أن تســامحني فأنا مشوش ومضطرب .... سأشرب قليلا من المــاء ياعزيزي ستيبــان ستيبــــانوفيتش (يشرب الماء) .

تشوبوكوف : (يحادث نفسه) يريد أن يطلب مـــالا ، ولكننــي لن أعطيه أي مـال . (مخاطبا لوموف) ما الأمر ياصديقي الشاب ؟ .

لوموف : كما ترى ياعزيزي ستيبان ستيبانوفيتش ، سامحني يـــاستيبان العزيز ، أعني أنني متوتر ـ كمـــا ترى . بـاختصار أنت الرجل الوحيد الذي يمكنه أن يساعدني على الرغم من أننـي لم أفعل ما يؤهلنـي لذلك ، وليس من حقي أن أطمع بمثل هذه المساعدة .

تشوبوكوف : هيا ، تكلم ولا تمطمط في الكلام ياولدي العزيز . تكلم ...

لوموف : *حسنـــا ، حسنا .. سأطرق الموضوع مباشرة .. جئت في الحقيقة طالبا يد ابنتك ناتاليا ستيبانوفنا ...*

تشوبوكوف :(بسرور بالغ) إيفان فاسيليفتش ، يا أعز الأصدقاء ، قلها ثانية ، إذ أنني لم أسمعك تماما ....

لوموف : لي الشرف بأن أطلب ...

تشوبوكوف (مقاطعا) : يابني العزيز .. كم أنا مسرورٌوما إلى ذلك .. (يعانقه ويقبله) كنت أتمنى ذلك منذ وقت طويل ، فهذه كانت أمنيتي دوما (يذرف دمعة) . فقد كنت دائما أحبك كما لو أنك كنت ابنا لي ، ياأعزالأصدقاء .. فليسبغ عليكما الله تعالى ثوب الحب والوئام ، وما إلى ذلك .. وبالنسبة لي فلطالما تمنيت ....

ولكن ، لماذا أقف هنا كالأبله ؟ لقد أذهلتني السعادة وصعقتني بالفعل ، أجل ، بكل سرور ومن كل قلبي .. ، سأذهب وأدعو ناتاشا وما إلى ذلك ...

لوموف (منفعلا) : ولكن ماذا تتوقع منها أن تقول يا ستيبان ستيبانيتش ؟ هل أطمع بموافقتها ؟ .

تشوبوكوف : ألا توافق عليك ؟ وأنت وسيم الشكل أيضا ! أراهن بأنها غارقة في حبك حتى أذنيها وما إلى ذلك ... سأخبرها فورا (يخرج) .....

لوموف (وحده) : أشعر بالبرودة .. جسمي كله يرتعش وكأنني مقدم على دخول امتحان ... المهم أن أقرر . فإذا ما استغرقت في التفكير طويلا ومضيت تتكلم وتتردد وتنتظر المرأة المثالية أو الحب الحقيقي فلن تتزوج على الإطلاق . برد ... أشعر بالبرد . ناتاليا ستيبانوفنا ربة بيت ممتازة ، ومتعلمة وشكلها ليس سيئا .. فماذا أريد أكثر من ذلك ؟ ولكنني أشعر بأصوات تملأ رأسي . (يشرب بعض الماء) علي ألا أبقى عازبا .. أولا ، لقد بلغت الخامسة والثلاثين ، وهذه سن حرجة كما يمكن القول . وثانيا ، على أن أعيش

حيـــاة مرتبة منظمة ، فأنـــا أعانـــي من مرض في القلب وخفقان مستمر .. تنتـــابني هبـــات ســـاخنة بسرعة ، وأهتاج بصورة مرعبة باستمرار . والآن ترتعش شفتـــاي وجفنـــي الأيمن يرف ... وأسوأ شيء هو نومي ، إذ ما أن استلقي في السرير وأغرق في النوم ببطء حتى أشعر بشيء يطعنني في جنبي الأيسر . طعنة ! ثم ما تلبث أن تمتد مخترقة كتفـــي لتصل إلى رأسي ، فأقفز كالمجنون وأتمشى لفترة ، ثم أرقد من جديد .. أغفو مباشرة ، ولكنهـــا تخترق جنبي من جديد ـ طعنة ! ويتكرر هذا الأمر عشرين مرة ، مرة بعد أخرى ....

(تدخل ناتاليا)

ناتاليا : أهذا أنت ؟ وبابا يقول لـــي هنالك زبون حضر طالبـــا البضاعة . كيف حالك يا إيفان فاسيليفتش ؟

لوموف : كيف حالك ياعزيزتي ناتاليا ستيبانوفنا ؟

ناتاليا : اعذرنـــــي لأننـــي أضع هذا المئزر (المريـــــول) ، ولست أرتـــدي الملابس المناسبة ، إذ أننـــا نفصفص البـــازيلاء لتجفيفهـــا . ولكن لماذا انقطعت عنـــا لفترة طويلة .. تفضل بالجلوس .

(يجلســــــــان)

هل تتناول معنا طعام الغداء ؟

لوموف : لا شكرا ، فقد تناولت لتوي طعام الغداء .

ناتاليا : ألا تدخن ؟ هذا هو الكبريت . يوم رائع ، ولكن المطر هطل بغزارة يـــوم أمس بحيث أن الشغيلة لم يقوموا بأي عمل على الإطلاق طوال اليـــوم . كم كومة من القش استطعتم إدخالهـــا ؟ أتصدق أننـــي أصريت علـــى قص الحشيش كله من المرعى ، وهـــا أنـــا الآن أتأسف ـ أخشى أن يتعفن القش كله . كان من الأفضل

لنا لو انتظرنـــا . ولكن ما كل هذا ؟ إنك ترتدي ثياب السهرة فيما أظن ، وهذا شيئ جديد . هل أنت ذاهب إلى حفلة أو ما إلـى ذلك ؟ بـالمنـاسبة ، لقد تبدلت وتبدو في صحة جيدة ، ولكن لماذا ترتدي هذه الملابس حقا ؟ .

لوموف (مهتاجا) : لقد قررت في الواقع .. كما ترين ياناتاليـا ستيبانوفنا ، أن أطلب منك .. اسمعـي .. ستستغربين بالطبع ، وقد تغضبين .. ولكنني ، (يحادث نفسه) ما هذا البرد الفظيع ! ..

ناتاليا : ماذا هنالك ؟ (تتوقف) حسنا !

لوموف : سأختصر .. لقد كان لـي الشرف كمـا تعرفين بالطبع ، ياعزيزتي ناتاليا ستيبانوفنا ، أن أعرف عائلتك منذ وقت طويل ـ منذ طفولتي في الواقع . ولقد كانت عمتـي وزوجهـا ـ اللذان ورثت عنهما ضيعتي هذه ـ يكنان لوالدك وللمرحومة والدتك كل الاحترام . وكانت عائلتـا لوموف وتشوبوكوف تكنان لبعضهما البعض كل الود بل يمكن القول إن علاقاتهما كانت دائمـا وثيقة . كما أن أرضي ، كما تعرفين ، قريبة من أرضكم . وقد تذكرين بأن مراعينـا المسماة فولفوي ، محاذية لغابة البتولا التي تملكونها .

ناتاليا : عفوا ، لا بد لـي من أن أقاطعك .. تقول مراعينا فولفوي ، ولكن هل هـي لك في الواقع ؟ .

لوموف : أجل ! هي لي .

ناتاليا : حسنا ! وماذا بعد ذلك ! هذه المراعي لنا ، وليست لك ! .

لوموف : كلا ، بل هي لي ياعزيزتي ناتاليا ستيبانوفنا .

ناتاليا : هذه خبرية لم أسمعها من قبل ! وكيف حدث أنها لك ؟

لوموف : ماذا تقصدين بـ " كيف " . إننـي أتحدث عن مراعـي فولفوي التـي تمتد

كاسفين بين غابة البتولا والمستنقعات المحروقة .

ناتاليا : أجل ، طبعا ! ولكنها لنا .

لوموف : لا ، إنك مخطئة ياعزيزتي ناتاليا ستيبانوفنا ، بل هي لي .

ناتاليا : كن عاقلا يا إيفان فاسيليفتش ! منذ متى تملكها ؟ .

لوموف : ما معنى " منذ متى : ؟ منذأتذكر وهي لنا ! .

ناتاليا : اسمح لي بألا أوافقك بالنسبة لهذه النقطة .

لوموف : يمكنك أن تتأكدي من ذلك من الصكوك يا عزيزتي ناتاليا ستيبانوفنا . صحيح أن تلك المراعي كانت محل نزاع لبعض الوقت ، إلا أن الجميع يعرفون الآن أنهـا لي ، ولا حاجة للمجادلة حول الموضوع . يمكنني أن أفسر ذلك ، إذ أن جدة عمتـي سلمت هذه المراعـي لفلاحي والد جدك كي يستعملوها مجانا ، لمدة غير محدودة لقـاء قيامهم بشـي الآجر لهـا . وقد استخدم فلاحو والد جدك هذه المراعـي دون إيجار لمدة أربعين سنة ، أو حول ذلك ، وتعودوا أن يعتبروها لهم ... وحين تم التوصل إلى تسوية بعد تحرير ....

ناتاليا : ولكن الأمر لم يكن كذلك ، فجدي ووالد جدي كانا يعتبران أملاكهما ممتدة حتى المستنقعـات المحروقة ، ولذا فـإن مراعي فولفوي لا بد أن تكون لنـا .. فلم المجادلة في ذلك ؟ لا أستطيع أن أفهمك ، وهذا أمر يبعث على الغيظ .

لوموف : سأريك الصكوك ياناتاليا ستيبانوفنا ! .

ناتاليا : لا شك أنك تمزح ، أو تحاول إثارتـي ... إنها مفاجأة في الحقيقة ، فنحن نملك الأرض منذ ثلاثمائة سنة أو حول ذلك ، ليأتي أحدهم بعد ذلك ويعلن أنها ليست لنا ! اعذرني ياستيبان فاسيليفتش ولكننـي لا أكاد أصدق أذني ... لا قيمة لهذه المراعي في نظري ، فهي لا تتجاوز في مساحتها الخمسة عشر فدانا ، وقيمتها

لاتتعدى الثلاثمائة روبل . ولكن الظلم هو الذي يثير اشمئزازي . يمكنك أن تقول ما تريد ، ولكنني لا أستطيع تقبل الظلم !.

لوموف : اسمعيني أرجوك ! فلاحو والد جدك ، كما تشرفت بأن أبين لك ، كانوا يشوون الآجر لجدة عمتي . وحرصا من جدة عمتي على أن تقدم لهم شيئا لقاء ذلك ....

ناتاليا : جد .. جدة ... عمة ... لست أفهم شيئا من ذلك ! المراعي لنا ، وهذا هو كل ما في الأمر !

لوموف : هي لي !

ناتاليا : بل هي لنا ! يمكنك أن تحاول إثبات ما تريد لمدة يومين متتاليين ، ويمكنك أن ترتدي خمس عشرة بدلة سهرة إن أحببت ، ولكن الأرض ستظل لنا .. لنا .. لنا ! لست أريد اغتصاب ما تملك ، ولكنني لا أرغب كذلك بفقدان ما هو لي ، وأنت وشأنك !

لوموف : لا أريد المراعي يا ناتاليا ستيبانوفنا ، ولكن القضية قضية مبدأ ، ويمكنني في الواقع أن أتنازل عنها كهدية لك ! .

ناتاليا : ولكنني أنا التي يمكنها أن تقدمها كهدية ـ لأنها لي ! ...... وكل ما يمكنني قوله إن القضية كلها غريبة كل الغرابة يا إيفان فاسيليفتش . لقد كنا نعتبرك حتى الآن نعم الجار والصديق . وفي السنة الفائتة أعرناك الدراسة ، وبسبب ذلك لم نستطع إتمام دراسة الذرة لدينا حتى شهر نوفمبر . وها أنت الآن تعاملنا كما لو كنا غجرا ! تقدم أرضي هدية لي ! .... عذرا ، ولكن هذا لا يتفق مع سلوك حسن الجيرة ، بل هو في رأيي يصل إلى حدود التطاول إن أردت الحقيقة ! .

لوموف : تريدين القول إنني مغتصب ؟ ولكنني لم أسرق أرض أحد قط ياسيدتي ، ولن أسمح لأي إنســان بأن يتهمنــي بذلك .. (يتوجه إلى الإبريق ويشرب بعض الماء) .. مراعي فولفوي لي ! .

ناتاليا : هذا غير صحيح ، فهي لنا !.

لوموف : بل إنها لي ! .

ناتاليــا : غير صحيح ، وسأثبت لك ! سأرسل الشغيلة ليقصوا العشب منهــا هذا اليوم بالذات ! .

لوموف : ماذا قلت ؟ .

ناتاليا : شغيلتنا سيعملون هناك هذا اليوم !

لوموف : سأطردهم !

ناتاليا : لن تجرؤ على ذلك !

لوموف : (ينبش أظفاره في صدره) المراعي لي ، ألا تفهمين ؟ لي ! .

ناتاليا : لا تصرخ رجاءا ! يمكنك أن تصرخ وتختنق بغضبك كما يحلو لك حين تكون في بيتك . أما هنا فعليك أن تلزم حدودك !.

لوموف : لولا هذا الخفقان المؤلم المريع ياسيدتي .... ولولا هذا النبضان فــي صدغي لخاطبتك بأسلوب آخر ! (يصرخ) المراعي لي !

ناتاليا : لنا

لوموف : لي

ناتاليا : لنا

لوموف : لي

(يدخل تشوبوكوف)

تشوبوكوف : ما الأمر ؟ لماذا تصرخ ؟

ناتاليا : بابا ، أرجو أن تبين للسيد من يملك مراعي فولفوي ، هو أم نحن ؟

تشوبوكوف (للوموف) : المراعي لنا ياسيدي العزيز .

لوموف : اسمح لـي يا ستيبـان ستيبـانيش ! كيف تقول إنهـا لكم ؟ أرجو أن تكون منطقيا ، فجدة عمتـي تنازلت عن المراعي لفلاحي جدك لكي يستخدموها ، ودون مقـابل . وقد استخدم الفلاحون الأرض لمدة أربعين عاما ، واعتادوا على أن يعتبروها لهم . ولكن حين تمت المصالحة .

تشوبوكوف : عفوا ياصديقي ، ولكنك نسيت بأنه نظرا لوجود نزاع وما إلـى ذلك بشأن المراعي ، لم يدفع الفلاحون إيجارا لجدتك وغير ذلك . والآن يعرف كل كلب بأنها لنا ـ أجل بالطبع ـ لا يمكن أن تكون قد رأيت المخططات .

لوموف : سأثبت لك بأنها لنا !

تشوبوكوف : لن تثبت ذلك يا عزيزي

لوموف : بل سأفعل !

تشوبوكوف : ولكن لماذا تصرخ يا بني العزيز ؟ لن تثبت شيئا بالصراخ ! . لا أريد ما تملكه ، ولكني لا أنوي التخلي عما هو لي ! ولماذا أفعل ؟ إذا وصلت الأمور إلـى هذا الحد وفكرت في منازعتنا بشأن هذه المراعي وما إلى ذلك ، فإنني أفضل أن أهديها للفلاحين وليس لك . وهذا هو آخر كلام لدي !

لوموف : لست أفهم ذلك ! كيف تعطي نفسك الحق بأن تتنازل عن ملكية شخص آخر !

تشوبوكوف : أرجو أن تسمح لـي بـأن أقرر بنفسي فيما إن كنت أملك هذا الحق أم لا ! ثم إنني غير معتـاد ، أيها الشاب العزيز ، على أن يوجه إلي الكلام بهذه

اللهجة وما إلى ذلك .. إن عمري ضعف عمرك أيها الشاب ، وأرجو أن تتكلم دونما انفعال وما إلى ذلك !

لوموف : لا ! إنك تفترض أنني غبي وأنك تستطيع أن تهزأ بي . تدعي ملكية أرضي وتفترض بي بعد ذلك أن أحافظ على برودي ، وأن أخاطبك بالطريقة العادية . الجيران الجيدون لا يتصرفون بهذه الطريقة يا ستيبان ستيبانيتش ! إنك لست جارا بل مغتصبا ! .

تشوبوكوف : ماذا ! ماذا قلت ؟

ناتاليا : بابا ، أرسل الشغيلة ليقصوا العشب في المراعي في الحال ! .

تشوبوكوف (للوموف) : ماذا قلت ياسيدي ؟

ناتاليا : مراعي فولفوي لنا ، ولن أتخلى عنها ! لا .. لا !

لوموف : سنرى ! سأثبت لكم أمام المحكمة أنها لي !

تشوبوكوف : في المحكمة ؟ سترفع الأمر للقضاء وما إلى ذلك ياسيدي ؟ ستفعل ذلك ، وأنا أعرفك وأعرف أنك تنتظر في الواقع الفرصة المواتية للوقوف أمام القضاء وما إلى ذلك . أمر من طبيعتك .. هذه الشكوى والتظلم ، فلدى عائلتك نقطة الضعف هذه ، وهي الميل للمنازعات والمقاضاة . كل أفراد عائلتك ! .

لوموف : لا تشتم عائلتي رجاء ، فآل لوموف كانوا دوما قوما شرفاء ولم يقف أي منهم أمام المحكمة ، شأن عمك ، متهما بعدم الأمانة والتصرف بمال كان لديه كوديعة !

تشوبوكوف : أفراد عائلة لوموف كانوا دوما مجانين . كل فرد فيهم !

ناتاليا : كل فرد فيهم ... كل فرد !...

تشوبوكوف : جدك كان سكيرا بعــاقر الخمر ، وأصغر عمــاتك ناستاسيا ميخايلوفنا ـ وهذا أمر واقع ـ هربت مع مهندس معماري . وكان ما كان !

لوموف : وأمك كانت مشوهة ! (ينبش أظفاره فـي صدره) . هذا الألـم الحارق فـي جنبي ! الدم يندفع إلى رأسي ... يا ربي .. ماء !

تشوبوكوف : أبوك كان مقامرا نهما ، لا يشبع !

ناتاليا : وعمتك كانت مغرمة بتحري الشائعات ـ من طراز نادر المثال !

لوموف : ساقي اليسرى شلت ... إنك إنسان غدار .. ياإلهي .. قلبي ! والسر المفضوح أنك قبل الانتخابات ... ومضات تشتعل أمام عيني .... أين قبعتي ؟ .

ناتاليا : أمر خسيس وشائن !.. قضية شنيعة تماما !

تشوبوكوف : وأنت إنسان وضيع ، حقود وذو وجهين ! أجل ، إنك كذلك !

لوموف : هذه قبعتي ... قلبي .... من أين أخرج ؟ أين الباب ؟ يا إلهـي ! إننـي أموت فيما أعتقد .. ساقاي خائرتان !(يمشي باتجاه الباب) .

تشوبوكوف : (يصرخ وراءه) لن أسمح لك بدخول بيتي ثانية ! .

ناتاليا : اذهب إلى المحكمة ! وسنرى !

(يخرج لوموف وهو يترنح)

تشوبوكوف : فليذهب إلى الجحيم (يتمشى مهتاجا) .

ناتاليا : هل رأيت في حياتك مثل هذا الغلام السخيف ؟ ثق بجيرانك بعد الآن .!

تشوبوكوف : لعين مضحك ! نذل !

ناتاليا : وحش ! يستولي على أرض الآخرين ثم يجرؤ على شتمهم !

تشوبوكوف : وهذا العجيبة المضحك الذي تنبو العين عن رؤيته ، لديه من الوقـاحة مـا يحمله علـى المجيء إلى هنا خاطبا ، وما إلى ذلك ! هل تصدقين هذا ؟

يتقدم خاطبا !!

ناتاليا : أية خطبة ؟

تشوبوكوف : أجل ، تخيلي ذلك ! جاء يخطبك .

ناتاليا : يخطب ؟ يخطبني ؟ أنا ؟ ولكن لماذا لم تخبرني بذلك ؟ .

تشوبوكوف : ولهذا جاء ببدلة السهرة . كأنه أصبع نقانق أو برغوث البحر !

ناتاليا : لي ؟ خطبة ؟ يا إلهي (تتهالك على أحد المقاعد وتتأوه) .

أعده ! أعده ! يا إلهي ! أعده إلى هنا !

تشوبوكوف : أعيد من ؟

ناتاليا :أسرع ـ أسرع .. يكاد يغمى علي .. أعده إلى هنا ! (تصرخ بهستيريا) .

تشوبوكوف : مـــا بك ؟ ماذا تريدين (يمسك رأسه بيديه) يا لبؤســـي ! سأطلق على رأسي الرصاص ! سأشنق نفسي ! لقد ذوبوني !

ناتاليا : إنني أموت أعده إلى هنا !

تشوبوكوف : أف !.. فوراً ! لا تصرخي (يخرج راكضا) .

ناتاليا (وحدها تتأوه) : ماذا فعلنا ؟ أعده ! أعده !

تشوبوكوف (يدخل راكضا) : إنه قـادم في الحال ، وما إلى ذلك ، فليأخذه الجحيم ! يا إلهي ، كلميه أنت ، أما أنا فلا أريد ذلك على الإطلاق !

ناتاليا (تتأوه) : أعده !

تشوبوكوف : (يصرخ) : قلت لك إنه قـــادم ! يا إلهي ، ما أصعب أن تكون أبا لابنة صبية ! سأحز عنقـــي ! أجل سأقطع رقبتـــي ! لقد شتمنا الرجل وأهنـاه وطردناه ، وكل هذا بسببك ! أنت التي فعلت ذلك !

ناتاليا : لا ، بل أنت !

تشوبوكوف : فالغلطة غلطتي إذن ! ماذا بعد ؟ .

(يدخل لوموف)

لوموف : (منهكا) : هذا الخفقـــان المريع ، أشعر بتنميل فـــي ساقي وبألم حارق في جنبي .

ناتاليا : سامحنا ، فقد تسرعنـــا بعض الشيء يا إيفـــان فاسيليفتش . إننـــي أتذكر الآن ، فمراعي فولفوي هي لك في الواقع .

لوموف : قلبي يضرب بسرعة رهيبة ... المراعي لي ... جفناي يرفان كلاهما ..

ناتاليا : أجل ، هي لك ، لك ... اجلس .

(يجلســـــــان)

كنا على خطأ !

لوموف : القضية بالنسبة لي قضية مبدأ ، أما الأرض فلا قيمة لها بالنسبة لـي ، بل هو المبدأ .

ناتاليا : أجل ، المبدأ ! فلنتحدث حول موضوع آخر .

لوموف : خاصة وأن لدي الإثباتات ... فجدة عمتي تنازلت لفلاحي والد جدك ...

ناتاليا : كفى كفى حديثـــا حول هذا الموضوع (جانبـــا) لست أدري كيف أبدأ ! (موجهة الكلام له) هل ستذهب قريبا للصيد ؟

لوموف : أتوقع أن أذهب لصيد القطا بعد الحصاد ياعزيزتي ناتاليا ستيبانوفنا . ولكن ، أتدرين ؟ تخيلـــي سوء حظـــي ، فكلبـــي " ترابر " أصبح كسيحا يعرج في مشيته .

ناتاليا : مع الأسف ! وما السبب ؟ .

لوموف : لا أدري ! ربمـــا انخلع مخلبه ، أو عضته كلاب أخرى (يتنهـــد) . أفضل

Scanned with CamScanner

كلابـــي ، يضاف إلـى ذلك الثمن الذي دفعته للحصول عليــه . فقد دفعت لميرونوف ، كما تعرفين ، مائة وخمسة وعشرين روبلا ثمنا له .

ناتاليا : إنه ثمن باهظ يا إيفان فاسيليفتش .

لوموف : أجل ، ولكنني أعتقد أنه كان رخيصا ، فهو كلب رائع !!

ناتاليا : لقد دفع والدي خمسة وثمانين روبلا ثمنا لكلبه " فلاير " ، وهو أفضل بكثير من كلبك " ترابر " !

لوموف : فلاير أفضل من ترابر ! لا تغلطي (يضحك) فلاير أفضل من ترابر !

ناتاليا : بالطبع أفضل ، وعلــى الرغم من أن فلاير مازال حديث السن ـ فهو لم يستكمل نموه بعد ككلب ـ إلا أنه لا مثيل له بحذقه . كما أن قدرته علــى تحديد الطريدة لايتفوق عليه فيها أي كلب آخر حتى بين كلاب فولتشاتيتسكي ! .

لوموف : عفوا يا ناتاليا ستيبانوفنــا ، ولكنك تتناسين أن فكه أخنس ! وأي كلب له فك أخنس لا يستطيع أن يقبض على الطريدة كما يجب !

ناتاليا : فكه أخنس ؟ ! هذه أول مرة أسمع فيها مثل هذا الكلام !

لوموف : أؤكد لك بأن فكه الأسفل أقصر من فكه الأعلى !

ناتاليا : هل قسته ؟

لوموف : أجل ، إنه جيد فيمـــا يتعلق بالمطاردة ! أما حين يأتي أوان اقتناص الطريدة فهو لا يكاد يكفي للقيام بالمهمة المطلوبة .

ناتاليا : ولكن كلبنـــا أولا ينحدر من سلالة معروفة ـ فهو ابن هـــارنس وشيزيل ـ في حين أن جلد كلبك مرقط بالألوان بحيث لا تستطيع أن تخمن من أي صنف هو. ثم إنه عجوز وبشع وكأنه عجوز شمطاء !.

لوموف : إنــه متقدم في السن ، ولكننــي لن استبدله بخمسة من طراز كلبكم فلاير ! لن

أفعل ! فترابر كلب حقيقي . أما فلاير ... غير أن من السخف لي أن أمضي في هذا الجدل ، فكل صياد لديه عدد لا يحصى من الكلاب من طراز كلبكم ، وخمسة وعشرون روبلا تعتبر مبلغا كبيرا كثمن له ! .

ناتاليا : التناقض في كلامك رهيب هذا اليوم يا إيفان فاسيليفتش . إذ ادعيت أولا أن المراعي لك ، والآن تقول إن كلبك ترابر أفضل من كلبنا فلاير . لا يعجبني في الحقيقة أن يقول الناس عكس ما يعتقدون به في الواقع . إنك تعرف تمام المعرفة في نهاية المطاف أن فلاير أفضل بمائة مرة من كلبك ، حسنا ، الغبي ترابر . فلماذا تقول عكس ذلك ؟ .

لوموف : إنك فيما أرى يا ناتاليا ستيبانوفنا تظنينني أعمى أو غبيا . ألا تعرفين أن لكلبكم فلاير فكا أخنس ؟

ناتاليا : هذا غير صحيح !

لوموف : بل له فك أخنس !

ناتاليا : (تصيح) هذا غير صحيح !

لوموف : ولماذا تصرخين ياسيدتي ؟!

ناتاليا : ولماذا تتكلم كلاما فارغا ؟ إنه أمر مقزز ، ولقد آن الأوان لكلبك كي يرمى بالرصاص ، ومع ذلك فأنت تقارنه بفلاير !

لوموف : عذرا ، ولكنني لا أستطيع أن أمضي في هذا الجدل ، بسبب ما لدي من خفقان !

ناتاليا : من الغريب ، كما ألاحظ ، أن أقل الناس معرفة بأمور الصيد ، هم أكثر جدلا في هذا الأمر !

لوموف : صمتا ياسيدتي ، قلبي ينفجر (يصرخ) اهدئي !

ناتاليا : لن أهدأ إلا حين تعترف بأن فلاير أفضل بمائة مرة من ترابر !

لوموف : بل هو أسوأ منه بمائة مرة ، ولقد آن الأوان لكلبكم هذا أن يموت . آه !
رأسي ! عيناي ! كتفي !

ناتاليا : أما أنا فلا أتمنى الموت لكلبك المعتوه ترابر ، فهو نصف ميت بالفعل .

لوموف : (باكيا) اهدئي ! قلبي يكاد ينفجر !

ناتاليا : لن أهدأ .

(يدخل تشوبوكوف)

تشوبوكوف : والآن ، ما الأمر ؟

ناتاليا : بابا ، قل بصراحة وبشرفك أيهما أفضل ، كلبنا فلاير أم كلبه ترابر ؟ .

لوموف : أتوسل إليك ياعزيزي ستيبان ستيبانوفيتش أن تقول رأيك بشيء واحد . فك
كلبك فلاير ، هل هو أخنس أم غير أخنس ؟ نعم أم لا ؟ .

تشوبوكوف : حسنا ، وماذا في ذلك ؟ وكأن لهذا أية أهمية ! على أية حال ليس هناك
كلب في المنطقة كلها أفضل منه وما إلى ذلك .

لوموف : ولكن كلبي ترابر أفضل منه ، أليس كذلك ؟ بشرفك !

تشوبوكوف : لا تنفعل ياولدي العزيز ، واسمح لي أن أشرح الأمر لك . إن لكلبك
ترابر ميزاته ، فهو من نسل جيد وسيقانه قوية وبنيته جيدة وكل ما إلى
ذلك ، إلا أن لديه نقطتي ضعف اثنتين إذا سمحت لي ، فهو متقدم في
السن وأنفه أفطس .

لوموف : عفوا ، إن لدي خفقان .. ولكن فلنواجه الحقائق ... قد تتذكر بأننا حين كنا
نصيد في حقول ماروسكين كان ترابر يجري جنبا إلى جنب مع " سبوتر " ،
كلب الكونت ، بينما كان كلبك فلاير متخلفا لمسافة نصف ميل خلفهما .

تشوبوكوف : لقد تخلف لأن صيادي الكونت ضربوه بالسوط .

لوموف : كان يستحق الضرب ، فكل الكلاب كانت تلاحق الثعلب بينما أخذ فلاير يزعج الغنم .

تشوبوكوف : غير صحيح ! إنني أفقد أعصابي بسرعة ، ولذا أتوسل إليك أن تكف عن هذا الجدل . فقد ضربه هذا الصياد لأن الناس يغارون من كلاب غيرهم . أجل ، فكل واحد يكره كلاب الآخر ، وأنت ياسيدي غير بريء من ذلك . فما أن تلاحظ مثلا أن كلب شخص آخر أفضل من كلبك ترابر حتى تبدأ في التصرف بطريقة أو أخرى ، وما إلى ذلك .. هل ترى ؟ إنني أتذكر كل ما تفعله !

لوموف : وأنا أيضا !

تشوبوكوف : (يقلده) وأنا أيضا ! وماذا تتذكر ؟

لوموف : خفقان ... ساقي شلت .. لا أستطيع !

ناتاليا : (تقلده) خفقان !أي صياد أنت ؟ لا يليق بك إلا أن تستلقي فوق المدفأة في المطبخ لتفقس الصراصير والخنافس بدلا من صيد الثعالب ! خفقان فعلا !

تشوبوكوف : أجل صحيح ، فالصيد ليس على الإطلاق من شأنك وأنت تعاني من الخفقان وما إلى ذلك .... فالأفضل لك أن تلزم بيتك بدلا من أن تمتطي ظهر جواد يتقاذفك ويتنرك من جانب إلى آخر . لو أنك تصيد في الواقع لهان الأمر ، ولكنك تخرج للصيد كي تتمكن من المجادلة فحسب ، أو لتعوق طريق كلاب الآخرين وكل ما إلى ذلك ! إنني أنفعل بسرعة ، لذا علينا أن نكف عن هذا الحديث . كل ما في الأمر أنك لست بصياد ، وهذا هوكل ما هنالك !...

لوموف : وماذا بشأنك ـ هل أنت صياد ؟ ـ إنك تخرج للصيد لتتزلف للكونت وتتمسح به وتدس على الآخرين ! آخ ، قلبي ! إنك غدار .

تشوبوكوف : ماذا ـ أنا غدار ؟ (يصرخ) اصمت !

لوموف : غدار .!

تشوبوكوف : إنسان خرع ! جرو متعنفص !

لوموف : جربوع عجوز ! منافق !

تشوبوكوف : حافظ علـى ألفاظك ، وإلا قتلتك ببندقية صدئة ، وكأنك مجرد حجلـة ! طبل ثرثار !

لوموف : كل النـاس تعرف ـ آخ قلبـي ـ بأن زوجتك كانت تضربك ... رجلـي ... رأسي ... ومضات تبرق أمام عيني ... أكاد أقع أرضا .. إنني أقع ...

تشوبوكوف : أما أنت فمدبرة منزلك تحركك بإبهامها !

لوموف : آخ .. آخ .. آخ .. قلبي ينفجر .. كتفي انتهـى . أين كتفي ؟ .. إننـي أموت (يتهالك على أحد المقاعد) طبيب ! (يغمى عليه) ...

تشوبوكوف : خرع .. جرو متعنفص .. طبل ثرثار ... يكاد يغمى علي ! أغمي علي !

ناتاليا : صياد فعلا ! لا تعرف كيف تركب ظهر الحصان (لأبيهـا) أبي ! ماذا حدث له ؟ بابا ! انظر يابابا (تصرخ) ايفان فاسيليفتش ! لقد مات !

تشوبوكوف : أشعر بأنني أفقد وعيي ! إنني أختنق .. أعطوني هواء !

ناتاليا : لقد مات ! (تهز لوموف من كم سترته) إيفان فاسيليفتش .. إيفان فـاسيليفتش .. ماذا دهانـا .. لقد مـات ! (تتهـالك علـى أحد المقاعد) طبيب ، طبيب ! (تنوح وتضحك بطريقة هستيرية) .

تشوبوكوف : ماذا حدث ؟ ماذا هناك ؟ ماذا تريدين ؟ .

ناتاليا : (تنوح) : لقد مات ! مات !

تشوبوكوف : من مات ؟! (يلمح لوموف) لقد مات بالفعل ! ياالهي ! طبيب (يحمل كأسا من الماء ويقربه من شفتي لوموف) . خذ رشفة .. لا لا يريد أن يشرب .. مات إذن وما إلى ذلك ... بالسوء حظي ... لماذا لا أوجه طلقة تخترق دماغي ؟ لماذا لم أحز عنقي منذ زمن طويل ؟ ماذا انتظر ؟ أعطني سكينا ! أعطني مسدسا ! (يتحرك لوموف حركة واهنة) أعتقد أنه يثوب إلى رشده .. اشرب بعض الماء .. حسنا .

لوموف : ومضات تتراقص أمام عيني .. ضباب يلفني .. أين أنا ؟

تشوبوكوف : من الأفضل لك أن تتزوج بأسرع وقت ممكن ـ وتذهب إلى حيث ألقت .. إنها موافقة (يضع يده في يدها) .. إنها موافقة وما إلى ذلك .. إنني أبارك هذا الزواج وما إلى ذلك ، فقط اتركوني وشأني !

لوموف : آه ، ماذا ؟ (يقف على قدميه) من ؟

تشوبوكوف : إنها موافقة ... حسنا ، تصافحا ولتذهبا إلى الجحيم !

ناتاليا : (تتأوه) : إنه حي .. أجل ... أجل .. إنني أوافق ...

تشوبوكوف : هيا إذن تصافحا !

لوموف : آه .. من؟ (يصافح ناتاليا) كم أنا سعيد .. عذرا ... ماذا هنالك ؟ أجل ، نعم .. إنني أفهم .. قلبي...ومضات ...إنني في غاية السعادة .. ناتاليا ستيبانوفنا ... (يصافحها) تتميل في ساقي ...

ناتاليا : أنا .... أنا سعيدة أيضا .

تشوبوكوف : يا للعبء الذي ينزاح عن كاهلي ... أف !

ناتاليا : ولكن عليك أن تعترف الآن ، ومهما كان الأمر ، أن ترابر ليس في مستوى

فلاير .

لوموف : بل هو أحسن !

ناتاليا : بل هو أسـوأ !

تشوبوكوف : ها هي السعادة العائلية تبدأ ... أحضروا الشربات !

لوموف : إنه أحسن !

ناتاليا : بل أسوأ .. أسوأ ... أسوأ .

تشوبوكوف : (يصرخ محاولا إسكاتهما) الشربات ! احضروا الشربات .

(تنزل المستـــارة)



• أنطون تشيخوف

كاتب المسرح والقصة القصيرة

ولد أنطون تشيخوف في بلدة تاغنروغ في جنوبي روسيا في علم ١٨٦٠ م حيث عاش طفولة قاسـية في بيت فقير وتحت سيطرة والد مستبد متغطرس . وحين بلغ التاسعة عشرة من عمره رحل إلى موسكو حيث انتسب لكلية الطب وتخرج منهـا طبيبـا في عام ١٨٨٤ . وقد حاول أثناء دراسته أن يساعد في إعالة عائلته الفقيرة وذلك بكتابة الأقاصيص والصور الأدبية التي كان ينشرها في المجـلات تحت اسم مستعار ويعتبرها قليلة الأهمية ومجرد وسيلة يتكسب بها عيشه وعيش أسرته . إلا أنه التقـى في عـام ١٨٨٥ بسـوفورين ، رئيس تحرير صحيفة " الأزمنة الحديثة " والتي كانت من أهم الصحف في بطرسبرج في ذلك الحيـن ، فشـجعه هذا علـى الكتابـة وأصبـح واحدا مـن أقرب

أصدقائه وأخذ ينشر ما يكتب في " الأزمنة الحديثة " . وفي عام ١٨٨٦ نشر أول مجموعة قصصية من القصص القصيرة في دفتي كتاب ، وبعد ذلك بعام واحد ، أي في عام ١٨٨٧ تم عرض أول مسرحية له على خشبة أحد مسارح موسكو وهي مسرحية " إيفانوف " . عاش بعد ذلك ، ولمدة خمس سنوات ، في الريف القريب من موسكو حيث كان يمارس مهنته كطبيب ، كما كتب في نفس الفترة العديد من أحسن قصصه . إلا أن حالته الصحية ما لبثت أن بدأت تتدهور بسبب إصابته بالسل ، فنصحه أطباؤه بالانتقال إلى شبه جزيرة القرم على البحر الأسود حيث أن جوها الدافيء كان أفضل لحالته الصحية ، ومنذ عام ١٩٠٠ قضى معظم أوقاته في مدينة يالطا حيث التقى بالكاتبين تولستوي وجوركي .

كتب تشيخوف أفضل مسرحياته في السنوات الأخيرة من عمره حيث عرضت بشكل رئيسي على مسرح موسكو للفن الذي أنشأه حينذاك الناقد والمخرج والممثل المسرحي ستانيسلافسكي . وقد اعتبر هذا المسرح تشيخوف أحد دعائمه الأساسية حتى أنه اتخذ طائر النورس ، وهو عنوان إحدى مسرحيات تشيخوف التي عرضت على خشبته لأول مرة في عام ١٨٩٨ ، اتخذه شعاراً له .

وبعد " طائر النورس " كتب تشيخوف مسرحيات عدة لنفس المسرح كانت أهم ما تركه لنا من أعمال مسرحية وهي : " الخال فانيا " (١٩٠٠) و " الشقيقات الثلاث " (١٩٠١) و " بستان الكرز " (١٩٠٣) ، والتي كانت آخر ما كتبه تشيخوف ، حيث مات في صيف عام ١٩٠٤ .

أما مسرحية " الخطبة " هذه فهي إحدى المسرحيات القصيرة المكونة من فصل واحد والتي كتبها تشيخوف أثناء حياته الأدبية . ترسم هذه المسرحية ، شأن معظم أعماله الأخرى ، صورة واقعية للحياة الاجتماعية في روسيا في نهاية القرن الماضي ومطلع القرن الحالي .. وهو يركز فيها على العقليات السائدة في المجتمعات الريفية المغلقة بتفاهتها وضيق أفقها . ليس الهدف منها هو الإضحاك ، كما قد يتبادر للذهن ، بل كشف سطحية أفراد هذه المجتمعات وتفاهة تفكيرهم .

ربما كان الناقد والمخرج المشهور " ستانيسلافسكي " الذي سبق أن أشرنا إليه هو من أفضل من نفذ إلى أعماق تشيخوف ككاتب مسرحي وذلك في كتاب ستانيسلافسكي " حياتي مع الفن " . إذ يقول : " قد لا تتضح القوة الشعرية لمسرحيات تشيخوف بجلاء لدى قراءتها الأولى . فبعد أن تنتهي من قراءتها تقول لنفسك : " جيدة ، ولكن ليس فيها شيء خاص ، شيء يدير الرأس إعجابا . كل ما فيها حسن ، مألوف وصادق ، ولكن ما من جديد ! "

ويضيف ستانيسلافسكي قائلاً : " لا بل إن القراءة الأولى قد تكون مخيبة للآمال أحياناً إذ تشعر بأنك غير قادر على أن تبدي فيها رأياً محدداً . الحبكة ؟ الموضوع ؟ يمكنك أن توجزها بكلمات قليلة ! الأدوار التي يلعبها الممثلون ؟ العديد منها جيد ، ولكن أياً منها لا يثير لدى الممثل الطموح دوافع كافية لتمثيله ...

" إلا أنك ما أن تستعيد في ذهنك بعض العبارات والمشاهد حتى تشعر بأنك تود أن تمعن فيها النظر من جديد وتطيل التأمل والتفكير بها . تسترجع تلك العبارات والمشاهد في مجمل المسرحية في مخيلتك ، فتحس بأنك ترغب بقراءتها من جديد ، وحينذاك تدرك مدى العمق الذي يختفي تحت السطح الخارجي ...

" ويمضي ستانيسلافسكي فيقول : " تشيخوف معين لا ينضب. فعلى الرغم من أنه ، ظاهرياً ، يصور الحياة اليومية العادية في مسرحياته ، إلا أنه في الحقيقة لا يتناول الأمور العابرة أو المحدودة بل القضايا التي تتعلق بالإنسان أينما كان . فالإنسان في الواقع هو الفكرة المهيمنة في كل مسرحياته ؛ وهي مسرحيات مليئة بالحدث ، لا في تطورها الخارجي بل في الداخل ، إذ يختفي وراء السكون المتناهي في حياة شخصياته نشاط داخلي محموم وشديد التعقيد ".



الأب

The Father

أنطــوان تشـيكوف - روسيا

ترجمة صبحة إبراهيم العمار

إحقاقاً للحق يا بني... لقد تناولت جرعة شراب.... استميحك المعذرة ... فلقد مررت في طريقي إلى هنا بأحد الأماكن ولما كان الجو خانقاً ... شديد الحرارة فإني لم أجد مناصاً من احتساء شيء يذهب بوهج اللهيب المتنامي !.

وأخرج العجوز (موساتوف) من جيبه خرقة بالية مسح بها وجهه المتسخ الأمرد :

- "لن أمكث هنا أكثر من دقيقة - (بوريس) أيا

فلذة كبـدي" ثـم استطرد حـائداً عن ابنـه بنظـره "علـى أن الأمر في غاية الأهمية معذرة.... قد أكون مصدر إزعـاج لك..... هل... هل أجد لديك عزيزي عشرة روبلات إلـى يوم الثلاثـاء.... كـان من المفـروض أن أبـادر إلـى سـداد إيجار المنزل يوم أمس... على أنـه... تعرف... مـا كـان لدي ثمة مال على الإطلاق حتى ولو شنقوني!

ودون أن ينبـس الشـاب ببنـت شـفة خــرج لوهلــة وكان بالإمكان سماع الهمـس الدائـر بينـه وصاحبـة البيـت الريفي الذي يقطنه ومن يشـاركه سكناه مـن صحبـه. بعد دقائق ثلاث عاد فسلّم والـده ورقـة نقديـة مـن فئـة العشـرة روبـلات ودون أن يلقـي العجـوز نظـرة عليهـا دسـها فــي جيبه:

– شكراً... أجل حسناً (تمتم)، وكيـف الأحـوال... مضى وقت طويل ما التقينا يا بني.

– نعم ما التقينا منذ أمد... ليس قبـل عيـد الفصـح في واقع الأمر.

– كثيراً ما عقدت العزم على رؤيتك على أنـه لـم يكن ليتوفّر لدي وقت أبداً يا له من أمـر ممـضّ! بيـد أنـي أكذب.... كل ما أتفوّه به هـو محـض أباطيل وترّهـات لا تصدقني (بورنكا) بنيّ. قلـت بـأني سـأعيد لـك المبلـغ يـوم

الثلاثاء.... لا تصدق ذلك... لا تصدّق مما أقول كلمة! إياك... أنا عاطل عن العمل ولا أجيد سوى امتهان الكسل والسُكْرْ... وإني لأخجل أن تقع علي أنظار السابلة وأنا أرتدي هذه الأسمال معذرة (بورنكا). لقد بعثت لك مع تلك الفتاة برسائل استعطاف ثلاث مرات... كنت أكذب.... أنا خجل من استغفالك وابتزازك بهذا الشكل يا ولدي. أعرف أنك بالكاد تجد قوتاً... بأنك تعيش على أكل الجراد على أن لدي كمّاً هائلاً من الصفاقة حداً يمكن معه استثماره كمصدر للدخل.... عذرك بني (بورنكا). إن إلقاء نظرة واحدة على وجهك البريء هذا يؤثر فيّ أيّما تأثير فلا أملك ساعتها سوى قول الحق ولا شيء سواه!

وغشيتهما وهلة صمت ثم أطلق العجوز تنهيدة حرى وقال:

– هلا قدمت لي كأساً من الجعّة... ربما؟

وثانية ما حار الابن جواباً... في صمت خرج ثم دار ذلك الهمس خلف الباب وعندما عاد بأقداح الجعة عادت للأب حيويته وشهدت نغمة صوته تغيراً ملحوظاً وهو يقول:

– لقد ذهبت إلى سباق الخيل منذ أيام يا بني – كنا ثلاثة راهن كل منا على الحصان (فرسكي) بروبل فكان

أن ربحنا اثنين وثلاثين روبلاً - لا يمكنني العيش دون سباقات بني إنها رياضة النبلاء ورغم ما أعانيه من زوجتي كلما أزمعت الذهاب فإني أحرص على حضور تلك السباقات، أنا مغرم بها.

وشرع الشاب - وكان ذا شعر جميل ومحيا غزته الكآبة - يخطو بصمت جيئة وذهاباً وعندما توقف العجوز عن الكلام كيما يتنحنح التفت الابن إليه وقال:

- لقد ابتعت قبل أيام حذاء اتضح أنه غاية في الضيّق. لم لا تأخذه؟ سأبيعك إياه بثمن زهيد.

- كما تشاء! هز العجوز رأسه موافقاً ثم رسم بتعابير وجهه انطباعاً ساخراً قبل أن يقول:

- على أن آخذه منك بنفس ثمنه... لا تخفيض!

- حسناً - رد ابنه - فخذه إذاً على الحساب.

وزحف الابن تحت السرير فأحضره فيما خلع الأب حذاءه المستعمل البالي وجرب الحذاء الجديد.

- على المقاس - قال - حسناً... دعني أحتفظ به ولسوف أوافيك بثمنه يوم الثلاثاء حين أستلم معاشي التقاعدي... ها أنذا أكذب ثانيةً واكتست نبرة صوته طابع الحزن ثانية وهو يقول: هراء... محض هراء وكذا

ما أوردته سالفاً فيما يختص بسباق الخيل وبأني أتقاضى مرتباً وما إلى ذلك وأنت تتحايل علي يا (بورنكا) لا تظننَ بأني غافل عن مخططات كرمك... باستطاعتي أن أرى خلالك كما لو كنت لوح زجاج حذاؤك صغير جداً لأن قلبك كبير جداً أواه بني (بورنكا) أنا أرى وأستشعر كل شيء!

– هل انتقلت إلى شقة جديدة – قاطعه ابنه محاولاً تغيير دفة الحديث؟

– نعم بني فعلت... إن أعصاب زوجتي النارية لا تترك لنا مجالاً للبقاء في أي مكان أكثر من شهر.

– لقد ذهبت إلى حيث تقيم لأدعوك للسكن معي – قد يكون ذلك أفضل لصحتك! أنت بحاجة إلى شيء من الهواء النقي أبي.

– كلا – قال الأب ملوحاً بيده – لن تسمح العجوز لي بذلك علاوة على أني لا أرغب فيه لقد حاولتَ أن تنتشلني من أدران ذلك الحي مرات عدة وحاولتُ أنا كذلك إلا أن الأمر برمته ما أسفر عن شيء بُنيَّ – لا تحاول ثانية... سأموت في الوحل لا محالة إنني أسعد هنا بالتطلع إلى ينبوع البراءة في ملامحك على أني مشدود إلى حيث أقيم سمّه قدراً بني... لا يمكنك أبداً أن تغري

خنفساء الروث بأن تحط على وردة كلا.. لكن علي أن أذهب فقد شرع الظلام في نشر ردائه.

- مهلاً.. سأذهب معك.. لدي اليوم ما أفعله في البلدة.

وارتدى الأب والابن معطفيهما فخرجا... كان الظلام حالكاً فيما بدا وميض لأنوار خافتة يلوح من بعض النوافذ.

- لقد خدعتك (بورنكا) تمتم الأب - أي أبنائي المساكين ما أتعسكم بأب مثلي - قرة عيني (بورنكا) حينما أصافح ملامح البراءة في وجهك يخونني الكذب - معذرة بني فقد بلغت قلة حيائي الزبى. لقد وفدت عليك فابتززتك وسببت لك الحرج بحالة السكر هذه.. وأنا أفعل مع أشقائك الشيء ذاته... لو أنك رأيتني بالأمس. دعت زوجتي العجوز (ريفراف) الحارة بأكملها فسكرنا جميعاً وكلت لكم السباب المقذع! اتهمتكم بهجري وإهمالي! لقد أردت أن أثير شفقة أولئك الأشرار لديّ فتقمصت دور الأب التعيس! هذا ما أفعله دائماً حينما أرغب في إخفاء آثامي فإني ألقي باللائمة على أولادي الأبرياء. لا يمكنني أن أكذب عليك (بورنكا) كما أنه ليس بمقدوري أن أخفي الحقائق عنك. لقد أتيتك متبختراً تياهاً على أنه فور استشعاري لرقتك وعطفك انعقد لساني وانقلب ضميري رأساً على عقب.

– تحدثنا عن ذلك بما فيه الكفاية فلنتطرق إلى موضوع سواه.

– إلهي لك الحمد على ما وهبتني من أولاد صالحين – تابع الأب غير مبالٍ بما قال ابنه – أنتم نعمة لا أستحقها – كان ينبغي أن تكونوا أبناءً لأب صالحٍ سويٍّ له مشاعر وأحاسيس أنا لا أستحقكم – قال رافعاً يديه للمولى شكراً – وهبتني إلهي ثلاثة أبناء يندر وجودهم جادين مثابرين لا يعرفون للمسكر مذاقاً.. يا للعقول النيّرة.. (كابي) يا لعقلك الراجح... أما (جريجوري) فإن عقله يزن عقول عشرة رجال إنه يجيد الفرنسية والإنجليزية ويترافع أفضل من أمهر المحامين... لا تملُّ حديثه أبداً أولادي... أيا أولادي بالكاد أصدق أني أبوكم!

أما أنت (بورنكا) فشهيد... لقد أضررت بك كثيراً ولازلت أنت تعطيني المال أبد الدهر رغم اقتناعك بأن ما تمنحه يذهب هباءً لقد بعثت لك قبل أيام برسالة تقطر حزناً وشرحت فيها تفاصيل المرض الذي ألمّ بي.... لقد كذبت يومها وكنت أريد المال لأبتاع به شيئاً من أم الكبائر... ووهبتني ما أردت مخافة أن يجرح الرفض شعوري أعرف ذلك! و(جريشا) شهيد كذلك!

لقد زرته في مكتبه يوم الخميس الماضي وكنت

ثملاً... رث الهيئة متسخ الملابس أما رائحة (الفودكا) المنبعثة مني فكانت كرائحة مخزن خمور... أجل ذهبت إليه وتبدى لي أنيقاً فيما أفضيت له بحالي.. وكان ذلك أمام زملائه ومديره في العمل وزبائنه... كانوا جميعاً هناك وقوفاً ينظرون إلينا لقد ألحقت به وصمة عار ستظل ترافقه مدى الحياة. ولم يبد عليه أن كان محرجاً أبداً... امتقع لونه قليلاً على أنه ابتسم في وجهي وكأن شيئاً لم يكن. كأني ما اجترحت إثماً لا بل إنه قد قدمني إلى رفاقه ثم زاد على ذلك بأن أعادني إلى منزلي دون كلمة لوم واحدة. أنا أبتزه أكثر مما ابتزك (بورنكا)، أما أخوك (ساشا) فشهيد مثلكم. لقد تزوج ابنة كولونيل... ودلف دائرة الوسط الأرستقراطي ومع ذلك فإن أول ما فعله بعيد زواجه أن جاء بصحبة عروسه لزيارتي.. في ذاك الجحر الذي أقطن والله على ما أقول شهيد.

وشرع العجوز في النشيج ثم... طفق يضحك فجأة:

– كنا نتناول سمكاً وفجلاً... وكانت رائحة البيت لا تطاق وفجأة قفزت عجوزي الشمطاء بهيئتها المرعبة في وجهيهما بينما كنت مستلقياً إثر احتساء بعض الأقداح فاكتملت بذلك تلك الصورة المزرية إلا أن أخاك قد سما فوق ذلك كله.

- أجل إنه طيب. قال (بورنكا).

- رائعون! أنتم جميعاً ذهب أصلي. إنني أسيء إليكم.... أعذبكم أسرقكم ومع ذلك فما سمعت منكم يوماً كلمة توبيخ ما نهرني أحدكم أو عبس في وجهي... ما رأيتم مني غير الأذى، إنني رجل سيء محروم... ذهب الزمان بقوتي وشبابي. كنت إبان طفولتكم صعب المراس قوي الشكيمة وكنت على يقين بصحة كل ما أقوله أو أفعله... كنت أعود أحياناً ثملاً معتل المزاج فأصرخ في وجه أمكم المسكينة الراحلة متهماً إياها ببعثرة النقود.... كنت أؤنبها الليل كله... وكنت واثقاً من أني على حق.. وعندما كنتم تستيقظون في الصباح يظل ذلك الطابع المأساوي سائداً أرجاء البيت تلك المرأة البائسة! يعلم الله كم لاقت على يدي من صنوف العذاب! وعندما كنتم تعودون من مدارسكم جياعاً منهكين ما كان بمقدوركم تناول شيء من الطعام حتى أستيقظ... لابد وأنك تذكر ذلك. أرجو أن لا يبتلى أحد بأبٍ مثلي... لقد جُعِلْتُ لكم بمثابة الابتلاء يا أبنائي فاصبروا حتى النهاية... برُّوا أباكم وسيمد الله لكم في آجالكم إن شاء تعالى. توقف أيها السائق! صاح به ثم قفز من العربة واتجه صوب إحدى الحانات ليعود بعد نصف ساعة متنحنحاً في سكر ملحوظ فيصعد إلى جوار ابنه.

– وأين (سونيا) الآن؟ سأل ابنه – ألا تزال في مدرستها الداخلية؟

– كلا فقد تخرجت في شهر (مايو). إنها الآن تعيش مع حماة أخي (ساشا).

– حسناً! قال العجوز في دهشة: إنها فتاة رائعة وهي تسير على نهجكم السوي ذاته! آه (بورنكا) ولا أمّ هناك لترعاها وتواسيها. اسمع (بورنكا) أهي تعرف أين أسكن؟ هاه؟

ولم يجب (بورنكا) ومرت خمس دقائق تخللها صمت عميق ما قطعه سوى نشيج العجوز الذي أخرج خرقة بالية مسح بها وجهه وقال:

– أنا أحبها كثيراً (بورنكا) إنها ابنتي الوحيدة وليس هناك عزاء أوان الشيخوخة غير وجود ابنةٍ بارّة، أريد أن أراها! أيمكنني ذلك (بورنكا)؟

– بالتأكيد – أنىّ شئت!

– حقاً؟ ألن تمانع هي؟!

– بالطبع لا لقد كانت تحاول العثور على عنوانك إنها تريد في حقيقة الأمر أن تراك!

– بالله عليك – يالكم من أبناء صالحين – أيها

السائق؟.... دبّر لي لقاءً معها (بورنكا) عزيزي لابد وأنها قد أصبحت الآن فتاة جميلة رقيقة... على أني لا أريدها أن تراني على هذه الحال سأقول لك (بورنكا)... سنضع للأمر خطة مناسبة. لن أمسّ قدحاً لثلاثة أيام كيما يعود لوجهي الثمل رونقه عندها سآتي لاستعارة بدلة منك تليق بالمناسبة... ولسوف أحلق ذقني وأختار لشعري قصة أنيقة ثم تذهب أنت فتأتي بها إلى بيتك موافق؟

- حسناً جداً.

- أيها السائق توقف - وقفز الرجل من العربة فاتجه صوب إحدى الحانات! وقفز كذلك مرتين قبل أن يصلوا إلى شقته وفي كل مرة كان ابنه ينتظره صامتاً... بكل صبر الدنيا. وعندما انصرفت عربة الأجرة اتخذا طريقهما عبر ساحة قذرة متجهين صوب شقة العجوز عندها اكتسى وجه الأب طابع الحيرة والذنب وطفق يتنحنح ويرطب شفتيه بلسانه:

- (بورنكا) قال بلهجة تملّقيّة - إن شرعت عجوزي في مدّ لسانها فلا تأبه بما تقول و.. حاول أن تكون... تعرف... أن تكون لبقاً معها... إنها جاهلة... صفيقة وقحة على أن لها فؤاداً ينبض دفئاً وطيبة....

عندما شارفا على الوصول إلى نهاية الممر

الطويل وجد (بورنكا) نفسه في مدخل مظلم وأحدثت مفاصل الباب صريراً متصلاً فيما تصاعدت رائحة دخان وطعام من الموقد.... وعلت أصوات صاخبة، وفي الطريق إلى الداخل مروراً بالمطبخ لم يميز (بورنكا) شيئاً سوى دخان كثيف وحبل علقت عليه بعض الملابس.

– كما لمح عبر أحد الصدوع مدخنة (السمّور) وهي تقذف بشرر ذهبي.

– هنا تقبع زنزانتي. قال العجوز وهو ينحني لدخول غرفة منخفضة السقف... كانت لقربها من المطبخ خانقةً إلى حدٍّ لا يطاق.

ثلاث نساء كن يجلسن فيها إلى إحدى الموائد متلذذات بتناول الطعام والشراب وما أن وقعت أنظارهن على الوافد الغريب حتى تبادلن النظرات وتوقفن عن الأكل:

– حسناً هل أحضرت المطلوب؟ سألته إحدى السيدات بصوت أجش وبدا جليّاً أنها كانت عجوزه السليطة.

– أحضرته... أحضرته – تمتم العجوز – مرحباً (بورنكا) تفضل بالجلوس – نحن أناس بسطاء أيها الشاب.

وشرع العجوز يجول في الغرفة دون هدف محدد... أشعره حضور ابنه بالخجل على أنه في الوقت ذاته أراد أن يواصل أمام النسوة تمثيل دور الأب المغلوب على أمره، ذاك المسكين الذي هجره أبناؤه دون رحمة.

– نعم يا صديقي – نحن أيها الشاب نعيش عيشة البسطاء!

– تمتم – ولا نميل إلى التصنع مثلك... نحن بسطاء أجل إننا لكذلك... هل لنا في شيء من الشراب؟

وقالت إحدى النسوة وقد خامرها شيء من الخجل منعها من معاقرة أم الكبائر بادىء ذي بدء قبل أن تتذرع بأن جَمال الفِطر الشهي يدفع إلى ذلك دفعاً:

– (إيفان جيراسيميتش) اسأل الشاب إن كان يرغب في شيء من الشراب – نطقتْ بالكلمة الأخيرة في تشدّق ملحوظ.

– تناول شيئاً أيها الشاب. قال الأب دون أن ينظر إليه – لا شراب فاخر لدينا... نحن أناس بسطاء بنيّ!

– لا يعجبه أسلوب حياتنا – قالت العجوز المتسلطة.

– لا بأس – سيشرب شيئاً.

ورغبة منه في عدم إغضاب والده تناول (بورنكا) كأساً احتساه بصمت ثم جيء بشاي مقزز تناول منه قدحين دون أن ينبس ببنت شفة، مرتدياً قناع حزن وإرضاء لأبيه، ومستمعاً إلى اتهامات زوجة أبيه بصمت عن قسوتهم على أبيهم وتخليهم عنه في هذا الزمن المتقلب العاتي.

– أعلم ما يجول بخاطرك الآن – صاح العجوز متسنماً هرم الثَمَلِ البغيض – تظن بأني أهين نفسي – بأني أستحق الشفقة فليكن معلوماً لديك يا فتى بأن حياتنا البسيطة غير المتكلفة هذه هي أفضل من حياتك – لست بحاجة لأحد ولا أعتزم إذلال ذاتي لا يمكنني تحمل نظرات الشفقة من أحمق جاهل.

بعد الشاي... نظف الأب سمكاً ورش عليه بصلاً مفروماً!

فعل ذلك بسعادة وعاطفة دمعت لها عيناه ثم شرع يتحدث ثانية عن رهانات سباق الخيل وأرباحه منها، وعن تلك القبعة التي دفع لشرائها بالأمس ستة عشر روبلاً.. كان يكذب بذات الحماس الذي يغشاه حين يشرب ويتبل السمك ولساعة جلس ابنه في صمت ثم استأذن في الخروج.

- لن أحاول إيقاعك أكثر من ذلك...! قال مخاطباً ابنه في صلف - معذرة إن كانت معيشتنا تختلف عما اعتدته.

وانتصب واقفاً بخشونة قبل أن يغمز للنسوة ثم التفت إلى ابنه فقال مودعاً:

- إلى لقاءٍ يا فتى - وصحبه إلى الباب - انتبه لنفسك؛ وهناك حيث كان الكلام يغشى أرجاء المكان والزمان دس وجهه في كمّ قميص ابنه وشرع ينتحب:

- أريد أن أرى (سونيا) - همس لابنه - رتب لنا موعداً للقاء عزيزي (بورنكا) - ولسوف أحلق وأرتدي بزتك الجميلة وألبس قناع الصرامة والجديّة... وحين تكون هي هنا فلن أتفوه بكلمة! أعدك.... لن أنبس ببنت شفة.

ورمى بنظرة مرتعشة صوب الباب الذي تسللت عبره أصوات النسوة ثم كتم نشيجه وهو يرفع صوته قائلاً:

- إلى اللقاء يا فتى - انتبه لنفسك!

* * *

فولوديا الكبير وفولوديا الصغير

بقلم: أنطون تشيخوف
ت: ليندا خليل

ـ أريد أن أقود بنفسي، أرجوك اسمح لي، سأجلس بقرب الحوذي ـ قالت صوفيا لفوفنا بصوت عالٍ.

ـ انتظر لحظة أيها الحوذي، سأجلس بجانبك في المقعد.

كانت تقف في العربة، بينما كان زوجها فلاديمير نيكيتش، وصديق طفولتها فلاديمير ميخايليتش يمسكان بها من ذراعيها كي لا تقع. انطلقت الترويكا[1] مسرعة.

ـ قلت لك ألا تعطيها الكونياك.

همس فلاديمير نيكيتش لرفيقه بانزعاج.

كان الكولونيل يعرف من تجربة سابقة أن حالة الابتهاج الصاخب أو بالأحرى الثمل بالنسبة لامرأة مثل زوجته صوفيا لفوفنا عادة ما يعقبها ضحك هستيري ومن ثم بكاء. وقد كان قلقاً الآن لأنه حال وصولهم إلى البيت سيتوجب عليه الانشغال بالكمادات وجرعات الدواء بدلاً من الذهاب إلى السرير.

ـ هشْ! ـ صرخت صوفيا لفوفنا ـ أريد أن أقود.

كانت فرحة ومسرورة حقاً، فطوال شهرين، ومنذ يوم زفافها بالذات، كان يعذبها التفكير بأنها تزوجت الكولونيل لمصلحة، أو كما يقال Par

---

[1] عربة أو زحافة روسية تجرها ثلاثة أحصنة.

depit[1]. واليوم على أية حالة، أدركت أخيراً في مطعم خارج البلدة أنها تحبّه بشغف.

فعلى الرغم من أعوامه الأربعة والخمسين، كان متين البنية، رشيقاً، مرن الأعطاف، يحسن التلاعب بالألفاظ والمشاركة في أغاني الفتيات الغجريات.

حقاً، في أيامنا هذه، يعدّ الرجال الأكبر سناً أكثر جاذبية من الشباب اليافعين بألف مرّة، حتى ليخيّل للمرء أن الشيخوخة والصبا قد تبادلا الأدوار.

كان الكولونيل يكبر أباها بسنتين، ولكن، أكان من الممكن أن يكون لهذا معنىً، إن كان يقيناً يفوقها هي نفسها حيوية ونشاطاً وغضارة، ودون أن يكون هناك أي مجال للمقارنة بينهما، على الرغم من أنها كانت ما تزال في الثالثة والعشرين من عمرها بعد؟

آه يا عزيزي ـ فكرت ـ أنت رائع.

في المطعم أدركت أيضاً أنه لم يتبق في قلبها حتى مجرد ومضة من شعورها السابق، والآن كانت تشعر بلا مبالاة تامة تجاه فلاديمير ميخايليتش صديق طفولتها، أو فولوديا كما كان يدعى، والذي كانت ما تزال حتى البارحة تحبه إلى حد الجنون واليأس. فقد بدا لها طوال الأمسية فاتراً، ناعساً، مملاً وعديم الشأن. على أن لا مبالاته التي كانت تصحب تهربه المألوف من دفع فواتير المطعم، جعلتها الآن تشعر بالاشمئزاز، وبالكاد تمالكت نفسها من القول "إن كنت لا تملك نقوداً، فعليك البقاء في المنزل". دفع الكولونيل.

وربما لأن الأشجار وأعمدة التلغراف والثلوج المتراكمة مرّت مروراً خاطفاً أمام عينيها، كانت تخطر على بالها أفكار مختلفة: بلغت فاتورة المطعم مائة وعشرين روبلاً، والغجر ـ مئة، وبإمكانها غداً إلقاء ألف روبل في الهواء إن أرادت، ولكنها قبل شهرين من زواجها لم تكن تملك حتى ثلاثة روبلات، وكان يتوجب عليها مراجعة أبيها بشأن أتفه الأمور. يا لهذا التحوّل الكامل في حياتها!

---

[1] من أجل الإغاظة.

كانت أفكارها مشوشة للغاية، وتذكرت أيضاً أن الكولونيل ياغيتش، الذي هو زوجها الآن، كان قد تودد إلى خالتها، عندما كانت هي في العاشرة من عمرها. وكان جميع أهل المنزل يقولون آنذاك أنه دمرها. كما تذكرت كيف أن خالتها غالباً ما كانت تنزل لتناول الغداء دامعة العينين، وكيف كانت تغادر المنزل بين الحين والحين، حتى قيل إنه ليس في وسع هذه المخلوقة البائسة أن تجد راحة في أي مكان.

آنذاك كان وسيماً جداً، وكان نجاحه الباهر مع النساء قد أكسبه شهرة في البلدة كلها، حتى راحت تُحكى عنه الحكايات. ويقال إنه كان يتردد على المعجبات به كما يعود الطبيب مرضاه. وبالرغم من شعره الأشيب وتجاعيده ونظارته، وبالرغم من نحول وجهه، فإنه حتى الآن يبدو بهي الطلعة، لاسيّما إذا نظرنا إليه من الجانب.

كان والد صوفيا لفوفنا طبيباً عسكرياً، وقدّر له في وقت مضى أن يخدم مع ياغيتش في الفوج نفسه. وكان والد فولوديا طبيباً عسكرياً أيضاً، وخدم في الماضي مع والد صوفيا وياغيتش في الفوج ذاته. وبغض النظر عن المغامرات العاطفية التي غالباً ما كانت معقدة وعاصفة، كان فولوديا طالباً ممتازاً، أنهى دراسته الجامعية بتفوق، ثم قرر التخصص في مجال الأدب الأجنبي، وقيل إنه يكتب أطروحة.

كان يقيم حالياً في الثكنات مع والده الطبيب العسكري دون أي نقود يملكها، مع أنه قد بلغ الثلاثين. في طفولتهما، عاش فولوديا وصوفيا لفوفنا في شقتين مختلفتين، ولكن دائماً تحت سقف واحد، وكثيراً ما كان يزورها للعب، ومعاً تعلما الرقص واللغة الفرنسية. ولكن عندما كبر وأصبح شاباً ممشوق القامة وسيما، بدأت تشعر بالخجل منه، ثم أغرمت به بجنون، وظلت تحبه إلى أن تزوجت ياغيتش.

كان لفولوديا أيضاً نجاح باهر مع النساء، فمنذ الرابعة عشرة من عمره تقريباً، كانت النساء اللواتي يخنّ أزواجهن معه يبررن لأنفسهن أن فولوديا كان فتى صغيراً.

ومنذ وقت ليس بالبعيد تناقلت الألسن عنه قصة، وهي أنه عندما كان طالباً كان يقيم في غرفة مفروشة قرب الجامعة، وكان يقترب من الباب كلما دقّ ويعتذر بصوت خافت "Pardon, Je ne suis las seul"[1].

اعتاد ياغيتش أن يفيض ابتهاجاً حيائه، وتنبأ له بمستقبل عظيم كما تنبأ درجافن[2] لبوشكين، إذ يبدو أنه كان يحبه.

كانا يلعبان البلياردو والبيكيت لمدة ساعة وهما صامتان، وكان ياغيتش يصحب معه فولوديا أينما ذهب في الترويكا، وكذلك لم يُطلع فولوديا على أسرار أطروحته أحداً غير ياغيتش.

وقبل ذلك، عندما كان الكولونيل أصغر سناً، غالباً ما وجدا نفسيهما غريمين يتنافسان، ولكن لم يكن للغيرة مكان بينهما قط؛ وإذا ما اجتمعا في بيوت علية القوم، كان ياغيتش يُعرف بفولوديا الكبير، وصديقه بفولوديا الصغير.

وفضلاً عن فولوديا الكبير وفولوديا الصغير، وصوفيا لفوفنا، كان هناك شخص آخر في العربة، إنها مارغريتا ألكساندرفنا، أو ريتا كما كانت تدعى، قريبة زوجة ياغيتش، وهي فتاة تعدت الثلاثين، شاحبة الوجه، لها حاجبان أسودان، وتضع نظارة دون ذراعين.

كانت تدخن سيجارة تلو الأخرى، حتى في جو الصقيع القارص، فهناك دوماً رماد على صدرها وركبتيها. كانت تخن في كلامها وتمط كل لفظة تقولها. زد على ذلك أنها امرأة باردة، قادرة على تجرع الليكيور والكونياك بأي قدر تشاؤه دون أن تثمل. كانت تروي فكاهات مريبة بطريقة ذابلة غير مستحبة. وفي المنزل، كانت تقرأ صحفاً سميكة من الصباح حتى المساء، تبعثر الرماد فوقها أو تلوك تفاحاً مجمداً.

ـ توقفي يا سونيا عن إحداث هذا الضجيج! ـ قالت بصوت مترنم ـ حقاً، إن هذا سخيف.

---

[1] ـ اعذرني، إنني لست بمفردي.

[2] ـ غافريل روماتوفيتش درجافن (1743-1816)، أشهر الشعراء الروس في القرن الثامن عشر. في عام 1815، وقبل وفاته بسنة، ترأس لجنة تحكيم لشعر الفتيان في مدرسة سانت بطرس بورغ، حيث قدم بوشكين، ابن السادسة عشرة آنذاك، قصيدة غنائية حاكى فيها درجافن، فعانق الشاعر الفتى، وأطنب في مدحه حتى رفعه إلى السماء.وتنبأ لـــه بمستقبل عظيم.

حين اقتربت من بوابة المدينة، تباطأت حركة الترويكا، فتراءت البيوت والناس بصورة خاطفة، والتصقت صوفيا لفوفنا بزوجها وقد هدأت واستغرقت في التفكير. كان فولوديا الصغير جالسا قبالتها، فيما اختلطت الآن أفكارها المشرقة السعيدة بأفكار أخرى كئيبة.

فقد جال في خاطرها: هذا الرجل الجالس قبالتها كان يعرف أنها تحبه، ومن المؤكد أنه صدّق الإشاعة القائلة إنها تزوجت الكولونيل par depit. لم تبح له بحبها يوما أبدا، ولم تشأ أن يعرف بذلك، فأخفت مشاعرها عنه، ولكن بدا جليا من نظرته أنه كان يفهمها جيدا، بينما عانت كبرياؤها بسبب ذلك. إلا أن الحقيقة الأكثر إهانة لها كانت تتمثل في أن فولوديا الصغير راح يعيرها اهتمامه فجأة بعد زواجها، وهذا شيء لم يكن له وجود من قبل. فقد أخذ يجلس معها صامتا لساعات، أو يثرثر في أمور تافهة، والآن، عندما كانوا راكبين في الترويكا، شرع يدوس على رجلها بخفة تارة، ويضغط على يدها تارة أخرى دون أن ينبس بكلمة واحدة. كان واضحا أنه أراد لها أن تتزوج فقط، مثلما كان واضحا أنه يحتقرها وأنه كانت تثير في داخله نوعا محددا من الاهتمام فحسب، بوصفها امرأة فاسدة وغير مستقيمة.

ولما كان شعورها بالانتصار والحب تجاه زوجها قد اختلط بالخزي والكبرياء المجروحة، فقد راودتها رغبة ملحة بالمشاكسة، لدرجة أنها أرادت الجلوس في مقعد الحوذي كي تصرخ وتصفر.

وبينما هم يمرون بدير نسوي ترامى إلى أسماعهم صوت جرس عظيم يزن نحو عشرين طنا، فرسمت ريتا إشارة صليب على صدرها.

ـ عزيزتنا أوليا في هذا الدير. قالت صوفيا لفوفنا وصالبت أيضا بارتجاف.

ـ لماذا التحقت بالدير؟ سأل الكولونيل.

ـ par depit ـ أجابت ريتا في تلميح ساخر منها إلى زواج صوفيا لفوفنا من ياغيتش ـ إنها عادة دارجة هذه الـ par depit. إنها تحد للعالم أجمع، لقد كانت أوليا تقهقه بصوت عال وتتغنج بطيش، وقد كان أمر العشّاق والحفلات الراقصة هو شغلها الشاغل، ولكن بغتة ـ انظروا ما حصل! لقد فاجأت الجميع.

ـ هذا ليس صحيحاً ـ أجاب فولوديا الصغير وهو يثني ياقته المصنوعة من الفرو، ويكشف عن وجهه الوسيم. ـ لم يكن هناك أية par depit، بل بالأحرى خوف محض إذا ما أردت أن توجهي الموضوع هذه الوجهة. فقد حكم على أخيها دميتري بالأشغال الشاقة، ومكان وجوده غير معروف الآن، وتوفيت أمها من فرط حزنها. رفع فولوديا ياقته مجدداً واستأنف بلا مبالاة: تصرفت أوليا تصرفاً صائباً، تصوروا فقط أنها تعيش كلقيط وبالأحرى مع جوهرة مثل صوفيا لفوفنا! هذا ليس بالأمر السهل.

أدركت صوفيا لفوفنا نبرة الاحتقار في صوته. فأرادت أن ترد عليه بشيء ناب، ولكنها لزمت الصمت، ثم عاودتها الرغبة ذاتها بالمشاكسة، فهبّت واقفة على قدميها، وصرخت بصوت باكٍ: أريد الذهاب إلى صلاة الصباح، ارجع أيها الحوذي، أرغب برؤية أوليا!

نفذ الحوذي أمرها. كان طنين جرس الدير عميقاً للغاية، وبدا أن ثمة شيئاً فيه ذكّر صوفيا لفوفنا بأوليا وحياتها، وبدأت الأجراس تقرع في الأديرة الأخرى أيضاً.

عندما أوقف الحوذي الترويكا، وثبت صوفيا لفوفنا من العربة وحدها، وتوجهت نحو البوابة مسرعة لا يرافقها أحد.

ـ أسرعي، أرجوك! صرخ زوجها، فالوقت متأخر.

عبرت صوفيا لفوفنا البوابة المظلمة، ثم الممر المؤدي إلى الكنيسة. كان الثلج الخفيف يهسهس تحت قدميها، وقرع الجرس فوق رأسها حتى خيّل إليها أنه يخترق كيانها كله.

هاهو باب الكنيسة وهو يفضي بعد هبوط ثلاث درجات إلى رواق طويل تتدلى على جانبيه صور القديسين. كانت رائحة البخور والعرعر تعمّ هذا المكان الذي ينتهي إلى باب بدا أنه يُفتح ويظهر منه خيال عاتم لامرأة تنحني لها. لم تكن الصلاة في الكنيسة قد بدأت بعد. كانت هناك راهبة تتحرك أمام المحراب الكنسي وتشعل الشموع في شمعداناتها، بينما انشغلت أخرى بإضاءة الثريا. وقريباً من الأعمدة والمقاعد الجانبية تبدّت هيئات أشخاص يقفون في الظلمة ساكنين: هذا يعني أنهم سيقفون على هذه الحال، بلا حراك، حتى طلوع الصباح ـ فكرت صوفيا لفوفنا، وبدا لها المكان مظلماً، بارداً وموحشاً، بل

وأكثر وحشة من المقبرة ذاتها. نظرت حولها بغم إلى الهيئات الجامدة الساكنة وانقبض صدرها فجأة إذ تمكنت بطريقة ما من تبيّن أوليا في راهبة ضئيلة الحجم، نحيلة الكتفين، تغطي رأسها بمنديل أسود؛ على أن أوليا كانت قبل دخولها إلى الدير ممتلئة الجسم، وتبدو أطول قامة.

اقتربت صوفيا لغوفنا من المبتدئة مترددة ومتوترة جداً دون أن تعرف السبب، نظرت إلى أوليا عبر كتفها فعرفتها.

- أوليا! - قالت وضربت كفاً بكف وهي تنطق الاسم بالكاد من شدّة تأثرها، - أوليا!

عرفتها الراهبة على الفور فرفعت حاجبيها دهشة، فيما بدا وجهها الشاحب النظيف الطاهر، وحتى غطاء الرأس الأبيض الصغير الظاهر من تحت منديلها، مشرقين من شدّة الفرح.

- يا لها من معجزة سماوية! قالت وهي تضرب يديها النحيلتين والشاحبتين بعضهما ببعض هي الأخرى. ثم عانقتها صوفيا لغوفنا بقوة وقبّلتها، إلا أنها كانت تخشى أن تفوح منها رائحة الخمرة.

كنا عابرين للتو فتذكرناك - قالت منقطعة الأنفاس كما لو أنها مشت مسرعة - يا إلهي، كم أنت شاحبة! إنني سعيدة لرؤيتك، ما أخبارك؟ كيف حالك؟ هل تشعرين بالملل؟

نظرت صوفيا لغوفنا حولها إلى الراهبات الأخريات، ثم تابعت بصوت خافت: لقد تغيّرت أمور كثيرة في المنزل، أتعرفين؟ أنا تزوجت يا غيتش، فلاديمير نيكيتش، ما زلت تذكرينه، وأنا في غاية السعادة معه.

- حسناً، الحمد لله، وهل والدك على ما يرام؟

- نعم. إنه على ما يرام، وهو غالباً ما يتذكرك. أرجو يا أوليا أن تزورينا أيام العطل، أتسمعينني؟

- سآتي. قالت أوليا وارتسم على محياها طيف ابتسامة - سأجيء في اليوم الثاني من العطلة.

انخرطت صوفيا لفوفنا بالبكاء دون أن تعرف سبباً لذلك. بكت بصمت للحظة، ثم جففت عينيها وقالت: شدّ ما ستأسف ريتا لأنها لم ترك، فهي بصحبتنا أيضاً، وفولوديا هنا كذلك، إنهما أمام البوابة الآن، كم سيكون سرورهما عظيماً لو خرجت لرؤيتهما! هيا، فالصلاة لم تبدأ بعد.

- هيّا، فلنذهب. وافقت أوليا. فصلّبت ثلاث مرّات وتوجهت مع صوفيا لفوفنا نحو الباب المؤدي إلى الخارج.

- إذن تقولين يا سونيتشكا إنك سعيدة؟ - سألت أوليا ما إن اجتازتا البوابة.

- جداً!

- حسناً، الحمد لله.

ترجّل فولوديا الكبير وفولوديا الصغير من العربة إذ لمحا الراهبة، فحيّاها باحترام، وكان واضحاً كم أثرت فيهما رؤية وجهها الشاحب، وجبّة الراهبات السوداء، فقد سرّهما أنها تذكرتهما وخرجت تسلّم عليهما. لفتها صوفيا لفوفنا ببطانية تقيها البرد، وألقت عليها طرفاً من معطفها الفرو. كانت الدموع التي ذرفتها تواً قد أراحت قلبها وأبهجته. وكانت سعيدة لأن هذه الليلة الصاخبة، المضطربة والمتهتكة في حقيقة الأمر قد انتهت بنقاء ولطف دون سابق توقع. ورغبة منها في إبقاء أوليا مدّة أطول اقترحت: دعونا نصحبها في نزهة، اجلسي يا أوليا، سنقوم بنزهة قصيرة ليس إلاّ.

توقع الرجلان من الراهبة أن ترفض - فليس من عادة الأتقياء ركوب الترويكا، ولكن كم كان ذهولهم كبيراً حين وافقت الراهبة وجلست في العربة! وعندما انطلقت الترويكا كالسهم نحو بوابة المدينة، لزموا الصمت جميعاً، ولم يكن لهم من هم إلا أن تنعم بالدفء والراحة، وهم غارقون في التفكير: كيف كانت من قبل وكيف هي الآن.

بدا وجهها الآن جامداً خالياً من أية تعابير تقريباً: بارداً وشاحباً وشفافاً كما لو أن ماءً يجري في عروقها وليس دماً، مع أنها قبل سنتين أو ثلاث كانت مكتنزة الجسم متوردة الخدّين، تتحدث عن العرسان وتطلق ضحكتها المدوية لأتفه الأمور.

استدارت الترويكا قرب بوابة المدينة، ثم توقفت قرب الدير بعد مضي عشر دقائق، فنزلت أوليا فيما كانت أجراس الكنيسة تُقرع الآن في برجها.

ـ باركِكم الله. قالت أوليا، وانحنت على طريقة الراهبات.

ـ أرجوك يا أوليا، زورينا.

ـ سأفعل، سأفعل. وابتعدت أوليا سريعة الخطى، وسرعان ما ابتلعتها البوابة المظلمة. وما إن استأنفت الترويكا انطلاقها حتى شعر الجميع بكآبة ثقيلة.

لم ينبس أحد ببنت شفة. وشعرت صوفيا لفوفنا بوهن في أوصالها وخارت عزيمتها، لقد خيّل إليها أنّ إجبارها الراهبة على ركوب العربة والتنزه برفقة ثملة تصرّف غبي غير لبق، ويكاد يكون استهتارا بالمقدسات. زال ثملها وكذلك رغبتها بخداعِ نفسها، وغدا واضحاً لها أنها لا تحب زوجها، وليس بمقدورها أن تحبه أبداً، وأن الأمر برمّته هراء وحماقة. لقد تزوجت زواج مصلحة، قوامه، وفقاً لرأي زميلاتها، أن الزوج فاحش الثراء، وانه لأمر مرعب أن تبقى عانساً، مثل ريتا! ثمّ إنها ملّت أباها الطبيب وأرادت إغاظة فولوديا الصغير.

ولو كانت قادرة أن تخمّن قبل الزواج أنه سيصعب عليها التحمل الذي سيكون أمراً فظيعاً وبشعاً، لكانت رفضت هذا الزواج ولو عرضوا عليها كل ثراء العالم. ولكن ما حصل لا يمكن تغييره الآن، وعليها قبوله. حين رجعوا إلى المنزل، استلقت في سريها الدافئ الناعم، وألقت الأغطية على نفسها، فتذكرت رواق الكنيسة المظلم ورائحة البخور، والهيئات المنتصبة بجانب الأعمدة. كانت تريعها فكرة أن هؤلاء الأشخاص سيبقون واقفين هناك بلا حراك طوال فترة نومها، وأن صلاة الفجر ستدوم وقتا طويلاً جداً، ثم تعقبها ساعات، ثم صلاة النهار وبعدها الصلوات القصيرة.

"ولكن الإله موجود حقاً، إنه موجود على الأرجح. ولا شك أني سأموت، وهذا يعني أنه يتوجب على المرء عاجلا أم آجلاً، أن يفكر في الروح والحياة الأبدية، مثل أوليا. لقد حصلت أوليا على الخلاص الآن، لقد حسمت كل الأمور مع نفسها، ولكن، إذا لم يكن هناك إله؟ ستكون حياتها قد هدرت سدىً، أتكون قد ضاعت فعلاً؟ ولِمَ تضيع؟ وبعد دقيقة خطرت في ذهنها فكرة: إن هناك إلهاً، والموت آتٍ لا محالة، وعلى المرء أن يفكر في روحه، إن كان مقدّراً

على أوليا أن تلاقي حتفها في هذه اللحظة بالذات، فإنها لن تجزع، إنها مستعدة، ولكن الشيء المهم هو أنها قد حسمت أمور حياتها مع نفسها سلفاً".

هناك إله.... أجل... ولكن، أما هناك من طريقة غير الترهب؟ فالالتحاق بالدير يعني حقاً إيقاف الحياة وتدميرها". تملكها الخوف قليلاً، فغطت رأسها بالمخدة.

- يجب ألا أفكر في هذا... يجب ألا أفكر...

كان ياغيتش يذرع الغرفة المجاورة جيئة وذهاباً، يخشخش بمهمازه على نحوٍ خافت مستغرقاً بالتفكير بأمر أو بآخر. باغت صوفيا لفوفنا التفكير بأن هذا الرجل كان قريباً وعزيزاً عليها لمجرد سبب واحد، وهو كون اسمه فولوديا أيضاً، فجلست في سريرها ونادت بلطف: فولوديا.

- ما الأمر؟ ردّ زوجها.

- لا شيء.

وعادت إلى الاستلقاء.

تناهى إلى سمعها طنين أجراس، ربما كان مصدره الدير نفسه. وذكرتها هذه الأجراس من جديد برواق الكنيسة والهيئات المظلمة المنتصبة. دارت في ذهنها أفكار عن الإله وعن الموت المحتّم، غطت رأسها كي لا تسمع هذا الطنين.

فكرت: إن أمامها حياة طويلة تفصلها عن الشيخوخة والموت، ويتوجب عليها أن تتحمّل الحياة قرب الرجل الذي لا تحبّه، والذي ولج الآن إلى غرفة النوم وهو في طريقه إلى الفراش، وستكون مجبرة أن تكتم في نفسها حبّها اليائس لرجل آخر، فتي وجذاب، رجل بدا لها شخصاً خارقاً.

ألقت نظرة على زوجها وأرادت أن تقول له تصبح على خير، إلا أنها عوضاً عن ذلك انفجرت باكية. كانت مستاءة من نفسها.

- حسناً، ها قد بدأت الموسيقى - قال وهو يمطّ حرف الياء.

استعادت صوفيا لفوفنا هدوءها، ولكن بعد مرور فترة طويلة نسبياً، حوالي العاشرة صباحاً. توقفت عن البكاء والارتعاد، ولكن عوضاً عن ذلك تملكها صداع شديد.

كان يا غيتش يسرع بالاستعداد للقدّاس المتأخر، وهو في الغرفة المجاورة يزمجر في وجه خادمه الذي يساعده على ارتداء ثيابه. دخل إلى غرفة النوم وهو يخشخش بمهمازه على نحو خافت. أخذ شيئاً ما، ثم دخل مرّة أخرى مرتدياً كتفيتيه وأوسمته، ويعرج في مشيته على جري عادته بسبب الروماتيزم. ولسبب ما خيّل لصوفيا لفوفنا إنه كان يمشي وهو يتلفت حوله كحيوانٍ مفترس.

سمعته يتكلّم بالهاتف: من فضلك اعمل معروفاً، صلني مع ثكنات فاسيلفسكي! ـ ثم استأنف بعد لحظة: ثكنات فاسيلفسكي؟ اطلب من السيد ساليموفيتش أن يكلمني من فضلك...

وبعد لحظة أخرى: من يكلمني؟ أهذا أنت يا فولوديا؟ إني سعيد جداً لسماعك، يا عززي: اطلب من والدك أن يعرج علينا فوراً. فزوجتي في حالة سيئة جداً بعد نزهة البارحة... ليس في المنزل؟... هممم... شكرا لك. يا للروعة!... إني ممتن جداً... مرسي.

دخل ياغيتش إلى غرفة النوم للمرة الثالثة، فانحنى فوق زوجته ورسم إشارة الصليب، ثم مدّ يده لتقبّلها ـ فالنساء اللواتي أحببنه كنّ يقبّلن يده دوماً، وقد كان معتاداً على ذلك ـ قال إنه سيعود للعشاء وخرج.

في الثانية عشرة أعلنت الخادمة عن قدوم فلاديمير ميخايلتش، فنهضت صوفيا لفوفنا مترنحة بسبب وهنها وصداعها. وسرعان ما ارتدت ثوبها الليلكي المزيّن بالفرو، واللافت للنظر، مشّطت شعرها على عجلة منها كيفما تفق. شعرت برقة في قلبها تفوق حدود الوصف. كانت ترتجف فرحاً وخوفاً من أن يذهب.

آه ليتها فقط تستطيع أن تراه!

جاء فولوديا الصغير زائراً وهو على أتمّ هندام يرتدي لباساً رسمياً ولفاعاً أبيض. وعندما دخلت صوفيا لفوفنا ردهة الاستقبال قبّل يدها وعبّر عن أسفه الشديد حيال توعكها. بعدئذ أطرى ثوبها عندما جلسا.

ـ لقد انزعجت من رؤية أوليا البارحة ـ قالت ـ في البداية ساورني شعور رهيب، ولكنني الآن أحسدها. إنها صخرة صمّاء يصعب تحطيمها، ولن يكون

بوسع أحد أن يزحزحها من مكانها أبداً. ولكن يا فولوديا: أما كان أمامها من مخرج آخر تسلكه؟ أيجب على المرء حقاً أن يئد نفسه حياً ليحلّ لغز الحياة؟ أتعرف؟ إنه موت بحد ذاته وليس حياة.

ظهر تعبير لطيف على وجه فولوديا لدى ذكر أوليا.

ـ أنت شخص ذكي يا فولوديا ـ قالت صوفيا لنوفنا ـ علّمني كيف أفعل ما فعلته هي تماماً. إنني بالطبع لست مؤمنة؛ وليس بمقدوري أن أدخل ديراً لكن لابد أن يكون هناك ما يماثل هذا الخيار قيمة... إن حياتي ليست سهلة ـ تابعت بعد لحظة صمت ـ أخبرني... قل لي شيئاً مقنعاً، كلمة واحدة تفي بالغرض.

ـ كلمة واحدة؟ هاك إذاً: تارارا ابومبيا.

ـ لماذا تحتقرني يا فولوديا. سألته باندفاع ـ فأنت تستخدم هذه اللغة ـ اعذرني ـ الساذجة والعابثة عندما تتحدث إلي بالذات، وهي ليست من النوع الذي يستخدمه الناس مع أصدقائهم أو مع نساء محترمات. إنك ناجح جدا كإنسان متعلم، فأنت تحب العلوم، ولكنك لا تتكلم معي أبداً عن العلوم؟ لماذا؟ ألست أهلا لذلك؟

تضايق فولوديا الصغير فغضن وجهه وقال: لماذا تريدين أن تتكلمي عن العلوم فجأة؟ لعلك تريدين الدخول بنقاش عن البنية؟ أو ربما عن سمك الحفش مع الفجل الحرّيف؟

ـ جيد. حسناً، إنني امرأة تافهة سيئة مجرّدة من القيم، وغبية... ارتكبت مئات المئات من الأخطاء. إنني مريضة نفسياً وفاسقة وأستحق الاحتقار على هذا النحو، ولكن انظر يا فولوديا، أنت تكبرني بعشر سنوات وزوجي يكبرني بثلاثين سنة، إنني ترعرعت أمام ناظريك، ولو أردت، لكان في مقدورك أن تجعل مني ما تشاء حتى ملاكا، ولكنك ـ وهنا ارتجف صوتها ـ عاملتني على نحو مريع، وتزوجني يا غيتش عندما كان مسنا أصلاً وأنت...

ـ هذا يكفي، هذا يكفي ـ قال فولوديا وهو يقترب في جلوسه منها ويقبّل كلتا يديها ـ لندع شوبنهاور وأمثاله لفلسفتهم واثبات ما يريدون إثباته، أما نحن فدعينا نقبل هاتين اليدين الصغيرتين.

- أنت تحتقرني بالفعل، ليتك تعرف فقط كم يعذبني هذا! قالت بتلكؤ وهي تعرف سلفاً أنه لن يصدقها.

- ليتك تعرف فقط كم أريد أن أكون امرأة أخرى، وأن أبدأ حياة جديدة، إنني أفكر في هذا ببهجة غامرة.

- وبالفعل فقد ذرفت قليلاً من دموع الفرح عندما قالت ذلك - لأن تكون إنساناً طيباً شريفاً طاهراً، ألا تكذب، وأن يكون لك هدف في الحياة!

- هيا، هيا، هيا لا تبدئي بالتظاهر، فأنا لا أحب هذا. قال فولوديا واتخذ وجهه تعبيراً متقلباً - يا إلهي، لكأنك على خشبة المسرح، دعينا نتصرف كأناس حقيقيين.

ولكي لا يغضب ويرحل، طفقت تجد الأعذار لنفسها، وأجبرت نفسها على الابتسام بغية إرضائه، وعاودت الحديث عن أوليا وكيف تمنّت هي أيضاً أن تحلّ مشكلات حياتها، وأن تصبح إنساناً بحق.

- تارا.. را.. مبيا - غنى هامساً - تا..را..بومبيا.

وفجأة طوّق خصرها، فوضعت يديها على كتفيه، جاهلة ما تفعل. ولدقيقة ظلت تنظر بنشوة كما لو كانت مخدّرة، إلى وجهه الذكي والساخر، وإلى جبينه وعينيه ولحيته الرائعة.

- لقد عرفت لمدّة طويلة أني أحبك - اعترفت واحمرّت خجلاً وألماً، بل وشعرت بأن شفتيها التوتا بتشنج من أثر الخجل - إني أحبك حقاً، فلماذا تعذبني؟. أغمضت عينيها وقبّلته بشغف في شفتيه، ولعله مضى من الوقت دقيقة كاملة قبل أن تستطيع حمل نفسها على إنهاء القبلة، رغم أنها كانت تدرك أن هذا لا يجوز البتة، وأنه قد يدينها هو نفسه، أو أن الخدم قد يدخلون إلى الغرفة...

- آه، كم تعذبنيّ - رددت.

بعد مضي نصف ساعة، وكان قد حقق ما أراد، جلس في غرفة الطعام وتناول وجبة خفيفة، بينما ركعت هي بجانبه وراحت تحملق في وجهه بشراهة . قال لها إنها تبدو مثل كلب أليف ينتظر من صاحبه أن يرمي له ببقية من لحم، ثم أجلسها على إحدى ركبتيه وغنّى وهو يؤرجحها: تارا ... رابومبيا!

عندما كان يهمّ بالمغادرة، سألته بصوت متأثر: متى؟ اليوم؟ أين؟ وأطبقت كفيها على فمه كما لو كانت تسعى إلى سحب الجواب بيديها.

ـ سيكون صعباً اليوم ـ قال بعد أن فكّر ملياً ـ ولكن ربما غداً. ثم افترقا.

قبل العشاء، ذهبت صوفيا لفوفنا إلى الدير لرؤية أوليا؛ ولكنّهم أخبروها هناك بأن أوليا ذهبت لتقرأ من سفر المزامير على روح امرأة توفيت. خرجت صوفيا من الدير وتوجهت إلى بيت أبيها، إلا أنها لم تلقه في المنزل أيضاً. بعدئذ غيّرت العربة وراحت تتجول في الشوارع والطرق الفرعية دون أيّما هدف؛ واستمرّت على حالتها تلك حتى حلول المساء؛ ولسبب ما، تذكرت خالتها الدامعة العينين، العاجزة عن إيجاد الطمأنينة أبداً.

في تلك الليلة، خرجوا مرّة أخرى في الترويكا، واستمعوا إلى غناء الغجر في مطعم خارج البلدة، وعندما عبروا من أمام الدير ثانية، تذكرت صوفيا أوليا، فأرعبها التفكير بأن فتيات ونساء طبقتها الاجتماعية لا يجدن مخرجاً سوى ركوب الترويكا دوماً، والكذب، أو الالتحاق بالدير وإماتة الجسد.

في اليوم التالي كان ثمّة لقاء آخر، وعادت صوفيا لفوفنا إلى التجوال وحدها في عربة مستأجرة حول المدينة، وتذكرت خالتها من جديد.

انفصل فولوديا الصغير عن صوفيا لفوفنا بعد أسبوع، ثم عادت الحياة إلى مجاريها كما كانت من قبل، مملة، حزينة، بل وحتى مؤلمة في بعض الأحيان. كان الكولونيل يلعب البلياردو أو البوكيت مع فولوديا الصغير لساعات، وكانت ريتا تروي النكات بطريقتها الذابلة السمجة؛ بينما كانت صوفيا لفوفنا تتجوّل في عربة مستأجرة باستمرار وتتضرع إلى زوجها كي يأخذها للتنزّه بالترويكا.

أضجرت صوفيا لفوفنا أوليا، إذ كانت تزورها في الدير كل يوم تقريباً، فتشكو لها عذابها الذي لا طاقة لها على احتماله، وتبكي وتشعر في الوقت نفسه أن ثمّة شيئاً نجساً، مثيراً للشفقة وخسيساً قد دخل معها إلى صومعة الدير. وكانت أوليا تقول لها آلياً وبلهجة امرئ يتلو درساً محفوظاً، بأن لا شيء من هذا له أدنى قيمة، وبأن كل هذا سيمضي، وأنّ الله سوف يسامحها.

□□

المنتقم

انطون تشيخوف

ت: مالك صقور



هرع فيودر فيودرفيتش سيغايف إلى متجر أسلحة شموكس وشركاه، بعد أن ضبط زوجته بالجرم المشهود؛ وشرع بانتقاء المسدس المطلوب؛ وقد عبرّت سحنته عن حزن وغضب، وعن قرار حازم لا رجعة فيه.

«أعرف ماذا سأفعل» ـ فكر في نفسه ـ لقد تحطمت الأسس العائلية وانغمس الشرف بالوحل، وانتصرت الرذيلة. ولهذا كله، وأنا كمواطن وإنسان شريف، يجب عليّ أن أنتقم: «أقتلها وعشيقها أولاً، وبعدئذ أقتل نفسي..».

هكذا كان يفكر، ولم يكن قد اختار مسدساً بعد ولم يكن قد قتل أحداً بعد، إلا أن مخيلته، رسمت له ثلاث جثث مدماة، وثلاث جماجم محطمة، والنخاع قد نبق منها، وهرجاً ومرجاً وحشداً من المتسكعين وتشريح الجثث. وتخيل بشماتة الإنسان المهان، استهوال الأقارب والجمهور، واحتضار الخائنة، وتخيل أيضاً افتتاحيات الصحف وهي تشرح أسباب انهيار الأسس الأسرية.

كان البائع ذا هيئة فرنسية، وكرش، مندلق، كثير الحركة، يرتدي صدارة بيضاء اللون ـ قد وضع أمام الزبون أنواعاً مختلفة من المسدسات.

ابتسم البائع بإجلال ودق أحد كعبيه بالآخر، وقال:

ـ بودي أن أنصحك مسيو، أن تأخذ هذا المسدس الرائع ـ ماركة سميث وبسون ـ آخر ما نطق به علم الأسلحة، ذو ثلاث حركات ومزود بقاذف فوارغ. يقتل على بعد ستمائة خطوة، ويشحن من الخلف وألفت انتباهك مسيو، إلى نظافة البضاعة، إنها آخر موديل يا سيد.. إننا نبيع عشرة منها يومياً، من أجل قطاع الطرق، والذئاب، والعشاق أيضاً، إنه مسدس مضمون، ومجرب. يقتل على مسافة بعيدة. يقتل الزوجة وعشيقها بطلقة خارقة واحدة، أما فيما يتعلق بحوادث الانتحار، فحدث ولا حرج عن هذه الماركة.

رفع البائع الزناد وخفضه، ومن ثم زفر على ماسورة المسدس، وشرع يسدد، وتصنع أنه يتنهد من الغبطة. فنظرة واحدة إلى وجه البائع الذي شع حبوراً، تحمل المرء، على الاعتقاد، أنه يود أن يطلق في جبينه، من شدة هيامه بماركة «سميث وبسون» وأخيراً نطق سيغايف:

ـ كم سعره؟

ـ خمسة وأربعون روبلاً، مسيو..

ـ هَمْ! إنه غال.

ـ في هذه الحال، مسيو، أقترح ماركة أخرى، بسعر أرخص. إنه لمن المفيد، أن ترى.. فمجال الاختيار عندنا واسع، مسيو.. وبمختلف الأسعار. خذ هذا المسدس، مثلاً، ماركة «ليفوشيه» ثمنه ثمانية عشر روبلاً فقط.. لكن.. «وصعرَ البائع خده بسخرية» ولكن، هذه الماركة أصبحت قديمة مسيو، ولا يشتريها إلا البروليتاريون العقلاء، والمريضات نفسياً. أن ينتحر المرء، أو يقتل زوجته بمسدس ليفوشيه، يعتبر ضعة، وحماقة. أما الماركة المعتبرة، فهي ماركة سميث وبسون.

ليس لي حاجة به للانتحار، أو القتل ـ قالها بلهجة، كاذبة، وبوجه عبوس، إني أبتاعه، من أجل الفيلا الصيفية. كي أخيف اللصوص.

ـ لا شأن لنا البتة، لماذا تبتاعون المسدسات، وابتسم البائع، خافضاً بصره بتواضع. فلو أننا نتحرى عن أسباب الشراء في كل مرة لاضطررنا أن نغلق مخزننا مسيو.. ولكن من أجل تهديد اللصوص، فإن مسدس ليفوشيه، لا يصلح لهذا الغرض

مسيو، لأن صوته غير قوي، ويمكن القول إنه مبحوح. ولهذا الغرض، أقترح مسيو، مسدساً عادياً، من نوع كبسولي، ماركة مورتيمر ـ وهو للمبارزة، كما يسمونه.

«أأدعوه إلى المبارزة؟ ومضت هذه الفكرة في رأس سيغايف ـ بيد أن هذا شرف كبير له. حيوانات كهؤلاء يجب أن تقتل كالكلاب..».

وضع البائع كومة كاملة من المسدسات أمام سيغايف، وكان يتحرك برشاقة وظرافة، ولا ينقطع عن الابتسام والثرثرة. وسيغايف وقف مشدوهاً يتأمل ماركة ـ سميث وبسون التي بدت هي الأكثر جاذبية وهيبة ـ وما لبث أن أخذ مسدساً منها بكلتا يديه. ونظر إليه ببلاهة، وغرق في أفكاره:

رسمت له مخيلته من جديد، كيف سيحطم رأس الخائنة، وكيف سيسيل الدم على السجادة، والأرضية الخشبية، وكيف سترتجف وهي محتضرة.. إلا أن ذلك كله، بالنسبة إلى روحه الممتعضة المهانة، كان قليلاً جداً. ولم ترضه كل اللوحات الدموية، وكل الصراخ والفظاعة، التي تخيلها.. كان من الضروري أن يفكر بشيء أكثر فظاعة.

.. وفكرّ:

«ها ها ، أقتله، ثم أقتل نفسي. أما هي فأتركها حية، تموت ببطء من تبكيت الضمير، واحتقار المجتمع لها. وبالنسبة إلى طبيعتها العصبية،فإن هذه العقوبة، أقسى من الموت».

وتخيل من جديد مراسم دفنه: يضجع هو في التابوت مذلاً مهاناً. ويفتر ثغره عن ابتسامة وادعة. وهي تمشي خلف النعش شاحبة مرهقة من عذاب الضمير، ولا تعرف كيف تستر نفسها من نظرات الاحتقار المدمِّر. الموجهة من الجمهور الساخط.

وقطع البائع تخيلاته، قائلاً: أرى، مسيو، أن ماركة ـ سميث وبسون ـ تعجبك. وإذا كنت تعتقد أنه غال، فاسمح لي، مسيو أن أتنازل عن خمسة روبلات.. وبالمناسبة، يوجد لدينا ماركات أخرى، بأسعار أرخص.. وتحركت القامة الفرنسية برشاقة، وتناولت من على الرف مجموعة أخرى من المسدسات بأغلفتها.

ـ خذ مسيو، هذا بثلاثين روبلاً / إنه ليس غالياً، خاصة، وأن قيمة العملة، أصبحت منخفضة جداً، والرسوم الجمركية، ترتفع في كل ساعة. مسيو أقسم بالرب، مسيو، أنا شخص محافظ ولكن صدقني مسيو، إن قيمة العملة والتعرفة، قد جعلتا الأغنياء فقط يمتلكون السلاح. ولم يبق للفقراء، إلا أن يقتنوا الأسلحة القديمة

المنسقة، والثقاب الفوسفوري. والأسلحة هذه مصيبة، فإذا أطلقت منها على زوجتك، فإن الطلقة ترتد إلى كتفك.

وفجأة، أصيب سيغايف بألم وأسف، عندما تصور نفسه ميتاً، ولم يرَ عذاب الخائنة، فإن الأخذ بالثأر، يغدو لذيذاً، فقط عندما تقطف ثماره بيديك، وماذا سيجني، إذا ما استلقى ميتاً في التابوت، ولن يرى شيئاً من عذابها؟!

«ألا أفعل ما يلي؟ فكر من جديد: أقتله، وأمشي في جنازته، وأراقب ماذا سيجري. وبعد دفنه، أقتل نفسي..».

ولكن يمكن أن يعتقلوني، ويجردوني من السلاح قبل الدفن..لا..لا سأفعل هكذا: أقتله أما هي فأتركها حية. وأنا، أنا لن أقتل نفسي، بل أسلم نفسي للسلطات المختصة، فدائماً أجد الوقت كي أقتل نفسي، والفائدة من تسليمي نفسي تتلخص، بأنني في أثناء التحقيق الأولي، ستتاح لي الفرصة لأعرض أمام السلطة والمجتمع، كل تصرفاتها الوضيعة. أما إذا قتلت نفسي، فبراعتها المعهودة، وكذبها وفجورها، ستجعل مني مذنباً، وسيصدقها المجتمع وحتى سيسخر مني. أما إذا بقيت حياً فإن..!

بعد دقيقة واحدة، فكر...

«..أجل، إذا قتلت نفسي، فإنهم سيتهمونني، ويصمونني بضحالة المشاعر ويحتقرونني.. وبالفعل، لماذا سأقتل نفسي؟ هذا أولاً، وثانياً: أنْ انتحر، معنى ذلك، إني جبان. إذن أقتله، وأتركها تعيش. وأنا أذهب إلى المحكمة. سيحاكمونني، وستحضر هي كشاهدة، وأتخيل ارتباكها، والعار الذي يلحقها عندما يستجوبها وكيلي المحامي، وحتماً، ستكون عواطف القضاة، والجمهور والصحفيين إلى جانبي..»

كان يفكر على هذا النحو، فيما كان البائع يأتيه ويسطر أمامه أنواعاً جديدة من المسدسات، معتبراً أن من واجبه أن يشغل هذا الزبون.

ـ هذه ماركة انكليزية جديدة، استلمناها منذ فترة قريبة، لكني أنصحك مسيو، أن كل هذه الماركات تصغر أمام ماركة سميت وبسون. منذ أيام خلت، لاشك، أنك قرأت ذلك الخبر مسيو، ابتاع أحد الضباط مسدساً من عندنا، ماركة سميت وبسون، وأطلق على عشيق زوجته، وماذا تتوقع النتيجة؟ لقد انطلقت الرصاصة، فاخترقته

وأصابت غطاء المصباح البرونزي، ومن ثم أصابت البيانو فانزلقت وارتدت عنه، وقتلت الكلب، وأصيبت الزوجة بمرض عصبي. إنها نتيجة رائعة تشرّف شركتنا. والضابط الآن موقوف في النظارة.. سيجرّمونه طبعاً إنه متهم. وسيرسلونه إلى سجن الأشغال الشاقة. أولاً، ما زالت القوانين عندنا، بالية وعتيقة. وثانياً مسيو، إن المحكمة عندنا، دائماً إلى جانب العشيق. لماذا؟ ببساطة مسيو، إن القاضي، والمدعي العام، والمحامي والمحلفين، يعاشرون عشيقات؛ أي غير زوجاتهم. وبالنسبة إليهم، من الأفضل، لو أن روسيا أصبح فيها عدد الأزواج أقل. وسيشعر المجتمع بالغبطة، إذا نفت الحكومة جميع الأزواج إلى جزيرة ساخالين، أوه، مسيو، إنك لا تدري، ما أشد غيظي، وحنقي من انحطاط الأخلاق المعاصرة وانحلالها. لقد أصبح عشق زوجات الآخرين الآن عادة، كتدخين سجائر الآخرين وقراءة الكتب المستعارة من الآخرين.. إن تجارتنا تخسر عاماً بعد عام، وهذا لا يعني أن عدد العشاق يتناقص؛ بل يعني أن الأزواج يقتنعون بواقعهم. إنهم يخافون المحكمة والأشغال الشاقة. وتلفت البائع حواليه، ثم تابع هامساً: ومن هو الملام مسيو؟ الحكومة!

«أأذهب إلى ساخالين، بسبب هذا الخنزير، ليس عقلاً فكر سيغايف ـ فإذا ما ذهبت إلى الأشغال الشاقة، فإني أتيح بذلك الفرصة، كي تتزوج الخائنة ثانية، وتخدع زوجها الثاني.. وهذا بالنسبة إليها نصر حقيقي. إذن. سأتركها حية، ولا أقتل نفسي.. وهو .. وهو لا أقتله. يجب التفكير بشيء أكثر عقلانية وأقوى تأثيراً.

سأعاقبها بالاحتقار، وأرفع دعوى طلاق فاضحة..».

ـ وهذه مسيو ماركة جديدة، قالها البائع، وهو يتناول كدسة مسدسات جديدة من على الرف، ألفت انتباهك مسيو إلى آلية الإغلاق المبتكرة، إلا أن سيغايف، بعد اتخاذه القرار الأخير، لم يعد المسدس ضرورياً له. غير أن البائع ما زال بخفته المعهودة، يعرض أنواعاً جديدة من بضاعته. بيد أن الزوج المهان، شعر بوخز الضمير، لكثرة ما عذب البائع عبثاً، وجعله يبدي انبهاره ويبتسم، ويهدر الوقت عبثاً.. تمتم قائلاً:

ـ حسناً، في هذه الحال سآتي في وقت آخر، أو.. أو أرسل أحداً ما..

لم ينظر إلى البائع كي لا يرى تعابير وجهه، ولكن كي يخفف قليلاً من شعوره بالحرج، رأى أنه من الواجب أن يشتري شيئاً ما من عنده، ولكن ماذا سيشتري؟ أجال بصره في أنحاء الحانوت، كي ينتقي شيئاً، بسعر رخيص، فوقعت عيناه على شبكة خضراء اللون، معلقة قرب الباب.

ـ هذا.. ما هذا؟.. سأل هو.

ـ هذه شبكة من أجل صيد الحجل.

ـ كم سعرها؟

ـ ثمانية روبلات، مسيو.

ـ صرّها لي.

دفع الزوج المهان ثمانية روبلات وتناول الشبكة، وخرج من الحانوت شاعراً بنفسه الخزي والذل، أكثر من ذي قبل. ■





الخطيــــب ...

لأنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

«كتب هذه القصة الممتعة أنطون تشيكوف أمير القصصيين فى روسيا ، منذ حوالى نصف قرن ... ويسرنا أن نقدمها إلى قراء الرسالة مثالا للحياة الاجتماعية فى ذلك العهد المظلم ... ولعل تلك القصة من القلائل التي أجاد فيها قلم تشيكوف الفكاهى فى أسلوب ممتع ومغزى طريف ، يتخللها نقد صريح للتقاليد والعادات التى كانت تغل الناس فى ذلك الحين ... » مصطفى

... فى صبيحة يوم مشرق كان « كيريل إيفانفتش بيلونوف » كاتب الجامعة على وشك أن يُدفن ، وهو رجل مات متأثراً بالآفتين الشائعتين فى بلادنا : زوجة سيئة الخلق ، وإدمان للخمر

وبينما كان موكب الجنازة يجتاز الطريق إلى المقبرة قفز أحد رفقاء المرحوم ويدعى « بيلافسكى » إلى عربة ، وراح يركض بها منقباً عن « جرجورى بتروفتش زبوكين » ، وهو رجل — مع حداثته — يتمتع بهيبة ومحبة من معارفه ، ويحيط بقسط وافر من العلم — كمعظم قرائى — وقد خلع الله عليه موهبة نادرة فى ارتجال الأحاديث التى ينطلق لسانه بها فى الأعراس والأعياد والجنازات ، وفى قدرته أن يتحدث كيفما وحينما يشاء ... فى نومه ، فى خواء معدته ، عند ما ينتشى لكثرة ما نهل من الخمر ، عندما تعتريه الحمى فتسيل الألفاظ من فمه فى سلاسة ولطف كما تنساب المياه فى الجداول ، ويعج قاموسه الخطابى بكلمات لا تدانيها « صراصير » المطاعم فى الغزارة والوفرة . أما أسلوبه ففصيح بليغ يفيض بالإطناب والإسهاب ، ولذا يلجأ القوم — فى بعض أعراس التجار — إلى الاستعانة بالشرطة لإيقاف ذلك السيل المتدفق ...

وابتدره بيلافسكى حينما عثر عليه فى داره قائلا : « لقد أتيت فى طلبك — أيها العجوز — هيا ارتد قبعتك وسترتك على عجل واصحبنى ... فقد مات أحد رفقائنا ونحن على وشك أن نشيعه إلى الآخرة ، ولذا وجب عليك أن تودعه بكلمة من كلماتك الرائعة فأنت أملنا الوحيد ، ولولا أن ذلك الفقيد له مقام فى المجتمع ويستحق ما يقال فى تأبينه لما أتعبناك وأزعجناك ، ولكنك تعلم أنه كاتب الجامعة وناموسها والدعامة الراسخة التى كانت تعتمد عليها الإدارة ، فينبغى أن نشيعه ولو بحديث لائق ... » فقال زبوكين بغير اكتراث : « هه ... كاتب الجامعة ! أتعنى ذلك الرجل السكير ؟ ! »

— « نعم . سيكون ثمت فطائر وغذاء ، وستنال أجرة العربة ... هيا ، عجّل يا عزيزى ، يكفيك أن تلقى ببعض الألفاظ الحزينة عند القبر كما كان يفعل سيكرو العظيم ... آه كم ستحوز من الشكر والثناء ! » .

فوافق « زبوكين على الفور وراح يعبث بغدائر شعره وجعل على سحنته مسحة كآبة وحزن ، وانطلق فى الطريق بصحبة « بيلافسكى » ، وقال وهو يهم بركوب العربة : « إنى أعلم من هو كاتبكم هذا ... رجل شرير خبيث ، وحش لم أصادف نظيره فى حياتى ... فليكن الله فى عونه » .

— « آه ... « جريشيا » هيا معنا فليس من العدل أن نسىء إلى رجل ودع الحياة » .

— « لا مجال للشك فى ذلك : « فما يُذكر للميت سوى حسناته » ولو كان شريراً ... » .

وأدرك الرفاق الثلاثة موكب الجنازة ، وراحوا يسيرون معه . أما النعش فكان يتقدم وئيداً وعلى مهل حتى أنهم استطاعوا — قبل وصولهم إلى المقبرة — أن ينسلوا ثلاث مرات إلى حانة خمر وينهلوا بعض الأقداح « نخب » حياة الراحل « الكريم » .

وفى المقبرة راح الجميع يصلون إلى جانب اللحد ... أما حماته وزوجته وأختها فأخذن يذرفن الدمع — مراعاة للتقاليد والعادات — وعندما واروا النعش فى التراب صرخت الزوجة فى لوعة وأسى « دعونى أرحل معه » ولكنها لم تصحب زوجها إلى القبر فقد تذكرت ما ستنال من معاش الفقيد ...

ولبث « زبوكين » حتى خيّم الصمت على الجميع ... فخطا إلى الأمام ... وراح يقلب طرفه فى الحاضرين ... وبدأ يقول :

« ألصدق ما تراه مقلتاى ، وما تسمعه أذناى ؟.. لا . إنْ هـذا إلا أضغاث حلم مزعج ... هذا القبر ، هذا الدمع الذى يتألق على الوجنات ... هـذه الأنات وهذه الزفرات ... أهذا كله وهم ؟ لا وا أسفاه ما هذا بحلم ... إنما هى الحقيقة وأعيننا لا تخدعنا ... لقدقضى نحبه من كان بيننا منذ لحظات ، من كان أمام أعيننا كالنحلة الدؤوب ... لا يقرّ قرارها حتى تخرج العسل شهياً لصالح الخلية الاجتماعية ... لقـد اوتد الآن إلى التراب ... إلى التراب الخداع ، لقداختطفته يد المنون القاسية الجبـارة فى لحظة كان يفيض فيها — مع تقدمه فى العمر — بالحياة والقوة والطموح . إنها لعمرى خسارة لا تعوض ... ترى من سيخلفه فى منصبه ، لا شك أن فى حوزتنا من هو كفء لها ، ولـكن « بروكوفى اسبتسن » معدوم النظير ... لقد كان منصرفاً إلى تأدية واجبه بما وسع مقدوره ... لم يضنّ بقوته بل كان يجهد نفسه فى العمل إلى لحظات متأخرة من الليل ... كان مثلا عالياً للقلب الطيب والضمير المنزه عن الرشوة ، كم كان يحتقر أولئك الذين يأكلون مال الناس بالحق وبالباطل ... لا يفتأون يحللون له الضلال ليحيدوا به عن السبيل السوىّ ... نعم أمام أبصارنا « بروكوفى اسبتسن » الذى يجود براتبه لإخوانه التعساء ... كم ستطرق آذاننا تلك الأنات التى تطلقها الأرامل واليتامى بعد أن قضى نحبه من كان يحسن إليهم ، من كان منصرفاً إلى أعمال البر وإلى تأدية واجبه ... من كان عزوفاً عن ملذات الحياة وبهجتها ... من نبذ سعادة هذا المجتمع ... بل نبذ الزواج وجانب النساء إلى آخر أيامه ... مَن ذلك الذى فى قـدرته أن يخلفه كرفيق نجيلنا على حبه ... وكأنى أنظر إلى وجهه الحليق تعـلوه الرجة يلتفت إلينا وعلى ثغره ابتسامة مشرقة ... وكأنى أنصت إلى صوته الحنون الشفيق . أسأل الله أن يشملك برحمته يا بروكوفى أسبتسن فقـد كنتَ شريفاً أميناً مع ما فى ذلك من عناء ... » .

وواصل زبوكين حديثه ... بينما شاع الهمس بين المنصتين ، لقد أرضى حديثه الجميع . بل وجمل بعض الدموع تنهمر من المآقى ... ولـكن بدت معظم الفقرات الخطابية غريبة ؛ فأولا : لم يدركوا السبب الذى دعا الخطيب من أجله الفقيد باسم « بروكوفى اسبتسن » مع أن اسمه « كيريل ايفنفتسن » . ثانياً : أن الجميع يعلم ما كان ينشب بين الراحل وزوجته من الشجار . فمن المؤكد إذن أنه لم يكن أعزب كما نعته « الخطيب » . ثالثا : كان ذا لحية كثة حمراء وهـذا يتنافى مع قول الخطيب من أنه كان « حليق الوجه » . ولهـذا أعجز الجميع فهم معظم أقوال الخطيب ... وعلا وجوههم الوجوم ، وبهتوا وأخذ يتلفت بعضهم إلى البعض ، بينما راح فريق منهم يهزّ أكتافه فى ملل وضجر .

واستمر الخطيب فى خطبته — وقد اتخـذ فى وقفته هيئة الحزن . فقال : « بروكوفى اسبتسن ... لقد كان وجهك وضاحا مع أنه قبيح ... كنت عبوساً مقطب الجبين ، ولـكن كلنا يدرك أن تحت هـذا المظهر الخارجى قلباً يغلب عليه الشرف والشفقة والحنان ... » . وفجأة لحظ المستمعون أن الخطيب نفسه بدأ يعتريه شىء من الاستغراب كان يتفرس فى جهة معينة من الجمع النفير . ولم يلبث أن كفّ عن الحديث وفغر فاه فى دهشة ... ثم مال على صديقه بيلافسكى وقال وهو يحملق فى فزع « هه . لقد رأيته ... إنه ما زال على قيد الحياة ؟ ! » .

— « من هو الذى لا زال على قيد الحياة ؟ ! » .

— « بروكوفى اسبتسن !! ها هو قائم عند حجارة القبر !! »

— « إنه لا زال على قيد الحياة ... إنما الذى مات كيريل ايفانفتسن أما بروكوفى اسبتسن فقد كان كاتب الجامعة منذ حين وقد نقـل إلى المنطقة الثانية رئيساً للمكتبة ... » .

— « يا للشيطان الذى أوحى إلى بذلك ! » .

— « لِمَ وقفت عن الحديث ... انطلق عجباً ! ! إنك مضطرب » . والتفت زبوكين إلى القبر ، وفى فصاحته المعهودة تابع حديثه . أما بروكوفى اسبتسن كبير الـكتبة الـكهل ذو الوجه الحليق فقد كان قائماً حقاً قرب حجارة القـبر ... كان ينظر إلى الخطيب شزراً ... وقد انتابته موجة من الغضب .

أخـذ رفقاء زبوكين يتغامزون عليه فى عودتهم « هه ... هه ... يا لك من غر ! عجباً ! أتود أن تدفن رجلا وهو يفيض بالحياة ؟ » ودنا منـه بروكوفى أسبتسن وراح يقول فى تذمر : هذا لا يليق أيها الشاب ، إن حديثك هذا له قيمته إن كان فى رجل قد ودع الحياة ، أما إذا كان يمت إلى رجل حى فهو كلام فارغ وتهكم واستهزاء ... كم تحدثت طويلا عن روحى وعن نفسى ! أيها الأبله ! ماذا كنت تقول ؟ ! مثلا عالياً للقلب الطيب والضمير المنزه عن الرشوة .. إنها كلمات تقال للأحياء على سبيل التهكم ، ومع ذلك من الذى دعاك إلى التحدث بإطناب عن وجهى ؟ ! قبيح عبوس ، ولنفرض أنه كذلك ، ما الذى عاد عليك أيها الأبله من وصف محياى على ذلك الملأ ... إنها والله إهانة لن أغفرها لك

مصطفى جميل مرسى



الحذاء . . .

لأنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسى

قال « مركين » — ضابط البيان — وهو رجل ذو وجه حليق شاحب ساهم ، وأنف ملوث بالسعوط ، وأذنين محشوتين بالقطن ... صاح في صوت أجش وهو يغادر غرفته بالخان ، ويطؤ أرض البهو :

— « سميون ... أيها الساقى » . ولو أن إنساناً لمح وجهه المتقع فى تلك اللحظة لظن أن نظره وقع على شبح يتراقص فى

يعزلها عنها فيمتنع تهيجها . كما ثبت أنه من الميسور استخدام الكورارای فى معالجة الإنسان . وتدل التجارب الأولى على نجاحه لأن المخدر كان يمتص الصدمة العضلية فيستلقى المريض مسترخياً أثناءها بدل أن تتقلص عضلاته ويتحرك فى موجات بالغة العنف .

ومع أن الكورارای لا يفقد المريض شعوره بالألم فقد وجد فيه علماء التخدير مادة ثمينة لأنه خفف مهمة الجراحين إذ جعل المرضى يسترخون فى راحة مما يزيل كثيراً من المضاعفات التى تنتج من حركة المريض ، مما ينبىء لهذا المخدر الجديد بمستقبل جيد فى عالم الطب .

ويرى الأطباء فى هذا المخدر أنه خير علاج لمرض خطير يصيب الشبان فيشل أعصابهم وشفاؤه بالراحة التامة والاستجمام وهو ما يفعله الكورارای فى المريض ويسميه الدكتور بنت بأنه «أقوى وأكمل مخدر عرف لإراحة العضلات وانبساطها » وكلما زدنا علماً بخواصه زدنا استخداماً له فى علاج علل الإنسان .

فوزى الشتوى

غرفته . وما كاد يبصر الخادم يخف مقبلا عليه حتى قال فى هيئة وفزع :

— « سميون ... بالله ما ذا تعنى بذلك ؟ إنى رجل منهوك ، مصاب بالنقرس المزمن ، وقد جعلتنى أسير حافى القدمين ... أين حذائى ؟ ولِمَ لَمْ تأت به ؟ ! »

فولج سميون غرفة مركين ، وراح يحملق فى المكان الذى اعتاد أن يترك فيه الحذاء بعد تنظيفه ... ثم جعل أنامله تعبث بشعر رأسه : فقد اختفى الحذاء ! وأخذ يردد فى صوت خافت :

— « كيف تأتّى لتلك الأشياء اللعينة أن تختفى ؟ ! يخيل إلى أنى نظفتها فى المساء ، ووضعتها هنا ... هه ! إنى لأصرح أنى نهلت بعض الخمر البارحة ، فلعلنى تركت الحذاء فى غرفة أخرى ، وربما كان فى غرفة « أفاناسى بجورتش » . لقد كان أمامى كومة من الأحذية ... تباً للشيطان الذى يزين للانسان الشرب ، ثم يجعله بعد ذلك يفعل ما ليس يدرى ... سيدى ، لا بد أن حذاءك فى غرفة السيدة التى تليك ... الممثلة »

« والآن تدفعنى « سيادتك » إلى إقلاق سيده من أجلك ... أأوقظ سيدة فاضلة لنباواتك وحماقتك ؟ » .. يودنى مركين من باب الغرفة التالية وهو يتنهد ويسعل ... ثم طرق الباب فى حذر ... وبعد هنيهة سمع صوت امرأة تقول « من ... هناك ؟ » فراح مركين يقول فى توسل ، وقد اتخذ فى وقفته هيئة الفارس الذى يخاطب سيده أرق منه طبقة «معذرة لإقلاقك يا سيدتى ... ولكنى رجل منهوك ، مصاب بالنقرس المزمن . وقد أشار علىّ الطبيب بتدفأة قدمىّ ... هذا إلا أنه علىّ أن أذهب فى الحال لضبط بيان قرينة الجنرال « شفليتسين » ولا يمكننى الذهاب حافى القدمين » .

— « ولكن ماذا تبغى ؟ أى بيان ؟ ! » .

— « ليس بيان يا سيدتى ... إنما أشير إلى حذائى . فإن سميون — ذلك الخادم الغبى — نظفه وتركه خطأ فى غرفتك ، فاشفقى على ضعفى وناولينى حذائى » ثم تلا ذلك صوت حفيف ، ثم نهوض من الفراش ووطء نعال ، وبعد ذلك انفرج الباب قليلا ، وألقت يد نسائية مكتنزة زوجاً من الأحذية إلى مركين . فشكرها « ضابط البيان » وانطلق إلى غرفته . ولكنه ما لبث

أن دمدم وهو يدخل قدميه في الحذاء : « عجباً ... يخيل إليّ أن هذا ليس بحذائي ... ومع ذلك فكلا الحذاءين لا يصلح إلا للقدم الشمال ... سميون ما هذا بحذائي ... فحذائي ذو لسان أحمر ... وليس به ثقوب ... أما هذا فخال من الألسنة الحمراء كما أنه ملآن بالثقوب ! » فالتقط سميون الحذاء ، وأخذ يقلبه في كفيه أمام عينيه ... ثم لم يلبث أن قطّب ما بين حاجبيه وقال في تذمر هذا حذاء « باڤل ألكسندرتش »

— « أي باڤل الكسندريتش ؟ ! » .

— « الممثل ... إنه يحضر هنا كل ثلاثاء ... لابد أنه تحذى حذاءك بدلا من حذائه ... وأحسب أني وضعت حذاء كل منكما في غرفة الآخر » .

— « وعليّ بعد ذلك أن أغيره !. أليس هذا ما ترى إليه ... أيها الأبله ؟ » . فقال سميون في سخط « أصبت ... إمضي واسترد حذاءك إذاً ... ترى أين يكون الآن ؟ لقد خرج منذ حوالي ساعة .. ومن العبث أن نبحث عنه ... » . فقال مركين « ألا تدري أين يسكن ؟ ! » .

— « ومن الذي يمكنه أن يدلك على ذلك ؟ إنه يأتي إلى هنا كل ثلاثاء . ولست أدري أين يقطن ... إنه يمكث هنا ليلة واحدة ... فما من مندوحة سوى أن تنتظر حتى الثلاثاء القادم » . فتحوب مركين قائلا « هنا أتقول هذا أيها الوحش ؟!!. ما عساي أصنع الآن وقد أزف الموعد الذي يجب أن أكون فيه بحضرة قرينة الجنرال « شفليتسين » ؟ . أفقهت أيها الحقير ؟ . آه تكاد قدماي أن تتجمدا ... » .

— « يمكنك أن تستعيد حذاءك قبل ذلك ... احتذِ هذا الزوج . وامض به حتى المساء ، ثم اذهب إلى المسرح ... واسأل عن الممثل « بليستوف » وإذا لم تسارع بالمضي إلى المسرح فعليك بالتلبث حتى الثلاثاء القادم إنه لا يحضر إلا كل ثلاثاء ... » فالتقط مركين الحذاء وأخذ يتساءل وهو ينظر إليه باشمئزاز ونفور « ولكن كيف تعلل أن كلا الحذاءين لا يصلح إلا للقدم الشمال » .

فقال سميون وقد نفد صبره :

« أي قدر قذف بذلك الممثل ؟ إنه لأفقر خلق الله قاطبة ... وقد قال لي « أين الممثل الذي يمكنه أن يبتاع حذاء » فقلت له « ولكن من العار يا باڤل ألكسندرتش أن تحتذي ما لغيرك » فراح يصيح « أمسك لسانك ولا تجعلني أبطش بك ... ألا تدري أني أقوم بتمثيل الأمراء والعظماء » . ثم انصرف في حذائك ... إنها لعمري شرذمة من الطغام ... أولئك الممثلين ... آه لو أني الحاكم بأمره أو أي شخص ذو سلطة « لجمعت هؤلاء الممثلين ... وزججت بهم في أعماق السجون ... » .

وبين الزفير والأنين ... التقط مركين الحذاءين الشماليين ولبسهما ... ونهض وهو مقطب الجبين ، كاسف البال يعرج في خطوته إلى دار الجنرال « شفليتسين » ... وأمضى يومه جُلّه في المدينة ينتقل في أنحائها لضبط بيان كل من يود . وكان يتوهم أن الجميع يتطلعون إلى حذائه الذي عفّى عليه الزمان . بلى كعبه ، وذهب لونه ... وقد أصيبت قدماه بالورم من جراء ما كان يعانيه من آلام شتى قاسية ...

***

وما كاد المساء يشمل الكون ، حتى أسرع مركين إلى المسرح حيث كانت تمثل رواية « الطائر الأزرق » . وكان التمثيل يشرف على النهاية ... فاتصل مركين بعازف الناي في الجوقة الموسيقية — وكانت بينهما صداقة — ليعينه على التسلل إلى ما خلف المناظر المسرحية . ثم لم يلبث أن دلف إلى « غرفة ثياب الممثلين » حيث وجد بعضهم يغير أرديته ، والبعض يدهن وجهه ، والباقي ينفث دخان لفائفه ...

ووقف الطائر « الأزرق » يعرض على « الملك بوبش » غدارة في يده ويقول :

— « يجمل بك أن تشتريها ، فقد ابتعتها من « كيرسك » كرهينة بثمانية « روبلات » ، ولكني سوف أدعها لك نظير ست فقط ... إنها رائعة بلا شك »

— « حذار ... فهي محشوة بالبارود كما تعلم »

اقترب مركين في تؤدة وقال :

— « هل لي أن أتشرف بمحادثة السيد بليستنوف ؟ ! »

فالتفت إليه « الطائر الأزرق » وقال :

— « أنا ذا ! ما ذا تبغي ؟ ! » .

فأخذ ضابط البيان يقول في صوت شاع فيه التوسل :

— « معذرة لإزعاجك يا سيدى ، ولكن صدقنى ، فأنا رجل منهوك مصاب بالنقرس الزمن ، وقد أشار على الطبيب بتدفئة قدمى »

— « ولكن أين ما تريد ! »

فقال مركين يخاطب « الطائر الأزرق » :

— « ألست تذكر أ... أنك أمضيت الليلة البارحة فى خان « بهتياف » فى الغرفة رقم ٦٤ » ... فانفجر « الملك بوبش » صائحاً فى غضب كالح: « هه ! ما ذا تقول؟ إن زوجتى فى الغرفة ٦٤ فابتسم مركين : « زوجتك يا سيدى ، هذا يسرنى ، إن زوجتك طيبة قد أشفقت على ضعفى ، وناولتنى حذاء ذلك الرجل الدمث ، وبعد أن مضى ذلك الرجل » . وأشار مركين إلى بليستنوف : « تفقدت حذائى ، ولم أعثر عليه ، فاستدعيت الساقى وسألته عن الحذاء ، فأجابنى إنه تركه فى الغرفة المجاورة خطأ على أثر ما جرعه من الخمر . تركه فى غرفتك ٦٤ يا سيدى » . ثم التفت مركين موجهاً حديثه إلى بليستنوف : « وعندما خلفت زوجة هذا ذلك الرجل الطيب لبست حذائى » . فصاح بليستنوف وقد اجتاحه الغضب : « عم تتحدث ؟ أأتيت هنا لكى تحيل على وتتهمنى بافتراء باطل لا ظل عليه من الحقيقة ؟ »

— « لا ... لا ... يا سيدى ! حاش لله ، لقد أسأت فهمى ؛ لست أتحدث عن شىء سوى الأحذية ... ألم تمض ليلتك فى الغرفة ٦٤ ؟ خبرنى ألم تفعل ذلك ؟ »

— « متى ؟ » . فقال مركين : « ليلة أمس »

— « ما الذى جعل ذلك يدور بخلدك ؟ أأبصرتنى هناك ؟ »

فجلس مركين وأخذ ينزع الحذاء من قدمه ، ثم قال فى اضطراب وتلعثم :

— « لا يا سيدى ... لم أرك هناك ، ولكن زوجة هذا السيد الفاضل ألقت إلى بحذائك بدلا من حذائى »

— « ما الذى يثبت زعمك هذا وافتراءك ؟ لن أقول شيئاً عن نفسى ، ولكنك تمس عفاف سيدة شريفة بالقذف والتجريح وفى حضرة زوجها أيضاً »

وارتفع من خلف المناظر المسرحية عجيج وضجيج ... لقد أهوى « الملك بوبش » الزوج الجريح فى شرفه ، وقد علا سحنته اللون القرمزى ، بقبضته على المنضدة فى وقذ بلغ من شدته أن تمثلتين فى « غرفة ثياب الممثلات » سقطتا فى غيبوبة ... صاح الطائر الأزرق :

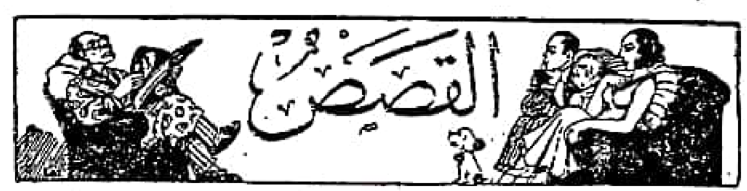
— « أوَ صدقته ؟ أوصدقت ذلك الصعلوك الحقير ؟ ! أتود أن أبسط به الأرض ؟ أترغب فى أن أصرعه أمامك كالكلب ؟ آه ... سأجعل جسده كشرائح اللحم ... سأهشم رأسه ! »

* * *

راح كل من كان يسير فى منتزه المدينة ذلك المساء بالقرب من « المسرح الصيفى » يذكر كيف أنه قبيل الفصل الرابع شاهد رجلا حافى القدمين، شاحب لون الوجه ، تختلج عيناه بالرعب والهلع ، وهو يهرول خارجاً من المسرح منطلقاً ، يركض فى الطريق الرئيسى ، وكان فى أثره شخص آخر مرتدياً ملابس الطائر الأزرق يحمل فى يده غدار ... ولم ير أحد ما حدث بعد ذلك

ولكن شاع بعد فترة من الزمن أن مركين « ضابط البيان » التزم فراشه لا يغادره مدة أسبوعين بعد أن قابل بلستنوف فى المسرح الصيفى ... وكذلك أضاف إلى عبارته المعهودة : « أنا رجل منهوك ، مصاب بالنقرس الزمن » . جملة جديدة : « كما أنى جريح منخوب الفؤاد » ...

(طنطا) مصطفى جميل مرسى



من الأدب القصصي الروسي

في الظـــلام ...

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

السكون غارق في السكون ... والفضاء العريض يموج في رهبة ، وقد هجع كل حي إلى مضجعه يتقلب في جنوبه ... والطير قابعة في أوكارها تحتضن صغارها ... حتى من وُكِلَ إليه الأمن قد سرت سنة من النوم إلى جفونه فراح يغطُّ في خفقة وسُبات ...

ولف ظلام السحر كل شيء سوى غَلَس الصبح الوليد في الشرق وهو يتجلبب بصفرة شاحبة ... وعلى حين فجأة ولجت ذبابة أنف « جاجن » مساعد المحصل ... لعلَّ حب الاستطلاع أو نزق الطيش هو الذي دفعها إلى ذلك العمل ، أو لعلها الصدفة المحضة ...

بيد أن خياشيم الأنف ساءها ذلك الدخيل فانفكَّت تعطس وتعطس ... فأفاق « جاجن » إبان هذه الموجة الحادة من العطس وقد بلغ من حدتها أنها كانت ترجّ الفراش رجاً عنيفاً ...

أما زوجة « جاجن » وتدعى « ماريا ميلوفنا » — وهي امرأة مفاضة فارعة حسناء الوجه — فهبّت في هيعة وفزع ، وقلبت طرفها يضرب في حلكة الظلام الدامسة ، وحلقت فينة ثم انطرحت على جانبها الآخر . ولم تلبث بعد فترة وجيزة أن عادت إلى ما كانت عليه ، وأرخت أهدابها عسى النوم يدبّ في عينيها ثانية ... ولكن هيهات فقد سرى السهاد إليهما فلم يغمض لها جفن ...

نهضت من فراشها ، واحتذت نعليها وقامت إلى النافذة حيث تجول بصرها في أكناف ذلك الليل البهيم ... وقد بدت فيه سامقات الشجر كأنها عمالقة من الشياطين ... وندّت عن « ماريا » صيحة فيها عجب وفيها فزع قطعت الصمت الذي شاع في ثنايا الظلام . كانت تحملق أمامها وقد ثبت بصرها على شبح يتسلل في رفق وحذر إلى صحن الدار ... فدار بخلدها أنه ربما كان جواداً نافراً ، ولكن مقلتيها ما لبث أن وضح لها ذاك الشبح فإذا به رجل يتشح بالظلام . وأومض بعقلها أنه لص في سبيل السرقة . فاكتسى وجهها شحوباً أضفاه عليه الذعر وصفرة الغلس ...

وفي لحظات نشط ذهنها يصوّر بيراع الخيال أوهاماً وأوهاماً . قوامها سيدة تعيش في الريف ، ثم سارق يتلصص خفية إلى حجرة المطبخ ... ومن المطبخ إلى حجرة الطعام ... وثمت الأشياء الفضية من ملاعق وقواطع ... وبعدئذ إلى مخدع النوم وفي يده فأس حيث يعثر على الحلي والنقود ... ولم تلبث أن هوت ركبتاها ، وسرت رعدة من أم رأسها إلى أخمص قدميها ...

راحت تهزُّ زوجها وتهتف في هلع « فاسيا ... باسيل ... انهض ... آه يا إلهي لكأنه فارق الحياة ... استيقظ أيها الرجل باسيل أتوسل إليك ... انهض ... » فقبع مساعد المحصل في فراشه ، وقال في صوت شابه اضطراب في قرارة نفسه « حسناً ! » .

— « بالله أفق ... هنـاك سارق تسلل إلى المطبخ ، لقد كنت قائمة عند النافذة ، عندما لمحته يختفي في نافذة المطبخ ... إنه بلا ريب سيجتازه إلى غرفة الطعام حيث الملاعق في الصوان .. باسيل ! ألا تدري أنهم هاجموا « ماڤرا يجروفنا » في العام الماضي ؟! »

— « هه ... ما الذي حدث ؟ ! » .

— « آه !.. يا للسماء . إنه لم يدرك بعد ما أنطق به ... انصت أيها الأبله ، هناك لص ولج نافذة المطبخ ، وسوف ينخلع فؤاد « بلاجا » فزعاً وفرقاً ... هذا مع أن الأشياء الفضية في الصوان بغرفة الطعام ... » .

— « هذا حديث لَغَبٌ ؟.. » .

— « باسيل ... لا أطيق ذلك ... أخبرك بالخطر الجاثم ، وأنت تفحفح في نومك غير ذي بال ؟ ! ما الذي ترجو من وراء ذلك ؟ ! أتشاء أن تجرَّد من أموالنا وحاجياتنا ؟ ! » .

فثاب مساعد المحصل إلى نفسه وقام من فراشه يملأ صدره بنسيم السحر المنعش . ثم تثاءب في تؤدة وتمهّل ... وراح يتمتم :

— « ليس ثمت من يقف على سريرة تلك المخلوقات الضعيفة العجيبة ... النساء .

سوى الله !. أما بمقدورك أن تترك الإنسان يغمض جفنيه جنحاً من الليل لا تزالين تهزينه حتى يستيقظ ، فتطرق سمعه بهذا اللغو ! » .

— « ولكن أقسم يا باسيل أنى لمحته وهو يدلف إلى حجرة المطبخ ! » .

— « وما الذى يثير عجبك من ذلك ؟! إنه بلا شك الجندى الذى يعشق « بلاجا » وتعشقه ... ويسرى إليها على الدوام فى هزيع الليل ... » .

— « هه !.. ما الذى تفوه به ؟!. » .

— « ... إنه الجندى الذى يعشق « بلاجا » ... » فصاحت « ماريا ميلوفنا » فى زحير .

« علة أقبح من العذر ... إن التلصص أخف وطأة منها ... لست أرضى عن هذا الفاسق بدارى ... » .

— « عجباً ... إننا طهيرا الثوب عفيناه ... فا الذى يضيرنا من وجود هذين الفاسقين ؟! وماذا نفيد من تدويم هذه الكلمات الجوفاء ؟ يا فتاتى إنها الحياة ... وهكذا جبل الخلق منذ فطر العالم وما هذا الجندى بملاك يعف عما درج عليه غيره ... » .

— « كلا يا باسيل ... فهذا ما لا يتفق وهواى ... إنى لا أكاد أتصور أن مثل هذا !. هذا !. يحدث فى عقر دارى ... ينبغى عليك أن تهم إلى المطبخ ، وتطرد هذا الفاسق شر طردة وفى الغداة سأنهى إلى « بلاجا » أنها ستفقد عملها إن هى عادت فسلكت هذا السبيل الشائن، وحين أغادرك إلى ظلمة القبر وأودع الحياة ... فافعل ما يحلو لك ... ولكن إياك أن تأتى ذلك ، وأنا على قيد الحياة ... باسيل ! أتوسل إليك أن تقوم إليهما ..... » ، فقال « جاجن » فى تبرم وتذمر :

« عليك لعنة الله ... بالله تدرى بمنظارك النسائى الضعيف : ما الذى أفعله لها ؟ ! » .

— « باسيل ! . إنى لأحس أن الإغماء يغشينى ... » .

فعجل « جاجن » بوضع قدميه فى نعليه ... وراح يهمر لعناته فى سبيله إلى المطبخ ...

وكان الظلام يطوى كل شىء تحت مطارفه السود ... فراح مساعد المحصل يتلمس طريقه فى حذر ... واتخذ وجهته نحو غرفة الأطفال ، وأيقظ الحاضنة قائلا فى تحيط :

« لقد أخذت معطفى لتنظيفه مما علق به ! . فأين هو ؟ ! يا « فاسيليا » ! » .

« لقد ناولته « لبلاجا » لتنظفه ... يا سيدى ! » .

— « يا للعبث ... أنت تأخذينه ثم تردينه !.. ماذا اطرح على جسدى الآن ؟ ! » .

***

وما كاد يصل إلى المطبخ حتى اتخذ سبيله إلى ركن قام فيه صندوق من الخشب رقدت عليه الطباخة « بلاجا » ... فقال وهو يتحسس كتفيها ، ويهزهما فى عنف « ... بلاجا !.. بلاجا !.. لا تدعى النوم أيتها الخبيثة الماكرة ... من الذى ولج غرفتك منذ برهة وجيزة ؟ ! » .

— « مى !. مى !. سيدى ! عم صباحاً : من الذى يجرؤ على ولوج غرفتى ؟ ! » .

— « آه ... دعينا من هـذا النفاق والإنكار فليس هناك مجال لتصديقهما . انهضى ... لقد أسرى ذلك الشرير إلى غرفتك ، وأنت راضية عن ذلك !. ألا تسمعين ؟ وليس هناك ما يدعوه إلى الحضور سوى أنت ! » .

— « هه !. سيدى ... أمستك لوثة من الشيطان ، فتقذفنى بهذا الهذيان ؟ !

رحماك يا رب ... أظننتنى بلهاء ساذجة ؟. أشقى هنا سحابة يومى ولا أركن للراحة ولو لحظة ... وتأتى فى هزيع الليل فتحدثنى هكذا !. ولا أتقاضى عن كدى وإخلاصى فى خدمتكم سوى أربع روبلات فى الشهر ... إنى لأرغب العيش عند تاجر من التجار على أن أقابل بمثل هذا الجحود والإهانة ! » .

— « انهضى !. انهضى .. لا سبيل إلى التنصل بالشكوى والتذمر ... آه ... لابد أن يغادر عشيقك هذه الغرفة فوراً ..! أوعيت ما أقول ؟!. » .

فقالت « بلاجا » وقد هدجت من صوتها بوادر الدمع : « لابد أن هذا يخجلك يا سيدى !. أهكذا تفعلون معشر المتعلمين ؟ أتسمح لكم أنفسكم أن تتهمونا وتقسوا علينا بدلا من أن ترفهوا عنا ، وتفرجوا عن أنفسنا ؟! نعم من السهل عليكم أن تهينونا ..

فليس هناك من ينبرى لنصرتنا ويقف إلى جانبنا » . وانفجرت الدموع من عينيها فراحت تنوح وتنهنه ...

— « هيا ... انهضى ... فما يجوز علىّ هذا الخداع ... لقد أرسلتنى سيدتك لأخبرك أنها رأت شزرًا يدلف إلى غرفتك ! »

ولكن « بلاجا » راحت تديم نواحها ونشيجها ... فلم يجد « جاجن » بدا من أن يعترف من قرارة نفسه أنها مظلومة طاهرة وقد ألصق بها هذه التهمة الشنعاء إفكا وبهتانًا ...

وهمّ بالعودة إلى زوجته وهو يقول : « بلاجا ... لقد أخبرتنى «فاسيليا» أنها ناولتك معطفى لتنظيفه مما علق به فأين وضعتيه ؟! »

— « آه ... معذرة يا سيدى ... لقد غفلت عن وضعه على مقعدك ... إنه معلق هناك على المشجب القريب من الموقد ! » .

فطرحه « جاجن » على منكبيه ، ومضى فى هدوء إلى غرفة زوجه ...

* * *

أما « ماريا ميلوفنا » فلبثت تنتظر بعلها فى قلق وهى تهس وتهجس :

— لقد مضى منذ حين ولم يؤب ! لعل ذلك الجندى الشرير لبط به الأرض ... لعل ... لعل ...

وعادت تصور بيراع الخيال صورة لزوجها ، وهو يمضى فى ظلام المطبخ ... ضربة على أم رأسه من فأس ... موت بلا نبس ، ودم يتدفق من جروح مثخنة ... وانقضت إثر ذلك خمس دقائق فى إثرها خمس ... ثم نصف ساعة ... وأخيرًا ها هى ذى الساعة قد بلغت السادسة ودقاتها ترن فى جوف الليل البهيم فتزيده رهبة وجلالا ... فتبلبل جبينها بعرق بارد وهى غارقة فى فراشها ، وصاحت على غرة : « باسيل ... باسيل ... » فأجابها صوت زوجها على مقربة : « ما ذا دهاك ؟ ! لم تصرخين هكذا ؟ ها أنذا ... »

— أأصابك سوء ؟!

— سوء ؟ كلا ...

ومضى إلى حافة الفراش وهو يقول :

— « ليس هناك أحد على الإطلاق ! إنها أوهامك وقسوتك على هاتيه المخلوقات ... إن بلاجا لا تقل عنك عفافًا وصونًا ... كم أنت حمقاء ! . كم أنت ... » .

وراح ذلك السيل من السباب واللعن يتدفق من فم « جاجن »

لقد داعب الأرق جفونه فعبثًا يحاول النوم ثانية ... فقال وهو يضحك :

إنك لواهمة ، مجهدة الأعصاب ... ويعوز نفسك المضطربة فترة من الراحة ... يجمل بك أن تذهبى فى الغداة إلى الطبيب فتخبريه بهذه الأوهام والخيالات ... فيتبصر فى حالتك ويصف لك ما يريح أعصابك المكدودة » ...

فقاطعته زوجه قائلة :

— « ما هذا ! ! رائحة ... قطران ! ! أو شىء آخر كالثوم أو البصل إن هذا يتخلل أنفى فى حدة ... » .

— « نعم ! ثمة رائحة غريبة ... لست بنائم ... سأشعل الشمعة ، أين أعواد الكبريت ... آه تذكرت ، سأعرض عليك صورة لمحصل قصر « جستيل » العظيم ... فقد أعطى كل من كان فى المكتب نسخة من صورته عندما ودعنا البارحة ... » .

أشعل « جاجن » الشمعة وقبل أن يخطو خطوة لإحضار الصورة رنت فى أذنه صرخة ندت عن زوجته ... فلما التفت إليها رآها تحملق فيه وقد اتسعت مقلتاها واستقرت عليه ... يطل منهما الفزع والهلع والعجب والسخط فى آن واحد ...

صاحت زوجته وقد علا وجهها الشحوب : « أتناولت معطفك من المطبخ ؟ ! » .

— « لم ؟ ! » .

— « انظر إلى نفسك ! » .

وما كاد يبصر « جاجن » ما على جسده حتى راح يحدق فى عجب وذهول ... لم يكن مطروحًا على كتفه معطفه بل معطف الجندى الشرير ... ماذا أتى به إلى هنا ؟ ! ! وبينما كان يوجه إلى نفسه هذا السؤال ... قالت زوجته فى غمغمة نمت عن سخرية وسخط «أتقول ؟ إن (بلاجا لا تقل عنى عفافًا وصونًا) ... أيها الخنزير الأبله»

ثم غرقت فى شعاب الفكر وعاد يراع الخيال يرسم صورة مخيفة : ظلام ... هدوء ... همس !.. و !..

(طنطا) **مصطفى جميل مرسى**

استدراك :

حدث خطأ مطبعى فى عنوان قصتنا التى نشرت فى العدد (٦٣٨) وهو « حينما كان طبيبًا » والأصل « حينما كان صبيًا » فبذلك يستقيم معنى العنوان مع سياق القصة .



من الأدب القصصي الروسي :

عمـــل شاق ...

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

للأستاذ مصطفى جميل مرسي

كانت ليلة من ليالي شهر مارس ، والسحب مدجنة مطلخمة ، وقد اسبطر الضباب فطوى الأرض والسماء في مطارفه .. حتى لا يكلف المرء نفسه الخطو خيفة العثر .. وهب الحارس فجأة وقد طرق أذنيه لغط وهسيس لبعض من الناس يمضي في مطارب المقبرة . وصاح في هيمة وتحوب « من ثمت يسري ؟ » . ولكن دون مجيب .. فراح يرجع صيحته وقد توجس همساً وهجساً « من ثمت يسري ؟! » فأجابه صوت مختلج لرجل هرم . « أنا ذا .. أيها الرفيق .. »

— ولكن من أنت ؟!

— أنا رجل جوال .

فصاح الحارس في صوت حاول أن يستتر به رنة الفزع التي سرت إليه :

— أي شيطان رمى بك إلى هنا ؟! أتجول قدميك في المقبرة ليلا ؟ أيها الشرير الخبيث !

— وَيْ ! أتقول إن هذه مقبرة ؟!

— وما في ذلك ؟! إنها مقبرة .. ألا تلمح ذلك ؟.

فتنهد صوت الرجل الهرم قائلا : « آه .. يا للسماء . ما أقدر على إبصار شيء أيها الرفيق .. إن الظلمة لحالكة .. الظلمة .. فما يستطيع الإنسان أن يرى يده وهي أمام وجهه !

— ولكن من أنت ؟!

— أما قلت لك .. زائر .. أيها الصديق ، رجل جوال ..

فنبس الحارس في يقين : « إلى الشيطان .. يا لكم من معربدين أيها الجوالون ، كل منكم يظل يجرع الخمر ، ويأتي إلى هنا يقلق راحتنا ويسبب متاعبنا ليـــلا .. ولكن .. لقد سمعت أصواتاً تهمس معك فأين أصحابها ؟! »

— إني بمفردي ياصديقي .. إني وحيد .. آه يا إلهي

فدنا الحارس من العجوز ووقف إزاءه وسأله :

— كيف حضرت إلى هنا ؟ !

— لقد ضللت سبيلي يا سيدي بينا كنت أروم طاحونة « ميتريافسكي » ...

— وي ... أهذا طريق طاحونة « ميتريافسكي » ؟ أيها الشرير ؟ كان ينبغي أن تسرى إلى يسارك ثم تدوم سيرك على استقامة ... يخيل إلي أنك تناولت بعضاً من أقداح الخمر : فتنكبت سبيلك !

— نعم ... لقد أتت يداي هـذه الخطيئة ، فما ثمت سبب للانكار . ولن أعود فأركب هذا المتن الخاطئ ثانية ... بالله أين الطريق الذي علي أن أسلكه ؟

— امض أمامك في هذه المطربة حتى تصل إلى باب المقبرة ، فافتحه ، وانطلق إلى حال سبيلك ... حاذر أن تعثر بالخندق فتتردى فيـه ... وستلاقى الطريق حيث يمكنك أن تصل إلى الطاحونة إن سلكته .

— أسأل الله أن يسبغ عليك وافر الصحة والخير ... أيها الرفيق ، ويطهرك من ذنوبك برحمته وغفرانه ... ألا يمكنك أن تصحبني حتى الباب ... فيضاعف ثوابك ، فما أكاد أتلمس طريقي في تلك العتمة ...

— كأني بك ترى عندي الوقت الذي أضيعه عبثاً في السير معك ... امض وحدك .

— كن رحيما يرحمك الله ... فسأصلي من أجلك . إني لا أكاد أرى طريقي فالظلمة حالكة ... بالله أرني الطريق .

— أيدور بخلدك أن وقتي متسع لصحبتك أيها الشرير الكهل!

— نشدتك الله ... قدني إلى الباب ... لا أقدر على إبصار شيء ، كما أنني أخشى هذه المقبرة وما يجول فيهـا من أرواح

وأشباح ... هيا معى يا سيدى ... بالله رافقنى ...

— ليس سبيل إلى الخلاص منك ومن ثرثرتك ، هيا إذاً معى أيها العجوز ...

ومضى الرجلان متلاصقين فى صمت رهيب ... وهبت الريح صرصراً تصطك منها الأسنان ، والأشجار ضاربة فى جو السماء تصفر فى رهبة كأنها صراخ الجن ... ويساقط منها الطلل والندى ... وقد تناثرت فى ساح المقبرة الناقع الضحلة ...

وبغتة قال الحارس بعد أن طال أمد الصمت بينهما :

— ثمت شىء يثير حيرتى وتساؤلى ! كيف تسنى لك أن تدلف إلى هنا مع أن الباب مقفل ؟! أتسلقت الحائط ! ؟ ما أظن ذلك فأنت هرم ، فأنت آخر من يأتى هذا العمل ! .

— لست أدرى ! أيها الرفيق ... لست أدرى كيف أتيت إلى هنا ... لعمرى إنها مشكلة ... رحماك يا رب ... لا بد أن الشيطان مس عقلى ، ألست حارس المقبرة أيها الرفيق ؟

— بلى ...

— أنت وحدك تقوم بحراسة كل هذه المقبرة ؟!

وارتفعت حينئذ ريح عاصف كادت أن تنتزعهما من مكانهما فلما هدأت حدتها عاود الحارس حديثه مجيباً :

— إنا هنا ثلاثة رجال : واحد مضطجع فى فراشه محموم ، والآخر مستغرق فى نومه ، ونحن الإثنين نتبادل الحراسة ...

— حسن ... آه ، يالها من ريح عاصف يكاد أن يسمع صفيرها الأموات فى قبورهم ... إنها تزأر كالوحوش الكاسرة ... آه ... آه ...

— ولكن من أين أتيت إلى هنا ؟

— كنت عند صديق فى اقليم « فولجدا » على مبعدة من هنا ... إنى أتجول من مكان إلى آخر حيث أصلى وأعظ ... اغفر لى يا إلهى ...

***

توقف الحارس هنيهة ليشعل غليونه ، وقام الرجل العجوز بينه وبين الريح ... وأرق عود الثقاب على الطرية التى يسلكانها واستقر شعاعه على بعض أحجار القبر التى إلى جانبهما ؛ فأشعل العود الثانى فتألق ضوؤه ثم خبا على حين فجأة ... أما العود الثالث فألقى بشعاعه إلى اليمين وإلى الشمال ، فتمكن من إشعال غليونه

قال الرجل الغريب :

— إن الراحلين راقدون ... الراحلين الأعزاء ... إنهم يرقدون سواسية لافرق بين غنى وفقير ، حكيم وأحمق ، قوى وضعيف ، إنهم على حال واحد الآن ... وكذلك سيمكثون إلى أن ينفخ فى الصور وتبعث الأموات من القبور ... إن هذه الحياة الدنيا لفانية مضمحلة أما الحياة الأخرى فخالدة سرمدية . فقال الحارس فى جلال :

— نعم ... إننا لنسير فى هذا المكان الآن ، وبعد حقبة تطوينا هذه الأرض فنصبح نسياً منسياً ...

— لامجال للريب فى ذلك ... كلنا جميعاً ... جميعاً إلى هذا المصير سائرون . وليس ثمت من يخلد على أديم هذه الأرض ... أوّاه ... إن أفعالنا لآثمة ، وأفكارنا تطمح إلى آمال كالسراب . إن الخطيئة لتسيطر علينا وليس ثمت خلاص من قضاء الله سواء فى الدنيا أو فى الآخرة . إنى لغارق فى خطيئاتى كالحشرة تسوى فى جوف الأرض ...

— أجل ... ورب منيتك كانت قاب قوسين منك !

— إنك لعلى صواب وحق ، أيها الصديق ...

فقال الحارس وهما يحثان الخطا نحو الباب .

— إن الموت لأدنى إليكم معشر الجوالين منا نحن من نستقر فى الأرض على الدوام ! .

— إن هناك أنواعاً متباينة من الجوالين ياسيدى . فمنهم من أنزل الله السكينة على قلبه ، فراح يصلى ويعبد ربه . ومنهم من أصابه الفجور فراح يعربد ويأتى المنكرات وليس له رادع يردعه عن أفعاله . إن هؤلاء يجولون فى المقابر لتتصل أنفسهم بالشياطين .

وهناك من فى مقدورهم أن يهووا بفأسهم على هامة رأسك فتخر وقد بت على شفا الموت ...

— هه ... عم تتحدث أيها العجوز ؟ !

— آه ... لا شىء ... يخيل إلى أن هذا هو الباب ... نعم إنه هو . أرجو منك فتحه ...

فتلمس الحارس طريقه وفتح الباب ، وقاد الرجل إلى الخارج من منكبه وقال :

— هذا هو منتهى المقبرة ... وعليك بالإنطلاق عابراً الحقول حتى تدرك الطريق ، وحاذر الخندق أن تتردى فيه . وإذا ما لحقت بالطريق العام ، فانثن إلى يمناك وواصل سيرك حتى تصل إلى الطاحونة التى ترومها ...

فزفر العجوز بعد فترة صمت :

— هيه ... ولكن ما الذي يدفع بي إلى الذهاب إلى طاحونة « ميتريافسكي » إني أفضل البقاء هنا على المضي إلى هناك ياسيدي ...

— وما الذي ترجوه من اللبث هنا ؟ !

— ستجد مني من يؤنس وحدتك ، ويفرج عنك كربك .

— الملك رجل لطيف المعشر ، حلو النكتة ؟ !

— بلاشك ياسيدي ... فستظل تذكرني ... تذكر ذلك الجوال على الدوام ...

— ولم تظل ذكرى إنسان مثلك ببالي على الدوام ؟ !

قال العجوز في صوت أجش ساخر :

— هه ... اسمع ... إنك تمعن في الجفاء ... وأنا أتبسط في الحديث ... فما أنا بجوال كما أنبأتك !

— إذن من أنت ؟ !

— رجل ميت ! لقد خرجت الآن من لحدي ... ألا تذكر « جبرياف » القفال الذي شنق نفسه في عيد « الكرنفال » ... حسن . إنه أنا « جبرياف » .

— بالله خبرنا بشيء غير هذا ...

لم يصدق الحارس لفظة مما قاله العجوز ، ولكن سرت قشعريرة الهلع في جسده فراح ينتفض فرقاً ... ويسرع بالنأى عن الباب ، فقبض الرجل الغريب على كتفه وهتف قائلا :

— قف ... أتمضي وتدعني وحدي أعاني مرارة الوحدة ...

فصاح الحارس وهو يحاول نزع ذراعه من براثن ذلك العجوز :

— دعني أذهب ! دعني أمض بسلام !

— قف ... إني آمرك بالوقوف ، وستقف حتماً ... لاتناضل أيها الكلب الرعديد ... إن كنت تبغي الحياة . فقف حتى آذن لك ؛ هذا لأني لا أود أن أسفك دماً حقيراً كدمك أيها الخنزير الجبان ... قف مكانك ...

وتهاوى الحارس ، وقد سرت عنه شجاعته فأغمض جفنيه وراح يرتعد ويرتجف وقد طارت نفسه شعاعاً ... إنه يستطيع الصياح والإستغاثة ولكن عبثاً يحاول ... فليس من حي تصل إلى أذنه صيحاته ...

قام الرجل الغريب إلى جانبه وساعده في ثبات وقسوة ... وتقضت ثلاث دقائق والكون غارق في صمت رهيب ... فعاد الغريب يقول :

— واحد مريض محموم ، والثاني غارق في النوم ، والثالث يلقى الجوالين بجفاء وبرود ... ألا بالله خبرني يا سيدي الحارس كيف تستحقون مرتباتكم ، إنكم كاللصوص ولكن في الخفاء . قف مكانك ...

***

انقضت خمس دقائق ثم تلتها عشر والصمت لم ينفك مخيما على المقبرة ... وعلى حين غرة ... قطع هذا الصمت صوت صفير سرى في جنح الليل ... فقال الغريب إثر ذلك وهو يطلق ذراع الحارس : « حسن ... الآن ... امض ... امض ، واذكر أن الله يرقب أعمالك الشائنة ... »

ثم أطلق صفيراً — يشابه الذي سرى منذ هنيهة — وانطلق خارجاً من باب المقبرة ... وسمعه الحارس وهو يجتاز الخندق قفزاً ووقف الحارس هنيهة جامداً لا يتحرك ... يرتعد فرقاً ... كأن الغريب ما زال ماثلا أمامه .

ولما انقلب عقبه في المطربة طرق أذنه أصوات لأقدام تتسارع في سيرها ، وسؤال يجرى على لسان يقول : « أأنت « تيموفى » ؟ أين « ميتكا » ؟ » وابتعدت عنه الأصوات فراح يجد في سيره حتى لمح شعاعاً يخفق في الظلام ... فلما أمعن في الدنو ، وضح له الشعاع فراح يردد :

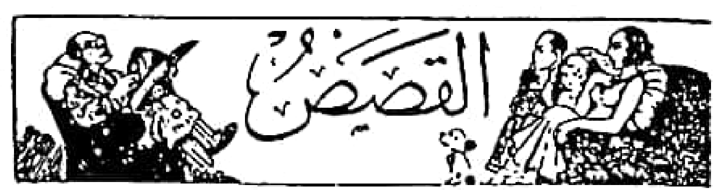
— كأن النور يشع من الكنيسة ! . من أين أتى هـــذا الشعاع يا إلهي ... فرج كربتي .

دار الحارس حول الكنيسة حتى وقف أمام نافذة محطمة فراح يحملق نحو المذبح ... في هلع وفزع ... وكانت هنـاك شمعة خلفها وراءهم اللصوص تخفق في رهبة ، وتلق الظلال الدامسة في الأرجاء ... وقلب الحارس طرفه فرأى الخزانة مقلوبة محطمة وقد فتحت على مصراعيها ، واختفى ما كان بهـا من كنوز وأموال ...

وكذلك ذهبت القرابين وغيرها . . وأدرك الحارس سر ذلك الرجل الغريب الذي راح يداوره ويبعده عن الكنيسة حتى يهيء الفرصة لزملائه اللصوص ...

ومضت برهة ، وعادت الريح تعصف وتصفر في جنون وكأنها تسخر من ذلك الحارس المسكين ؟

مصطفى جميل مرسى



طبيعـــة مبهمة !

للكاتب الروسي أنطون تشيكوف

بقلم الأستاذ مصطفى جميل مرسي

مالت السيدة الوضيئة جانباً ، وهي جالسة على مقعد وثير خطى بالمخمل الأحمر في عربة فاخرة من عربات السكة الحديدية !. قد ضمت أناملها البضة الرقيقة مروحة مريشة أنيقة الصنع رائعة وشي .. راحت تهتز وتتراقص عن يمين تارة وعن شمال ! ..

وطفق المنظار المعلق على أنفها الدقيق القاني لا يقر له قرار ، بينا بدت « الحلية الماسية » مشرقة تتألق على جيدها كزورق سبح في ماء المحيط ! ..

وجلس في مقعد قبالتها الناموس (١) الإقليمي للجمعيات الخاصة وهو شاب حديث النبت في الأدب ، يخرج على القوم بين حين وحين بقصص طوال — من النسق الرفيع كما يحلو له أن يسميها — ينشرها في جريدة الإقليم ...

راح يحملق في صفحة وجهها ، ويحدق عن قصد لا يحول .. عين العارف الخبير ! إنه يتأمل ويدرس .. ويتصيد ظلالا عابرة أطيافاً حائرة بين ثنايا هذه الطبيعة المبهمة ، والغموض يكتنفها !

إنه يحاول أن يفهمها ويسبر غورها .. فروحها ونفسها .. كلتاها مبسوطة بينة الجلاء أمام ناظريه ..

ثم لم يلبث أن قال لها ، وهو يلثم رسغها البض على مقربة من السوار ! .

« آه .. لقد أدركت ! . أدركت إلى أبعد مدى ما يدور بين جوانحك .. إن روحك ذات الحس المرهف والأمل الطامح .. تسعى في سبيل الخلاص من ربقة الحيرة الطاغية ، والفكاك من أسر القلق القاتل ! إنه لصراع عنيف « نضال مخيف ! ولكن تمالكي روعك وأمسكي عليك صوابك وتذرعي بالصبر فلسوف يأتيك الفوز من حيث لا تعلمين .. أجل ! »

فقالت السيدة الأنيقة في صوت خفيض مضطرب النبرات ، وقد علت وجهها بسمة حزينة : « أكتب عني يا « فلدمار » ... أن حياتي عامرة مختلفة ألوانها ! . زاخرة بالمال والذهب .. بيد أني — على الرغم من ذاك — لا أذوق للسعادة طعماً ، ولا أجد الهناءة إلا حلماً ! . ما أنا إلا نفس معذبة وروح شقية في صفحة من صفحات « دستوفسكي » ! .

« عرف العالم بهذه النفس يا « فلدمار » ، وأذع خبر هذه الروح ذات الحظ العاثر والطالع النحس ! . لقد أوشكت أن تبلغ من قلبي مبلغاً عظيماً . ولعلك لا تجدني بعد ساعة في هذا القطار »

— « خبرني ! . ناشدتك الله .. خبرني ! . »

— « أعرني سمعيك .. لقد كان أبي كاتباً في « الخدمة » نتر عليه رزقه .. وكان ذا قلب تغمره الطيبة ويفيض عطفاً وحنواً وذا عقل ليس بالعاطل من الفطنة والمرونة .. بيد أن الزمام أفلت من بنانه وهو في غاية العمر ، وتنكب جادة الرشد وهو على شفا القبر ! .. فأدمن الخمر وأغرق في الميسر .. وامتدت يده إلى الرشوة فلوثها دنسها ! . إني لا أضمر له لوماً .. بل طالما رثيت له وأشفقت عليه ! .

وأبي ! — ولكن ما الذي يدعوني إلى أن أمضي في هذا !. التربة والعوز .. والنضال المرير في سبيل لقمة تسد الرمق ! .. والمشاعر التي تكتنف المرء لإحساسه بتفاهة شأنه وحقارة أمره في موكب الحياة الصاخب ! أوه ! دعني .. لا تدفعني إلى أن أبعث هذه الذكريات وأثير تلك الشجون .. لقد جاهدتُ في أن أشق سبيلي وأنت أدرى بمجال التعليم في تلك المعاهد التي تأوي من يطلب العلم فيها ، وما يحتاج الشباب — وهو يتفتح — من حاجات ونزوات .. ثم هذه الخفقات الأولى بين الضلوع .. للحب الوليد ! إن ذلك لرهيب مهيب ! . الحيرة والاضطراب ، وتلك الآلام المبرحة التي تحز في النفس حزاً عند من يفقد يقينه بالحياة ! ...

أوه إنك مؤلف ! . وتدرك ما يغمر قلوبنا .. معشر النساء !

(١) « الناموس » هي الترجمة الصحيحة لمن يدعى « السكرتير » . « جميل »

لسوف تفهم كل شيء ! . كم كنت تعسة شقية ! : أنلمس السعادة وأي سعادة ! وأتوق إلى أن أطلق لروحي عنان الحرية ! أجل فها هنا .. تكمن سعادتي وتستكين راحتي ! . »

فتمتم « المؤلف » .. وهو ينهال على رسغها العاجي فيلثمه مرة أخرى عند السوار !. « يالك من مخلوق رائع ! إني لا أقبلك أنت .. بل أحيي فيك الإنســـانية المعذبة .. ألا تذكرين « رسكولنكوف » وقبلته الخالدة ! .. »

— « أوه .. ياقلدمار .. إني لتواقة إلى المجد ، مشوقة إلى الرفعة طامحة إلى الشهرة ! إني لأحن إلى أمر غير هذه الأمور التي لاتفتأ تدور على وتيرة واحدة .. أمر غريب عجيب لا تألفه النساء ! .

وبعد هذا ! .. ألقت إلى المقادير قائداً عجوزاً عظيم الثراء وافر النعمة ! . هلا فهمتني ياقلدمار . لقد كانت تضحية بالنفس وأي تضحية ! . وإنكاراً للذات وأي إنكار ! ينبغي أن تعلم هذا !

لم يكن بوسعي أمر غيره فقد علقت « الأسرة » آمالها وعقدت أمانيها على أن أقبله . كم عانيت منه فلشد ما أثار سخطي وأهاج بغضي فقد كان عناقه شيئاً كريهاً وحديثه تمافه النفس

وكنت — على الرغم مني — أظهر له اللطف وأتكلف الرقة ؛ إنها لحظات مريعة . بيد أن الرجاء كان يراود نفسي والأمل يداعبها فأمنيها اليوم الذي يوارى الرجل فيه التراب ويضمه اللحد . حينئذ سوف يخلوسبيلي ، فأحيا كما يروقني وأهب نفسي إلى الأنسان الذي أعبده سعيدة راضية لا مجال للريب في أنه ثمت إنسان يقع من النفس موقع الشغف ياقلدمار »

وراحت السيدة الوضيئة تحرك مروحتها في شيء من العنف والشدة وبدا وجهها وكأنما اتخذت سماته الأهبة للبكاء ، ومضت في حديثها مستأنفة « وأخيراً خمدت أنفاس الرجل وذاق منيته فخلف لي نصيباً ليس باليسير . لقد صرت طليقة كالطائر الذي يحوم في جو السماء فيقع على مايهوى إنها الساعة التي حانت فيها سعادتي أليس كذلك يا قلدمار؟ لقد أقبلت السعادة تطرق نافذتي ولم يكن علي إلا أن أدعها تدخل

ولكن اسمع ياقلدمار ففي هذه اللحظة التي كنت فيها أمس الرجل الذي أهيم به حباً لأهبه نفسي وأصبح شريكة حياته ،

وساعد عون له وناصرة لشوكته فأسعد به وأستريح إليه في هذه اللحظة تبددت الأوهام وطارت الأحلام شعاعاً . إن حياتنا حقيرة تمجها النفس ، تافهة لا معنى لها . إني بائسة أشد البؤس ، يائسة أبلغ اليأس .. !

لقد كانت ثمت عقبة أخرى في سبيلي فلما انثنيت أتلمس السعادة إذا بها نائية عني بعيدة كل البعد .. أوه ! ما أشد هذا ألماً وتبريحاً لو أنك تحس هذا الألم وتستشعر ذاك العذاب »

— « ولكن ما الذي قام في سبيلك ونهض في وجهك هذه المرة ؟ ! بالله خبريني ما هو ؟ ! »

— « قائد عجوز آخر واسع الثراء فكأني مثل الذي فر من الموت ، وفي الموت وقع »

وانسدلت المروحة « المحطمة » على الوجه الوضيء ، واعتمد « المؤلف » رأسه الضخم على راحة يده وأغرق في لجة من الفكر وقد لاح في هيئة الفيلسوف الحكيم

وانطلقت القاطرة تدوي بصفيرها وصليلها بينما اصطبغت سجف النافذة بالحمرة الوردية وقد أشاعتها الشمس الغاربة !

« الدقي » مصطفى جميل مرسي

أثر فني

لانطون تشيخوف ترجمة : سهيل ايوب

دخل ساشا سميرنوف — الابن الوحيد لامه — عيادة الطبيب لوشيلكوف بعصبية ظاهرة، وهو يتأبط شيئاً ملفوفاً بصحيفة فابتدره الطبيب قائلاً بحرارة .

— حسناً يا عزيزي الصغير . كيف تشعر هذا اليوم ؟ وما هي اخبارك الطيبة ؟ فأخذت عينا ساشا تطرفان ، بينما وضع يده على قلبه . ثم تمتم مضطرباً .

— إن والدتي توسل لك تمنياتها وشكرها الجزيل . . . انني الابن الوحيد لامي ، وانت انقذت حياتي . وكلانا لا نكاد ندري كيف نشكرك . فقاطعه الطبيب وهو يذوب — ان صح التعبير — سروراً .

— تعال ، تعال يا صديقي الصغير ، ودعنا لا نتكلم في ذلك انني لم افعل الا ما يفعله اي شخص آخر في مكاني .

— انني الابن الوحيد لامي . . ونحن اناس فقراء ، ولسنا في مركز يسمح لنا بأن ندفع لك اتعابك . . . وهذا ما يجعلنا يا دكتور في حيرة شديدة بالرغم من اننا ، امي وانا الذي اكون ابنها الوحيد ، نرجو منك ان تقبل هذا الدليل على اعترافنا بالجميل . هذا الشيء الذي . . هو شيء ذو قيمة نادرة . انها قطعة فنية نادرة من البرونز القديم . فعبس الطبيب وقال .

— لماذا يا صديقي العزيز ؟ هذا غير ضروري على الاطلاق . انني لست في حاجة الى هذا قطعياً .

— أوه كلا ، كلا . انني اسألك ان اردت ان تقبلها . وابتدأ بفتح الرزمة متابعاً التماساته في تلك الفترة .

— اذا لم تقبل هذه ، فانك تسيء بذلك الينا كلينا ، امي وانا . انها لقطعة فنية نادرة من البرونز القديم . انها لبقية تركها لنا المرحوم والدي . وكنا نعتبرها مثل ذكرى عزيزة للغاية . . ولقد اعتاد والدي ان يشتري التماثيل البرونزية القديمة ، فيبيعها الى هواة النحت القديم . . والآن ، نحن نمارس العمل نفسه امي وانا . وفتح ساشا الرزمة ووضعها على الطاولة .

كانت شمعداناً واطئاً من البرونز القديم . كانت عملاً حقيقياً يمثل جماعة : فعلى القاعدة وقفت امرأتان بثياب الام حواء . وفي وضع لا املك له الجرأة ولا المزاج اللازمين لوصفه . وهاتان الصورتان كانتا تبتسمان بصورة فاجرة . وعلى العموم تعطيان هذا التأثير ، وهو انهما لولا اضطرارهما في الحقيقة لحمل الشمعدان الصغير ستنحنيان من على قاعدتيهما وتقومان بحركة هي . . يا قارئي العزيز ، انني لخجل حتى من التفكير في ذلك .

وبعد ان فحص الطبيب الهدية . حك رأسه ، ونظف حنجرته ثم مسح انفه وتمتم .

— نعم . انها في الحقيقة لقطعة فنية رائعة . . ولكن — كيف اقول ذلك — ليست تماماً . . انا اعني . . بالاحرى غير عادية . . ليست ابداً . . انت تعرف . . الشيطان يعرف . . — كيف ؟

— بعلزبول نفسه لا يقدر ان يتصور في ذهنه شيئاً اكثر شناعة ، لو اني وضعت هذا الشيء المثير للتخيلات الشيطانية على منضدتي . اذن لدنست منزلي بكامله . وصاح ساشا في نبرات غاضبة .

— كيف ذلك يا دكتور . اي مفهوم غريب عندك عن الفن ! انها قطعة فنية حقيقية . انظر اليها فقط ! ان جمالها المنسجم الى درجة انك لو تأملتها فحسب للأت نفسك انذهالا ولجعلتك تبعث من حنجرتك شهقة ! عندما تنظر لمثل هذا الحسن ، تنسى كل شيء ارضي . . انظر اليها فحسب ! اية حياة ، واية حركة . فأجاب الطبيب .

— لقد فهمت تماماً يا صديقي الصغير .

ولكنني رجل متزوج ، ولي اطفال صغار يركضون داخل هذه الغرفة وخارجها وهناك نساء يأتين الى هنا على الدوام .

— طبعاً . لو نظرت اليها بعيون رعاع الناس ، لانكرت هذه القطعة الفنية النادرة .

ولكنك بالتأكيد ، وفوق هذا كله يا دكتور ، وعلى الاخص عندما يكون رفضك لهذه الهدية سوف يجرحنا كلانا ، امي وانا الذي اكون ولدها الوحيد . . وانت انقذت حياتي . . وبالمقابل ، نحن نقدم لك اعز ممتلكاتنا . . ان اسفي الوحيد هو عجزنا عن ان نقدم لك رفيق هذا الشمعدان .

— شكراً يا صديقي شكراً . . اذكرني عند والدتك و . . . لكن بحق الله ! انك لتستطيع ان ترى وحدك ، أليس كذلك ؟ ان الاطفال الصغار يركضون داخل هذه الغرفة وخارجها والسيدات يأتين الى هنا دون انقطاع . . وعلى كل حال ، دعه هنا ! فان اية مناقشة لا تفيد معك .

واجاب ساشا ببهجة ظاهرة .

— لا تقل كلمة اخرى . ان الشمعدان ليكون في محله تماماً ، لو وضعته في هذا المكان الى جانب إناء الزهور هذا بحق الاله ! انه لشيء يؤسف للغاية . لانني لم احصل على رفيق هذا الشمعدان لاعطيك اياه .



حسناً ، وداعاً يا دكتور !

وبعد رحيل ساشا القى الطبيب على الشمعدان نظرة طويلة وحك رأسه وفكر في نفسه قائلاً .

— انه لجميل ، حسناً . انه لمن المؤسف ان يرمي به بعيداً . . ومع ذلك فلا اجرؤ على الاحتفـاظ به . . ! . . والآن لمن استطيع ان اقدمه .

وبعد مداولة طويلة ، وقع على صديق له عزيز ، وهو المحامي يوكوف الذي كان مديناً له بخدمات ثانوية . وصاح الطبيب .

— اني بصفتي صديقاً حميماً له . فلست استطيع ان اقدم له مالا . . وهكذا استطيع ان اعطيه هذه القطعة بدلا عنها . وهو بالضبط اصلح رجل لها ... ونوعاً ما له نفسية العصفور المرح ايضاً .

وما كاد يفكر في ذلك ، حتى انتقـل الى مرحلة العمل . فارتدى ثيابه . وحمل الشمعدان ثم ذهب الى منزل المحامي يوكوف .

— صباح الخير ايها الفتى الكبير ! لقد اتيت الى هنا لاشكرك على ازعـاجي اياك . . انك لن تأخذ مني مالاً ، ولذلك سوف اكافئك بأن اهديك هذه القطعة الفنية . . والآن قل من نفسك ، اليست هي حلماً ؟ . وما كاد المحامي يراها حتى دهش لجمالها الرائع ، ثم قال وهو يضحك . — يا له من عمل فني جميل ! بحق الآلهة ! يا لها من مفاهيم يبتدعها الفنانون في رؤوسهم ! اي رونق جذاب ! من اين جئت بهذه الاناقة اللطيفة ؟

الا ان حماسته ما لبثت ان خمدت . واصبح صاحبنا مذعوراً ، وقد راح يقول وهو يتطلع خلسة الى الباب .

— ولكني لا استطيع قبولها ايها الشاب الكبير . يجب ان ترجع بها ثانية . فقال الطبيب فزعاً . — ولماذا ؟

— لانه . . لانه غالباً ما تزورني والدتي ، واصحاب الاعمال يأتون الى هنا كثيراً . . والى جانب ذلك . فان خدامي انفسهم سوف يأخذون علي هذا الامر . وصاح الطبيب وهو يحرك يديه حركات جنونية . — اياك وان تقول كلمة اخرى . ان واجبك بكل بساطة ان تقبلها . ولكن رفضك لها لا يكون سوى نكران الجميل . مثل هذه القطعة الفنية ! اية حركة ، واية تعبير . . اني اعدها اهانة كبيرة لي ، ان لم تأخذها مني !

— لو انها فقط كانت مدهونة . او مغطاة بأوراق التين . .

ولكن الطبيب رفض الاستماع اليه . واخذ يحرك يديه بشدة اكثر من ذي قبل ، ثم خرج من المنزل راكضاً . وهو يظن انه قد تخلص اخيراً من الهدية . وبعد ان خرج الطبيب ، اخذ رجل القانون يفحص الشمعدان بكل تأن . وبعد ذلك ، فعل مثلما فعل الطبيب ابتدأ يتساءل . ماذا يستطيع ان يفعل بها . وفكر في نفسه قائلاً .

— حقاً انه شيء جميل . وحرام ان ارميه بعيداً . ومع ذلك فانه من العار ان احتفظ به . . من الافضل ان اهديها لشخص ما . انني اعرف لمن اعطيها . سوف اقدمها في هذا المساء للممثل شوشكين . ان هذا الخبيث ليحب مثل هذه الاشياء . والى جانب ذلك ، فهو يحب ان يستفيد من كل شيء . . وما كاد يفكر في ذلك حتى ابتدأ يحققه . وبعد ظهر ذلك اليوم ، حمل الشمعدان المحزوم جيداً . الى الممثل شوشكين .

وقد ظلت غرفة الممثل شوشكين طوال ذلك المساء ، محاصرة من قبل الرجال الذين تسارعوا من كل جانب ليفحصوا الهدية . وظلت الغرفة طوال ذلك الوقت تتجاوب بأصداء الضحكات المرحة التي كانت اشبه بصهيل الخيول منها بأي شيء آخر .

وعندما كانت تقترب احدى الممثلات من الباب وتقول .

— هل يمكنني ان ادخل ؟ كان صوت شوشكين الجلف يجيبها مباشرة . — اوه كلا ، كلا يا عزيزتي . انك لا تقدرين ، لانني لم ارتد ثيابي بعد ! . وبعد ان انتهى التمثيل هز كتفيه وحرك يديه ثم قال .

— الآن ماذا عساي ان افعل بهـذا الشيء . انني اعيش في جناح منعزل . وغالباً ما تزورني الممثلات وليست هذه بالصورة الفوتغرافية التي استطيع ان اخبأها في احد هذه الادراج . ويقترح عليه خادمه بقوله . — لماذا لا تبيعها ؟ هناك امرأة مسنة تشتري تماثيل البرونز القديم . . تدعى سميرنوف . من الافضل لك ان تسرع الى هناك ، ولسوف يدلونك على الطريق اليها . اذ ان الجميع يعرفونها .

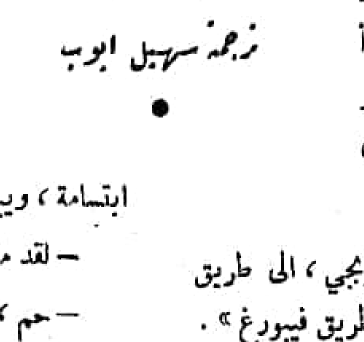
وبعد يومين بينما كان لوشيلكوف جالساً في عيادته يحضر بعض الحبوب . ورأسه مسند على يديه . فتح الباب فجأة واندفع ساشا داخل العيادة .

كان يبتسم ببهجة شديدة ، وصدره مثقل بالفرح . . وكان يحمل بين يديه شيئاً ملفوفاً في صحيفة . وصاح منقطع الانفاس .

— يا دكتور . تصور سروري ! فكأن الحظ يريد ان يفرحني . لقد نجحت لتوي في الحصول على رفيق شمعدانك . ان امي لسعيدة جداً ! انني الابن الوحيد لامي . . وانت انقذت حياتي .

ووضع ساشا وهو يرتجف شكراً وطرباً شمعداناً امام الطبيب ، ففتح هذا الاخير فاه . وكأنه يريد ان يقول شيئاً . ولكنه لم ينبس بكلمة . ان قدرته على الكلام . كانت قد ذهبت .

دمشق — سهيل ايوب



حزن

على من يجب ان اقص حزني

لانطون تشيخوف

ترجمة سهيل ايوب

كان الوقت غسقاً ، وكان ثلج رطب ثخين يدور ببطء حول مصابيح الشارع المنارة حديثاً ، ثم ينبسط طبقات رقيقة ناعمة ، على السطوح وظهور الافراس وأكتاف المارة وقبعاتهم . وكان سائق العربة « ايونا بوتاكوف » ابيض تماماً يشبه الخيال . وقد انطوى على نفسه بقدر ما يستطيع الجسم الانساني ان ينطوي . وجلس على مقعده دون ان يأتي حركة ما . وكان يبدو ان لو سقطت عليه كتلة من الثلج، لما رأى من الضروري ان ينفضها عنه . وكذلك ، كان حصانه الصغير ابيض لا يأتي بحركة . وكان جموده وتصلبه وأطرافه الشبيهة بالخشب المستقيم، والمنضمة الى بعضها ، تعطيه مظهر حصان هزيل، لا يساوي اكثر من « كوبيك » واحد. وكان هو الآخر ، من دون اي شك ، غارقاً في تفكير عميق. والحق انك انت نفسك، لو خطفت بعيداً عن محراثك ومحيطك الاغبر العادي ، والقيت وسط هذا المعمعان الصاخب ، المليء بالانوار الشيطانية ، والضجة غير المنقطعة ، والناس المسرعين جيئة وذهاباً ، لوجدت انت ايضاً ، كم يصعب عليك عدم التفكير .

وقد مرت حتى الآن ، مدة طويلة على ايونا وحصانه لم يتحركا خلالها من موضعهما قيد انملة . وكان ايونا قد ترك داره قبل الغداء . وحتى هذه الساعة لم يوص بأية « توصيـة » . وقد بدأ ضباب المساء يهبط علـى المدينة فتحل انوار المصابيح الباهتة ، محل اشعاعاتهـا اللامعة ، بينما اخذت ضجة الشارع تزداد ارتفاعاً .

وفجأة ، طرق سمع ايونا صوت يقول « عرجي ، الى طريق فيبورغ يا عرجي ، هل انت نائم ؟ هيا بي الى طريق فيبورغ » . وينتفض ايونا ، ليرى ، من خلال غطاء عينيه المكسو بالثلج، ضابطاً في معطف فضفاض ، وقبعته على رأسه . . . ويعود الضابط يقول « الى طريق فيبورغ . هل انت نائم ؟ . هيا الى طريق فيبورغ».

ويمسك ايونا عنان الحصان ، مومئاً بالموافقة ، فيسقط بنتيجة ذلك ، الثلج عن ظهر الحصان ورقبته . ويأخذ الضابط مكانه في العربـة . بينما يصوت ايونا بشفتيه مشجعاً حصانه . ثم يـمد عنقه كالاوزة ، ويعدل جلسته ، ويلوح بسوطه ، بتأثير العادة — اكثر منه بتأثير الضرورة — . وكذلك يمد الحصـان الصغير رقبته ، ويطوي ارجله الشبيهة بالخشب ، ويتحرك متردداً .

وفي الطريق ، سمع ايونا صوتاً من تلك الكتل المتحركة ، ذهاباً واياباً .

— ماذا تفعل يا هذا ؟ الى اين انت ذاهب ؟ بحق الشيطان. اذهب نحو اليمين ، نحو اليمين . ويصيح الضابط غاضباً .

— الا تعلم كيف تسوق؟ سر الى اليمين دوماً . ويشتمه صاحب عربة اخرى ، وينظر اليه احد المارة ، الذي كان يحـاول عبور الطريق ركضاً . فمسح كتفه بأنف الحصان ، بعنف شديد، وهو ينفض الثلج عن مرفقه .

ويبدل ايونا من جلسته ، وكأنه يقعد على ابر حادة . ثم يحرك يديه ، كمن يريد الاحتفاظ باتزانه . ويتثاءب كمن يريد ان يعطس وكمن لا يفهم ، لماذا هو هنا ! وكيف جاء الى هـذا المكان ! . ويقول الضابط مازحاً .

— يا لهم من خبثاء ، ان الانسان ليظن انهم قد اتفقوا جميعاً على ان يضايقوك ، او يقفوا تحت حصانك .

ويستدير ايونا نحو الضـابط ، ويحرك شفتيه . انه بكل تأكيد يريد ان يقول شيئاً . ولكنـه لم يخرج من بينهما الا آهة . ويسأل الضابط . « ما الامر ؟ » فيلوي ايونا فمه بشكل ابتسامة ، ويبذل جهداً كبيراً حتى يقول ؛ بصوت مبحوح:

— لقد مات ولدي هذا الاسبوع .

— حم ، وما سبب موته ؟ فيستدير ايونا بكل جسده نحو الضابط قائلاً .

— ومن يعلم ؟ يقولون بتأثير حمى شديدة ، لقد بقي ثلاثة ايام في المستشفى ، ومن ثم مات ، فلتكن مشيئة الله .



ويعلو صوت في الظلمـة يقول :

« استدر ، يا للشيطان ، هل فقدت صوابك ايها الكلب الهرم . هلا تستعمل عينيك»؟ .

ويجيب الضابط . « تابع . تابع ، والا لما وصلنا الى هناك حتى الغد . اسرع قليلاً ».

ويعود السائق عن عنقه ، ويجلس جيداً على مقعده ، ويهز سوطه مكرهاً . ثم يستدير بعد ذلك ، عدة مرات يلقي نظرة على زبونه . ولكن هذا الاخير ، كان قد اطبق جفنيه ، وكأنه يعبر بذلك ، عن عدم استعداده لان يسمع شيئاً .

وبعد ان اوصل ايونا الضابط الى فيبورغ، وقف بجانب مقهى . وطوى نفسه على مقعده ، وبقي هكذا دون حراك من جديد بينا اخذ الثلج مرة ثانية يغطيه مع حصانه .

وتمر ساعة ، ثم اخرى . . . وفجأة على طول الطريق ، يتقدم ثلاثة شبان يصرخون ويتخاصمون . وكان اثنان منهم ، طويلين هزيلين ، واما الثالث فقصير ، وذو نتوء في ظهره . وصاح احدهم بصوت جهوري . « عربجي ، الى جسر البوليس ، ثلاثتنا بعشرين كوبيكاً » . ويمسك ايونا بالعنان ، ويصفر بشفتيه . وبالرغم من ان عشرين كوبيكاً ، ليست بالاجر الحسن ، فليس مما يهمه اكان هذا الاجر روبلاً كاملاً ، او خمسة كوبيكات فقط . ان كل شيء اليوم سواء ، بالنسبة اليه . ثم انهم زبائن عابرون .

ويقترب الشبان الثلاثة عن العربة ، وهم يتدافعون ويتشاتمون بكلام بذيء . ويحاول ثلاثتهم دفعة واحدة ان يجلسوا على المقعد . ثم يدور بينهم نقاش حاد حول الذي سيبقى واقفاً . واللذين سيجلسان . وبعد ان اختلفوا ، وسب كل منهم الآخر قر رأيهم على ان يبقى ذلك الاحدب واقفاً ، بما انه اصغر حجماً منهما . ويقول الاحدب بصوت مدو ، وهو يأخذ مكانه في العربة الصغيرة ، ويزفر في عنق ايونا « هيا اسرع » .

— ولكن يا رفيقي ، اية قبعة هذه التي حصلت عليها ، وحقك ليس هناك اسوأ منها قبعة في بطرسبرج كلها .

— هي هي هي . يضحك ايونا ، مثل هذه .

— والآن يا « مثل هذه » اسرع . هل ستقطع الطريق كلها بهذه الخطى . هل انت ؟ اتريدها (الصفعة) على نقرتك ؟ .

ويقاطعه احد الطويلين قائلاً .

— أشعر برأسي وكأنه يحترق . لقد شربنا انا و« ناشكا » ليلة امس اربع زجاجات كونياك بكاملها . فيجيب الثاني بغضب . .

— انا لا اعلم لاي سبب تكذب . انك تكذب كحيوان .

— فليضربني الرب ، ان لم تكن الحقيقة بعينيها .

— انها لحرية بان تكون حقيقة . بقدر ما يكون سعال « القمل » حقيقة . ويعلو صوت ايونا ضاحكاً .

— ها ها ها . يا لهم من شبان مرحين ولكن الاحدب يصيح باشمئزاز . « كفى ، اذهب الى الشيطان ، هل ستقطع الجسر ام لا ؟ ايها الطاعون اللعين ، اهكذا يسوق الانسان ؟ استعمل السوط قليلاً ، اسرع بحق الشيطان » . ويشعر ايونا وراءه بالرجل الصغير ، يهتز بشدة ، وفي صوته رجفة ، ويستمع الى الشتائم الموجهة اليه . ثم يدير نظره في الناس ويأخذ شعوره بالوحدة يزايله رويداً رويداً . بينا يتابع الاحدب شتائمه ، ولا يتوقف عن المضي فيها ، الا حين تداهمه نوبة شديدة من السعال . ويبتدىء الشابان الطويلان ، يتكلمان عن امرأة تدعى « ناديجدا بتروفنا » . وينظر ايونا نحوهم مرات عديدة ، منتظراً صمتاً مؤقتاً ، حتى اذا كان له ما اراد ، التفت نحوهم وهمس : « ولدي ، مات هذا الاسبوع » فيجيب الاحدب ، وهو ينشف شفتيه اثر نوبة سعال . « لا بد لنا من ان نموت جميعاً . والآن اسرع . يا سادتي انا لا استطيع ان اذهب ابعد من هذا على هذا الشكل ، ليت شعري متى سيصل بنا الى هناك » . فيجيب احدهما .

— حثه في عنقه قليلاً على الاسراع . . ويأخذ الاحدب بشتمه ، ويصفعه على رقبته .

— ايها الطاعون اللعين . افلا تسمع ؟ اسرع والا حززت لك رقبتك . اذا اراد الانسان ان يعامل امثالك باحترام فالافضل له ان يذهب سيراً على قدميه . اما ايونا فقد كان يسمع رنات الصفعات التي كان يكيلها له الاحدب ، اكثر مما كان يشعر بها . ويضحك ثم يقول « حقاً انهم لسادة مرحون ، حفظهم الله » .

ويسأله احد الطويلين « عربجي ، هل انت متزوج » .

— انا ؟ ها ها ايها السادة المرحون . الآن ليس لي سوى زوجة واحدة ، هي الارض الرطبة . ها ها اريد ان اقول القبر ، لقد مات ولدي . وانا ما ازال حياً . حقاً انه لشيء عجيب ، ان يضل الموت الطريق . فعوضاً من ان يأتي الي ، ذهب الى ولدي . ويلتفت ايونا نحوهم ، يريد ان يروي ، كيف مات ولده . ولكن الاحدب يعلن في هذه اللحظة . وهو يرسل من فيه زفرة قصيرة . « لقد وصلنا اخيراً الى وجهتنا . شكراً وحمداً لله » .

ويراهم ايونا يختفون في البوابة المظلمة . ومرة اخرى يعود وحيداً . ومن جديد يعود السكون يحيط به . ويعود اليه حزنه الذي كان قد تضاءل لمدة قصيرة . فيغمر قلبه بقوة اشد من

السابق . أليس من انسان واحد يود سماع قصته ؟ . ولكن الجوع تمر بسرعة دون ان تلاحظ حزنه . ومع ذلك فانه حزن عظيم لا حدود له . . ويبدو له ان قلبه لو انفجر ، وانطلق الحزن الكامن فيه ، لغمر الارض كلها ، ومع ذلك فان احداً سواه لا يراه ، او يشعر به . ان هذا الحزن ، قد سعى كي يخبىء نفسه في ملجأ عديم الاهمية ، الى درجة ان لا يستطيع مشاهدته احد حتى في وضح النهار ، وبمساعدة النور .

ويرى ايونا حمالا ، وعلى كتفه بضعة اكياس صغيرة ، فيقرر التحدث اليه . .

— كم الساعة الآن ، ايها الصديق ؟ .

— اكثر من التاسعة ، ولكن لم انت واقف هنا ؟ هيا تحرك الى غير هذا المكان . ويتحرك ايونا بضع خطوات . ويعود فينطوي على نفسه ، ويترك لحزنه العنان . انه يدرك اخيراً ان توجهه الى الناس طلباً للمعونة ، لا طائل تحته ، فيعود بعد اقل من خمس دقائق ، فيشد قامته ، ويمسك برأسه وكأنه يشعر فيه بالم عنيف . ثم يأخذ بالعنان بين يديه ؟ انه لا يستطيع ان يتحمل اكثر من هذا . ويهمس لنفسه « الى الاسطبل » . وينطلق الحصان خبباً ، وكأنه قد ادرك ما يجول في خاطر سيده .

ويجلس ايونا بعد ساعة ونصف الساعة ، امام مدفأة علتها الاوساخ والاقذار . وحول هذه المدفأة ، على الارض ، وفوق البنوك ، اناس يشخرون . ان هواء الغرفة ثقيل وحار ، بشكل خانق .

وينظر ايونا الى النائمين ، ويحك جلده ، انه يأسف لعودته باكراً جداً . ويقول في نفسه « انني لم اكسب اليوم ، حتى ولاثمن علف الحصان ، وهذا هو بكل تأكيد سبب انزعاجي . ان رجلاً يعرف عمله حق المعرفة ، ويملك الطعام الكافي له ولحصانه يستطيع دوماً ان ينام بهدوء وسلام » ويتحرك سائق آخر في احدى الزوايا . ويجلس نصف جلسة ، ويتململ قليلاً ثم يسحب نفسه نحو وعاء ماء ، فيسأله ايونا .

— أتريد جرعة ماء ؟

— كلا ، لا اريد ماء !

— حقاً ، ولكن استمع لي ، انت تعلم ايها الصديق ان ولدي قد مات . هل تسمع ؟ لقد مات هذا الاسبوع في المستشفى ، انها قصة طويلة . وينظر ايونا كي يرى اي اثر تركت كلماته . فيرى الرجل وقد اخفى وجهه ، وعاد من جديد يغط في نومه .

ويزفر الرجل الشيخ ، ويحك رأسه . فمثلما كان الرجل الشاب يريد ان يشرب ، هكذا الشيخ ، يريد ان يتكلم . ولن يمر وقت طويل حتى يكون قد انقضى اسبوع على وفاة ولده . ومع ذلك فلم يتمكن من ان يتحدث عن ذلك ، كما يجب لاي شخص كان . . . ان عليه ان يرويها بترو واعتناء . كيف سقط ابنه مريضاً ، وكيف تعذب . وماذا قال قبل ان يموت ، ثم كيف مات . ان عليه ان يصف كل شاردة حدثت اثناء التشييع . والرحلة الى المستشفى لجلب ثياب المرحوم . الم تبق ابنته انيسيا في القرية ؟ ان عليه ان يتكلم عنها ايضاً . ان عنده اذن ما يتكلم عنه . ولا شك في ان المستمع سيتأوه ويزفر لحديثه ، وسيتأثر معه . ومن الافضل ايضاً ان يتحدث بهذا الامر الى النساء ، فبالرغم من بلاهتهن . فان كلمتين تكفيان لان تبكياهن ويقول ايونا لنفسه . « سأذهب ، واعتني قليلاً بالحصان . فما يزال هناك وقت كاف للنوم . ولا خوف علي من ذلك » .

ويرمي ايونا معطفه على كتفيه ، ويذهب الى حصانه في الاسطبل ويفكر في الشعير والعلف والطقس ، انه لا يجسر على التفكير في ولده عندما يكون وحيداً ، انه يستطيع ان يكلم اي شخص عنه . اما ان يفكر فيه ويتمثله في خاطره ، فذلك يؤلمه بشكل لا يطاق . وسأل ايونا حصانه ، وهو ينظر الى عينيه البراقتين :

— هل تأكل جيداً . ؟ هيا تابع تناول طعامك . فبالرغم من اننا لم نكسب اليوم شيئاً كي نشتري به شعيراً ، فاننا نستطيع ان نأكل تبناً . نعم ! انني قد شخت كثيراً . حتى لا استطيع ان اسوق . ان ولدي كان يستطيع ذلك . وليس انا . لقد كان سائقاً من الدرجات الاولى لو انه فقط كان قد عاش . . ويصمت ايونا لحظة ثم يتابع . .

— هذا ما حدث يا حصاني . لم يعد هناك من يدعى « كوزما ايو نيتش » . لقد تركنا وذهب بعيداً . والآن دعنا نفترض ، ان عندك مهراً وانك ام لهذا المهر . وفجأة — لنفرض ذلك — ذهب هذا المهر ، وتركك تحيا بعده . انك ستكون حزيناً . أليس كذلك ؟ . ويضع الحصان ما في فمه ، ويستمع ثم يزفر على يد سيده .

ان مشاعر ايونا ، لاشد من ان يتحملها وحده . حتى انه لم يعد يستطيع لها كتماً . فيميل على الحصان ، يروي له القصة بكاملها .

دمشق — سهيل ايوب



لانطون تشيخوف

ترجمة سهيل ايوب

●

حوالي الساعة العاشرة من احدى امسيات شهر ايلول المظلمة ، توفي اندريه الابن الوحيد لكيريلوف طبيب مدينة زمستفو والبالغ من العمر ست سنوات بمرض الدفتريا ، وحين جثت زوجة الطبيب على ركبتيها امام سرير الطفل المائت وقد تملكتها اول نوبة من نوبات اليأس ، سمع في البهو الجرس يقرع بجدة .

كان جميع الخدم قد ابعدوا عن المنزل في نفس الصباح الذي دخلت فيه الدفتريا اليه . فذهب كيريلوف بنفسه الى الباب دون ان يبدل ثيابه ، وهو في قميصه القصير الاكمام وصدريته غير المبكلة ، وبدون ان يمسح وجهه او يديه النديتين اللتين احرقهما حامض الفحم . وكان البهو مظلماً ، وكنت لا تستطيع أن تميز الشخص الذي دخل بشيء سوى قامته المتوسطة وربطة عنقه البيضاء ، ووجهه الكبير الذي علاه الشحوب بصورة غير طبيعية ، فلقد كان شاحباً الى درجة انه بدا كما لو كان ظهوره وحده قد جعل البهو اكثر بريقاً . وسأل الزائر بجدة :

— « هل الطبيب موجود ؟» فأجاب كيريلوف :

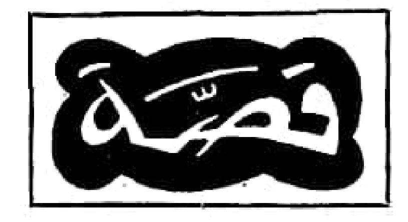
— « انني في منزلي ، فماذا تريد ؟ » فغمر السرور نفس الزائر واخذ يفتش في الظلام عن يد الطبيب :

— « اذن فأنت هو الطبيب ؟ اني لسعيد جداً ! » فتناول يد الطبيب وضغط عليها بشدة وتابع يقول :

— « انني جد .. جد مسرور ! لقد تعارفنا سابقاً .. انني ابو جين .. الذي تشرف بمقابلتك هذا الصيف عند السيد جنوشيف . اني لسعيد اذ وجدتك في المنزل .. استحلفك بالله لا تقل انك لن تأتي معي مباشرة . ان زوجتي في خطر من مرض الم بها .. ان العربة معي .. ».

وكان واضحاً من حركات الزائر وصوته انه في حالة اضطراب عنيف . تماماً كما لو كان خائفاً من نار تقترب منه ، او من كلب ثائر يعترض طريقه . وكان يخفف من تنفسه المتسارع ويتحدث بسرعة مرتجف الصوت . وكان في كلامه رنة اخلاص حقيقي او خشية الاطفال . ومثل كل انسان مذعور ومرتجف الاوصال ، كان يتكلم بجمل قصيرة عنيفة ويتمتم بكلمات كثيرة لا معنى لها ولا ضرورة مطلقاً . وتابع يقول :

— لكم كنت اخشى ان لا اجدك في المنزل . فبحق الله ارتد ثيابك ودعنا نذهب . لقد حدث ذلك كما يأتي : لقد جاءني بابشينسكي — الكسندر سيميونوفيتش — انك تعرفه . وتحادثنا . ثم جلسنا لنشرب الشاي . وفجأة صرخت امرأتي وهي تضغط بيديها على قلبها . ثم سقطت في مقعدها . ولقد حملناها الى سريرها . ودلكت لها جبهتها بالطيب ورششتها بالماء .. كانت متمددة كالجثة .. اني اخاف لئلا يضعف قلبها . دعنا نذهب . لقد توفي والدها ايضاً بسكتة قلبية .



واستمع كيريلوف اليه بصمت وكأنه لا يفهم اللغة الروسية .

وحين ذكر أيوجين بابشينسكي وأبا زوجته مرة ثانية ، ابتدأ من جديد يبحث عن يد الطبيب في الظلام . فهز هذا رأسه وقال وهو يلفظ كل كلمة ببطء وتمهل شديدين :

— «اعذرني فأنا لا استطيع الذهاب. من خمس دقائق مضت. توفي ولدي» . فتمتم ابوجين مرتداً الى الوراء :

— « اصحيح هذا ؟ يا الهي . يا له من وقت غير مناسب للمجيء ! يا له من يوم مشؤوم . للغاية ! يا للاتفاق . فكأنما كان مقصوداً اليه » .

وامسك ابوجين قبضة الباب واحنى رأسه يتأمل . كان من دون ريب في حالة تردد لا يعلم اذا كان يجب ان يذهب او يسأل الطبيب الذهاب معه مرة ثانية . ثم قال بلهفة ممسكاً الطبيب من مرفقه :

— « اصغ ، اني افهم حالتك تماماً ! والله يعلم مبلغ خجلي لاني احاول جلب اهتمامك في مثل هذه اللحظة . ولكن ما الذي استطيع فعله ؟ فكر انت ايضاً . الى من استطيع ان اذهب ؟ فليس هناك من طبيب هاهنا الا انت فمن اجل السماء . تعال . اني لا اطلب ذلك من اجلي ، فلست انا هو المريض ! » .

وخيم السكون وادار كيريلوف ظهره لابوجين ووقف جامداً مدة من الزمن ثم خرج ببطء من الصالة الى غرفة الانتظار ، وكان يستطيع المرء اذا ما رأى حركاته المترددة الميكانيكية ، والعناية التي بذلها وهو يرتب مظلة المصباح المطفأ في غرفة الجلوس ، ويراجع كتاباً ضخماً كان ملقى على المائدة ، ان يحكم انه كان في تلك اللحظة خالياً من كل غاية او رغبة وانه لم يكن يفكر في اي امر كان وأنه من المحتمل ان يكون قد نسي ان في الصالة رجلاً غريباً ينتظر . وزاد ظلام وهدوء الغرفة — فيما يبدو — في اختلاط عقله . وحين دخل من غرفة الانتظار الى مكتبه رفع رجله اليمنى اكثر مما يحتاج اليه وتحسس بيديه دفتي الباب ، وعلا وجهه حينئذ بعض الحيرة كما لو كان قد دخل منزلا غريباً مصادفة او سكر لاول مرة في حياته . ثم استسلم الآن في حيرة الى احساس جديد ودخل شريط من النور فوقع على رفوف الكتب القائمة على احد جدران المكتب • وكان هذا النور الممتزج بالرائحة الخانقة من حامض الفحم والاثير يأتي من الباب المنفرج الذي يصل بين المكتب وغرفة النوم . وغرق الطبيب في مقعد قرب الطاولة وتطلع ببلادة مدة من الزمن الى الكتب المنارة ، ثم قام ودخل غرفة النوم .

وكان هدوء خانق يخيم هنا في غرفة النوم . فجميع الاشياء من اضخمها الى زهيدها كانت تتحدث بفصاحة عن العاصفة التي مرت وعن السآمة والفتور بينما تأخذ راحتها الآن . وكان القنديل القائم بين جموع الزجاجات المغلقة والعلب وآنية الادوية على المائدة الصغيرة ، والمصباح الكبير القائم فوق الجرارات ينيران الغرفة بضوء شديد . وكان الصغير ممدداً على السرير قريباً من النافذة وعيناه مفتوحتان ، وعلى وجهه نظرة دهشة . ولم يكن يتحرك بل كان يبدو ان عينيه المفتوحتين تزدادان ظلمة شيئاً فشيئاً كل ثانية وتغوصان في جمجمته . وكانت الام جاثية على ركبتيها بالقرب من السرير وقد رمت يديها فوق جسد ولدها وأخفت وجهها بين طيات ادوات السرير ، وهي مثل الصبي عديمة الحركة . ولكن كم من حركات الحياة كانت تنبض في ثنايا جسمها وفي يديها ! وكانت ملتصقة بالسرير بكل جسدها بحماس وتلهف شديدين كما لو كانت تخشى تعكير الوضع الهادىء والمريح الذي وجدته اخيراً لجسمها المنهوك . وكان بعض الاغطية والثياب والكؤوس ملقاة على الارض ، وبعض الفراشي وقطع الصابون مبعثرة في كل مكان . وكان هناك ايضاً زجاجة من ماء الزهر ، ثم الجو الخانق والثقيل نفسه . كان كل شيء قد مات ، ومثل الموت ارتاح في هدوء عظيم .

ووقف الطبيب بالقرب من امرأته ، وقد وضع يديه في جيوب سراويله وأمال رأسه الى جهة واحدة وراح يتطلع بثبات الى ولده وكان يبدو على وجهه عدم المبالاة ، وكانت القطرات المتلألئة على لحيته ، هي التي تعلن وحدها انه قد بكى مؤخراً فقط .

وكان الفزع الهائل الذي نحسّه عندما نتكلم عن الموت غائباً عن غرفة النوم ، وفي السكوت الشامل ووضع الام ، وفي عدم الاهتمام الذي يبديه وجه الطبيب شيء خالب يؤثر في النفس . ذلك هو الجمال الخادع المراوغ الذي يملكه الحزن الانساني والذي يتطلب من الانسان زمناً طويلاً كي يفهمه ويصفه ، والذي يبدو ان الموسيقى هي وحدها القادرة على التعبير عنه . وكان المرء يحس الجمال ايضاً في الهدوء القاسي . اما كيريلوف وزوجته فقد اعتصما بالصمت ولم يبكيا ، فكأن ذلك اعترافه منها بكل شاعرية حالها . لقد ذهب مع هذا الطفل حقها في الاولاد ، ويا للاسف ! دوماً والى الابد ، مثلما مضى فصل شبابها مرة . فالطبيب اليوم في الرابعة والاربعين من عمره وقد شاب وراح يبدو كشيخ مسن واما زوجته المريضة الشاحبة اللون ففي الخامسة والثلاثين . فاندريه اذن ليس ابنها الوحيد فقط ، بل هو الاخير ايضاً .

وكانت طبيعة الطبيب، على خلاف زوجته، من ذلك النوع الذي يحس ضرورة الحركة عندما تتألم نفوسهم. فبعد ان وقف بالقرب من زوجته حوالي خمس دقائق، غـادر غرفة النوم رافعاً رجله اليمنى عالياً، الى غرفة صغيرة نصف ملآنة بأريكة كبيرة واسعة. ومن هناك دخل الى المطبخ. وبعد ان تنقل بين موقـد النار وسرير الطباخة، اجتاز باباً صغيراً وقفل الى البهو.

وهناك رأى مرة ثانية ربطة العنق البيضاء والوجه الشاحب.

وتفوه أبوجين وقد امسك بقبضة الباب:

— « واخيراً دعنا نذهب ارجوك ». فارتجف الطبيب وتطلع اليه فتذكر كل شيء:

— « استمع، لقد سبق فأخبرتك انني لا استطيع الذهاب. يا للفكرة الغريبة! » فقال أبو جين في رنة توسل وقد وضع يده على ربطة عنقه:

— « لقد جبلت من لحم ودم انا الآخر ايها الطبيب. وانا افهم حالتك تماماً. فأنا اشعر نفس شعورك. ولكنني لا اطلب ذلك من اجلي. ان امرأتي تموت. فلو سمعت صراخهـا ورأيت وجهها لتفرت الحاجي. يا الهي — وقـد قلت في نفسي انك ذهبت لترتدي ثيابك. ان الوقت ثمين يا دكتور دعنا نذهب، انني اتوسل اليك » فأجاب كيريلوف بعد صمت قصير:

— « اني لا استطيع الذهاب ». ودخل الى غرفة الاستقبال. فتبعه ابو جين وامسك به من مرفقه وتابع قوله كالمستعطين.

— « انك حزين. انني افهم ذلك. ولكنني لم اطلبـك كي تعالج ألماً خفيفاً في احد الاضراس او لكي تكتب وصفة طبية — بل لتنقذ حياة بشرية. ان هذه لاثمن من اي حزن شخصي. اني اطلب منك الشجاعة، فأسألك ان تقوم بعمل عظيم باسم الانسانية» فأجاب كيريلوف بجدة:

— « ان الانسانية تسد كلا الطريقين. فباسم الانسانية نفسها اسألك ان لا تأخذني بعيداً. يا إلهي، يا لها من فكرة غريبة! اني لا استطيع حتى الوقوف على قدمي الا بصعوبة، وأنت تخيفني بالانسانية. اني لا اصلح لاي شيء الآن. اني لا اريد الذهاب في سبيل اي امر كان. مع من استطيع ان اترك امرأتي؟ لا، لا. » وجمع كيريلوف يديه وتابع بعد ان ارتد الى الوراء:

— « و.. لا تسألني. انني آسف. ان القـانون يضطرني على الذهاب في مادته الثالثة عشرة، ولك الحق ان تسحبني من رقبتي.

حسناً، جرني ولكن.. ولكنني لا اصلح لشيء.. انني غير قادر حتى على الكلام. اعذرني. » فقال أبو جين ممسكاً الطبيب من مرفقه مرة ثانية:

— « انك غير منصف ابداً اذ تكلمني بهذه اللهجة ايهـا الطبيب. فلتذهب المادة الثالثة عشرة الى الشيطان! انه لا يحق لي ان اغصبك رغماً عن ارادتك. اذا اردت ان تجيء، فتعال، واذا رفضت فليكن الله معك حينئذ، ولكنني لا اتوجه الى ارادتك بل الى عواطفك. ان هناك امرأة شابة تموت. وقد قلت ان طفلك توفي الآن. فمن غيرك يستطيع ان يفهم خوفي؟ ».

وارتجف صوت ابو جين بسبب اضطرابه الشديد. ان ارتعاشه ورنة صوته لاكثر اقناعاً من كلمـاته. وكان ابو جين مخلصاً، ولكن ما يجدر ملاحظته ان كلا من الجمل التي استعملهـا كانت تصدر عنه مملة ولا مروءة فيها، جميلة في غير موضعها، وكأنهـا اهانة موجهة الى جو منزل الطبيب والى المرأة التي تموت. ولقد احس بذلك هو نفسه. واذ خاف لئلا يساء فهمه راح يبذل اقصى الجهد حتى يجعل صوته رقيقاً وحنوناً بحيث يقنع الطبيب بصدق لهجته على الاقل، ان لم يكن بكلماته. ولكن القاعدة ان الكلمات مهما كانت عميقة وجميلة تؤثر فقط في من لا يتعلق الامر به. فهي دائماً لا تستطيع ان تكفي التعيسين او الهانئين لان اقوى تعبير عن التعاسة او السعادة هو في الغالب الصمت. ان المحبـين ليفهمون بعضهم بعضاً بصورة أفضل عندما يعتصمون بالصمت. كمـا ان خطاباً حاراً شديد العاطفة يلقى الى جـانب القبر يؤثر في الغرباء فقط، بينما يبدو بارداً وتافهاً لارملة الراحل واولادها.

ووقف كيريلوف ثابتاً وفي صمت. ثم سأل بشدة عندمـا تلفظ ابو جين ببعض الكلمات الاخرى عن الواجب الكبير الذي يترتب على عاتق الطبيب، وعن التضحية الذاتية:

— « هل المكان بعيد؟ »

— « ثلاثة عشر او اربعة عشر فرسخاً. ان الخيل قوية يا دكتور. اقسم لك بشرفي اني سوف آخذك الى هناك واعود بك في ساعة واحدة. ساعة واحدة فقط ». وكان للكلمات الاخيرة وقع اشد من وقع جميع الاشارات الانسانية او الى واجب الطبيب وفكر كيريلوف لحظة ثم قال وهو يتنهد.

— « حسناً، دعنا نذهب! ».

ثم دخل بسرعة بخطوات مضطربة الى غرفة مطالعته، وعاد

سريعاً وعليه معطف طويل . فسر ابو جين وابتدأ يرقص حواليه بفرح يساعده في ارتداء معطفه ، ثم صحبه في الخروج من المنزل.

وكان الظلام يخيم خـارجاً ، ولكن النور كان اشد منه في البهو . وهنا في الظلام بدا وجه الطبيب الطويل الشكل بوضوح ، وكذلك لحيته الطويلة الضيقة وانفه الاقنى . والى جانب الوجه الشاحب ، كان يمكن رؤية وجه ابو جين الكبير وقبعته الصغيرة التي تغطي بصعوبة قمة رأسه . وظهرت ربطة العنق البيضـاء من الامام فقط ، اما من الخلف فقد اختبأت تحت شعره الكثيف . وتمتم ابو جين وهو يساعد الطبيب على الركوب .

— « صدقني ، انني قادر على تقدير شهامتك . انك تستطيع ان تنطلق الآن يا « لوك » انك تستطيع ان تسرع بقدر امكانك ايها الرجل العزيز ، فهيا ! » .

وساق السائق بسرعة . فظهر اول ما ظهر صف من البنايات المكشوفة التي تقوم على جانب ساحة المستشفى . والظلام يخيم على كل مكان ، اللهم الا ضوء لامع كان ينطلق خلال احدى النوافذ في نهاية الساحة وينصبّ على جدار الحديقة . وثلاث نوافذ من جناح طبقة الاشراف المستقل تبدو اكثر شحوباً من الهواء . ثم دخلت العربة في ظلام مطبق حيث كنت تستطيع ان تشم رائحة الاعشاب الندية ، وتسمع همس الاشجار . وايقظت ضجة العجلات الغربان الذين بـدأوا يحركون اوراق الشجر ويطلقون صراخاً حزيناً مدهوشاً ، كما لو كانوا يعرفون ان ابن الطبيب قد مات وان زوجة ابو جين تعاني المرض . ثم ظهرت مجموعة من الشجيرات ، واخيراً لمعت بركة ماء ظللتها اشباح كبيرة سوداء . واستمرت العربة تجري على طول طريق سهل ، بينما اخـذ صراخ الغربان يضعف تدريجياً فلا يسمع الا بصعوبة بعيداً في الخلف . ثم شمل السكون كل شيء .

وبقي كيريلوف وابو جين صامتين طوال الطريق تقريباً ، خلا مرة واحدة تنهد فيها ابو جين بعمق ثم تمتم :

— « انه مرض هائل . ان المرء لا يحب اقرباءه ابداً بقدر ما يحبهم عندما يكونون عرضة لان يفقدهم » .

وحين كانت العربة تمر بهدوء عبر النهر انتفض كيريلوف فجأة كما لو ان المياه المتدفقة قد اخافته . وابتدأ يتحرك ضجراً ثم قال بكدر :

— « دعني اذهب . وسوف اجيئك فيما بعد . انني اريد ان ارسل الخادم الى امرأتي فحسب . انها وحيدة تماماً » .

وكان ابو جين صامتاً . في حين كانت العربة تترجح وتتمايل كلما مرت فوق احد احجار الطريق . ثم قطعت الفسحة الرملية وتابعت مسيرها . فابتدأ كيريلوف يتحرك ويتطلع حوله مغموماً . والى الخلف كان الطريق يرى في الضوء الخفيف الذي تنشره اشعة الكواكب وشجر الصفصاف الذي يغطي الارض الرملية يختفي في الظلام . وعلى الجهة اليمنى كان السهل يمتد هادئاً ولا حدود له كالسماء . وكانت تلمع بين كل مسافة واخرى بعض الانوار الخـافتة الآتية دون شك من اكواخ القرية القريبة . وفي الجهة اليسرى على موازاة الطريق تمتد هضبة صغيرة كستها الشجيرات الـتي لم يكتمل نموها بعد . بينما وقف على الهضبة نصف قمر ضخم دون حراك ، احمر اللون ، حجبه الضباب قليلا ، واحاطت به من كل جانب السحب الرقيقة التي تبدو وكأنها تتفرس فيه وتحرسه خوفاً من ان يختفي .

وكان المرء يحس في الطبيعة كلها شيئاً مريضاً لا رجاء فيه . وكانت الارض تخور بذكرى الربيع والصيف ، وتنتظر بجمود مجيء الشتاء الذي لا بد منه . مثلها مثـل امرأة ساقطة قبعت وحيدة في غرفة مظلمة تجرب ان لا تفكر في ماضيها . واينما كان يقع نظر الانسان ، كانت الطبيعة تظهر كل شيء مثـل هاويات مظلمة باردة لا قرار لها ، حيث لم يستطع كيريلوف ولا ابو جين . ولا نصف القمر الاحمر الافلات منها .

وكلما كانت العربة تقترب من هدفها ، كلما يزداد اضطراب ابو جين . فابتدأ يتنحنح ثم قفز واقفاً واخذ يتطلع من فوق كتفي السائق الى الامام . وعندما وقفت العربة اخيراً عند اسفل الدرج الكبير الذي غطته سجادة رائعة ، تطلـع ابو جين الى النوافذ المضاءة في الطابق الاول . وكان المرء يستطيع سماع تنفسه يرتجف وقال وهو يدخل الى البهو مـع الطبيب محركاً يديه بحيرة في اضطرابه :

— « اذا حدث شيء . . . انني لن استطيع ان احتمل ذلك . ولكنني لا استطيع ان اسمع اية ضجة » وتابع بعـد ان اصغى الى السكون :

— « ان ذلك يعني ان كل شيء على ما يرام بقدر الامكان » .

وكان المنزل يبدو لشدة الاضاءة وكأنه غارق في النوم . وقد صار الآن في امكان الطبيب وابو جين اللذين بقيـا في ظلمة كل هذه المدة ، ان يتفحص كل منهما الآخر . كان الطبيب طويلاً وقد مال جذعه الى الامام قليلاً ، مضطرب اللباس كـما ان وجهه كان

مصطحاً . وكان في شفتيه السميكتين كشفتي العبيد ، وفي انفه الافنى ، وفي نظرته الذابلة اللامبالية شيء قاس بصورة غير مرضية . شيء فظ وصارم في آن واحد . وكان شعره المجعد وصدغاه الفائران والشيب المبكر في لحيته الطويلة الخفيفة التي كانت تظهر ذقنه اللامعة من خلالها ، وفي لونه الشاحب الاسمر ، وفي تصرفاته الخرقاء المرتبكة ، كان في صلابة كل هذا ما يوعز الى الفكر بأوقات رديئة قضيت ، وبنصيب غير عادل من ضجر الحياة والناس وكنت اذا ما نظرت الى وجه الرجل القاسي يصعب عليك الاعتقاد بان له زوجة وانه يستطيع ان يبكي على ولده . ولكن ابو جين كان يوحي بشيء يختلف عن هذا كله . فقد كان قوي البنية مرتفع القامة مصفف الشعر ذا رأس كبير و« سالفين » عريضين ولكنهما لطيفان . وكان يرتدي ثياباً ثمينة فصلت على الزي الاخير ومذ كان في العربة كنت تشعر في معطفه المحكم الاشتمال وفي شعره الكثيف كعرف الديك شيئاً نبيلاً . وكان يسير ورأسه مرفوع وصدره بارز الى الامام ، يتكلم بلهجة ناعمة ، بينما كان يبدي في طريقته بتحريك ربطة عنقه وترتيب شعره ، رشاقة لطيفة اقرب ما تكون الى الانوثة . وحتى شحوبه وفزعه الطفلي عندما رنا بنظره الى فوق وهو يخلع معطفه لم يعكرا شيئاً من مظهره الخارجي او ينقصا من الارتياح والنضارة والفتوة التي كانت تشع من وجهه . وقال وهو يصعد السلم :

— « ليس من احد هنا ، اني لا استطيع ان اسمع شيئاً . ليس من حركة . فليكن خيراً يا الهي ! » .

ورافق الطبيب خلال البهو حتى غرفة استقبال واسعة ، حيث كان يرى بيانو اسود ضخم ، وشمعدان غطي بغطاء ابيض . ومن هناك مر الاثنان الى غرفة انتظار صغيرة وجميلة ومريحة جداً تملأها ظلمة نصفية لطيفة ووردية . فقال ابو جين :

— « ارجوك ، اجلس لحظة هنا يا دكتور ، اني . . اني لن اغيب سوى ثانية واحدة . اني اريد ان القي نظرة واخبرهم » .

وبقي كيريلوف وحيداً . ومن المحتم ان رخاء غرفة الاستقبال ولطافة الظلمة الخفيفة ، لا بل ان نفس وجوده في منزل غريب لم يألفه ، كل هذه الامور لم تحرك شعوره ! واقتعد كرسياً ثم اخذ يتطلع الى يديه المحترقتين بحامض الفحم . وهو لم يلق سوى نظرة واحدة الى نور المصباح الاحمر اللامع ، والى خزانة الآلات الموسيقية التي في زاوية الغرفة . وحين القى نظرة جانبية على اطراف الغرفة حيث كانت الساعة تدق ، شاهد ذئباً محنطاً تشابه متانته ورضاه ابو جين نفسه .

وكان السكون مخيماً . وفي بعض الاماكن البعيدة في الغرف المجاورة صرخ احدهم بصوت عال : « آه ! » ثم تحطم باب زجاجي من المحتمل انه كان باب خزانة ، ومن ثم خيم السكون مرة ثانية . وبعد مرور خمس دقائق ، كف كيريلوف عن التطلع الى يديه ورفع ناظريه الى الباب الذي توارى ابو جين وراءه .

وكان ابو جين واقفاً على العتبة ، ولكن يختلف عن الانسان الذي كانه قبل ذهابه ، وقد تركته علامات الاعتداد بالذات والرشاقة الخبيثة ، بينما كان وجهه ويداه ووضع جسده متقلصة جميعها تعبر عن عذاب عميق ناشىء عن رعب ، او عن ألم جسدي موجع . وكان كل من انفه وشفتيه وشاربيه وسائر ملامحه تتحرك كما لو كانت تحاول ان تفلت بنفسها في وجهه . ولكن عينيه بدتا كما لو كانتا تضحكان بتأثير الالم .

وخطا ابو جين خطوة ثقيلة وطويلة الى وسط الغرفة وانحنى وتأوه وهز قبضتيه . ثم صاح مشدداً اللفظ على المقطع « دع » :

— « خدعت ! لقد خدعتني ! لقد ذهبت ! انها مـا سقطت مريضة وارسلتني لاجيء بالطبيب ، الا كي تفر مع ذلك الاحمق بابشينسكي . يا الهي ! » .

وخطا ابو جين — مرة ثانية — بتثاقل نحو الطبيب ، وقد رفع قبضتيه الرقيقتين البيضاوين امام وجهه ، ثم تابع وهو ينوح ويحرك يديه اثناء بكائه :

— « لقد ذهبت ! لقد خدعتني ! ولكن لم هذه الاكذوبة ؟ يا الهي ، يا الهي ! لم هذه الدناءة والخدعة الدنسة ، هذه اللعبة الشيطانية الافعوانية ؟ ماذا عملت لها ؟ لقد ذهبت » .

وسالت الدموع من عينيه ، ودار على عقبيه وابتدأ يذرع بخطاه غرفة الانتظار . وكان يشبه في سترته القصيرة وسرواله العصري الضيق ، الذي بدت فيه رجلاه رقيقتين جداً بالنسبة لجسده ، الاسد بصورة غريبة جداً . واشتعل حب الاطلاع في وجه الطبيب الجامد . فنهض ورمق ابو جين :

— « حسناً ، اين هي المريضة ؟ » . فصاح ابو جين وهو يضحك ويبكي ويتابع هز قبضتيه :

— « المريضة ، المريضة ! انها لم تكن مريضة بل ملعونة ، لئيمة وجبانة . ان ابليس نفسه لا يستطيع ان يبتدع خدعة اكثر قذارة من هذه . وهكذا ارسلتني لتستطيع الفرار مع أحمق وجلف قاس ! يا الهي ، لقد كان من الافضل ان تموت . اني لا اريد ان

أتحمل ذلك . اني لن استطيع ان اتحمل ذلك ».

ووقف الطبيب متصلباً . وابتدأت عيناه تطرفان وقد امتلأتا بالدموع ، وابتدأت لحيته الرقيقة تتحرك مع فكه يمنة ويسرة . ثم سأل وهو يتطلع حوله مستغرباً :

— « ما معنى هذا ؟ لقد توفي ولدي . وزوجتي تتعذب وحدها في البيت كله .. اني لا استطيع الوقوف على قدمي الا بصعوبة ، وكذلك لم أنم طوال ثلاثة ايام . وها انا ادعى للتمثيل في مهزلة مبتذلة ، ولامثل دور المسرح فيها ! اني لا ، اني لا افهم ذلك ! ».

وفتح ابو جين احدى قبضتيه والقى على الارض بوريقة مجعدة ثم داسها ، كما لو كانت حشرة يريد ان يسحقها . وقال من بين اسنانه المطبقة ملوحاً باحدى قبضتيه حول رأسه .

— « انا لم انتبه .. لم افهم . انا لم الاحظ كيف كان يأتي لزيارتنا كل يوم . اني لم الاحظ انه قدم في عربة هذا اليوم ! فلم كانت العربة ؟ اني لم الاحظ ! انا البريء ! » . وتمتم الطبيب بقوله :

— « اني لم .. اني لا افهم . ماذا يعني كل هذا ؟ انه الهزء بانسان ، والسخرية من انسان متألم ! ان هذا لمستحيل . اني لم أره في كل حياتي الماضية ! ».

وهز الطبيب ، بارتباك انسان مشدوه قد ابتدأ يفهم ان احدهم قد اهانه بقساوة ، كتفيه وحرك يديه ، وبدون ان يعرف ماذا يقول او يفعل ، سقط منهوك القوى في مقعد :

— « حسناً ، انها لم تعد تحبني ابداً . لقد احبت رجلاً آخر ! حسناً جداً . ولكن لمَ الخداع ، لمَ هذه الخيانة القذرة ، لم ، ؟ واي جرم ارتكبته بحقك ؟ » ثم قال مقترباً من كيريلوف :

— « اصغ الي ايها الطبيب . لقد كنت الشاهد المكره على مصيبتي . وانا لن اخفي الحقيقة عنك . اني اقسم انني احببت هذه المرأة . لقد احببتها حب العبادة مثل العبد . لقد ضحيت بكل شيء لاجلها . لقد قاطعت اسرتي وتركت وظيفتي وموسيقاي . لقد غفرت لها اشياء ما كنت اغفرها لامي واختي . اني لم اوجه لها مرة نظرة غضبي ، ولم ارفع امامها اي اعتراض . فلمَ هذه الاكذوبة اذن ؟ اني لا اطلب حباً . ولكن لمَ هذه الخدعة الشنيعة ؟ فاذا توقفت عن اضمار الحب فقل ذلك بشرف ، وعلى الاخص اذا كنت تعرف ما هو شعوري في هذا الموضوع ».

وروى أبو جين ، والدموع في عينيه والرجفة تهز كل عظامه قصته كلها للطبيب . فتكلم بشغف ضاغطاً على قلبه بكلتا يديه وكشف له عن جميع اسرار الاسرة بدون ادنى تردد ، آه لو كان سعيداً لكون هذه الاسرار تنتزع من قلبه . انه لا بد سينال بعض الراحة اذا استطاع ان يتكلم هكذا ساعة او ساعتين ، ويروي كل ما في نفسه .

ومن يستطيع ان يقول ان الطبيب لو اصغى اليه وبادله شعور الصداقة ، اذن لفهم كآبته دون احتجاج - يحدث غالباً - ودون اللجوء الى حماقات لا طائل منها ! انما حدث خلاف ذلك . فبينما كان ابو جين يتكلم ، كانت ملامح الطبيب المتعب تتغير بوضوح وكانت اللامبالاة والذهول الباديان في وجهه ، تفسحان الطريق تدريجياً لعلامات غضب وسخط وغيظ مرة . وكانت ملامحه تزداد قساوة وصلابة وسخطاً . ثم انتفض فجأة ، حين وضع ابو جين امام ناظريه رسم زوجته الشابة بوجهها الجميل ، رغماً عن كونه جافاً ، وجه لا تعبير له شبيه بوجه راهبة ، سائلاً اياه هل من الممكن ان ينظر الى هذا الوجه ويخمن انه يستطيع ان يكذب ، وجحظت عيناه ، وقال وهو يتلفظ بكل كلمة على حدة بفظاظة :

— « لم تخبرني بهذا كله ؟ اني لا اريد ان اسمع اني لا اريد ذلك » . وصاح وهو يضرب الطاولة بقبضته :

— « اني لا اريد اسرارك العامة المبتذلة - فلتذهب اسرارك الى الجحيم . لا يحق لك ان تخبرني بهذه التوافه . او هل تفكر انني لم اتحمل ما يكفي من الاهانة ! ام هل تظن انني خادم يمكنك ان توجه اليه الاهانة الاخيرة ؟ نعم ؟ ».

وابتعد ابو جين عن كيريلوف وهو يرمقه دهشاً . وتابع الطبيب هازاً رأسه :

— « لمَ أتيت بي الى هنا ؟ لقد تزوجت وانت كاسف البال وغضبت وانت كاسف البال ، وألفت رواية محزنة - ولكن لم تحشرني فيها ؟ وماذا افعل بروايتك هذه ؟ دعني وحدي ! تابع عظتك النبيلة ، استعرض آرائك الانسانية والعب - » . والقى الطبيب نظرة حالمة الى خزانة الآلات الموسيقية - « بزمارك وناياك وحنط نفسك ايضاً اذا اردت . ولكن لا تتجرأ على الهزء بانسان حقيقي ، اذا كنت لا تستطيع ان تحترمه ، فعلى الاقل تستطيع ان تؤخر عنه التفاتك اليه ورعايتك له » فسأل ابو جين خجلاً :

— « ماذا يعني كل هذا ؟ ».

— « هذا يعني ان السخرية بالانسان لامر دنيء وقبيح . وانتم تعتبرون الاطباء ، وكل الناس الذين يعملون بجد ولا يجدون وقتاً ينغمسون فيه في العهر والفجور عبيداً لكم تستطيعون ان تسخروا

منهم كما تشاؤون . حسناً ، ولكن احداً لم يعطك الحق لتجعل انساناً يتألم ، عبداً لك » .

فسأل ابو جين وقد ابتدأ وجهه يتقلص ولكن بغضب بيّن هذه المرة :

— « كيف تتجاسر على مثل هذا الكلام ؟» فصاح الطبيب وقد ضرب الطاولة بقبضته مرة اخرى :

— « كيف تجرؤ انت على أن تجلبني حتى هذا المكان عندما تعرف انني في ألم ؟ ومن اعطاك الحق لتهزأ من حزن انسان آخر ؟» فصاح ابو جين :

— « انك مجنون ، انك غير كريم . اني أنا الآخر شقي جداً و . . و» فابتسم الطبيب ابتسامة هازئة وهو يقول :

— « شقي ، لا تلمس هذه الكلمة فليس لها ادنى علاقة بك ان المقامرين الذين لا يكسبون شيئاً يسمون انفسهم اشقياء ايضاً وان ديكاً مخصياً يشقى بكل شحمه الفائض الذي يضايقه . يا لك من انسان لا نفع منه ! » فصاح ابو جين بصوت حاد .

— « يا سيدي انك تنسى نفسك ، ان اناساً يقتلون لتفوههم بمثل هذه الكلمات . هل تفهم ؟ » .

وادخل ابو جين يده في جيب سترته الجانبي واخرج محفظته ، ثم اخرج منها ورقتين ماليتين والقى بهما على الطاولة ، وقال وخياشيمه ترتجف :

— « هذه اتعابك : لقد نلت اجرتك » فأجاب كيريلوف وقد رمى بالوريقات من الطاولة الى الارض :

— « لا تجسر على عرض دراهم علي انك لا تمحو اهانة بواسطة الفضة » .

وكان ابو جين والطبيب واقفين وجهاً لوجه يكيل كل منهما للآخر اهانات لا يستحقانها . انهما لم ينطقا طوال حياتهما ، حتى ولا في ساعات الجنون بكل الامور المجردة عن العدل والقاسية السخيفة . وقد كانت تبدو — بكل قسوة — عند كليهما انانية الانسان التعيس . ان سائر الناس الاشقياء انانيون وشريرون وغير عادلين ، وأقل قدرة على فهم بعضهم بعضاً من المجانين . ان الشقاء لا يوحد الناس بل انه يفرق بينهم ، وحيث يتخيل انسان ان الاشتراك في الحزن يمكن ان يوحد بين الناس ، يجد من الظلم والوحشية اكثر مما يجد منها بين الراضين نسبياً .

وصاح الطبيب منقطع الانفاس :

— « ارسلني الى منزلي ارجوك » . فقرع ابو جين الجرس بجدة . فلم يظهر احد . فقرعه مرة ثانية ، وحينئذ رمى الجرس بغضب الى الارض . فوقع على السجادة ببطء . وأحدث صوتاً محزناً شبيهاً بأنين النزع الاخير . ثم ظهر الخادم . فقفز اليه ابو جين وقد ضم قبضتيه :

— « اين كنت مختفياً ، لعنك الله ؟ اين كنت في هذه اللحظة اذهب واخبرهم ان يرسلوا العربة لهذا الجنتلمان ، وهيء لي العربة الصغيرة » ثم صاح بعد ان استعد الخادم للذهاب :

— « انتظر ، يجب الا يبقى خائن واحد منكم غداً . انصرفوا جميعاً . سوف استدعي خداماً آخرين . يا للرعاع ! » .

وبقي ابو جين والطبيب صامتين مدة انتظارهما . وقد عادت علامات الرضا والرشاقة الخبيثة الى الاول . فابتدأ يذرع ارض غرفة الانتظار وهو يهز رأسه بلطف كما لو كان يدبر شيئاً . ولم يكن غضبه قد برد بعد ، ولكنه حاول ان يبدو كما لو كان لا يلاحظ وجود عدوه . وكان الطبيب يستند على حافة الطاولة باحدى يديه يتطلع الى ابو جين بنفور شديد وبالاحرى بذلك البغض الفظ والقبيح الذي لا يشعر به الا الرجل الكئيب وسيء الطالع حين يرى الاستخفاف والرشاقة امامه .

وبعد قليل ، حين اخذ الطبيب مقعده في العربة وابتعد بها كانت عيناه تطرفان بازدراء . وكان الظلام مخيماً بشدة اكثر من ساعة مضت . وقد اختفى الآن نصف القمر وراء الهضبة الصغيرة واجتمعت السحب التي كانت تحرسه في بقع سوداء حول النجوم . وابتدأت العربة الصغيرة الاخرى ذات المصابيح الحمراء تقعقع في الطريق ، ثم تخطت عربة الطبيب . انه ابو جين في طريقه للاحتجاج ، ليرتكب كل اساليب الحماقة .

وطوال الطريق لم يفكر الطبيب بزوجته اوبأندريه ، ولكن بأبو جين وهؤلاء الذين يعيشون في المنزل الذي خلفه لتوه . وكانت افكاره غير عادلة ، لا انسانية وقاسية . وكان يدين ابو جين وزوجته وبابشينسكي وكل اولئك الذين يعيشون في نصف الظلمة الوردية ورائحة الدخان وطوال الطريق كان يمقتهم ، وكان قلبه يفيض بالكراهية لهم . اما الاعتقاد الذي كونه عنهم فسيدوم طيلة حياته .

وسيمضي الزمن وكذلك ألم كيريلوف ، ولكن هذا الاعتقاد الظالم بحق القلب الانساني ، وغير اللائق به لن يمضي . بل سيبقى في ذاكرة الطبيب حتى القبر .

دمشق — سهيل ايوب

اهمال

للكاتب الروسي انطون تشيخوف

ترجمة سهيل ايوب

عاد بيوتر بيتروفيتش ستريجين ابن اخ السيدة ايفانوف ارملة الكولونيل — وهو الرجل الذي سُرق خفاه في العام الماضي — الى منزله من حفلة تعميد في الساعة الثانية صباحاً. ولكي يتجنب ايقاظ اهل البيت، خلع عنه ثيابه في المشى الخارجي، واخذ طريقه الى غرفته على اطراف اصابعه معلقاً انفاسه، وابتدأ يستعد للنوم دون ان يشعل القنديل.

كان ستريجين يعيش حياة منتظمة وهادئة. وكانت تعلو وجهه علامات الخطيئة لانه لم يكن يقرأ شيئاً سوى كتب الدين والتربية ولكنه في هذه الحفلة اذ غمره السرور لان ليوبوث سبيريدونوفنا قد وضعت طفلها بنجاح وسلام، سمح لنفسه فشرب أربعة كؤوس من الفودكا وكأساً من الخمر الذي يوحي طعمه شيئاً بين الخل وزيت الخروع. ان المشروبات الروحية شبيهة بماء البحر والمجد: فكلما شربت منها، كلما ازددت لها ظمأ

والآن في الوقت الذي كان يخلع ثيابه فيه، كان ستريجين يشعر بشوق عنيف الى الشراب. وفكر يقول: — « اني اعتقد ان داشينكا تملك بعض الفودكا في الزاوية اليمنى من خزانتها، فان شربت منها ملء كأس فأعتقد انها لن تلاحظ ذلك ».

وبعد تردد قصير، تغلب ستريجين على مخاوفه واسرع الى الخزانه وفتح الباب باحتراس فعثر على زجاجة من الفودكا في زاويتها اليمنى فسكب منها ملء قدح وأعادها الى مكانها ورسم بعدئذ اشارة الصليب ثم نهل الشراب. وعلى الفور وقع شيء شبيه بالمعجزة اذ سقط ستريجين الى الوراء من قرب الخزانة حتى الصندوق بقوة هائلة كالقنبلة. ان امام ناظريه لمعاناً وهو يشعر وكأنه لا يستطيع ان يتنفس، وفوق كل شيء كان يشعر وكأن جسمه قد سقط وسط مستنقع مليء بالعلق. وكان يبدو له وكأنه بدلاً من الفودكا قد ابتلع ديناميتاً ينفخ كالنار في جسمه، في البيت، وفي الشارع كله.. اما رأسه وذراعاه ورجلاه فقد كان يخيل له انها تنفصل عن جسده وتطير في الفضاء بعيداً الى الشيطان

ولمدة ثلاث دقائق بقي ممدداً على الصندوق بلا حراك ومنقطع الانفاس تقريباً ونهض بعدئذ وهو يتساءل: « اين أنا ؟» واول شيء لمع في خاطره بعد ان استعاد صوابه هو الرائحة الواضحة لزيت البترول وفكر مرتاعاً:

— « يا للقديسين، لقد شربت زيت البترول عوضاً عن الفودكا ».

والتقت به الفكرة بأنه قد يكون سمم نفسه في قشعريرة باردة، ومن ثم في حمّى. لقد كان ما أخذه سماً حقاً، والبرهان على ذلك ليس تلك الرائحة في الغرفة، بل ايضاً ذلك الطعم المحرق في فمه، وتلك الشرارات امام عينيه، وهذا الطنين في رأسه، والمغص الاليم في معدته. ولقد اراد وهو يشعر باقتراب الموت منه، ودون ان يعلل نفسه بآمال كاذبة، ان يقول وداعاً لاقرب الناس اليه. ولذلك اتجه نحو غرفة داشينكا. (وقد كانت تعيش معه، منذ ان ترملت، اخت زوجته التي تدعي داشينكا. وهي فتاة كبيرة السن، لكي تعتني بأمور المنزل).

وقال بصوت مغرورق بالدموع وهو يدخل غرفة النوم:

— « داشينكا، عزيزتي داشينكا! ».

فتأفف شيء في الظلام وانطلقت منه آهة عميقة:

— «داشينكا». فجاء صوت امرأة يتلفظ بسرعة:

« من؟ ماذا؟ اهذا انت يا بيوتر بيتروفيتش؟ لقد رجعت اخيراً؟ حسناً، ما بالك؟ ما الاسم الذي اعطيته الطفلة في المعمودية؟ ومن كانت عرابتها؟ ».

— « لقد كانت عرابتها ناتاليا اندريوفنا فيليكوسفيتسكي وعرابها بافيل ايفانيتش بيترسونيتسين .. اني .. اني اعتقد يا داشينكا انني اموت. والطفلة قد اعطيت في المعمودية اسم اوليمبيادا اكراماً لشفيعتهم اللطيفة .. اني .. اني شربت الآن زيت البترول يا داشينكا! ». « — وماذا ايضاً؟ انك لا تقول انهم قدموا لك زيت البترول هناك! ».

— « يجب ان اعترف انني اردت ان اشرب الفودكا بدون ان اطلب منك ذلك .. وقد عاقبني الرب على ذلك، لقد اخطأت في الظلام فشربت زيت البترول .. ماذا وجب علي ان افعل ؟!

واذا علمت داشينكا ان الخزانة قد فتحت بدون اذنها ازداد تيقظها.. واسرعت باشعال شمعة، وقفزت في سريرها وانطلقت حافية القدمين الى الخزانة بثياب النوم وبوجه فيه غش كثير وبارزة عظامه كالورق المجعد. وسألت بغضب وهي تتفحص داخل الخزانة: — « من اخبرك



ساعي البريد

ساعي البريد
ماذا تريد
انا من الدنيا بمنأى بعيد
اخطأت ،
لا شك فما من جديد
تحمله الارض لهذا الطريد
ما كان ، ما زال على عهده
علم او يدفن او يستعيد
ولم تزل للناس اعيادهم
ومأتم يربط عيداً بعيد
اعينهم تنبش في ذهنهم
عن عظمة اخرى لجوع جديد
ولم تزل للصين من سورها
اسطورة تحيى ودهر يبيد
ولم يزل للارض « سيزيفها »
وصخرة تجهل ماذا تريد
***
ساعي البريد
اخطأت ،
لا شك فما من جديد
وعد مع الدرب فيا طالما
جاء بك الدرب ..
وماذا تريد ..؟

بغداد — بلند الحيدري

انك تقدر على ذلك ؟ هل احتفظ بالفودكا هنا من اجلك ؟ » .

وتمتم ستريخين وهو يمسح العرق البارد المتصبب على جبينه :

— « اني، اني لم اشرب الفودكا يا داشينكا بل زيت البترول .. »

— « وما الذي يدفعك الى لمس زيت البترول ايضاً ؟ ليس لك من حاجة فيه ، أليس كذلك ، هل وضع هنا من اجلك ؟ام هل تعتقد ان زيت البترول لا يكلف شيئاً ؟ ايه ؟ هل تعرف الآن قيمة زيت البترول ؟ هل تعرف ؟»

— « يا عزيزتي داشينكا ، انها مسألة حياة او موت ثم تتكلمين انت عن الدراهم ! »

فصاحت داشينكا وهي تقفل باب الخزانه بعنف وغضب :

— « لقد سقى نفسه حتى السكر ، والآن ها هو يضع انفه في الخزانة ! يا للرجال الابالسة ، يا للرجال المزعجين ! انني ضحية ، انني امرأة شقية لا امان ولا صلح لها في الليل او في النهار ! يا للاوغاد والملاعين ، يا لاشباه هيرودس المرذولين ، ارجو ان تلاقي مثل هذا العذاب في العالم الثاني ! سوف اذهب غداً ! انني سيدة عذراء ولا اسمح لك ان تقف امامي بثيابك الداخلية هذه ! كيف تتجاسر على التطلع الي عندما لا اكون مرتدية ثيابي ؟! » .

واستمرت دون انقطاع في مثل هذا الحديث .. ولما كان ستريخين يعلم ان لا فائدة من التأثير بالتوسل او الرجاء او حتى بتفجير قنبلة عندما تكون غاضبة ، لوح بيديه في يأس وارتدى ثيابه وقد عزم على الذهاب الى الطبيب. ولكنك تستطيع ان تجد الطبيب بسرعة فقط عندما لا تكون في حاجة اليه . وبعد ان اجتاز ستريخين راكضاً شوارع ثلاثة وقرع باب الطبيب تشيفاريانتس خمس مرات ، وباب الطبيب بوليتهين سبع مرات ، اتخذ طريقه الى دكان صيدلي ، وقد اعتقد انه من الممكن ان يستطيع الصيدلي مساعدته . وبعد برهة طويلة وجد صيدلياً مجعد الشعر قاتم الوجه قليلا قد خرج اليه لابساً (مشايته)، وعيناه ناعستان ووجهه تعلوه الرصانة والحكمة الى درجة انه يبعث الرعب في القلوب بصورة اكيدة. وسأل الصيدلي في نغمة لا يستعملها الا الحكماء والمبجلين من صيادلة اليهود للاقناع : — «ماذا تريد؟» فأجاب ستريخين متقطع الانفاس :

— « استحلفك بالله .. انني اتوسل اليك .. اعطني شيئاً ما . لقد شربت زيت البترول مصادفة . انني اموت ! » .

— « انني اطلب اليك الا تهيج نفسك ، وان تجيب على الاسئلة التي سأسألك اياها ، ان كونك مهتاجاً الى هذا الحد يكفي وحده ليمنعني من فهمك جيداً . انك شربت زيت البترول اليس كذلك ؟ » . — « نعم زيت البترول ! ارجوك انقذني ؟ » .

وسار الصيدلي بوقار ورزانة الى الصندوق وفتح كتاباً وانهمك في قراءته . وبعد ان قرأ صفحتين رفع كتفاً ثم الاخرى مقطباً وجهه بتكبر وبعد ان فكر دقيقة واحدة ، دخل الى الغرفة المجاورة . ودقت الساعة الرابعة، وبعد ان اشارت الى مرور عشرة دقائق اخرى عاد الصيدلي بكتاب آخر . ومرة ثانية انهمك في قراءته . وقال كما لو كان حائراً : — «هم» ، كان يجب عليك عندما شعرت بالمرض ان تسارع الى طبيب وليس الى صيدلي» .

— «ولكنني ذهبت الى الاطباء قبل الآن، ولم استطع ايقاظهم»

— « هم» .. انتم لا تنظرون الينا نحن الصيادلة كالكائنات

أعداء الكتاب

بقلم السيدة وداد سكاكيني

منذ كانت الحرب اصطلح المحاربون على قواعد سموها فن القتال، وعبر عنها المعاصرون بكلمة «تاكتيك» فمن « التاكتيك» ان تجتنب الحرب في جبهتين، ان صح هذا التعبير في لغتنا اليومية، وقد اخذ بهذا الرأي دهاقين السياسة والنضال في زماننا، فما من أمة حاربت في جبهتين الا كابدت الصعاب وتصدت لافدح البلاء، فما بال اذن من يهاجم من جهات ثلاث؟؟

ولا جرم ان المفترى عليه في أيامنا، المبتلى بثلاثة من الاعداء هو الكتاب، لقد امتحنه الدهر اول ما امتحنه بعدو واحد، فلما تفتح وعي الانسان واتسعت معرفته اصيب الكتاب بعدو جديد، وتقدم الزمن فتعددت اسباب الحضارة والثقافة، وذاق الانسان حلاوة العلم والاختراع، وقد ادى هذا التطور العجيب الى ابتلاء الكتاب بالعدو الثالث، فازدادت نكباته وخطوبه. واذا شئت القول الصراح لم اجد بدأ من اتهام المرأة بأنها كانت العدو الاول للكتاب، فالانسان منذ كتب خواطره واودع افكاره الطروس جمع الورق والصحف سفراً، وكانت المرأة عدو الاسفار، ومن يدري فلعل الفلاسفة الاقدمين كانوا يعانون من زوجاتهم الهموم، كلما عكفوا على المطالعة وانصرفوا الى البحث والكتابة، وما خلا تاريخ التراجم، حين تبسط كاتبوه في انباء الادباء واهل الفكر، من التندر بما كان يلقاه الكتاب من غيرة الزوجات، وان علماء الاجتماع يمهدون لنا طريق الاستدلال والاستقصاء قائلين بمرآة الحاضر، ويعنون بذلك ان للحاضر مرآة تعكس الغابر، فكثير مما نراه في ايامنا من طبائع النساء، ومنازع الرجال على وعيهم ورقيهم مردود الى امثاله من آثار الاقدمين، والمرأة كما يقولون هي المرأة في كل زمان ومكان وفي النساء المتعلمات وانصاف المتعلمات من تتميز من الغيظ كلما أكب زوجها على كتاب يقرؤه، وكم نظر هؤلاء النسوة الى الكتاب في ايدي ازواجهن وكأنه ضرة من الضرائر، وقد يكون فيهن من تحرد وترتد الى بيت اهلها، لان زوجها مشغول عنها بالكتاب، او يؤول هذا النكد والتنغيص في الحياة الزوجية الى الشقاق والفراق.

ففي القديم اتفق لليث بن نصر كاتب البرامكة وتلميذ الخليل ابن احمد ان احرقت له زوجته كتاب «العين» الذي ألفه استاذه الخليل وهو النسخة الوحيدة، وما فعلت ذلك الا كيداً وتشفياً لانصراف زوجها عنها الى جاريته، فرأت ان تنغصه بأعز شيء لديه وهو الكتاب الذي كان يحرص عليه، فأحرقته وتركت بنقمتها هذه بلبلة لغوية لا يزال العلماء الى اليوم يعانون ضلالها.

البشرية فتزعجوننا من راحتنا في الساعة الرابعة بعد منتصف الليل. مع ان كل كلب او قطة يستطيعان النوم بسلام.. انكم لا تحاولون فهم هذه الامور، ونحن في نظركم لسنا بشراً، واعصابنا في اعتقادكم مركبة من حبال ».

واستمع ستريخين الى الصيدلي، ثم تنهد وخرج في اتجاه المنزل.

— « وهكذا يكون نصيبي الموت ».

ان في فمه اشتعالا ومذاقاً لطعم زيت البترول. ان في معدته وخزات، وصوتاً شبيهاً بالبم بم في اذنيه. وفي كل لحظة كان يخيل اليه ان نهايته قد حانت، وان قلبه قد توقف عن النبضات.

واسرع حين وصل الى المنزل فكتب: « لا تدعوا احداً يكون مستحقاً اللوم بسبب وفاتي» وحينئذ تلا صلاته وتمدد وقد جر غطاءه فوق راسه. وظل مستيقظاً حتى الصباح ينتظر الموت. وكان طوال هذا الوقت يتخيل الصورة التي سيكون قبره عليها. وكيف سيغطى بالاعشاب الخضراء الندية، وكيف ستتناوب الطيور فوقه.

وفي الصباح، كان ممدداً في سريره يقول مبتسما لداشينكا.

— « ان من يعيش حياة منتظمة وهادئة يا اختاه، لن يتأثر باي سم كان. انظري الي مثلا، لقد كنت على حافة الموت لقد كنت اموت وأعاني سكرات الموت، وبالرغم من ذلك فها انني معافى الآن. لم يبق في شيء سوى اشتعال في فمي وألم في حلقي، ولكنني فوق كل هذا على ما يرام فشكراً لله.: ولم ذلك؟ انه بسبب حياتي المنتظمة ».

وتنهدت داشينكا مفكرة في مصروف اهل البيت وشاخصة في الفراغ. — « كلا بل كان ذلك لان زيت البترول من نوع رديء. ان البائع لم يعطني دون شك احسن الانواع. ان ما اعطانيه كان بثلاثة مليات. انني ضحية. انني امرأة شقية يا لكم من أباليسة ارجو ان تلاقي مثل هذا العذاب في العالم الثاني. يا لاشباه هيرودس المرذولين ». وتابعت كلامها على هذا النمط..

دمشق سهيل ايوب

اقرأ

قصة لا نهاية لها . فقد كان باشكا وامه ، والمطر قد بللها ، يقطعان سيراً على الاقدام الطريق الطويل فرسخاً بعد فرسخ ، اولاً خـلال الحقول المنخفضة ، ومن ثم في ممرات الغابة الندية حيث كانت الاوراق الصفراء تتكسر تحت اقدامهما . وهكذا حتى بزوغ الفجر . وبعد ذلك وقف باشكا ساعتين في ممر البهو المظلم منتظراً فتح الباب . وكان جو البهو دون ادنى ريب ، اكثر حرارة وأقل رطوبة منه خارجاً . الا ان الريح النافذة كانت تحمل حتى هناك قطرات المطر . وبينما كان البهو يمتلىء ببطء بالمرضى ، شق باشكا طريقه بين الجمع ، ثم ضغط وجهه على معطف مؤلف من جلد الماعز كان يشتم منه بقوة رائحة السمك المملح ، وراح في غفلة .

وأخيراً أرخي المزلاج وفتح الباب . فوجد باشكا وامه نفسيهما في غرفة الانتظار . وبالرغم من ذلك بقي امامهما انتظار طويل آخر ! وكان المرضى جلوساً على بنوك ، وليس من يتحرك ، ولا من يفتح فاه . وراح باشكا يتفرس في هذا الجمع ، ومثلهم امسك عن الكلام بالرغم من مشاهدته اشياء عديدة ، لا تفسير لها ، تبعث على الضحك . ولكن حدث ، عندما دخل طفل صغير الغرفة قافزاً على رجل واحدة ، ان وخز جانب امه ضاغطاً على ذراعها وتمتم :

—«انظري يا اماه —هذا العصفور الدوري»!.

— « لا تتكلم يا صغيري ، لا تتكلم ! » وظهر من نافذة صغيرة وجه الآذن التعس وقال :— « تعالوا سجلوا اسماءكم ».

الفار

لانطون تشيخوف

ترجمة سهيل ايوب

وتجمع المرضى المنتظرون ، بينهم أناس يبعثون على الضحك واطفال يثبون على قدم واحـدة ، حول النافذة . وراح الآذن يسأل كلا عن اسمـه ، وعمره ، وقريته ، وتاريخ مرضه ، واسئلة اخرى . وعرف باشكا من جواب امه ان اسمه بافل جالا كتيونوف ، وان عمره سبع سنوات ، وان مرضه ابتدأ في عيد الفصح .

ومر فاصل قصير بينما كانت الاسماء تدون ، ومن ثم دخل الطبيب غرفة الانتظار في مئزر أبيض ، وقد القى منشفة على كتفيه وعندما مر بجانب الولد القافز ، هز كتفيه وقال في صوت غنائي :

— انك حمار ! قل لي الآن الست حماراً ? لقـد اخبرتك كي تأتي نهار الاثنين فجئت يوم الجمعة ! لا تقلق كثيراً ما دامت القضية تهمني شخصياً . اما اذا كنت ايها الفتى عديم الحذر، فلا بد انك خاسر رجلك ».

وارتجف الصبي القافز وكشر بصورة تدعو الى الشفقة وكأنه يسأل احساناً وقال :

— « ايفان نيقولايتش ، كن لطيفاً حتى . » . فقال الطبيب مغتاظاً : — « لا تتعب نفسك بالكلام ! لقد قلت لك ان تأتي يوم الاثنين . يجب ان تطيع ! انك حمار ، وهذا كل شيء ».

وابتدأت المعاينة . فجلس الطبيب في غرفته ، ونادى المرضى بالتتابع . وكان ينطلق من الغرفة بين الفينة والفينة صراخ حاد النغمة ، ونشيج الاطفال ، وصياح الطبيب الغضبان :

— « لا تعو ، انني اريد ان اقتلك ! اجلس بهدوء . » !

وجاء اخيراً دور باشكا . فصاح الطبيب :

« بافل جالا كتيونوف ». وفوجئت ام باشكا في البدء وكأن استدعاءه لم يكن منتظراً . ولكنها تمالكت نفسها، فأخذت بيد باشكا وقادته الى غرفة الطبيب . وكان الطبيب جالساً على الطاولة يدق بطريقة ميكانيكية بمطرقة خشبية صغيرة على كتاب ضخم . وسأل دون ان يتطلع الى من دخل . — « ما الامر ? ».

فأجابت ام باشكا بينما تبدلت عبارات وجهها وكأنها هي نفسها متألمة من مرض طفلها :

— « لقد اصيب ولدي بدمل في ذراعه يا بانيوشا ».

— انزعي عنه ثيابه .

فحل باشكا لاهثاً ربطة عنقه ، ومسح انفه بمرفقه ، وابتدأ يحل معطفه . فقال الطبيب متهيجاً :

— « هل جئتني في زيارة ايتها المرأة ? لمَ لا تسرعين ? هـل انت الوحيدة التي تنتظر ? » فألقى باشكا بسرعة معطفه على الارض، ونزع عنه قميصه بمساعدة امه . فتطلع اليـه الطبيب وهو يفكر بامور اخرى . ثم لطمه على معدته المكشوفة وقال :



— « عظيم ايهـا الاخ باشكا ، انك تبدو اكبر من سنك الحقيقية». ثم اضاف بعد تنهدة قصيرة :

— « ارني مرفقـك ! » وارتاع باشكا من كأس ماء مخضب بالدم

وتطلع الى مئزر الطبيب وابتدأ يبكي . فصاح الطبيب بسخرية :

— « يا للعار ! انه كبير حتى ليستطيع الزواج ! ومع ذلك فقد اخذ يعوي . عار عليك ! »فحاول باشكا ان يوقف دموعه وتطلع الى امه وعبارات وجهه تقول :

— « لا تخبريهم في البيت انني بكيت في المستشفى » وفحص الطبيب الذراع ثم قرصه وتنهد وتلمظ بشفتيه ثم عاد يلمس الذراع قائلا :

— « ينبغي ان تجلدي ايتها المرأة ! لمَ لمْ تجيئي به على عجل ؟ ان الذراع قد فقد تقريباً ! انظري اليه ايتها البلهاء ، الا تستطيعين رؤية المفصل قد اصيب ؟ » فأجابت الام :

— « انت اعرف بهذا مني ياباتيوشكا » .

— « ياباتيوشكا ، ان ذراع الصبي متعفن وانت تأتيني بباتيوشكا . اية مهنة يستطيع بدون ذراع ان يمتهنها ؟ وجب عليك ان تمرضيه طول الحياة ! لو اصبت بدمل صغير في انفك فسوف تركضين الى هنا للمعالجة . ولكنك تتركين ولدك الصغير يتعفن لمدة ستة اشهر ! انكم جميعاً سواء ايها البشر » !

واشعل سيجارة . وبينما كانت تحترق كان يعنف ام باشكا مهمهماً بنغمته ، حاكاً رأسه بانتظام ، ومفكراً في اشياء أخرى وكان باشكا العريان واقفاً امامه يستمع اليه ويراقب الدخان المتصاعد من لفافته . ووقف الطبيب عندما انتهى من التدخين وقال بصوت منخفض .

— « اسمعي ايتها المرأة ! ان المراهم او الخلائط لا تفيد في هذه الحالة ، يجب ان تتركيه هنا » .

—« اذا كان ذلك واجباً ياباتيوشكا فليكن » . وقال الطبيب وهو يضرب على كتف باشكا :

— « لا بد من عملية . . وانت يا باشكا يجب ان تبقى . سوف تتركك والدتك تذهب اما انت يا اخي ، فعليك البقاء هنا . ان الحياة ليست رديئة هنا ايها الاخ ! ان عندي غابة توت عليق . وسوف نذهب معاً — انت وأنا — عندما تتحسن صحتنا لنمسك العصافير . وسوف اريك ثعلباً . وسوف نزور الزيارات معـاً أليس كذلك ؟ انك تريد البقاء ؟وسوف تأتي والدتك الى هنا في الغد » .

فتطلع باشكا بنظرة استفهام الى والدته فقالت :

« يجب ان تبقى يا صغيري » فاعاد الطبيب مرحاً :

—« بالطبع سيبقى ، ليس هناك ما يستدعي النقاش . سوف اريه ثعلباً حياً . وسوف ننزل الى السوق ونشتري السكر نبات . خذيه الى الطابق العلوي يا ماريا دينيسوفنا » .

ومما لا شك فيه ان الطبيب كان رجلاً مرحاً وثرثاراً ، وقد جذب اليه باشكا ، وكل ذلك لان هذا لم يكن يعرف السوق ، وهو يريد ان يرى ثعلباً حياً .

ولكن امه ؟! لقد فكر بالمسألة وقرر ان يطلب من الطبيب ان يبقيها الى جانبه ، ولكنه قبل ان يحاول فتح فمه كانت الممرضة قد اوصلته الى الطابق الثاني . فتطلع حوله بفم شاغر . لقد كان كل من السلم والارض والابواب مدهونة باللون الاصفر الجميل . وكانت رائحة الزبدة المغرية تفوح في كل مكان ، والانوار مضاءة في كل جهة ، والسجاد ايضاً . ومن كل حائط كانت تبرز حنفيات الماء الصفراء اللون ولكن باشكا كان مسروراً لان سريره كان اخضر خشن اللحاف وتحسس المخدة واللحاف ، وفكر في ان قصارى الكلام هو ان الطبيب يملك منزلا فاخراً .

كانت قاعة صغيرة تحوي ثلاثة اسرة . شغر اولها واحتل باشكا ثانيها ، وجلس في الثالث شيخ برزت عيناه ولم يكن لسعاله انقطاع ، يبصق في زجاجة صغيرة . وكان باشكا وهو في سريره يستطيع ان يرى من خلال الباب المفتوح قسماً من قاعة اخرى تحوي سريرين ، جلس في الاول رجل نحيف اصفر اللون وُضع على رأسه كيس من الكاوتشوك المليء بالماء ، بينما جلس في الثاني فلاح مبتعد الذراعين مضمد الرأس ، يشبه الى درجة بعيدة امرأة تقدمت بها السن

وبعد ان وضعت الممرضة باشكا في السرير تركته وخرجت وعادت مباشرة بجفنة من الملابس وقالت له :

— « هذه لك فالبسها » .

فنزع باشكا عنه ثيابه القديمة ، وبجذل خفيف كسا نفسه بالثياب الجديدة . وبعد ان ارتدى قميصاً وسروالا و« مشاية » خضراء اللون تطلع الى نفسه مبتسماً وفكر انه يود كثيراً لو يسير في شارع القرية في ثيابه الجديدة هذه . وصورت له مخيلته امه ترسله الى حديقة المطبخ بالقرب من النهر ليقتطع الملفوف للخنزير بينما يلتف فتيان وفتيات القرية حوله متطلعين بحسد الى مشايته .

وعندما رجعت الممرضة ثانية كانت تحمل صحنين وملعقتين وقطعتين من الخبز . فأعطت احدهما للشيخ والآخر لباشكا وهي تقول :

— « كلا » .

وعندما تفحص باشكا الصحن وجده مليئاً بشوربة دسمة مع قطعة من اللحم في قاعه . ومرة ثانية حلم ان الطبيب يعيش برخاء

وان غضبه كان اقل من نصف ما اظهر ، فشرب الشوربة لاحساً الملعقة بعد كل لقمة . وحين لم يبق الا اللحم ، رمى نظره الى جانب الشيخ وشعر بالغيرة . وبعد تنهدة بدأ يأكل قطعة اللحم محاولا ان يأتي عليها في اطول وقت ممكن . ولكن جهوده كانت عبثاً ، فما لبث اللحم ان اختفى سريعاً . ولقد بقي الخبز فقط . ان الخبز بدون الملح طعام لا طيب له ، ولكن ليس هناك اي دواء . وبعد ان وزن المعضلة ، تعدى الخبز وأكله . وعندما اتى عليه تماماً عادت الممرضة بصحنين جديدين كانا يحويان هذه المرة لحم البقر المشوي والبطاطا . وسألت :

— « اين هو خبزك ؟ » ولكن باشكا لم يجب ، بل بسط خديه نافخاً في الهواء . فقالت الممرضة موبخة :

— « لقد التهمته كله ؟ ما الذي ستأكله مع « وقعتك » ؟ » . ثم تركته وعادت بخبز من جديد . ان باشكا لم يذق طوال عمره لحم البقر المشوي ، وقد وجده طيب المذاق جداً حين جربه الآن . ولكنه اختفى في ثوان معدودات ؟ ومرة ثانية لم يبق سوى الخبز ، وكان منه قطعة اكبر من السابقة . وكان الرجل المسن قد انتهى من غدائه ، فأخفى قطعة الخبز في جرار ، فقد باشكا النية ليفعل الامر نفسه ، ولكنه بعد لحظة من التردد التهمه بكامله .

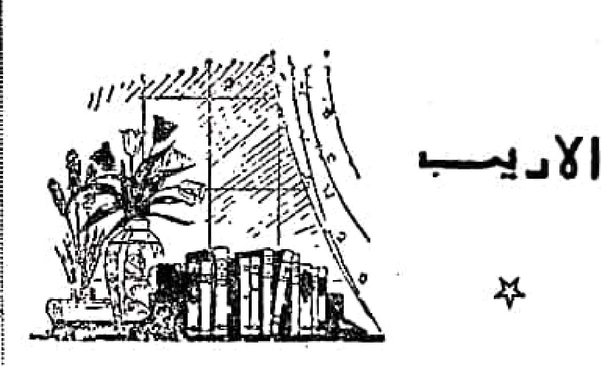
وخرج بعد الغداء ليرود المكان . فوجد في القاعة الثانية اربعة رجال ، بالاضافة الى اولئك الذين رآهم من فراشه . ولكن واحداً فقط استرعى انتباهه . وكان هذا ، فلاحاً طويلاً بارز العظام . مكتئباً كثير الشعر في وجهه ، جالساً في سريره يحرك رأسه دون انقطاع ، ويحرك ذراعيه كرقاص الساعة ولم يستطع باشكا ان يوجه انتباهه الى جهة اخرى . ففي البدء كانت حركات الفلاح الراقصة الموزونة تبدو سخيفة تفيد لتسلية المتفرجين ولكن باشكا حين رنا بنظره الى وجه الفلاح اولا عرف ان هذا يعني ألماً لا يطاق ، وشعر بالاسف .

وكان هناك في القاعة الثالثة رجلان ووجهاهما اسودان محمران ، محمران كما لو كانا جُبسا بالصلصال كانا جالسين في سريريهما دون حراك يشبهان بوجهيهما الغريبين وسوالفهما المختبئتين تقريباً ، إلهين وثنيين . وسأل باشكا الممرضة :

— « عمتاه ، لمَ هما على هذا الشكل » ؟

— « انهما مصابان بالجدري ايها الصغير » .

وعندما عاد باشكا الى غرفته جلس في سريره ، وانتظر ان يأتي الطبيب ويلتقط معه العصافير او يصحبه الى السوق . ولكن



لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير (كانون الثاني)
تدفع قيمة الاشتراك مقدماً وهي

الاشتراك العادي :

في لبنان وسوريا : ١٢ ليرة
في الخارج : ١٥٠ قرشاً مصرياً او ٦ دولارات ونصف
في الولايات المتحدة ١٠ دولارات في الارجنتين ٥٥ ريالا

اشتراك الانصار :

في لبنان وسوريا : ١٢٠ ليرة كحد اعلى
في الخارج : ١٨ جنيهاً مصرياً او استرلينياً
او ٦٠ دولاراً كحد اعلى

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء نشرت ام لم تنشر

للاعلان تراجع ادارة المجلة

ادارة الاديب : باب ادريس ، شارع الكبوشية

تلفون { الادارة : ٩٢ — ٤٧ Direct. : 92 - 47 } Tél.
{ المنزل : ٣٧ — ٤٨ Dcle. : 48 - 37 }

صاحب المجلة ورئيس تحريرها : البير أديب

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :
مجلة الاديب — صندوق البريد رقم ٨٧٨
بيروت — لبنان

الطبيب تأخر . وعلى باب القاعة الثانية وقف الآذن مدة لحظة ، ثم انحنى على المريض وفي يده كيس الثلج وصاح .

— « ميكايلو ! » ولكن ميكايلو النائم لم يسمع . فحرك الآذن يديه وخرج . وابتدأ باشكا يتطلع الى جاره منتظراً مجيء الطبيب .

وتابع الرجل المسن سعاله وبصاقه في داخل الزجاجة . وكان سعاله يقزز النفس . ولكن شيئاً واحداً سرّ باشكا الى درجة بعيدة . اذ ان الرجل العجوز بعد ان سعل وزفر زفرة عميقة راح شيء يصفر في صدره ويغني بأنغام مختلفة :

— « جداه ، ما هذا الذي يصفر في داخلك ؟ ». ولكن الرجل المسن لم يجب . فانتظر باشكا لحظة ثم عاد يسأله ثانية :

— « جداه اين الثعلب »؟

— « اي ثعلب » ؟

— « الثعلب الحي ».

— « اين يجب ان يكون ، في الغابة بالطبع ».

ومرت الساعات ، ولكن الطبيب لم يأت . وفي النهاية جلبت الممرضة شاي باشكا وعنفته لانه تناول الخبز ، وعاد الآذن وحاول ان يوقظ ميكايلو ، وكانت المصابيح قد اضيئت ، ولكن باشكا اضطجع في سريره وابتدأ يفكر . ففكر في السكر نبات الذي وعده الطبيب به ، وفي وجه أمه وصوتها ، وفي ظلام الغرفة في المنزل وفي المتذمر يجوروفنا . ثم شعر فجأة بالتعب والحزن ، ولكنه تبسم وأحس بالنوم يراوده حين ذكر ان امه ستأتي في الصباح .

واستفاق على ضجة رجال يسيرون في الغرفة المجاورة ويتحدثون بخفوت . وكان وميض ضوء الليل المظلم والمصابيح تظهر ثلاثة وجوه تتحرك بالقرب من سرير ميكايلو . وسأل احدهم :

— « هل سنأخذه مع الفراش ، ام مثلما هو ؟ » .

— « مثلما هو . فليس هناك من مكان للفراش . آه ، لقد توفي في ساعة رديئة . فلتحفظ السماء نفسه » !

— وحينئذ — أخذ احد الوجوه الثلاثة كتفي ميكايلو ، وآخر رجليه — ومن ثم رفعوه . فبقيت ثنية شرشفه معلقة به في الفضاء . اما الثالث — وكان شبيهاً بالنساء الفلاحات — فرسم لنفسه اشارة الصليب . ومن ثم حرك الثلاثة اقدامهم متعثرين في ثنايا الشرشف ، وخرجوا من القاعة . وكان صدر الرجل النائم يصفر ويغني في نوتات مختلفة . فاستمع باشكا اليه ، وتطلع بنظرة خوف الى النوافذ السوداء وقفز من سريره بخوف وصاح : « اماه » !

وبدون ان ينتظر اي جواب اندفع الى القاعة المجاورة . كانت المصابيح وضوء الليل تضيء شيئاً من الظلام بصعوبة جمة ، والمرضى الواجمون من وفاة ميكايلو جالسين في اسرتهم عابسين ، شعث الشعر ، مغمورين بالاخيلة يشبهون العمالقة ، وكان يبدو ان حجومهم تزداد بالتدريج . وبعيداً في زاوية سوداء جلس احد الفلاحين مطأطئاً رأسه ومحركاً يديه المتذبذبتين . ومر باشكا ، بدون ان يرى الباب ، وسط قاعة الجدري حتى المشى ، ومن هناك الى قاعة لا نهاية لها مكتظة بأبالسة طويلي الشعر قاتمي الوجوه وطار خلال قاعة النساء ، وتجسس ثانية المشى ، متعرفاً على سور السلم ، واندفع يهبطه وهناك وجد نفسه في غرفة الانتظار حيث جلس في ذلك الصباح ، وتطلع بوحشية يفتش عن الباب .

وقعقع المزلاج ، وهبت نسمة ريح باردة ، فانطلق باشكا متعثراً في الساحة وفي رأسه فكرة واحدة : « الهرب ، الهرب » ولم يعرف الطريق ؛ ولكنه شعر انه يكفي ان يركض بدون توقف وانه سوف يكون في المنزل سريعاً مع امه . وكان القمر يشع خلال سحب السماء المظلمة . وركض باشكا باستقامة الى الامام ماراً حول مظلة في الحديقة . ووقف لحظة في حيرة ، ومن ثم اسرع عائداً الى المستشفى وابتدأ يركض حوله . ولكنه وقف محتاراً ، فقد لمع فجأة بالقرب من عينيه صلبان المقبرة البيضاء : وصرخ وهو يعود ادراجه ثانية :

— « اماه ! ».

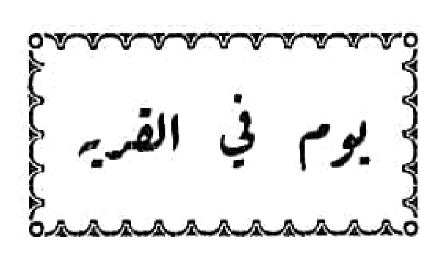
واخيراً عندما مر بجانب البناية السوداء المتوعدة وقع بصره على نافذة مضاءة . وفي الظلام كانت القطعة الحمراء اللامعة توحي بالرعب . ولكن باشكا ، وقد سيطر الذعر عليه فلم يعد يعرف الى اين يهرب ، استدار نحوها وتنفس الصعداء . وكانت بعض الدرجات الى جانب النافذة ، مع باب علقت عليه لافتة بيضاء عريضة . فاقتحم باشكا السلم وتطلع خلال النافذة وفجأة ملكه فرح حاد لم يدع له مجالا للتنفس فقد كان الطبيب المرح والثرثار يجلس الى طاولة وراء النافذة وقدامسك بين يديه كتاباً . وضحك باشكا فرحاً ، وحاول ان يصيح ، الا ان قوة لا تقاوم اخمدت انفاسه وضربته على رجليه فترنح وأغمي عليه ، فسقط فوق السلم .

وحين عاد الى نفسه كان النور يملأ المكان ، وكان الصوت الغنائي الذي وعده بالبوق ، والعصافير ، والثعلب الحي يهمس في اذنه :

— « انك حمار يا باشكا ! الست حماراً الآن ، يجب ان تجلد » !

دمشق — سهيل ايوب

بقلم انطون تشيخوف



ترجمة سهيل ايوب

ارمن بين الثامنة والتاسعة

ان حشداً ذا لون رصاصي مسود يزحف في السماء باتجاه الشمس ، ومن وقت لآخر تومض ذبذبات حمراء لامعة هنا وهناك من خلاله . وان هنـاك صوت قعقعة يأتي من بعيد ، وهواء حاراً يمرح فوق العشب ويحني هـامة الاشجار ويهيج الضباب ولن تمر دقيقة واحـدة حتى يهطل مطر ايلول وتبدأ عاصفة حقيقية .

وكانت فيوكلا، وهي الفتاة المستعطية التي تبلغ السادسة من العمر ، تركض خلال القرية، تفتش عن الاسكافي تيرنتي . وكانت الطفلة البيضاء الشعر ، الحافية القدمين ، شاحبة اللون وعينـاها متسعتان وشفتاها مرتجفتان . وكانت تسأل كل من يصادفها :

— « عماه ، اين هو تيرنتي ؟ » دون ان تتلقى جواباً من احد . لقد كان الجميع ، وقد شغلهم قدوم العـاصفة ، يحصنون انفسهم داخل الاكواخ . واخيراً التقت بخـادم الكنيسة « سيلانتي سيليتش » ، وهو صديق تيرنتي الحميم ، وكان قادماً وحده يترنح تحت وطأة الريح :

— « عماه ، اين هو تيرنتي ؟ » . — « في حدائق المطبخ » .

وركضت الفتاة المستعطية خلف الاكواخ الى حدائق المطبخ ، وهناك وجدت تيرنتي . كان الرجل الطويل المسن ، بوجهه الرفيع المنقط ، وساقيه الطويلتين ، وقدميه الحافيتين ، والمرتدي سترة نسائيـة ممزقة ، واقفاً بالقرب من قطعة ارض الخضروات يتطلع بعينين ناعستين الى غيوم العاصفة السوداء . وكان يترجح في الهواء على رجليه ، الشبيهتين برجلي طير الكركي ، مثل عش الزرزور . ونادته الصغيرة :

— « ايها العم تيرنتي ! عمي العزيز ! » فاتجه تيرنتي نحو فيوكلا ووجهه العبوس الثمل قد غطي بابتسامة عريضة ، تماماً كما يحدث لوجوه الناس حين يتطلعون الى شيء صغـير ، احمق وسخيف ، ولكنه عزيز جداً . وقال متلعثماً برقة :

وحمل في منتصف الليل الى « جزيرة الحور » .

ورقد روسو ، عشيق الطبيعة ، السنين الهانئة الطوال في هذا المثوى الساكن الجميل ، وعرفت ذكراه ، الحومة فوق ذلك المكان الشعري ، زواراً عظاماً . كلويس السادس عشر ، وماري انطوانيت ، ومن جاء بعدهما من ملوك ورؤساء .

ولكن اذا كانت بقايا روسو ، امينة لنظرة صاحبها في الحياة والمجتمع ، فلعلهـا ان تكون شقية بزيارة هؤلاء العظماء والملوك .

فالسعادة اتتها عن غير طريقهم .

ويروي الناس ان عجوزاً من نساء القرية ، مهدمة ، هزيلة ، كانت تأتي في كل مساء ، وايقونتها في يدها ، لتصلي على شاطىء الغدير ، ناظرة الى قبر روسو « الرجل الطيب الحنون » .

ولا زالت دار الآثار الفرنسية تحتفظ بسجل صاحب حانوت « ارمانوفيل » « نقولا هارلي » وفي صفحة من صفحاته كتب نقولا :

« اليوم ، الثـاني من يوليو ، مـات في البلدة احـد الغرباء واسمه كما اظن جان جاك روسو » .

وبعـد هذا ، سجل « نقولا » اوصـاف وثمن ارنب صغير ، اشتراه احد الزبائن !! .



— «آه ؟ من اين انت آتية يا خادمة الرب فيوكلا؟» فاجابت وهي تنشج وتشد بعنف نهاية سترة الاسكافي :

— « ايها العم تيرنتي . لقد وقعت حادثة لاخي دانيلكا . تعال معي ! ».

— « أي نوع من الحوادث ؟ اوه يا الرعد ! قدوس قـدوس قدوس . . اي نوع من الحوادث » ؟

— « في غابة الكونت وضع دانيلكا يده في ثقب شجرة وعجز عن اخراجها . تعال معي ايها العم . كن لطيفاً واخرج له يده».

— « وكيف وضع يده هناك ؟ ولماذا ؟ » .

— « لقد اراد ان يجلب لي بيض العصافير من الثقب» . فحك تيرنتي رأسه وبصق بقصد :

— « ان النهار لم يكد يبدأ بعـد ومع ذلك فقد وقعتما في مشاكل . . حسناً ، ماذا علي ان افعل معكما الآن ؟ يجب ان اجيء . يجب علي ، ليت الذئب يلتهمكما ايها الطفلان المزعجان ! تعـالي ايتها اليتيمة الصغيرة !».

وخرج تيرنتي من حديقة المطبـخ ، ورفع قدميه الطويلتين وابتدأ يسرع في السير مجتازاً شارع القرية . كان يسير بسرعة دون ان يقف او يتطلع من جهة الى جهة اخرى ، كما لو كان مدفوعاً من الوراء ، او خائفاً من اناس يلاحقونه . ولم تكن فيوكلا تستطيع ان تلحق به الا بصعوبة جمة .

وخرجا من القرية ودارا وحيدين في الشارع الكثير الغبار باتجاه الغابة التابعة للكونت والتي كانت تبدو عن بعـد سوداء تضرب الى الزرقة .

لقد كانت تبعد حوالي الميل ونصف الميل . وكانت السحب في هذه الآونة قد غطت الشمس ، وفي الحال لم يبق في السماء اية بقعة زرقاء . وازدادت الظلمة .

وهمست فيوكلا وهي تسرع وراء تيرنـتي : — « قدوس قدوس قدوس ».

وسقطت اولى قطرات المطر كبـيرة الحجم ثقيـلة الوزن وتوزعت بقعاً سوداء على الطريق المغبر . وسقطت قطرة كبيرة على خد فيوكلا ثم انزلقت مثل الدمعة فوق ذقنها . . وتمتم الاسكافي وهو يرفس الغبار بقدميه الحافيتين :

— « لقد ابتدأ المطر يهطل . هذا جميل يا فيوكلا ، ايتها الطفلة العجوز . ان العشب والاشجار تتغذى بالمطر مثلما نتغذى نحن بالخبز اما فيما يتعلق بالرعد فلاتخافيه ايتها البنية الصغيرة . اي سبب يدفعه الى قتل شيء صغير ولطيف مثلك ؟ » .

وفي اللحظة التي اخذ المطر يهطل فيها توقفت الريح عن الهبوب وكان الصوت الوحيد هوطقطقة قطرات المطر المتساقطة على الطريق الجاف برقة عذبة . وتمتم تيرنتي :

— « سوف نبتل يا فيوكلا ، سوف لا تبقى قطعة جافة فينا . أوه ، اوه يا صغيرتي ! لقد انزلقت قطرة في رقبتي ! ولـكن لاتخافي ايتها الساذجة . . سوف يجف العشب مرة ثانية ، وسوف تجف الارض مرة ثانية ، وسوف نجف نحن ايضاً مرة ثانية . ان هناك شمساً واحدة لنا جميعاً » .

ولمع وميض برق على بعد اربعة عشر قدمـاً فوق رأسيهما . وعقبه طنين رعد قوي ، فبـدا لفيوكلا ان شيئاً كبيراً وثقيلاً ومدوراً يتدحرج فوق السماء ، ممزقاً اياها ليفتحها ، تماماً فوق رأسها وقال تيرنتي وهو يرسم اشارة الصليب :

— « قدوس قدوس هدوس . . لا تخافي ايتها اليتيمة الصغيرة ! انها لا ترعد حقداً » .

واصبحت اقدام تيرنتي وفيوكلا مغطاة بصفائح من الطـين الرطب الثقيل . واصبح السير في هذه الحالة عسيراً وخطراً ، ولكن تيرنتي أخذ يزيد في سرعة خطواته . واصبحت الطفلة المستطيبة الصغيرة منقطعة الانفاس وعلى استعداد للسقوط بين لحظة واخرى .

واخيراً دخلا في غـابة الكونت . وكانت الاشجار المغتسلة تحركها نغمات الريح فتقطر المياه مثل شلال حقيقي عليها . وتعثر تيرنتي بجذع شجرة وابتدأ يبطىء من خطواته وسأل :

— « اين دانيلكا ؟ قوديني اليه ! » .

فقادته فيوكلا الى دغل كثيف ، وبعد ان سارا حوالي ربع الميل ، اشارت الى دانيلكا . وكان اخوهـا ، وهو فتى صغير في الثامنة من سنيه ذو شعر احمر كأنه النحاس . ووجه شاحب اللون تعلوه امارات المرض ، واقفاً ومستنداً الى شجرة ، ورأسه يميـل جانباً يتطلع بنظرة جانبية الى السماء . وقد حمل في احـدى يديه قبعته الرثة ، بينما اختبأت الاخرى في ثقب شجرة مسنة . وكان الصبي يرنو بنظره الى السماء العاصفة ، وكان من الواضح انه لا يفكر في متاعبه . وحين سمع وقع الخطوات ورأى الاسكافي ابتسم ابتسامة شاحبة وقال : — « انها لكمية مخيفة من الرعد يا تيرنتي . . انني لم اسمع قط رعداً بهذا المقدار طوال حياتي » .

— «وأين هي يدك» ؟ — «في الثقب . اخرجها يا تيرنتي أرجوك» !

وكانت الخشبة قد كسرت من طرف الثقب وضغطت على

يد دانيلكا : انه يستطيع ان يدفعها الى الداخل ، ولكنه لا يستطيع ان يخرجها . فنزع تيزنتي القطعة المكسورة ، فتحررت يد الصبي الحمراء والمضغوطة . . وقال الصبي ثانية وهو يحك يده :

—« ان السماء ترعد بشكل مخيف . ما الذي يسبب الرعد يا تيزنتي؟» فأجاب الاسكافي — « انها تنشأ عن اصطدام سحابتين » .

وخرجت الجماعة من الغابة وسارت بحاذاتها في اتجاه الطريق المعتم . وكان الرعد يخف تدريجياً . وكانت قعقعة تسمع من بعيد وراء القرية . وقال دانيلكا ولما يزل يحك يده :

—« لقد هرب البط من هنا في الامس يا تيزنتي يجب ان يعشش في مستنقعات نيليا زايبتشا . اتريدين ان اريك عش العندليب يا فيوكلا ؟» . فقال تيزنتي نافضاً الماء عن قبعته :

— « لا تلمسه لانك ستزعجها . ان العندليب طائر غريد لم يخطىء قط . لقد اعطي صوتاً في حنجرته ليحمد الله ويبهج قلب الانسان . انها خطيئة ان تزعجه » .

— « وماذا تقول في العصفور الدوري ؟» .

— « العصفور الدوري لا اهمية له . انه عصفور سيء وشرير . انه مثل النشال في سلوكه ، فهو لا يحب ان يكون الانسان سعيداً . حينما سمر المسيح على الصليب حمل العصفور الدوري المسامير الى اليهود وصاح : « انه حي ! انه حي ! » .

وظهرت رقعة زرقاء في السماء . . وقال تيزنتي : — « انظر : هذا بيت النمل خربته الامطار ان الماء قد غمر هؤلاء الجبناء ! » .

وانحنوا فوق بيت النمل وكان المطر قد اتلفه ، والحشرات تذهب وتجيء في الطين ، مضطربة ، وبهمة تحاول ان تحمل بعيداً رفيقاتها التي غرقت . وقال تيزنتي عابساً :

— « ما حاجتكم الى هذا ، انه لن يسبب وفاتكم ! ولن تكاد الشمس تدفىء اجسادكم حتى تعودوا الى شعوركم من جديد ، وذلك درس لكم ايها الاغبياء . كي لا تستقروا في ارض منخفضة مرة ثانية » . . وتابعوا المسير . فصاح دانيلكا وهو يشير الى غصن شجرة سنديان فتية :— « وهنا توجد بعض اسراب النحل » وكان النحل المبلل البارد متراكماً فوق بعضه على الغصن . وكان هناك الكثير منه حتى غطى قشر الشجرة والاوراق وحجبها عن العيان . وكان الكثير منه مجتمعاً بعضاً فوق بعض . واخبر تيزنتي صاحبيه :

— « تلك اسراب من النحل تطير تفتش عن مسكن لها ، وحين تهطل الامطار فانها تستقر . اذا رأيت سرباً منها طائراً يكفيك ان ترمي عليه بعض الماء حتى توقفه عن طيرانه . والآن فلنقل انك تريد ان تستولي على سرب منها فما عليك الا ان تضع الغصن الذي اجتمعت عليه في صندوق ثم تهزه فيقع الجميع فيه » .

وفجأة تقطب وجه فيوكلا وحكت رقبتها بشدة . فتطلع اخوها الى رقبتها فشاهد انتفاخاً فيها . وضحك الاسكافي :

— « هيه هيه ! هل تدرين من اين حصلت على هذا ايتها الطفلة العجوز فيوكلا ؟ ان هناك بعض الذباب الاسباني على بعض شجيرات الغابة . ولقد غمرها المطر ثم سقطت قطرة من الماء على عنقك — وهذا هو ما سبب الانتفاخ » .

وظهرت الشمس من وراء الغيوم وغمرت الغابة ، والحقول والاصدقاء الثلاثة بنورها الدافىء . وكانت السحب السوداء المتوعدة قد ذهبت بعيداً وأخذت العاصفة معها . وكان الهواء حاراً

وذكي الرائحة . وكانت رائحة الطيور حلوة وكذلك رائحة زنبق الاودية . . وقال تيرنتي مشيراً الى زهرة من زهرات الاودية :

— « ان هذا العشب ينبت ليداوي نزيف آنافكم ان تأثيره حسن »

وسمعوا قرقعة وصفيراً ، ولكنها ليست مثل قرقعة غيوم العاصفة المحمولة بعيداً . لقد مر قطار كبير امام اعين تيرنتي ، ودانيلكا ، وفيوكلا ، جاراً اكثر من عشرين قاطرة وراءه . لقد كانت قوته هائلة وكان الصغيران مهتمين ليعرفا كيف تستطيع هذه القاطرة ، بدون حياة وبدون مساعدة الاحصنة ان تحرك مثل هذه الاثقال وتجرها . وقد اخذ تيرنتي على عاتقه ان يفسر لهما ذلك :

— « ان كل هذا هو عمل البخار يا اولادي . ان البخار هو الذي يقوم بالعمل . . وكما ترون انه يندفع من تحت ذلك الشيء بالقرب من العجلات . وهي . . كما ترون . تتحرك » .

وقطعوا خط السكة الحديدية ، وساروا هابطين من على الرصيف باتجاه النهر . وكانوا يسيرون دون غاية ، لمجرد التجوال وهم يتحادثون طوال الطريق . . كان دانيلكا يطرح اسئلة وتيرنتي يجيب عليها .

لقد اجاب تيرنتي على كل اسئلة دانيلكا ، ولم يكن هناك في الطبيعة اية اسرار تعجزه . . كان يعرف كل شيء . . مثلاً ، هو يعرف اسماء جميع الزهور البرية ، والحيوانات ، والحجارة . وهو يعرف اي عشب من الاعشاب يصلح دواء لبعض الامراض ، وهو لا يجد صعوبة في ان يخبرك عن عمر حصان او بقرة . وهو ، ان نظر الى غروب الشمس ، او الى القمر ، او الى الطيور ، يستطيع ان يخبرك كيف ستكون الاحوال الجوية في الغد .

وفي الحقيقة ، ليس تيرنتي وحده الذي يملك هذا الذكاء ، بل ان صاحب الحانة ، والبستاني ، والراعي ، وكل الفلاحين على العموم يعرفون قدر ما هو يعرف . وهؤلاء الناس لم يتعلموا ذلك من الكتب ، بل تعلموه في الحقل ، وفي الغابة ، وعلى ضفة النهر . ان اساتذتهم هي الطيور ذاتها حين تغني لهم ، والشمس حين تترك احمراراً قرمزي اللون بعد مغيبها ، والاشجار المسنة ، والاعشاب البرية .

وكان دانيلكا يتطلع الى تيرنتي وهو ينهل بشره كل كلمة من كلماته . حقاً من لا يود في الربيع ، وقبل ان يكل الانسان من الحرارة ، ومن لون الاعشاب الرطبة المملة في الحقل ، وحين يكون كل شيء طرياً ومليئاً بالرائحة الذكية ، ان يستمع الى الحديث عن الازهار الوردية ، وعن طير الكركي ، وعن خرير الجداول السيارة .

ولقد كانا كلاهما ، الاسكافي واليتيم ، يسيران خلال الحقول يتحدثان باستمرار دون كلل . حتى ليخيل انهما مستعدان ان يجوبا العالم الى ما لا نهاية . وكانا يسيران ، وقد شغلهما الحديث عن جمال الارض ، عن ملاحظة الشحاذة الصغيرة الضعيفة وهي تقفز وراءهما لقد كانت مقطوعة الانفاس تتحرك بخطوات متباطئة . وكانت الدموع في عينيها ، وهي تتمنى لو توقف هذان التائهان الجوالان . ولكن لمن والى اين تستطيع الذهاب؟ انها لا تملك منزلاً ولا اقرباء ، وهي مرغمة على السير معهما والاستماع الى حديثهما شاءت ذلك ام أبت .

وقريب منتصف النهار جلس الجميع على حافة النهر . فأخرج دانيلكا من كيسه قطعة خبز ، وبلها ثم قسمها الى قطع ، وابتدأوا يأكلون . وصلى تيرنتي عندما انتهى من أكل الخبز ، وحينئذ تمدد على الضفة الرملية وراح في اغفاءة .

وبينما هو نائم ، كان الصبي يشخص بناظريه الى الماء متسائلاً . ان لديه اشياء عديدة ومختلفة يفكر فيها . لقد شاهد لتوه العاصفة ، والنمل ، والنحل ، والقطار ، والآن ، وامام عينيه ، يتحرك السمك بخفة في الماء . البعض منه يبلغ الانشين طولا او اكثر ، والبعض الآخر لا يزيد عن حجم الظفر . وهذه الافعى تسبح ، ورأسها مرفوع ، من ضفة الى اخرى .

وحوالي المساء فقط عاد مشردونا الثلاثة الى القرية . وذهب الطفلان ، لقضاء الليل ، في مخزن محصولات زراعية مهجور ، حيث كان يحفظ قمح القرية . بينما تركهما تيرنتي وذهب الى الخان ، وتراكم الطفلان معاً على القش يحاولان النوم .

ان الطفل لم ينم . انه يشخص في الظلمة ، وتخيل اليه انه يرى كل ما رآه في النهار ، غيوم العاصفة ، والشمس المحرقة ، والطيور ، والسمك ، وتيرنتي الهزيل . ان العديد من مشاعره ، مضافاً اليه الانهاك الشديد والجوع العنيف ، تفوق قواه . ان حرارة شديدة تلهبه كما لو كان ينام فوق الجمر ، فيتقلب من جنب الى جنب . انه يريد ان يخبر احدهم عن كل ما يلازمه في الظلمة ويهيج نفسه . ولكن ليس هناك من احد ليخبره . ان فيوكلا جد صغيرة وليست بقادرة على فهم ذلك . . وفكر في نفسه :

— « سوف اخبر تيرنتي غداً » .

ونام الطفلان وهما يفكران في سائق العربة المشرد . وفي ساعة متأخرة جاءهما تيرنتي ، ورسم اشارة الصليب فوقهما ، ثم وضع خبزاً تحت رأسيهما . ولم يكن هناك شاهد على حبه ، ولكنه شوهد فقط من القمر الذي كان يسبح في السماء ، والذي رمقه بحذر من خلال الشقوق الموجودة في حائط مخزن المحصولات المهجور .

دمشق — سهيل ايوب

● قصة

لمن أشكو أحزاني ؟!

الكاتب الروسي أنطون تشيكوف TCHEKHOV

■ الوقت غسق ، وثلج ندى متكاثف يدور فى الجو في بطء وكسل ،ويهبط على مصابيح الشارع التى انيرت منذ أمد يسير ،ولا يلبث أن ينبسط طبقات رقيقة ناعمة على السطوح ، وظهور الاحصنة ،واكتاف المارة وقبعاتهم . وكان سائق العربة ، ايونا بوتابوف ، أبيض اللون تماما حتى لتخاله شبحا ، يتكوم فى مقعده متجمدا ، وقد انطوى على نفسه بقدر ما يستطيع الجسم البشرى أن ينطوى ، بحيث تخال أنه لو انثالت عليه كتلة من الثلج لما احس ضرورة لنفضها .. وهكذا كان حصانه الصغير ابيض ، لا ياتي حركة ، يخلع عليه جموده وتصلب اعضائه وقساوة أطرافه المستقيمة كالخشب مظهر دابة هزيلة لا تساوى اكثر من كوبيك واحد .. وكان هو الآخر ، من دون أدنى رَيْب ، غارقا في تفكير عميق عميق .. والحقيقة انك انت ايضا،لو خُطفت وحُملت بعيدا عن محيطك الاغبر العادى ، وأُلقي بك فى قلب هذا المعمان الصاخب الزاخر بالأنوار الشيطانية ، والضوضاء التى لا تنقطع او تَفتُر لحظة واحدة ، والناس المسرعين فى غدو ورواح متواصلَيْن ، لوجدتَ ، انت الآخر ، أن الامتناع عن التفكير صعب عليك .

كان ايونا وحصانه قد قضيا حتى الآن فترة طويلة،لم يتحركا خلالها من موضعهما قيد أنملة. تركا الاسطول قبيل الغداء ، ولكنهما لم يكسبا حتى الساعة كوبيكا واحدا . وهذا ضباب العشية يخيم على المدينة ويلفها بردائه ، فاذا أنوار المصابيح تبهت بعد أن كانت تضيء باشعاعات لامعة براقة ، بينا تزداد جلبة الشارع ارتفاعا حينا بعد حين .

وسمع ايونا ، على حين غرة ، صوتا يقول :

ــ عربجي ! الى شارع فيبورغ ، يا عربجي ! أنائم انت ؟ انطلق بي الى شارع فيبورغ .

وانتفض ايونا ، فراى من خلال اهدابه التى الصقها الثلج بعضا ببعض ضابطا يرتدى معطفا فضفاضا ويغطي راسه بقبعة عريضة .

وثنّى الضابط يقول :

ــ الى شارع فيبورغ .. ما بالك تغطّ فى النوم ؟ الى شارع فيبورغ .

وامسك ايونا بالعنان وهو يهز رأسه بالموافقة ، فتساقط من جراء ذلك الثلج عن ظهر الحصان ورقبته . وما أن اتخذ الضابط مقعده فى العربة ، حتى صوّت ايونا بشفتيه مشجعا حصانه على الحركة ، ومن ثم اشراب بعنقه كالاوزة ، واعتدل فى جلسته ولوّح بسوطه فى الهواء ، بتأثير العادة اكثر منه باقتضاء الضرورة .. وكذلك مد الحصان الصغير رقبته ، وثنى ارجله المستقيمة كالخشب ، وتحرك أخيرا مترددا بين الاقدام والاحجام .

ولم تكد العربة تتقدم بضع خطوات حتى طرق



سمع ايونا صوت مرتفع صادر عن تلك الكتل المتحركة في الطريق ذهابا وايابا يصيح :

ـ ماذا تفعل ، يا هذا ؟ الى اين أنت ذاهب ، بحق الشيطان ؟ خذ يمينك ، يمينك ؟

وصرخ الضابط غاضبا :

ـ الا تعرف كيف تسوق ؟ سر الى اليمين دائما !

وشتمه صاحب عربة اخرى . ورمقه احد المارة بغضب شديد وهو ينفض الثلج عن مرفقه ، بعد ان مس انف الحصان كتفه وهو يحاول عبور الطريق ركضا .

وبدل ايونا في جلسته ، وكأنه يقتعد ابرا حادة ، ثم حرك يديه كمن يريد ان يحتفظ بتوازنه ، وتثاءب كمن يريد ان يعطس ، وجال بانظاره فيما حوله كمن لا يفهم أين هو موجود ، ولماذا ، وكيف جاء الى هذا المكان !

قال الضابط مازحا :

ـ يالهم من خبثاء ! ليخيل اليك انهم اجمعوا على ان يضايقوك ، وان يرتموا تحت قوائم حصانك بالذات .

واستدار ايونا نحو الضابط ورجف بشفتيه .. انه ، بكل تأكيد ، يود ان يقول شيئا . لكن لم تخرج من فمه غير آهة .

سأل الضابط :

ـ ما بالك ؟

فلوى ايونا فمه بشكل ابتسامة ، وبذل جهدا

كبيرا حتى قال بصوت مبحوح :

ــ لقد مات ولدى هذا الاسبوع !

ــ آه ، وما سبب موته ؟

فاستدار ايونا بكل جسده نحو الضابط قائلا :

ــ لا احد يدرى ؟ يقولون انها حمى شديدة . مكث ثلاثة ايام فى المستشفى ، ومن ثم مات .. فلتكن مشيئة الله !

وزمجر صوت فى الظلمة :

ــ استدر ! بالشيطان ! افقدت صوابك ، أيها الكلب الهرم ؟ هلا استعملت عينيك ؟

واجاب الضابط :

ــ اسرع ، أسرع ... والا ما وصلنا قبل الغد . حث حصانك قليلا .

وعاد السائق يمد عنقه ، واحكم جلسته على المقعد ، ثم هش بسوطه على ظهر الحيوان مكرّها .. واستدار بعد ذلك عدة مرات يتطلع الى زبونه . ولكن الضابط اطبق جفنيه معبرا بذلك عن عدم استعداده لسماع اى شيء كان .

وبعد أن غادر الضابط العربة فى شارع فيبورغ وقف ايونا بها الى جانب مقهى ، وطوى نفسه على مقعده ، وغرق فى جموده من جديد ، فى حين راح الثلج يغطيه مع حصانه مرة ثانية .

ومرت ساعة ، ثم ساعة اخرى ..

وبغتة ، على طول الطريق ، تدحرج ثلاثة شبان يتشاتمون ويتخاصمون . كان اثنان منهم طويلين هزيلين،واما الثالث فقصير احدب الظهر . وزعق احدهم بصوت جهورى :

ــ عربجى،الى جسر البوليس . ثلاثتنا بعشرين كوبيكا !

وأمسك ايونا بالعنان ، وصفر بشفتيه . فعلى الرغم من ان عشرين كوبيكا اجر غير معقول على الاطلاق فهو لا يعير الاجر كثيرا من الاهتمام ، اكان روبلا كاملا او خمسة كوبيكات فقط . ان كل شيء اليوم سواء لديه ، بشرط ان يحصل على الزبائن ..

واقترب الشبان الثلاثة من العربة يتدافعون ويتسابون بكلام بذيء . وتهافت ثلاثتهم على المقعد دفعة واحدة . وشجر بينهم جدال حاد موضوعه أيهم سيظل واقفا مفسحا المجال لجلوس الآخرَيْن .. وبعد ان اختلفوا طويلا ، وشتم كل منهم الآخرين ، قر رايهم على ان ينتصب ذلك الاحدب واقفا ما دام اصغر الثلاثة حجما .

قال الاحدب بصوت مدو ، وهو يتخذ مكانه فى العربة الصغيرة ، ويزفر فى عنق ايونا :

ــ هيا ، انطلق ! ولكن يا رفيقى ، من أين حصلت على هذه القبعة ؟ وحقك ، ليس هنالك أسوأ منها قبعة فى بطرسبورج كلها !

وضحك ايونا :

ــ هي هي هي .. مثل هذه ..

ــ والآن ، يا « مثل هذه » ، أسرع ! أتنوى ان تقطع الطريق كلها بهذه الخطا ؟ أتنوى ذلك ؟ اتريدها صفعة على نقرتك ؟

وقاطعه أحد الطويلين قائلا :

ــ أحس برأسى يحترق . لقد اشتففنا ليلة أمس ، نشكا وأنا ، أربع زجاجات كاملة من الكونياك !

فرد الثانى فى غضب :

ــ انا لا اعرف سببا يحملك على الكذب . انت تكذب !

ــ فليعاقبنى الرب ان لم تكن هذه الحقيقة بعينها !

ــ انها الحرّية بان تكون حقيقة بقدر ما يكون سعال القمل حقيقة .

وجار ايونا ضاحكا :

ــ ها ها ها ! يالهم من شبان مرحين !

فصاح الاحدب فى اشمئزاز :

ــ كفى ! كفى ! هل ستبلغ الجسر أم لا ؟ ايها اللعين ، أهكذا يسوق الانسان ؟ استعمل السوط قليلا .. خف ، بحق الشيطان !

وشعر ايونا ، وهو يصغى الى الشتائم الموجهة اليه ، بالرجل الصغير الاحدب يتنفض بشدة خلف ظهره ، وفى صوته رجفان غريب .. ثم اجال بصره فى الناس ، فراح شعوره بالوحدة يزايله رويدا رويدا ، بينا الاحدب يتابع شتائمه دون انقطاع ، ولا يتوقف عن المضى فيها الا حين تداهمه نوبة شديدة من السعال .

وابتدأ الشابان الطويلان يتحدثان عن امراة تدعى ناويجدا بتروفنا. فتطلع ايونا نحوهم مرات عديدة فى انتظار صمت منهم عابر ، فلما كان له ما اراد التفت اليهم وهمس :

ـ ولدى مات هذا الاسبوع .

فاجاب الاحدب ، وهو ينشف شفتيه اثر نوبة سعال :

ـ لا بد لنا من أن نموت جميعا .. والآن أسرع .. يا سادتى ، انا لا استطيع ان اذهب ابعد من هنا على هذه الوتيرة . ليت شعرى ، متى سيصل بنا الى غايتنا ؟

وطفق الاحدب يشتمه ويصفعه على رقبته :

ـ ايها اللعين ! أفلا تسمع ؟ خف ، والا حززت لك رقبتك . اذا ما اراد الانسان أن يعامل امثالك باحترام ، فالافضل له أن ينطلق سيرا على قدميه . هل تسمع ، ايها الثعبان ؟ أم انك تسخر مما نقول ؟

وكان ايونا يسمع رنات الصفعات التى يكيلها له الاحدب اكثر مما يشعر بها . كان يضحك ويحجم :

ـ حقا انكم لسادة مرحون ، حفظكم الرب !

وساله احد الطويلين :

ـ عربجى ، أمتزوج أنت ؟

ـ أنا ؟ ها ها ، ايها السادة الرحون ! الآن لم يتبق لى سوى زوجة واحدة هى الارض الرطبة . اننى اقصد القبر .. لقد مات ولدى ، وانا ما برحت حيا ! حقا انه لأمر عجيب أن يضل الموت الطريق ، فعوضا من ان ياتى الي ، يطرق باب ولدى ..

والتفت ايونا نحوهم وفى نيته أن يسرد عليهم كيف مات ولده .. ولكن الاحدب اعلن فى هذه اللحظة ، وهو يرسل من فمه زفرة قصيرة :

ـ لقد وصلنا أخيرا الى وجهتنا ، فشكرا لله وحمدا !

رآهم ايونا يختفون فى البوابة المظلمة ، فاذا هو وحيد مرة اخرى .. وعاد السكون فاحدق به من جديد .. وعاوده حزنه الذى كان قد تضاءل ، وطغى عليه بقوة اشد مما سبق واعنف .. فراح يتطلع بعينين قلقتين الى الجموع المنطلقة على جانبى الطريق ، أليس من انسان واحد يمكن ان يسمع قصته ؟ ولكن الجموع تمر مسرعة الخطى دون ان تلقى بالا الى شقائه . وان حزنه لعظيم ، لا حدود له ! ويصور له ان قلبه لو انفجر وانطلق الحزن الكامن فيه لغمر الارض باسرها ، وفاض عنها أيضا ! لكن احدا سواه مع ذلك لا يرثى له او يشعر بحاله .. لقد عرف الحزن كيف يختبىء فى ملجا مهمل لا يؤبه له ، بحيث لا يستطيع اى انسان أن يراه حتى ولا فى وضح النهار ، اذ يسطع النور ويغمر العالم باسره .

وبصر ايونا بحمال ينوء كتفه ببضعة أكياس صغيرة ، فعزم على التحدث اليه :

ـ كم الساعة الآن ، ايها الصديق ؟

ـ اكثر من التاسعة ! ولكن ، لم انت واقف هنا ؟ هيا ، تحرك الى غير هذا المكان !

وتحرك ايونا بضع خطوات .. وما عتم ان انطوى على نفسه ، وافلت العنان لكآبته تتدفق على هواها .. لقد ادرك اخيرا ان توجهه الى الناس طالبا للمعونة عبث لا طائل تحته . وما اسرع ان انتصب ، بعد اقل من خمس دقائق ، وشد قامته ، وامسك برأسه بين يديه وكأنه يشعر بألم فيه عنيف ، ومن ثم تناول العنان بين يديه .. لقد نفد صبره ، ولم يعد يستطيع أن يتحمل اكثر مما لاقاه حتى الآن ..

همس لنفسه :

ـ الى الاسطبل !

فاذا الحصان ينطلق خببا ، وكأنه ادرك ما مر فى خاطر سيده .

وبعد ساعة ونصف الساعة تقريبا ، كان ايونا متكورا بالقرب من مدفأة توّجتها الاوساخ والاقذار ، قد استلقى فيما حولها على الارض ، وفوق الدكات اناس يبخبخون في النوم ويشخرون . ان هواء الغرفة لثقيل حار خانق يكاد يكتم الانفاس .

ورنا ايونا الى النائمين حوله ، وحك جلده اسفا لعودته مبكرا جدا .

وهمس لنفسه :

– انني لم اكسب اليوم حتى ولا ثمن علف الحصان . وهذا هو ، بكل تأكيد ، السبب الذى يزعجني ويقلق بالى . ان رجلا يعرف حق المعرفة ما ينبغي عليه أن يفعل ، ويملك الطعام الكافى له ولحصانه ، يستطيع دائما أن ينام في طمانينة وسلام .

وتنحنح سائق عربة آخر في احدى الزوايا ، وانهض جسده قليلا وهو يتململ متطاولا نحو وعاء من الماء ، فابتدره ايونا قائلا :

– ألك في جرعة ماء ؟

– كلا شكرا !

– حقا ! ولكن استمع لى . أتدرى أيها الصديق ؟ لقد مات ولدى . هل تسمع ؟ لقد مات هذا الاسبوع في المستشفى .. انها قصة طويلة .

واخذ ايونا بصره يتفحص اثر كلماته فيه ، فرآه قد اخفى وجهه تحت غطائه وغرق في لجة نومه من جديد .

وزفر الرجل الشيخ ، وحك راسه . انه لفى امس الحاجة الى الكلام ، كما كان ذلك الفتى في امس الحاجة الى الماء . لقد مر اسبوع على وفاة ولده ، ومع ذلك لم يتمكن من ان يروى قصته لاى انسان .. ينبغى أن يسردها في تفصيل واعتناء بالغين : كيف سقط ابنه مريضا ، وكيف تعذب ، وماذا قال قبل ان يموت ، ثم كيف مات .. ان عليه ان يصف كل شاردة حدثت اثناء تشييع الجثمان ، والرحلة الى المستشفى لجلب ثياب المرحوم . ثم ، ألم تبق ابنته انيسيا في القرية ؟ فلا بد اذن من ان يتكلم عنها ايضا . ان لديه اذن امورا كثيرة يتحدث عنها .. ولا ريب أن المستمع سيتاوه لحديثه ويتالم ، ولا بد انه سيشاركه في حزنه ايضا . وانه ليفضل ان يروى هذه القصة للنساء بصورة خاصة ، فبالرغم من بلاهتهن ، تكفى كلمتان فقط لحملهن على البكاء .

قال ايونا في نفسه :

– سأذهب واعتنى قليلا بالحصان ، فما يزال هناك متسع للنوم ، ولا خوف علي من ذلك .

ورمى معطفه على كتفيه ، ثم دلف الى حصانه في الاسطبل ..

فكر في الشعير ، والعلف ، والطقس ! انه لا يجسر على التفكير في ولده عندما يكون وحيدا .. انه يستطيع أن يحدث عنه اى انسان ، أما ان يفكر فيه ويتمثله في خاطره ، فذلك يؤلمه بشكل لا يطاق .

وسأل ايونا حصانه ، وهو يشخص في عينيه البراقتين :

– هل تأكل جيدا ؟ هيا استمر في تناول طعامك ، فاذا لم نكسب اليوم ما نشترى به الشعير استطعنا ان ناكل التبن بدلا منه . بلى ! لقد شخت كثيرا ، حتى لا عجز عن العمل بعد الآن . ان ولدى كان يستطيع ذلك ، أما أنا فلا ! لقد كان سائقا من الدرجة الاولى ، ليته بقي حيا !

وصمت ايونا لحظة ، ثم تابع :

– بلى ، يا حصانى ، هكذا كان ! لم يعد هنالك من يُدعَى كوزما ايونتيتش . لقد خلّفنا ورحل بعيدا ، لقد أخذه ذلك على حين بغتة ، فمات دون سبب معقول .. والآن ، فلنفرض أن عندك مهرا ، وانك أب لهذا المهر . ونجأة ، لنفرض ذلك ، قضى ذلك المهر نحبه ، وتركك تحيا من بعده . انك ستكون شقيا . أليس كذلك ؟

فمضغ الحصان ما في فمه ، وهو يستمع الى صاحبه ، ثم ارسل زفرة حارة على يديه .

ان مشاعر ايونا لاشد من ان يتحملها وحده . انه لا يستطيع لها كتما بعد الآن .. فيميل على الحصان يسرد له القصة بكاملها . ■■

ترجمة : سهيل ايوب

في انتزاع المجد « المخطوف » !

أما تقويم القدر بحسن التقدير، وإنزال الاعتزاز منزلة التوقير، وإتباع الترفع رفعة النظرة ؟ فأوهام تلعب بعقول التائهين في عالم المثالية ! رحم الله من يؤثر العيش في غمرة عن أن يكون مجدا باغتياز شموره ! . ليهنأ متورم الأنف ؟ فهو ماجد لكن أنفه غير أشم !

وليسعد العبيد بهوان النفس في بعد الصيت الخفيض !

إن حياتنا تأنف الحق ، وترد الإنصاف ، وتخزى كل ذى عفة وحياء !

غدا المهرج مبتدعا ، والراقص في الندى ألمعيا ، والأفاق الوصولى أريحيا ! حياة مضطربة يضطرب فيها شعور الإنسانية ، حتى انقلبت إلى ما نرى من الألاعيب والأعاجيب

أما أصحاب المجد « المخطوف » ، فليس يستديم ما خطفوه إلا إذا استدامت خطفة العين أمام الأمجاد الأصيلة !

بورسعيد أحمد عبد اللطيف بدر



مسرحية في فصل واحد :

في مضار التدخين

لأنطون تشيكوف

للأديب حسين أحمد أمين

شخصية الرواية : إيفان إيفانوفيتش .. وهو زوج ضعيف تحكمه زوجه أما هي فديرة لمدرسة للموسيقى ، ومدرسة داخلية للبنات ..

المنظر : منصة في إحدى الجمعيات .. إيفان قائم يخطب وهو في معطف قديم .. يحيى الحاضرين ...

إيفان إيفانوفيتش : سيداتي ، سادتي : عرض البعض على زوجتي أن أتى محاضرتها هنا في موضوع خيرى مفيد يهم الناس . وما دام من المحتم على أن أحاضر ، فإني لا أجد لنفسي حيلة إزاء ذلك .. وأنا — بالطبع — لست بالأستاذ المتفقه ، ولا بالحاصل على درجات علمية ، غير أنى قضيت الثلاثين عاما الأخيرة في دراسة موضوعات علمية بحتة دون توقف ولا انقطاع ، ودون مراعاة لقواعد الصحة .. إننى رجل مفكر وأقوم أحيانا بتجارب علمية ليست علمية تماما ولكنها — وأرجو المعذرة — تحمل الطابع العلمى .. وبهذه المناسبة أذكر أنى كتبت منذ أيام مقالة طويلة تحت عنوان (في مضار الحشرات !!) وقد أعجبت بناتى بالمقالة كثيرا وخاصة الفقرات الخاصة بالبق .. غير أنى مزقتها بعد قراءتها .. إن بيتنا يعج بالبق ، وحتى البيانو تراه مليئا به ... والمقالة الجيدة لا تغنى في مكافحة البق عن مسحوق من الصيدلي أما عن موضوع محاضرة اليوم ، فقد اخترته عن المضار التى يسببها التدخين لبنى الإنسان ... وأنا نفسى أدخن ، ولكن زوجتى أمرتنى أن أحاضر اليوم في مضار التدخين .. فلم يكن لى في ذلك خيار ..

حسنا — لتكن المحاضرة عن التدخين .. وهو موضوع لا أهمية له عندى .. غير أنى أرى أن تعيروه أنتم كل الأهمية كى لا يحدث شئ لا نتوقعه .. وعلى من يكره الموضوعات العلمية الجافة ، ومن لا يعبأ بمثل هذه الأشياء ألا ينصت إلى ومن الخير أن يغادر المكان .. (يعتدل في وقفته)

وإنى أطلب بصفة خاصة من المشتغلين بالطب الحاضرين الآن أن يعطوا المحاضرة كل انتباههم حتى يمكنهم أن يحصلوا منها على أفيد المعلومات .. فالطباق — إلى جانب مضاره للمدخنين — يستعمل في الطب .. فإذا وضعنا ذبابة — مثلا — في صندوق به طباق ، قد نجدها بعد حين ميتة بسبب اختلال جهازها العصبى .. وبهذه المناسبة أذكر أنى كلما ألقيت محاضرة ، أجد نفسى أغمز بعينى اليمنى .. فأرجو ألا تعيروا ذلك أهميته .. إنه مجرد تعب في الأعصاب .. وأنا — بصفة عامة — عصبى جدا .. وقد بدأت

عادة النمز منذ سنة ١٨٨٩ ـ فى ١٣ سبتمبر إذا أردتم الدقة .. وهو اليوم الذى وضعت فيه زوجتى ابنتنا الرابعة بربارا ... ومع ذلك (ينظر فى ساعته) فالوقت ضيق ، ولا ينبغى الخروج عن الموضوع ... على أنه من اللازم أن أخبركم أن زوجتى تدير مدرسة للموسيقى ومدرسة داخلية ... لست أعنى مدرسة داخلية تماما ... ولكنها تشبه المدارس الداخلية ...

وزوجتى تحب دائما أن تشكو من الحالة المالية ... مع أن لديها فى البنك ـ مما وفرته ـ المال الكثير ... أما أنا فليس عندى درهم واحد ... ولكن لنترك هذا الموضوع فهو لا يهم أحدا ...

وأنا أعمل فى مدرسة زوجتى الداخلية ... فأشرف على التموين والخدم والمصروفات وأجمع الكراسات ، وأكافح البق والفئران وأخرج بكلب زوجتى الصغير للنزهة ...

وبالأمس كان على أن أعطى للطاهى خبزا وزبدا كى يعد لنا اليوم بعض الفطائر . . وبالاختصار دخلت زوجتى اليوم فى المطبخ بعد أن انتهى الطاهى من إعداد الفطائر وقالت إن ثلاثة من تلاميذها لن يأخذوا نصيبهم منها لأنهم ابتلعوا نباتات سامة . . وعلى ذلك أصبحت لدينا ثلاث فطائر زائدة عن الحاجة . . فماذا كنتم تصنعون بها ؟ أمرت زوجتى الطاهى بأن يضعها فى المخزن ثم عادت ففكرت برهة وقالت :

— لك أن تأخذها لنفسك أيها الصنم . . إنها دائما تناديني بمثل هذه الأسماء عندما تكون غاضبة . . « أيها الصنم » « أيها الشرير » « أيها الشيطان » . وهكذا . . ولعلكم ترون معها أنى أبدو كالشيطان . . إنها دائما غاضبة ثائرة متأففة . . ولكنى لا أمضغ شتائمها بل أبلعها بلعا . : فأنا دائما جوعان . . فبالأمس مثلا لم ترد أن تمنحنى عشاء وقالت : « إن من العبث أن أمنحك طعاما ما دمت تجوع بسرعة . . » ومع ذلك (ينظر إلى ساعته) فأرانى قد خرجت عن الموضوع .. ولكن لنستمر : . ولو أنى أشعر بأنكم تفضلون سماع قصة أو سيمفونية أو أغنية . . وعلى ذكر الموسيقى ، نسيت أن أخبركم أنى أدرس فى مدرسة زوجتى الموسيقية ، الرياضة والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ والأدب وأنى أعلم التلاميذ الرقص والغناء والرسم بينما تتقاضى زوجتى رسوما إضافية لنفسها من هذه الدروس .. وعنوان المدرسة هو شارع الكلاب الخمسة رقم ١٣

وربما كان هذا الرقم المشئوم هو سبب تعاستى . . فبناتى كلهن ولدن فى الأيام الثالثة عشرة من أشهر السنة . . ونوافذ منزلنا عددها ١٣ . . ولكن ما الفائدة فى ذكر ذلك ؟ إن زوجتى بالمنزل تستقبل الضيوف وتدير الأعمال .. وقد سألتنى أن أبيع لمن يريد منكم برنامج مدرستها بثلاثة قروش فقط . هل يرغب بعضكم فى نسخة ؟ (فترة صمت) لا أحد ؟ حسنا . . لنجعل ثمنها قرشين . . (فترة صمت) يا للضيق ! نعم . . إن رقم منزلنا ١٣ . . وقد فشلت فى كل شيء .. لقد تقدم بى العمر وصرت غبيا . إننى أحاضر الآن وقد أبدو وجيه المنظر ولكن بى رغبة جامحة فى الصراخ بأعلى صوتى والهرب إلى أقصى المعمورة.. ليس هناك من يسمع اشكواى وأنا أريد أن أبكى . . قد تقولون عندك بناتك . . بناتى ؟ إننى أكلمهن فيضحكن . . إن زوجتى لديها سبع بنات .. لا .. إنى آسف .. ست فقط.. (بقوة) بل سبعة ، الكبرى فى السابعة والعشرين والصغرى فى السابعة عشرة .. أيها السادة (ينظر حوله) إننى بائس . . لقد أصبحت أحمق .. أصبحت عبثا لا قيمة لى .. ولكنى أسعد الآباء . : أو على الأصح يجب أن أكون كذلك ولا أجرؤ على القول بأنى لست كذلك .. ولكن . آه لو تعلمون .. لقد عشت مع زوجتى ثلاثة وثلاثين عاما وباستطاعتى القول أنها كانت أجمل سنوات حياتى .. لست أقصد أجملها تماما ولكن أتكلم على وجه العموم .. لقد مرت كلحظة سعيدة واحدة . . لعنها الله ولعن من يعيشها .. (يتلفت حوله) أعتقد أنها لم تحضر بعد..وأنى لذلك أستطيع أن أقول ما أريد .. إننى خائف .. أخاف نظرتها إلى .. ولكن لنعد إلى الموضوع . . كنت أقول إن بناتى لم يتزوجن بعد . . ربما كان السبب هو خجلهن ولكن السبب الرئيسى هو أن الرجال لم تتح لهم الفرصة لرؤيتهن . . فزوجتى لا تحب إقامة

الحفلات ولا تحب دعوة أحد إلى العشاء . . إنها لاذعة عصبية تحب الشجار ولذلك لا يقرب منزلنا أحد . ولكن ... سأسر لكم أمرا (يميل بجسمه نحو السامعين) باستطاعتكم رؤية بناتي في أيام الأعياد الكبرى في منزل عمتهن ناتالي سيميونوفا التي تشكو دائما من الروماتزم . هناك باستطاعتكم تناول أطيب الأطعمة . . فإذا لم تحضر زوجتي هناك كان باستطاعتكم أيضا أن . . (يرفع ذراعه) يجب أن أخبركم أنني أسكر من كأس واحدة. وأني عندما أسكر أكون سعيدا جدا وتعسا جدا بصورة لا أستطيع وصفها لكم .. عندئذ أستعيد شبابي ولسبب ما أجد نفسي تريد الفرار . . الفرار إلى أية جهة . . آه لو علمتم كم أريد الفرار (بحماس) أريد أن أهرب مخلفا كل شيء ورائي ودون أن أنظر خلفي . . إلى أين ؟ أي مكان ، ما دمت سأطرح عن كاهلي تلك الحياة التافهة ، الحقيرة ، التي جعلت مني غبيا تعسا أحمق وما دمت سأطرح عن كاهلي تلك الزوجة الغبية الحقيرة الثائرة العصبية البخيلة التي لم تكف لحظة عن تعذيبي طوال الثلاثة والثلاثين عاما التي عشتها معها . أريد أن أهرب من الموسيقى .. من المطبخ . . من كشف حساب زوجتي . . من كل تفاهاتها وحماقاتها . . أريد أن أهرب ثم أقف في مكان بعيد .. في حقل .. ساكنا لا أتحرك كالشجرة أو العمود أو الصنم . . تحت السماء الواسعة . . وأنظر طوال الليل إلى القمر الساطع فوق رأسي . . وأنسى . . وأنسى . . آه . . كم أريد ألا أتذكر . . كم أريد أن أمزق هذا المعطف القديم الذي ألبسه منذ حفلة الزواج (يمزق المعطف) والذي ألبسه دائما عند ما ألقي محاضراتي في الموضوعات الخيرية . . خذوه (يدوس بقدمه على المعطف) خذوه . . إنني كهل مسكين محطم كهذا المعطف الذي رقع ظهره . . (يدير ظهره للحاضرين) لا أريد شيئا . . إنني أحسن وأنظف من ذلك . . لقد كنت شابا في وقت من الأوقات وكنت أدرس في الجامعة .. كانت لي آمال وأحلام وكنت أعتبر نفسي رجلا . أما الآن فلا أريد شيئا . . لا أريد إلا الراحة . . الراحة . . (ينظر خلفه ثم يلبس معطفه بسرعة) إن زوجتي خلف المنصة تنتظرني (ينظر إلى ساعته) لقد انتهى الوقت . . إذا سألتكم فأخبروها أن المحاضر .. الصنم .. أقصد نفسي .. تصرف بوقار .. أتوسل إليكم أن تخبروها ذلك . . (يلتفت حوله ويتنحنح) إنها تنظر إلى . . (يرفع صوته) وبناء على ذلك ، وبعد أن شرحت لكم ذلك السم الفظيع الذي يحتويه الدخان أرجو أن يمتنع التدخين قطعيا وآمل أن تكون لهذه المحاضرة في مضار التدخين بعض النفع لكم

انتهت المحاضرة .. (ينحني ويسير في وقار)

(ستار)

حسين أحمد أمين



بقلم : تشيخوف

ترجمة : د. حامد طاهر



وضع ساشا سيمرنوف ، الابن الوحيد لامه ، تحت ابطه شيئاً ملفوفا في العدد ٢٣ من جريدة اخبار البورصة ، ثم مد رقبته ، ودخل الى عيادة الدكتور كونشيلكوف الذي صاح عندما رآه :

ــ حسنا يا صغيري . . بما تشعر الان ؟ اية اخبار طيبة تحملها ؟

اغمض ساشا عينيه ، ووضع يده على صدره ، وقال بصوت خفيض :

ــ امي تبعث لك بتحياتها . وقد كلفتني ان اشكرك . انا الابن الوحيد لها . لقد انقذت حياتي يا دكتور . . . شفيتني من مرض خطير . ونحن الاثنان لا نعرف كيف نعبر لك عن امتناننا .

وقاطعه الطبيب :

ــ لا تتحدث عن هذا بعد يا صغيري . . . لقد فعلت ما يفعله اي انسان اخر في مكاني .

ـ انني الابن الوحيد لامي . ونحن فقراء . وبالتأكيد في حالة لا تسمح لنا بان ندفع ثمن العلاج وهذا يمزقنا يا دكتور . . ومع ذلك ، فان امي وانا الابن الوحيد لها ، نتوسل اليك ان تقبل ـ كرمز لعرفاننا بالجميل ـ هذه الهدية القيمة ، من البرونز القديم . . . هذا العمل الفني الرائع !

واحتج الدكتور :

ـ انك مخطيء تماما . . على اي شيء كل هذا ؟!

ـ كلا . . لو سمحت . . لا ترفض (وفتح ساشا اللفة) فان رفضك سوف يؤلمنا ، امي وانا . . فهذا شيء جميل من البرونز القديم . . لقد احضره الينا ابي منذ زمن ، ونحن نحتفظ به كذكرى عزيزة . كان ابي يشتري البرونز القديم ، ثم يبيعه للهواة . . والان نحن نواصل هذه التجارة البسيطة : امي وانا . .

ثم رفع ساشا الهدية ووضعها على مكتب الدكتور . كانت عبارة عن شمعدان ، متوسط الحجم ، من البرونز القديم ، مصنوع بمهارة ، ومن القاعدة ينهض تمثالان لامرأتين عاريتين تماما ، وفي وضع لا يمكن وصفه ، اما الوجهان فكانا يبتسمان في غنج فاضح وعلى نحو يظهر انهما غير قادرين على حمل الشمعدان ، وانهما على وشك ان يقفزا من القاعدة لكي ينطلقا الى الحجرة في رقصة عربيدة لا يمكن تخيلها !

وما كاد الدكتور يرى الهدية حتى حك اذنه من الخلف بهدوء ، ثم سعل ومخط بدون حماسة ، وغمغم قائلا :

ـ اجل . . هذا في الواقع شيء جميل . . . لكن . . . ماذا اقول . . . انهاباحي اكثر من اللازم ، انه ليس عاريا فقط . . بل اسوأ !!

ـ لاي سبب ؟

ـ الشيطان نفسه لا يمكنه ان يتخيل ما هو اكثر شناعة من ذلك . . ان وضع مثل هذا الفحش فوق المكتب سوف يدنس شقتي كلها !

وقال ساشا مدافعا :

ـ اي تصور غريب هذا الذي لديك عن الفن يا دكتور ! انه قطعة فنية . تأمله



جيدا . هذا الجمال ، وتلك الاناقة تملأ النفس بالتقدير ، انه يأخذ اللب . . ونحن بتأملنا هذا الكمال الفني ، ننسى الاشياء الارضية . . . انظر اي حركة يصورها ، واي تعبير دقيق يكشف عنه ؟

وقاطعه الدكتور :

ـ انني افهم كل هذا جيدا يا صديقي لكن لي اسرة واطفالي يلهون هنا ، وتأتي لزيارتي سيدات محترمات .

ـ بدون شك . اذا اخذنا وجهة نظر الشخص العامي ، فان هذه التحفة الفنية ستظهر من زاوية اخرى تماما . . . لكن يا دكتور ضع نفسك اعلى من مستوى الشخص العادي . ثم بالاضافة الى ذلك فان رفضك للهدية سوف يؤلمنا كثيرا . امي وانا . . الابن الوحيد . . . لقد انقذت حياتي ! ونحن نقدم اليك اغلى ما عندنا . وما يؤسفني اكثر انما عدم وجود الشمعدان الاخر الذي يكون مع هذا الشمعدان : زوجا رائعا !

ـ شكرا يا عزيزي . . انني شاكر لك من اعماقي . تحياتي الى والدتك . ومع ذلك ارجو ان تقدر بنفسك ان اطفالي يلعبون هنا . وتأتي لزيارتي سيدات محترمات . واخيرا . . فسوف احتفظ به . من المستحيل ان اشرح لك السبب . . الاسباب التي . . . التي . . .

ـ لا شيء يستحق الشرح . ضع الشمعدان هنا ، قريبا من فازة الزهور . آه . . . خسارة كبيرة الا يكون هنا الشمعدان الاخر . كم انا اسف لذلك ! الى اللقاء يا دكتور . .

بعد رحيل ساشا ، تأمل الدكتور الشمعدان طويلا ، وحك من جديد اذنه من الخلف وفكر :

« من المؤكد انه تحفة فنية رائعة . . لكن من المؤسف ان اقذف به . ومستحيل ان احتفظ به لدي . آه . . انها مشكلة . . لمن اقدمه ؟ »

وبعد ان فكر طويلا تذكر صديقه العزيز ، المحامي كريبونوف ، الذي قدم له خدمات قانونية عديدة . وقرر الدكتور :

« هذا رائع . لانه باعتباره صديقا سيكون من الاحراج ان يقبل مني نقودا على اتعابه وعندئذ يصبح من اللائق ان اقدم له هذه الهدية . سوف احمل له تلك التحفة الشيطانية . خاصة وانه اعزب ومتحرر . . . »

وبدون وعي ، ارتدى الدكتور ملابسه ، واخذ الشمعدان ، وذهب الى كريبونوف . وعندما وجده صاح :

ـ مرحبا يا صديقي الاثير . ها اناذا . . . جئت اشكرك على خدماتك الجليلة لي . انت لا تقبل النقود مني . حسنا . . . اقبل اذن هذه التحفة هاك ايها العزيز . . .

وما ان رأى المحامي الشمعدان حتى صاح بحماسة :

ـ اوه . . . انه مشهور !

ثم استغرق في الضحك قائلا :

ـ هذا ما يحول قديسا الى ملعون : رائع ! بديع ! اين عثرت على تلك الجوهرة ؟

ثم بعد ان عبر عن حماسته ، القى المحامي نظرة خوف ناحية الباب ، ثم اقترب من الدكتور قائلا :

ـ فقط يا رفيقي ارجوك ان تحمل هديتك ، فانني لا اريدها .

وهنا صاح الدكتور :

لماذا ؟

ـ لانني استقبل امي هنا . وكذلك الزبائن . . ثم . . . ثم ان هذا مزعج بسبب الخادمة .

ـ كلا . . . كلا . . . سوف يكون هذا العمل غير ودي تماما من جانبك . انها تحفة . انظر هذه الحركة . . . هذا التعبير . كفانا جدالا . . . فانك تهينني . . .

ـ لو كان له فقط بعض الملابس . . او حتى ورقة عنب تستره ! لكن الطبيب هز رأسه ، واسرع بالاختفاء من شقة كريبونوف ، سعيدا بانه قد تخلص من هديته وعاد الى منزله .

لكن المحامي ، عندما خلا لنفسه ، راح يفحص الشمعدان ويجسه من جميع النواحي ، على غرار ما فعل الطبيب وفكر مليا :

« ماذا يفعل بتلك الهدية ؟ انها في الواقع تحفة رائعة . ومن المؤسف التخلص منها . لكن الاحتفاظ بها مع ذلك غير لائق . الافضل اذن ان اقدمها لاحد . الليلة اقدمها هدية الى الممثل شايكن . فهو الشخص الذي يحب التحف التي من هذا النوع . وسوف يكون هذا عملا في موضعه حيث انه سيقدم الليلة عرضا مسرحيا خاصا به . . . »

استقر المحامي على تلك الفكرة . ثم قام بتغليف الشمعدان بعناية وقدمه الى الممثل شايكن .

وطوال السهرة ، ازدحمت غرفة الممثل بالاشخاص الذين راحوا يبدون اعجابهم بالهدية ومن بين الزحام ، سمعت تعليقات حادة وضحكات مكتومة تشبه صهيل الخيل . . .

وعندما اقتربت ممثلة من باب الغرفة ، وسألت : هل يمكن الدخول ؟ اندفع صوت الممثل المبحوح :

ــ كلا . . كلا يا عزيزتي . . انا غير مرتد ملابسي .

وبعد العرض ، هز الممثل كتفيه ، وفرد ذراعيه وقال :

ــ حسنا . . والان ماذا افعل بهذه المصيبة ؟ انني اسكن عند عـائلات . واستقبـل فنانين . وليست هذه صورة فوتوغرافية حتى يمكن اخفاؤها في دولاب !

ونصحه عامل الماكياج قائلا :

ــ اذن بعه يا سيدي . . هناك في القلعة امرأة عجوز تشتري البرونز القديم . اذهب الى هناك واسأل عن السيدة سيمرنوف . الناس كلهم يعرفونها .

واستمع الممثل الى النصيحة .

وبعد يومين . . وبينما كان الدكتور كونشيلكوف يجلس واضعا يده على جبهته ، ومستغرقا في التفكير حول حـــامض المرارة . . . انفتح الباب فجأة ، ودخل ساشا سيمرنوف .

كان يبتسم مزدهرا . ووجهه كله يوحي بالسعادة . وفي يده كان يحمل شيئـا ملفوفا في ورقة جريدة . وبدأت انفاسه تهدأ :

ــ دكتور . . . تصور مدى فرحتي . . . واية سعادة بالنسبة لـك . لقد نجحنـا في الحصول على الشمعدان الاخر لشمعدانك ! ان امي سعيدة للغاية ، وكذلك انا ، الابن الوحيد لامي ، لقد انقذت حياتي فخذ اذن يا دكتور . . خذ . .

وبارتجاف من يعترف حقيقة بالجميل ، وضع ساشا الشمعدان امام الطبيب ، الذي فتح فمه ، واراد ان يتكلم . . . لكنه لم يستطع ان يخرج صوتا : كان قد فقد القدرة على النطق !

●●

الـــجثّـــة

قصّة : تشيخوف

ترجمة : ساسي حمام

ليلة من ليالي شهر آب الساكنة يتصاعد من الأرض بخار يلف كل ما يقع عليه النظر بكفن رمادي، يظهر الضباب تحت ضوء القمر تارة كالبحر الساكن وطورا كالجدار الأبيض السميك. النسيم ندي وبارد. لم يبق لتباشير الفجر غير ساعات قليلة. على بعد خطوات من المسرب المحاذي للغابة يلمع ضوء. هناك ترقد تحت شجرة كثيفة الأغصان جثة مغلفة بقماش جديد أبيض اللون وضعوا على صدرها أيقونة من الخشب قريبا من الجثة جلس "الساهران" قرويان يؤديان أشق وأبشع سخرة يقوم بها قروي. الأول بدين شاب قوي شواربه لا تكاد ترى حواجبه سوداء كثيفة يرتدي فروية ممزقة يجلس على العشب الندي مادًا رجليه، رقبته ممدودة إلى الأمام يتنفس بعمق منهمكا من تحت ملعقة من قطعة خشب لتزجية الوقت.

الثاني كهل قصير القامة، نحيل، تبدو على وجهة آثار مرض الجدري، له شوارب قليلة الشعر وعثنون تيس، يضع يديه على ركبتيه يحملق في النار بلا مبالاة، بينهما جمرة نارها خافتة تضيء وجهيهما بأشعة حمراء. صمت مطبق يخيم عليهما. لا يسمع غير صرير الحطب تحت السكين أو طقطقة الأغصان الندية في النار.

قال الشاب:

- إيه... سيمون... لا تنم...

تمتم العثنون:

- أنا لست نائما...

- حسن !... حسن! لا يشعر الإنسان بالراحة عندما يكون وحيدا، الخوف يتملكه، يجب عليك أن تقول شيئا...

- أنا ليس عندي ما أقوله...

- أنت غريب! سيمون... الآخرون يضحكون... يروون الحكايات... ينشدون ... وأنت... لست أدري من أيّ شيء خلقت؟ تجلس هنا كفزاعة في حد. تتعب عينيك بالتأمّل في النّار... أنت لا تستطيع تركيب جملة واحدة... أعتقد جازما انك غير بعيد عن الخمسين... صبي أفصح منك... ألا يقلقك أن تكون أبله...

- نعم... أجاب العثنون بحزن.

- تعتقد أننا لا نتألّم لغبائك ؟ أنت رجل شهم... لا تشرب... المصيبة أنك أجوف الرأس... إذا حرمك الله من الذكاء فأبحث عنه بنفسك... ابذل قليلا من الجهد... سيمون... إذا قال أحدهم كلاما طيبا... فأحفر... حاول أن تفهم... فكر... ثم فكر من جديد... وإذا لم تفهم كلمة فابذل مجهودا لتعرف ماذا تعني... أفهمت؟ ابذل مجهودا! وإذا لم تحاول أن تفهم فإنك ستموت غبيّا...أحقر الرجال...

انطلقت فجأة من الغابة آنّة طويلة... يظهر أن شيئا انطلق من قمة شجرة حرك الأغصان وسقط على الأرض... أعاد الصوت صدى

مكتوم... ارتعد القروي الشاب ونظر إلى رفيقه متسائلا

تمتم سيمون

– إنه يوم يصطاد العصافير الصغيرة

– ولكنه فصل هجرة العصافير إلى البلدان الحارة ؟

أحقا إنّه فصل الهجرة ؟

– ألم تشعر بالبرد الآن. بررر... الكركي حيوان رقيق، سريع التأثر بالبرد... هذا البرد يعني بالنسبة إليه الموت... أنا لست كركي ولكني أشعر بالبرد ينخر عظامي... ضع الحطب في النار.

نهض "سيمون" وغاب في الغابة، يقطع ويجمع الأغصان الجافة، بقي رفيقه وحيدا يرتعد من الخوف حاجبا عينيه بيديه... ظهر سيمون يحمل حزمة من الأغصان وما أن وصل حتى رماها في المجمرة. لحست النار الأغصان السوداء بألسنة صغيرة ثم فجأة ارتفعت ارتفعت ألسنتها فأضاءت بأشعة حمراء الوجوه والطريق والكفن الذي رسمت عليه يدا الميت وقدماه...

انحنى الشاب وانهمك في عمله بعصبية، جلس العثنون جلسته السابقة وبقي كعادته يتأمل ألسنة اللهب.

تصاعد فجأة في صمت الليل صوت حاد منشدا. الربّ يخزي... الخائنين..." ثم تناهى إلى سمعهما وقع خطوات ثقيلة، في الطريق ظهر خيال راهب يرتدي جبة قصيرة ويضع على رأسه مظلة عريضة ويحمل على كتفه خرجا.

قال الخيال بصوت مرتفع :

- رأيت نورا في جوف الظلام فشعرت بالسرور... قلت أولا... إنهم حراس الماشية... ثم تخليت عن هذه الفكرة عندما لم أر خيولا... ثم قلت إنهم سراق أو قطاع طرق يترقبون رجلا غنيا؟ ولكن... أليس الغجر هم الذين يقدمون القرابين لآلهتهم؟ فكرت في ذلك فشعرت بالسرور... قلت في نفسي... أذهب إليهم يا "تيودوز" خادم الرب وتقبل تاج الشهيد! انطلقت نحو النار كفراشة ذات أجنحة رقيقة... ها أنذا أمامكم وحسب مظهركم فإنكم لستم لصوصا أو قطاع طرق أو وثنيين... السلام عليكم.

- وعليكم السلام...

- أخواي هل تعرفان طريق معمل آجر "ماكوخين"

- إنه قريب من هنا... اتبع هذا الطريق... تقطع كيلومترين... تصل إلى "أنانوفا" قريتنا... هناك أبي... ثم تسلك الطريق على يمينك بمحاذاة النهر وبعد مسافة قصيرة تصل إلى معمل الآجر.

- الله يمتعكما بالصحة! وأنتما ماذا تفعلان هنا؟

- إننا مسخران... ألا ترى أن هناك جسدا ؟

ماذا؟ أي جسد؟ يا إلاهي..!

رأى المسافر القماش الأبيض والأيقونة فارتعدت فرائصه واهتز كيانه كأنه ضرب بهراوة... دار حول نفسه وجحظت عيناه وتسمّر في مكانه... بقي واجما بعض الوقت غير مصدق لما يرى... ثم غمغم:

- يا إلاهي !... أيتها العذراء ! كنت أسير بسلام... لم أسئ لأحد... وفجأة هذا العقاب...

تساءل الشاب

- من تكون أنت؟ هل أنت راهب؟

- لا... انتقل من دير إلى دير... هل تعرف أن ميـــ.. ميشال بونيكاربوف مدير معمل الآجر؟ أنا ابن أخته... يا إلاهي... ماذا تفعلان هنا؟

- نحن حارسان... إنه أمر...

قال لابس الجبة واضعا يديه على عينيه:

- آه... نعم... ومن أين الفقيد ؟

- عابر سبيل...

- أوه... يا صديقي... ! إني ذاهب... تملكني الخوف... إني أخاف الأموات... عندما يكون حيا لا نعيره أي اهتمام... وعندما يموت نرتعش أمامه وكأننا أمام قائد مظفر... آه... يا صديقي... هل قتل؟

- الله أعلم!... ربما قتل... ربما مات موتا طبيعيا...

- نعم... نعم... من يدري... ربما سكنت روحه الجنة...

قال الشاب :

- روحه مازالت هائمة حول الجثة... لن تبتعد عن هذا المكان قبل ثلاثة أيام

- إني أشعر بالبرد... يجب أن أسلك الطريق المستقيم...

- إلى أن تصل إلى القرية وهناك تسلك طريقا على يمينك يحاذي النهر...
- يحاذي النهر... حسن... ماذا أفعل هنا؟ يجب علي أن أذهب... وداعا يا صديقي! قطع لابس الحية بضع خطوات ثم توقف:
- نسيت أن أضع قطعة لدفنه... هل يمكن أن أضع قطعة نقدية...
- أنت العليم بهذه الأمور... بما أنك تنتقل من دير إلى دير.. إذا كان موته طبيعيا... القطعة النقدية تنفع روحه وإذا انتحر فهي خطيئة.
- صحيح... ربما انتحر حقا! إذن من الأحسن أن أحتفظ بالقطعة آه... الخطيئة... الخطيئة... لقد قدموا لي ألف روبل ما مكثت بهذا المكان... وداعا يا صديقي
ابتعد متباطئا ثم وقف من جديد:
- لا أدري ماذا أفعل؟... أن أمكث هنا قريبا من النار في انتظار طلوع النهار... هذا يخيفني... ولكني أخاف أيضا من الطريق... شارى طيف الميت في الظلام... هذا عقاب إلاهي... قطعت خمسمائة كليمترا بدون مشاكل... ولما اقتربت من منزلي داهمتني هذه المصيبة.. لا أستطيع أن أواصل السير...
- حقا... ألهذا الحدّ هو مخيف ؟
- لا أخاف الذئاب أو قطاع الطرق أو الظلام الحالك ولكني أخاف الأموات... أليس من حقي أن أخاف؟ أتوسل إليكما أن يصاحباني إلى القرية.

- ممنوع علينا الإبتعاد عن الجثة

- لن يراكما أحد... صديقي... أؤكد لكما أن أحدا لن يراكما... سيجزيكما الله عني خير جزاء... آه! يا صاحب العثنون... رافقني... لا أطلب منك غير هذه الخدمة ! يا صاحب العثون مالك لا تقول شيئا؟

قال الشاب:

- إنه أبلهنا

- رافقني أيها الصديق وأعطيك خمس كوبيكات!

حك الشاب قذاله وقال:

- من أجل خمس كوبيكات يمكن أن يقوم الإنسان بهذا العمل... ولكنه ممنوع... أرافقك إذا قبل الأبله أن يبقى وحيدا... "سيمون" هل تبقى وحدك هناك؟

قال الأبله :

- نعم...

- موافق... إذن لنذهب!...

نهض الشاب وسار مع لابس الحية وبعد مدة غاب صوتا هما في الفضاء واضمحلّ وقع خطواتيهما... أغلق "سيمون" عينيه ونام... انطفأت النار رلف الظلام الجثة.

قصة لتشيخوف

سمو مشترك

ترجمة حسن السعران

لم تنس حماتي وهي تودعنا ـ انا وابنتها العروس ـ ان تعيد للمرة المائة قولها : لا تنسوا يا اولادي زيارة البارونة شبلنج فهي صديقة حميمة لي ، وتعيش في نفس المنطقة . وكذلك زيارة زوجة الجنرال جيركوف فقد تستاء وتغضب اذا نسيتما زيارتها ..

واعتدلنا في جلستنا بالعربة استعدادا للقيام بواجبات الزيارة للمرة الاولى بعد زواجنا . ولاح لي وقتئذ ان وجه زوجتي تعلوه مسحة من الاعتزاز بينما وجهي تلفه سحابة حزينة من الكآبة . والواقع ان بيني وبين زوجتي اختلافات وفوارق كثيرة . ولكن ما من شيء كان يحز في قلبي كالاختلافات التي بيننا من ناحية محيط الاهل والاصدقاء. فقائمة زوجتي تحمل القابا ضخمة : البارونة شبلنج (بتشديد الباء) ، والكونت درزاي تشرتو فشنوف .. وزمرة كبيرة من الاسماء الرفيعة الارستقراطية . في حين تخلو قائمتي من الالقاب بالمرة . مجرد عم كان مفتشا في السجون ثم احيل على المعاش ، وابنة عم ترتزق من تفصيل الملابس ، ورفاق من الخاملين ليس فيهم شخصية واحدة لامعة . فهذا بلكوف مثلا مجرد تاجر بسيط .. وجعلني هذا احس بشيء من المرارة ، ورايت تحاشيا للعار ان من الخير تخطي زيارة الاصدقاء حتى لا احمل نفسي مزيدا من المنغصات والمتاعب . ولعله لا حاجة لي ايضا الى زيارة ابنة العم . غير انه كان يتحتم علي زيارة عمي والتاجر فقد اقترضت من الاول شيئا من المال لتسديد بعض نفقات الزواج ، كما انني مدين للثاني باثاث البيت .

واخذت على سبيل التمهيد اهون مقدما على زوجتي زيارة عمي قائلا : سنصل بعد لحظة يا عزيزتي الى بيت عمي بوبكن . انه من عائلة قديمة عريقة ، وقد كان احد عمومته مطرانا كبيرا .. ولكنه رجل شاذ خمول يعيش كالخنزير. اعني عمي بوبكن يعيش كالخنزير. اننا سنذهب معا لزيارته فتجدين بذلك فرصة للضحك .. يا له من غبي شاذ .

وتوقفت العربة خارج بيت صغير ذي ثلاث نوافذ يبدو خشبها شاحبا عتيقا . وهبطنا من العربة واخذنا ندق الجرس .. فسمعنا نباح كلب ثم صوت يردد مؤنبا : انتظر ، لعنة الله عليك ! واعقب ذلك هرج ومرج . واخيرا فتح الباب ودخلنا الى قاعة البيت .

فالتقينا بابنة عمي جاشا وهي صبية صغيرة متسخة الانف كانت تضع شال امها على كتفيها وتظاهرت بانني لا اتذكرها . واتجهت الى مشجب للملابس يتدلى منه معطف فراء لعمي ، وبنطلون وقميص لا ادري لمن هما ، فعلقت به معطفي .. ثم مددت بصري في ارجاء حجرة الجلوس ، فاذا بعمي يجلس الى المائدة بقميص النوم ، وقدماه عاريتان الا من نعل خفيف . وتبدد الامل الذي كان يراودني وهو ان يكون منفيا عن البيت . وكان يمسك بيده قطعة سلك يحاول ان يستخرج بها قشرة ليمون من زجاجة فودكا . وكان بادي الانهماك كأنه احد كبار المخترعين .. وما وقع بصره علينا حتى استولت عليه الحيرة فسقط السلك من بين اصابعه ، وراح يجمع اطراف قميصه ، وخرج يهرول من الحجرة صائحا :

ـ ساحضر حالا !

« لقد هرب » .. قلتها ضاحكا ولم احاول ان ارفع بصري الى عيني زوجتي استحياء وخوفا .

الا يضحك هذا يا سونيا ؟ انه غريب جدا .. انظري الى الاثاث ، هذه مائدة لا تكاد تستقر على ارجلها ، وهذا بيانو قديم ، وساعة حائط كوكو عتيقة .. وكأنهم اناس من قبل التاريخ ، لا يعيشون في الحاضر ..

وسالتني زوجتي وهي تتطلع الى عديد الصور المعلقة على الحائط في غير عناية او ترتيب ، ما هذا الرسم ؟

ـ هذا هو القديس صورافيم يطعم دبا قرب صومعته وهذه صورة قديمة للمطران . انظري انه يحمل وسام القديسة آن .. رجل رفيع المقام .. (ونفخت انفي) .

ولم اشعر بنفور كهذا الذي شعرت به من جراء تلك الرائحة الكريهة. مزيج من رائحة الفودكا والبرتقال الفاسد، وزيت التربنتين الذي يستخدمه عمي لابادة الحشرات ، وطحين البن ، جميع تلك الروائح قد اختلطت معا وانتشرت في جو المكان . ثم اقبل ابن عمي ميتيا يحك قدميه على الارض حكا .. وهو تلميذ صغير يروعك منه راسه الذي يبرز منه اذنان كبيران . ولا شك انه انما اقبل اذ طلب اليه اشاعة بعض النظام في الحجرة ، ولهذا راح يجمع قشر البرتقال ، ويسوي وسائد الكنبة في مكانها ، ويمسح بطرف كمه الغبار الذي يعلو البيانو ثم سرعان ما غادر المكان .

وبعد لحظة اقبل عمي وهو يحكم وضع ازرار سترته: ها انذا .. اخيرا ، ها انذا ! كم انا مسرور .. مسرور للغاية ! هيا اجلسوا ! حذار ان تجلسوا على الكنبة ، فرجلها الخلفية مكسورة ! تفضلي يا سنيا (هكذا نطق سونيا) !

وجلسنا .. وشملنا الصمت بعض الوقت . فاخذ عمي بوبكن يفرك ركبته بكفه ، واستولت الحيرة علي ، وتحاشيت النظر الى زوجتي .

واشعل عمي سيجارة (وهو يدخن السيجار كلما الم به ضيف) .

وبدأ حديثه : اذا ، الان قد تزوجتما .. هذه هي المسالة .. شيء جميل . معك الحبيب والحب والغرام.. وعما قريب بعد ان يرزقكم الله بالاولاد تزيد اوجاعكم بطلباتهم ، هذا يريد حذاء ، وهذا في حاجة الى بنطلون ، ولاقساط المدارس .. شكرا لله ! ان زوجتي لم تنجب عددا كبيرا من الاولاد . كما ان اكثرهم توفي حال ولادته !

وحاولت ان اغير موضوع الحديث فسالته : كيف حالك يا عمي ؟

فاجابني : الحمد لله يا ولدي . بالامس كنت خائر القوى طريح الفراش .. صدري ينوء بالسعال ، واطرافي ترتعش ، وحرارتي مرتفعة .

فقالت زوجتي : خذ قرصا من الكنين ، واسترح وهدىء من روعك .

فقال : ولكن كيف تهدأ نفسي ؟ هذا الصباح ، طلبت ازاحة الثلج من عتبة الباب والسقيفة ، فلم يفعل احدهم شيئا . اولئك الشحاذون لم يحركوا اصبعا واحدا . ليتني اقوى على ذلك . آه انني خائر القوى ..

وازدادت حيرتي ، ومسحت انفي بصوت عال .
ولكن عمي راح يتطلع الى النافذة دون أن يرق لحالي، واستمر في حديثه عن ازاحة الثلج وعن اعيائه ، ثم قال : ربما يكون بسبب حمام البخار ، فانا اذهب الى الحمام العام يوم الثلثاء . واظل في المغطس نحو ثلاث ساعات .. ولعل هذا ما يزيد من اوجاع مفاصلي . ان الاطباء يزعمون ان حمامات البخار لا تفيد الصحة .. هذا خطأ يا سيدتي ، لقد اعتدت عليها شخصيا منذ صباي اذ كان ابي يدير حمامات مدينة كييف .. كنت احيانا اظل النهار كله في المغطس .. وعلى الاخص لانني لم اكن ادفع عن ذلك اجرا.

ولم اطق صبرا على ذلك . فنهضت وبدات اهمس بكلمات التوديع . فدهش عمي لذلك ، ومسك باطراف كمي وتساءل : فيم كل هذه العجلة ؟ الى اين ؟ انتظر لحظة ، بعد قليل تحضر عمتك فنتناول سويا بعض الطعام والشراب . عندنا لحم مقدد ، وقد خرج ميتيا لشراء بعض السجق . فيم هذه الكلفة حقا ! انتما ببساطة سنوتي وسنيا . وبهذه المناسبة ، لماذا لم تطلبي الى جاشا اعداد ثوب زفافك . لعلك لا تعلمين يا سيدتي ان ابنتي تشتغل بصناعة الثياب . علمت ان ستانيد هي التي اعدت ثوبك ، انها على كل حال ليست في مرتبة جاشا ، والاهم من ذلك انها كانت ـ اكراما لك ـ تتقاضى اجرا يقل بكثير عن ستانيد.

لست اذكر تماما كيف ودعت عمي وكيف اتجهت صوب العربة .. لقد احسست ان الارض تميد تحت قدمي واني كنت في حال مهينة ، وتوقعت في كل لحظة ان تسخر زوجتي مني .

يا لله ! ها نحن نتجه الى مسكن التاجر بلكوف . رباه الى اي هاوية نسير واي ريح من المذلة تعصف بي . آه ليتنا نستطيع التخلص منه سريعا ، الى الجحيم بهم جميعا ! اية مصيبة هذه . لست اعرف جنرالا واحدا . انني أعرف فقط كولونيلا احيل على المعاش يشتغل بنشر الكتب ! آه كم انا تعيس غير محظوظ !

وقلت لزوجتي بصوت حزين : اعذريني يا سونيتا (سونيا على سبيل التدليل) لذهابي بك الى عمي .. كنت اظن انك ستجدين شيئا مضحكا ، وتتعرفين على عينة من الشذوذ . ولا جناح علي اذا انتهى الحديث هكذا بذيئا منفرا .. انني آسف .

ونظرت زوجتي الي في استحياء، وتبينت ان مخاوفي قد تحققت . اذ فاضت الدموع من مآقيها ، وعلت خديها حمرة من الخجل او الغضب ، وتعلقت اصابعها بمقبض نافذة العربة .

واكتويت باتون من الحمى ، وعصفت بي رعشة من الخوف .. هذه هي بداية العار ! وظننت اطرافي جميعا قد استحالت الى رصاص بارد فزفرت زفرة نائحة قلت بعدها : على كل حال ، لست انا الملوم يا سونيا ! انه لسخف منك حقا ! طبعا انهم خنازير بذيئة منفرة ، ولكن لا ذنب لي في كونهم اقاربي .

وتنهدت سونيا ثم تضرعت الي بعينيها قائلة :
اذا لم تكن معجبا باقاربك ، فانت بالتاكيد لن ترضى عن اقاربي . انني اشد منك خجلا ، بل واحمل عبئا ثقيلا على صدري .. يا حبيبي العزيز بعد لحظة ستسمع البارونة شبلنج (بتشديد الباء) تحدثك عن مساعدتها لنا في الايام الماضية . وتخبرك بان امي كانت تشتغل مدبرة لبيتها ، واننا ـ امي وانا ـ نجحد جميلها ، بعد ان اساء اليها الزمن .. انني ارجو الا تصدقها او تعيرها اذنا صاغية فالعجوز التتارية كذابة .. وانا اقسم لك باننا نمد اليها يد المساعدة وفي كل موسم او عيد نبعث اليها بقمع من السكر ورطل من الشاي ..!

واحسست بالبرودة تزول عن اطرافي جميعا .. واذا بكياني كله يستعيد الحرارة والدفء فصحت : انت جادة يا سونيا . احقا تجدين ؟ هل تجودون على البارونة بقمع سكر ورطل شاي !.. يا لله . واستطردت تقول : وعندما تلتقي بزوجة الجنرال جيركوف . لا تسخر منها يا حبيبي . انها تعسة كل التعاسة ! واذا وجدتها تبكي وتنوح طوال الوقت وتتحدث لغوا تافها ، فسبب ذلك أن الكونت درزاي تشرتو نشنوف قد اغتصب ثروتها . ستشكو اليك حالها وتندب حظها التعس ، وستطلب اليك ان تقرضها بعض المال ، ولكن حذار ان تعطيها شيئا .. وقد يكون في ذلك خيرا لو انها ستنفقه على نفسها، ولكنها ستعطيه للكونت.

يا حبيبتي .. يا ملاكي !
وبلغ بي الفرح اشده فانهلت على زوجتي بسيل من القبلات . يا بطتي الصغيرة !.. هذه مفاجاة سارة حقا ! واذا قلت لي ان البارونة شبلنج تمشي في الطريق عارية لازددت نشوة وفرحا ! هات يدك الحلوة !

وفجاة احسست بالاسف اذ رفضت دعوة العشاء في بيت عمي اللحم المقدد والسجق والفودكا ، ولانني لم اعزف على البيانو العتيق .. ثم تذكرت ان آل التاجر بلكوف يقدمون للضيوف صنفا فاخرا من البراندي ولحما طريا.

فصحت باعلى صوتي محدثا الحوذي : هيا اسرع الى بلكوف !

حسن السعران



الحب الوان

هذا لون منها

للكاتب الروسي تشيخوف

■ كنا على مائدة الغداء عند مضيفنا عندما اقبل الطاهي يسألنا عما نعتزم تناوله للعشاء . وكان الطاهي متوسط الطول ، منتفخ الوجه ، صغير العينين ، حليق الذقن . وكان شارباه يبدوان وكأنهما انتزعا نزعا من جذورهما. وأخبرنا مضيفنا أن((بيلاجيا))كانت متيمة بهذا الطاهي،ولكنها رغبت عن هذا الزواج منه لكونه سكيرا وذا طبع حاد ، على انها لم تعارض في العيش معه . ثم انه كان تقيا محبا للصلاة ، فلم تكن معتقداته الدينية تخوله العيش عيشة بوهيمية ، فألح عليها بأن تتزوجه ، وأبى ان يرضى بأقل من هذا ، ولكنه عند اسرافه في تعاطي الخمر كان ينهال عليها ضربا فتختبىء في اعلى الدرج باكية ، بينما يتصدى الخدم للدفاع عنها .

وهكذا ابتدأنا نتكلم عن الحب .

وتساءل مضيفنا :

كيف يولد الحب ؟ ولماذا لا تحب ((بيلاجيا)) شخصا آخر اقرب الى معتقداتها ومزاياها ؟ ولماذا احبت الطاهي ذا الأنف البارز ؟ والى اى حد تكون السعادة الشخصية مبنية على الحب ؟ كل هذا مجهول ، فيحق للفرد ان يعتقد فيه ما يشاء، انه الى الآن لم تُعرّف سوى حقيقة واحدة عن الحب لا يتطرق اليها الشك ، ألا وهي ان الحب عبارة عن غموض عظيم ، وكل ما يكتب او قيل عنه انما هو محض افتراض . والتفسير الذى ينطبق على حالة واحدة لا يمكنه أن ينطبق على عدد من الحالات الاخرى . ومن رأيي انه يجب تفسير كل حالة بمفردها دون تعميم . ونحن ، معشر المثقفين ، نخص هذه الأسئلة التي لا جواب



عليها بالاهتمام ، فالحب يوحي بالشعر ويحاط بهالة من الرياحين .

وبدا على مضيفنا وكأنه يريد ان يقص علينا قصة ، فهؤلاء الذين يحيون حياة العزلة يرغبون دائما فى الافصاح عن بعض ما تكنه نفوسهم .وكنا نشاهد من خلال النافذة السماء الرمادية اللون والأشجار المبللة بالمطر ، وفى مثل هذا الجو لم نستطع الخروج ، ولم يكن هناك ما يشغلنا الا ان نقص القصص او ان نصغى اليها .

ابتدا مضيفنا قصته بقوله : ما ان انهيت دراستى فى الجامعة حتى استقرت بى الحال فى احدى القرى وعملت فى الفلاحة زمنا طويلا . ومع انى كنت كسولا بحكم تربيتى الا اننى اميل الى الدراسة بحكم المزاج ، وكان على الأرض التى آلت الىّ دين كبير ، وبما أن أبى كان مثقل الكاهل بالديون لانفاقه الأموال الطائلة على تعليمى ، صممت على ان لا اتخلى عن الارض الا بعد سداد الدين. وعولت على هذا وبدات العمل.

واقول معترفا انه كان يخامرنى شيء من عدم الرضا ، فلم تكن الأرض تنتج محصولا وافرا . واشتغلت بكد لا اعرف دعة ولا استشعر راحة حتى اعترتْ جسمى الآلام . وكان يخيل الىّ فى بادىء الأمر انى استطيع التوفيق بين هذه الحياة المضنية الشاقة وبين حسّى المرهف،الا انى وجدت بعد ذلك أن هذا من الصعوبة بمكان .

وبعد مضى وقت قصير انتخبت قاضيا للاصلاح والصلح بين الناس ، فترتب علىّ ان اذهب الى المدينة وان اشترك فى اجتماعات الحكام . وكنت دؤوبا على كسب الأصدقاء ، وكان اقربَ معارفى الى قلبى واحبَّهم الىّ نائبُ رئيس المحكمة ذو الشخصية الساحرة ، وحدث هذا التقارب عقب

قضية مشهورة تتعلق ببعض المتفجرات ، وقد استغرقت التحقيقات الأولية يومين كاملين واخذ التعب منا كل ماخذ . وما لبث أن نظر الى نائب الرئيس وقال : « تعال معي للعشاء » .

وكانت الدعوة غير متوقعة،فقد كنت اعرفه معرفة سطحية ، ولم تتعد معرفتنا حدود الرسميات ، وعلى كل حال فقد ذهبت الى غرفتي في الفندق حيث استبدلت ملابسي وذهبت للعشاء . وهناك في بيته كان من نصيبي ان اقابل « انّا » زوجته، وكانت حينئذ صغيرة السن ، لم تتجاوز الثانية والعشرين ، وكانت قد رزقت ولدها البكر منذ شهور ستة . انه ليصعب عليّ الآن ، بعد مضي هذه المدة الطويلة ، أن احدد المزايا الفائقة التى كانت تتمتع بها ، وما الجاذب الذي جذبني اليها انذاك ، فقد كانت امراة يافعة ساحرة ، ممشوقة القوام ، ذكية الفؤاد ، لم اشاهد مثيلا لها من قبل ، وقد احسست في الحال بالفة وصداقة بيننا كانني كنت شاهدت ذلك الوجه وتينك العينين النجلاوين البراقتين منذ دهور .

وما فتىء الزوجان يلحان عليّ في أن استزيد من الاكل والشرب . وقد لاح لي من سلوكهما انهما على احسن حال واتم انسجام ، فالقهوة عملاها سويا ، كما لاحظت انهما يفهم بعضهما بعضا من نصف كلمة ، الامر الذي جعلهما يحبان الضيوف. وبعد العشاء عزفا معا على البيانو ، وبعد هذا غادرت منزلهما بعد ان ارخى الليل سدوله .

بعد ذلك قضيت اسبوعا كاملا في الريف ، ولم يكن عندي متسع من الوقت لافكر في شؤون المدينة ، ولكن بقيت لواعج ذكرى تلك المراة الرشيقة ذات الشعر الاشقر تجمح بذاكرتي طوال الوقت . وبالرغم من محاولتي أن لا افكر فيها ، ظل ظلها الخفيف جاثما على قلبي .

وفي اواخر فصل الخريف اقيمت حفلة خيرية على مسرح البلدة ، وحدث في فترة الاستراحة ان دعيت الى مقصورة الحاكم . واذا (بانّا) هناك جالسة الى جوار امراة الحاكم ، كانت ما زالت على ما هي عليه من جمال اخّاذ وعينين دعجاوين ، وسحر ياخذ بمجامع القلوب ، ولم يفارقها ذلك الشعور بالالفة والقربى اليّ . وبعد ان جلسنا فترة ، ذهبنا الى ردهة المسرح .

قالت : انك اكثر نحولا من قبل ، فهل كنت مريضا ؟

ـ اجل كنت مصابا بالروماتزم في ذراعي ،وفي الطقس الماطر لا استطيع النوم .

ـ لكن مالي اراك كاسف الوجه ، لهيف القلب؟ انك في مقتبل العمر . وعند تناولك العشاء معنا كنت تبدو صغير السن ، كثير الثقة ، وكنت ممتلئا حيوية ، وتحدثت كثيرا ، واهتممتُ بك اذ ذاك ، وفي الحقيقة اعجبت بك ، وانا اقول هذا على سبيل الاعتراف ، ولست ادري لأي سبب كانت ذاكرتي دائمة التفكير فيك خلال الصيف ، وعندما كنت استعد للقدوم الى هنا اليوم ، خيل اليّ انني سوف اراك .

ثم اضافت مبتسمة عن ثغر نضيد : انما اليوم فانت مكروب النفس ، وهذا مما يجعلك تظهر اكبر سنا مما انت عليه .

وفي اليوم التالي تغديت معها ومع زوجها في بيتها . وعقب الغداء ذهبا الى بيتهما الريفي وذهبت معهما . ثم عدت برفقتهما الى المدينة . وعند منتصف الليل شربت الشاي معهما في جو بيتيّ هادىء ، بينما اخذتْ النار تتوهج ، ودابت الام اليافعة على الذهاب لتفقد ابنتها النائمة .

ومن ثمّ كنت ازورهما كلما سنحت لي الفرصة للذهاب الى المدينة ، وقد الف كل منا الآخر ، حتى كنت ادخل البيت بدون استئذان وكاني احد افراد العائلة . وكنت كلما حضرت تسالني وقد ارتسم على وجهها القلق : لم تاخرت ؟ هل وقع لي حادث ما ؟

وكانت عيناها ، ويداها الناعمتان ، ولباسها البيتي،وطريقة تصفيف شعرها وصوتها وخطواتها، تخلق في اجواء نفسي شعورا غير عادي،وكنا نتحدث معا الساعات الطوال ، أو كنا نصمت ، او كانت تعزف على البيانو .

واذ كانت حياة الزوجين خالية من المتاعب والهموم ، رغبا في التقرب اليّ فاذا لم احضر الى المدينة فسرعان ما يدور بخلدهما انني مريض أو ان عارضا ما المّ بي ، وكانت تبدو على الاثنين علامات الانزعاج . ولشد ما كانا ياسفان على ان رجلا مثقفا مثلي ، يتقن لغات كثيرة ، وجب عليه ان يعمل بجد في الريف ، وان يشعر بثقل الحياة، بدلا من ان يتفرغ لعمل ادبي أو علمي.وكان يخيل اليهما انني شقيّ ، وانني انما اتحدث او اضحك أو اتناول الطعام لكي اخفي كروبي وآلامي .وحتى

فى أثناء اللحظات البهيجة التى كنت سعيدا فيها حقا كنت احس بان أعينهما تتفرس فىَّ ، وعندما كنت حزينا مهموما كانت حالتهما تبدو ايضا اكثر حزنا منى انا .

ولدى اوبتى الى بيتى فى الريف ، كان شقائى لا يفوقه شقاء . ففى البيت ، وفى الحقول ، وفى مخزن الحبوب ، كانت تباريح الحنين تهزنى ، وتتراءى « اتّا » فى خيالى . كنت احاول ان افهم كنه اللغز فى زواج امرأة صغيرة السن ،يقظى الحس ، جميلة الطلعة ، برجل عادى لا يمتاز عن غيره من الرجال ، ويكاد يكون متقدما فى السن ، فقد كان زوجها قد ناهز الاربعين ، وكنت احاول فهم هذا اللغز وما يتبعه من انجاب الأطفال لمثل هذا الزوج ، وكنت انقصى كنه هذا الرجل العادى المسالم الذى ما انفك يوقن فى حقه من السعادة فى انجاب ذريته منها ، وكنت حائرا فى فهم غموض هذه الحياة التى قضت بان تتعرف « اتّا » عليه قبل ان تتعرف بى ، ولم ارادت الحياة أن تحدث هذه الغلطة الفظيعة .

ولدى ذهابى الى المدينة كنت أدرك من نظراتها انها كانت تترقب مجيئى ، وكانت احيانا تعترف لى بشعور غريب يخالجها طوال ذلك النهار الذى تتوقع مجيئى فيه . وبالرغم من اننا كنا نتحدث فترات طويلة الا أن كلا منا أخفى حبه عن الاخر ، فقد كنا نخاف من أى شيء من شانه كشف النقاب عن حبنا . وقد خيل الىَّ أنه من المستحيل ان يكون حبى الوثيق وحنانى البالغ السبب فى تحطيم سعادة زوجها واولادها وجميع من فى الدار ، تلك الدار التى وثقت بى واطمانت الىَّ . لا شك فى انها كانت قد ترضى بالفرار معى، ولكن الى اين ؟ وكم من الوقت ستستمر سعادتنا بعد ذلك ؟ وماذا سيحصل لها اذا ما مرضتُ ، او اذا توفانى الله ، او اذا فترت علاقتنا ؟

من الظاهر أن نفس هذا الاتجاه من التفكير كان يجول فى خاطرها . فقد فكرت فى زوجها واطفالها وامها التى ما كانت تنظر الى زوجها الا كابن من ابنائها . ثم الا يكون حبها لى مثار ازعاج لحياتى المليئة بالاضطراب ؟

ومرت الأيام تباعا ورزقت « اتّا » بطفلين آخرين وفى زياراتى المتكررة كنت أقابل بالترحيب الحار والابتسامات التى اشاهدها مرتسمة على وجوه الأطفال ، وقد كانوا يلتفون حولى وقد غمرهم الفرح ، وقد جهلوا بالطبع ما كان يعتلج بخاطرى، لا شك انهم خيل اليهم انى انا ايضا سعيد مثلهم. ونظر الجميع الى نظرة تقدير واعجاب. وما برحت « اتّا » تذهب بصحبتى الى مشاهدة الروايات المسرحية،فنتمشى طوال الطريق الى المسرح ونجلس جنبا الى جنب . كنت اشعر فى هذه اللحظات انه يستحيل على احدنا ان يعيش دون آخر ،ولكن بعد كل لقاء كان كل منا مضطرا لان يودع صديقه وداعا حارا كان شيئا لم يكن ، ولا يعرف الا الله وحده ماذا كانت تلوك الالسن عنا ، لكن لم تكن هناك كلمة واحدة صحيحة فيما كانوا يقولون .

وفى المراحل الاخيرة التى شهدتْ حبنا ،اكثرتْ من زيارة امها واختها . لقد كانت اخذت تقاسى آلام يأس مريرة ، وبدأت تدرك انها اخفقت فى حياتها ، وعصفت بها ثورة جامحة ، وضعفت أعصابها ، فشرع الاطباء فى معالجتها .

على انه من الغريب انها فى حضور الغرباء كانت تبدو نافرة منى حانقة على ، تصر على معارضتى فى كل ما اتفوه به . واذا ما خضت جدالا مع احد ، كانت دائما تميل الى تاييد وجهة نظر خصمى .

لست اعلم اذا كان من حسن الحظ او من سوئه أن تكون هناك نهاية آجلة او عاجلة لكل امر. فقد حان زمن الفراق بتعيين زوجها حاكما على احدى المقاطعات النائية ، وقد ترتب عليهما ان يبيعا الاثاث والخيول والبيت الريفى ، وبدا التاثر عميقا على كل من شاهدهما يخرجان من الحديقة للمرة الأخيرة . وهنا ادركتُ انه يجب علىَّ ان اودع « اتّا » .

كان قد نصحها الأطباء بالذهاب الى شبه جزيرة القرم للاستشفاء ، وقد احتشد جمهور كبير ليودعها . وبعد ان ودعتْ زوجها واطفالها ، ولم يبق سوى دقيقة واحدة يبارح بعدها القطار المحطة . اندفعتُ الى كبينتها لأودعها .

كان المشهد مؤثرا .

وشرع القطار فى التحرك ، فذهبتُ الى كبينة مجاورة كانت خالية ، وجلستُ فيها جلسة من التاع فؤاده واعتلج الهم فى قلبه .

ووصل القطار الى المحطة التالية ، فنزلتُ من القطار ومشيتُ نحو بيتى الريفى . ■■

تعريب : عيسى المصو

فانكا ..

للكاتب الروسى تشيكوف

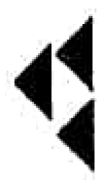
لم يذهب « فانكا جوكوف » الى فراشه ليلة عيد الميلاد . فبعد أن ذهب سيده وسيدته وأتباعهما لحضور قداس منتصف الليل ، اخرج الصبى ـ الذى لم يتجاوز التاسعة باكثر من ثلاثة أشهر ـ محبرة وقلما ذا ريشة صدئة ، وبسط قطعة مكرمشة من الورق . وبعد أن تلفت الى الأبواب والنوافذ عدة مرات فى خوف ، أطلق زفرة متهدجة ، ثم ركع امام المقعد الخشبى الذى بسط عليه الورقة ، وشرع يكتب :

« جدى العزيز قسطنطين مكاريتش :

« انني أكتب لك رسالة ، وأتمنى لك عيد ميلاد بهيجا ، راجيا لك من الرب كل خير .

« فليس لى اب او أم ، بل أنت الوحيد الذى بقى لى » .

وتحول ببصره الى النافذة المعتمة ، التى كانت تعكس ضوء شمعته ، وراح يتمثل جده فى خاطره. كان الجد يعمل حارسا لدى آل جيفاريوف .. ومع أنه كان قصيرا ، الا أنه كان شيخا موفور الحيوية والنشاط ، فى حوالى الخامسة والستين من عمره ، وكان وجهه متهللا يضحك دائما ، كانت



عيناه حادتين . وكان ـ في النهار ـ ينام في مطبخ الخدم ، ومن عادته ان يتبادل النكات مع الطاهية.

اما بالليل ، فكان يلتف في معطف فضفاض من جلد الغنم ، ويطوف بالضيعة وهو يهز مقرعته . وكانت الكلبة « بيرّوني » العجوز ، والكلب المسمى « ريجلز » يتبعانه وقد نكسا راسيهما . كان الكلب يبدي الاحترام ومظاهر الولاء بدرجة بالغة ، ويرمق اصحابه والاغراب بنظرات تفيض ودا ، ومع ذلك فلم يكن طيب السمعة . كان الاحترام والذلة يخفيان فيه لؤما وخبثا .

كان لا احد يبزه في التسلل وراءك ، ثم الانقضاض فجاة على ساقك ، ولا في التسلل الى مخزن الأطعمة المثلجة ، ولا في سرقة دجاجة من فلاح .

ولقد اوشكت ساقاه الخلفيتان أن تكسرا اكثر من مرة ، وكاد يشنق مرتين .. وكان في كل اسبوع يساط حتى يوشك أن يموت ، ولكنها الحياة كانت لا تلبث أن تدب فيه في كل مرة .

وكاني بالجد كان ـ في تلك اللحظة التي يكتب فيها حفيده اليه كتابه ـ واقفا عند البوابة، يمد بصره الى نوافذ الكنيسة ، او يدق الأرض بحذاءيه ، أو يرمي الخدم بالنكات ، ومقرعته في نطاقه ، وقد راح يصفق بيديه وهو يختلج من فرط البرد .. أو لعله كان يقرص الخادم مرة ، والطاهية مرة اخرى . ثم يقدم للمراتين السعوط من علبته .

وكاني بكلتا المراتين تناولتا من سعوطه ،وراحوا جميعا ثلاثتهم يعطسون معا .. حتى الكلبان كانا يتنشقان السعوط ، أما « بروني » فتعطس وتهز راسها وتنصرف مستاءة .. وأما « ريجلز » فان ادبه كان يمنعه من العطس ، فيكتفي بان يهز ذيله.

وكاني بالجو كان هادئا ، عليلا .. والليل مظلم، ولكن بوسع المرء أن يرى القرية ببيوتها ذات الأسقف البيضاء،والاشجار التي يوشيها الصقيع بوشي من فضة .. والسماء كلها مرصعة بنجوم تومض في تألق بهيج ..

★ ★ ★

وتنهد الصبيّ «فانكا» وغمس ريشته في المداد وراح يكتب :

« وبالأمس اكلت علقة » ساخنة ، اذ شدني سيدي من شعري وراح يسوطني ، لانني كنت اهز وليده في مهده ، فغشيتني نومة . وفي الأسبوع الماضي ، امرتني السيدة ان انظف سمكة دخناء جافة ، فبدات بالذيل. فاخذت السيدة السمكة، ورمتني وإياها في صندوق القمامة.والخدم يعبثون بي، ويرسلونني لأسرق لهم شراب الفودكاوالمخللات من سيدي فيضبطني السيد ويضربني باي شيء تصل اليه يده . ولست اجد كفايتي من الطعام . ففي الصباح يعطونني خبزا فقط ، وفي الغداء ثريدا ، وفي العشاء خبزا مرة اخرى.. اما الشاي وحساء الكرنب، فالسيد والسيدة يقصرانهما على نفسيهما . وهما يامرانني بالنوم في مدخل المسكن ، فاذا بكى الرضيع ، فلا نوم لي ، اذ عليّ عندئذ ان اهز المهد . فيا جدي العزيز ، ارحمني بالله ، وخذني من هنا ، وارجعني الى القرية ، فهذا اكثر مما أطيق . انني انحني على قدميك ، وساظل طيلة العمر أدعو الله من أجلك فخذني من هنا قبل أن أموت » .

وزم « فانكا » فمه يغالب البكاء ، ومسح عينيه بظهر يده ، وهو ينهنه ثم واصل الكتابة :

« ساطحن لك السعوط ، وسادعو الله من اجلك ، واذا حدث شيء فاضربني كما يحلو لك . واذا رأيت أن لا مكان لي ، فاني ساستحلف مدير الضيعة باسم المسيح أن يدعني انظف الأحذية ، او احل محل « فِد"كا » صبيًا لراعي الغنم . هذا فوق ما احتمل يا جدي العزيز ، وليس بقائي سوى موت مؤكد لي . لقد فكرت في الهرب الى القرية ، ولكني ليس لي حذاء ، واخشى الصقيع والبرد .. وفي مقابل أن تاخذني ، ساتولى غذاءك عندما اكبر ، ولن أدع أي مخلوق يؤذيك .. وساصلي لتنعم روحك بالطمانينة عندما تموت، كما اصلي من اجل امي .

« ان موسكو هذه مدينة كبيرة ، والبيوت كلها فخمة من النوع الذي يليق لاقامة كبار القوم ، وهنا كثير من الخيل ، ولكن لا يوجد بالمدينة اغنام .. والكلاب كثيرة ولكنها ليست وحشية .

والصفار هنا لا ينطلقون فى الشوارع ، مرددين الاناشيد ، فى عشية عيد الميلاد ، كما انهم لا يسمحون لأحد بالاشتراك فى ترانيم الكنيسة .. وقد رأيت مرة من نافذة متجر ادوات لصيد السمك بكل انواعه .. ورأيت حوانيت بها كل أنواع البنادق ، كبندقية سيد الضيعة عندكم ، ولعل الواحدة منها تساوى مائة روبل.وفى حوانيت القصابين توجد الديكة والبط والأرانب البرية وقد أبى العمال أن يذكروا من أين صادوها .

« يا جدى العزيز ، عندما يقيمون شجرة عيد الميلاد محملة بالهدايا فى بيت سيد الضيعة عندكم ، فخذ كيسا من البندق والجوز واحتفظ لى به فى الصندوق الأخضر.سل السيدة الصغيرة « اولجا اجناتييفنا » ان تعطيك اياه ، وقل لها انه لفانكا » .

★ ★ ★

وانبعثت من فانكا زفرة متهدجة ، وعاد يحملق فى النافذة ، وقد تذكر أن جده هو الذى كان يذهب الى الغابة ليحضر شجرة عيد الميلاد لأسرة سيد الضيعة .. وانه كان يصطحب حفيده معه .كانت مناسبة بهيجة ! .. كان جده يزمجر ، والصقيع يصيت وهو يتهشم ، وكان فانكا - بدوره - يصدر اصواتا مرحة من حلقه . وكان الجد يدخن غليونه قبل أن يقتطع الشجرة ، ويتناول قبضة من السعوط فى تؤدة ، ويلوى قسمات وجهه ليضحك فانكا وكان البرد أخذ ينخر عظامه .. والأشجار الصغيرة تقف جامدة ، مرتقبة لترى من منها التى ستموت . وفجاة ، ينطلق ارنب جبلى كانه السهم ، لا يدرى أحد من أين قدم ، فلا يتمالك الجد أن يصيح : « امسكه !.. يا له من شيطان ! » .

وبعد أن يجتث الجد الشجرة ، كان يجرها الى دار السيد ، سيد الضيعة ، فيعكفون على تزيينها . وكانت السيدة الصغيرة « اولجا اجناتييفنا » - وهى أحب أفراد الأسرة الى فانكا - اكثر الجميع انهماكا . وعندما كانت ام فانكا على قيد الحياة كانت وصيفة فى بيت السيد ،فكانت هذه السيدة الصغيرة تمنح فانكا الحلوى والأطايب .. واذ لم تجد ما يشغلها، علمته القراءةوالكتابة والعد الى المائة ، بل والرقص الايقاعى . فلما ماتت امه ، أحيل «فانكا» الى مطبخ الخدم ليبقى مع جده .. ومن مطبخ الخدم ، الى حانوت الاسكاف .

★ ★ ★

واستانف فانكا الكتابة : « الا تعال يا جدى العزيز . أستحلفك أن تاتى وتأخذنى من هنا . ارحمنى ، أنا اليتيم الشقى،فكل من هنا يضربنى، والجوع يقتلنى، ولا أدرى كيف أشرح لك همومى، فانا لا أكف عن البكاء . ومنذ أيام ضربنى السيد على راسى ، فسقطت على الارض ، وانقضى وقت طويل قبل أن افيق .

ان حياتى تعسة ، أسوأ من حياة الكلاب .. وابعث بتحياتى الى الونيا ، وييجوركا الأعور ، والحوذى .. وسائل دائما حفيدك ايفان جوكوف .. الا تعال يا جدى العزيز ! »

وطوى فانكا الورقة المليئة بالكتابة ، ووضعها فى ظرف كان قد ابتاعه فى اليوم السابق ، ثم فكر لحظة .. وغمس الريشةفى المداد ، وكتب العنوان:

« الى جدى فى الضيعة » .

وحك رأسه مفكرا هنيهة،ثم اضاف «قسطنطين مكاريتش » وسره ان احدا لم يقطع عليه الكتابة .. ولبس طاقيته ، وهرع الى الطريق ولا شىء يكسوه سوى قميص ..

كان عمال حوانيت الجزارين قد أخبروه - فى اليوم السابق - بان الرسائل تلقى فى صناديق الخطابات ، ثم تجمع منها لترسل الى ارجاء العالم فى زحافات جليدية ذات اجراس مجلجلة وحوذية سكارى .

وبعد ساعة ، كان فانكا يغط فى نومه ، وقد اطمان الى الآمال العذبة ورأى فى نومه الفرن فى مطبخ الضيعة - وعنده جلس جده ، مدليا ساقيه العاريتين وهو يقرأ الخطاب للطاهيتين .. والى جوار الفرن ، كان « ريجلز » يهز ذيله .

■■